الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة منتوري قسنطينـــة

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية   الرقم التسلسلي:

قسم الفلسفة   رقم التسجيل :

عنــوان البحث

مسألة الإمامة وتداعياتها العقدية بين الباطنية و الغزالي

مذكرة مقــدمــة لنيــل درجــة الـمـاجستيـر في الفلسفـــة

إعــداد الـطالبة   إشراف الدكتور

حورية حسيني   ساعد خميس

لجنــة المناقشــة

د.إسماعيل زروخي	أستاذ محاضر	جامعة منتوري قسنطينة	رئيــــسا
د. ساعد خميسي	أستاذ محاضر	جامعة منتوري قسنطينة	مشرفا ومقررا
د. نورة بوحناش	أستاذة	جامعة منتوري قسنطينة	عضوا مناقشا

السنــة الجامعـــية:2008 - 2009 م

بــــــسم الله الرحــيم

" قل هل ننبّــئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل
سعيهم في الحياة
الدنيا و هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا "
* صـــــدق الله العظــيم *

الكهف آية (103- 104)

إهداء

إلى من قُدّر له أن يرعى بشغف ولهفة هذا العمل

على أمل أن يسعد معي بقطف ثماره، دون أن تسمح

له الأقدار بذلك..

إلى من تعجلته الموت وهو يرقب نهاية هذا العمل

منتظرا أن يكلل بالنجاح والتوفيق ..

إلى والدي العزيز الذي كان ومازال يرقبني وروحه

هائمة على وجه الأرض في انتظار أن أوافيه بمشيئة الأقدار ..

أهديه هذا العمل المتواضع و أدعو الله تعالى

"أن يتغمده بواسع رحمته "



حسيني

حوريــة

شكر وتقدير

الحمد لله ، حمدا طيبا ، مباركا نشكره الشكر العظيم ولا نستوفي فضائله وحقه فلولا عون الله وتوفيقه لما تمكنا من إنجاز هذا العمل وإنهائه فهو اللطيف الخبير بعباده ، وهو على كل شيء قدير

كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى أستاذي الفاضل " ساعد خميسي" على نصائحه وتوجيهاته ودعمه لـــي برغم مسؤولياته وانشغاله . وكذا لطول صبره عليا ومراعاته ظروفي فألف شكر لك أستاذي

ولا أنسى أن أتوجه بالشكر إلى كل من ساعدني في هذا العمل بمراجع ،أو نصائح إرشادات .. وسهَل علينا إتمام هذا العمل ،وأخص بالذكر كل من الأساتذة " زروخي و دحدوح" والأستاذة "غيوة" وكذا الأستاذ " موسى معيرش " وتوجيهه المستمر لي في بداية مشوارا لبحث العلمي فله منا خالص التحيات .

ولا يسعني في هذا الموضع إلا أن أتذكر فضل الصديقة ورفيقة الدرب "هدى بوفضة " مذللة الصعوبات ، باعثة الأمل في حياتي.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى زملائي في البحث العلمي دفعة ماجستير 2004 وأخص بالذكر " عبد الحليم بلواهم ، وصافي الطاهر سليم أودينة ".كما أشكر مدير متقن القالة " علي عابد " وكل تلاميذي الأعزاء .

وأشكر كل من ساعدني

المقدمة

أسس النبي الكريم محمد ﷺ حكما سياسيا جمع فيه بين السلطة الروحية والزمنية ضمن به حياة كريمة للأفراد الذين عبروا عن أرائهم بحرية وعمت بينهم المساواة فلا يتمايزون إلا بالاجتهاد والكسب. فالسلطان لله و عباده مستخلفين فيه ، وهكذا نظم الرسول ﷺ مراسيم الإمارة واعتمد مبدأ الشورى فكانت إدارته السياسية رشيدة اقتدى بها من بعده الخلفاء الراشدين على نحو ثلاث عقود فما إن مات الرسول ﷺ و انتقل إلى الرفيق الأعلى حتى ظهرت محنة الاقتتال حول الإمامة .

فكان السلطان فتنة المسلمين إذ أوقع الصراع حول هذه الإمامة عددا هائلا من القتلى وتخريبا لا حدود له في البلدان، فلكل سياسـته في تسيير الخلافة و لكل منـاصروه و دعاته. فبعد عهـد النبوة الذي سـاده الاستقـرار والأمن توالت على الـعالم الإسلامي الحروب و الفتن في غياب هذا النبي الذي جمـع ووحد أصناف مختلفة متفاوتة من النـاس . فعادت طوائف كثيرة من المسلمـين إلى دياناتهم القديمة و كانت أشـد بلاءا على الإسلام و المـسلمين فتدهور سير الحياة السياسية عن مقام الحـق الخالص و تساقط نهج الخلافة الراشدة بمقتل عثمان بن عفان و ظهور الفتن الكبرى بين علي الخليفة المنصب من أهل المـدينة ومعاوية المطالب بالثأر لدم عثمان.

و في ظل هذا الصراع حول الإمامة ظهرت تيارات و فـرق بارزة كل تناصر مذهبا و رأيا و من أشهرها أهل السنة و الجماعة و الشيعة و أيضا الخوارج. فلما سنحت الفرصة لمعاوية باعتلاء عرش الخلافة بعد حادثة التحكيم تشييع قوم للإمام علي و ناصروه و اعتبروا حقه مغتصبا والإمامة لغيره باطلة في حين كان للخوارج موقفا خاصا.. لم يجلب نفعا للمسلمين .

و استمر صراع السنيين و الشيعة حول الإمامة قرونا.و هاهو يعود اليوم في عالمنا العربي الإسلامي بشكل اخطر و هو ما يعرف بالحروب الطائفية بين السـنة و الشـيعة لذات السبب القديم ألا وهو الإمامة، وكذا إغراق الحكام وهـم أئمة المسلمين في الـشهوات والبذخ و الانحراف عن نهج الشورى في خلافة المسلمين و تفشي الظلـم بين الأقرباء و المقربين ، فساد الغلو في التشييع و اشتدت حمى الصراع والقتال بين المسلمين بسبب شهوة الملك و ولاية المسلمين .

فكانت الحياة العامة ملتهبة بحمى الصراع السياسي عاكسة لما ساده من فرق متناحرة حول مسألة إمامة المسلمين و حق ولايتهم .

فزيفت الـــقوانين و أولت العقائــد و نقضت العهـــود و أخلفت الـــوعود في سبيل الحصول على الإمـــامة والحرص على عدم خروجها من أيدي الملـــوك أصحابها ، بل التمست في ذلك فتاوى تبارك ذلك الـــواقع باســـم الديـــن . فلم يبقى من الحكم و السياســـة إلا الاسم و ممـــارسة زائفة ، فروح الدين ميتة .

و هذا التركيز على الإمامة و ما جلبه من الصراع و القلاقل أوقع المسلمين في الحروب و التخلف وأضعف كاهل الأمة ، و شغل الناس بزخرف الحياة عن جوهرها الروحي فانهارت حضارتهم ونهض بها الغرب الذين نضجت آراؤهم في السياسة نتيـــجة تأكيدهم على الجانبـــين النظري و التطبيقي. و كادوا للمسلمين كـــيدا فاستغلوا ضعفهم و شـــهوتهم في حب الملك و الشهوات وتلاعبوا بهم كيفما شاءوا وحاولـــوا فصل الديـــن عن الدولة و الجانب الروحي عن المادي و ظهر المبتدعة والمتربصون بالدين و وحدته ،الذين أدركوا نقاط ضعفه و حاولوا ضربه من خلالها ..فكادوا يفلحون في ذلك لولا رعاية الله لعباده و وعده الحق لهم.

وبما أن الفلسفة السياسية للمسلمين قد تمحورت حول مشكلة الإمامة و تداعياتها لا سيما و أن الصراع حولها كان سياسيا و فكريا نتيجة لظروف اجتماعية معينة قسمت المسلمين إزاءها إلى سنة وشيعة كل يناصر صحابيا و فريقا من أصحاب النبي ، فقد ارتأينا أن نتناولها- مسألة الإمامة - كموضوع لبحثنا المتواضع هذا . محاولين بذلك تسليط الضوء على ما دار حولها من صراع بين الشيـــعة والسنة ، كاشفين عن أهم مواطن الاختلاف والتباين عاملين على التقريب بين وجهات النظر المتعارضة موضحين ما فيها من حقائق ثابتة أو ما فيها من غلو و مغالاة أو حتى تزييف وتلفيق.

وفضلنا في هذا البحث عرض نموذج من كل تيار لنتمكن على ضوء ذلك التحديد من الإطلاع على معنى الإمامة و حقيقتها بصورة أخص و أقرب من النظرة العامة في ظـــل المذهب الشيعي ككل أو السني كلـــــه كاشفين عن أهم المسائل الخلافية بينهما.

فمن الشيعة اخترنا الباطنيـــة لما لها من أهمية بالغـــة في الفكـــر الشيعي ، و مـــن السنة فضّلنا أخذ ألدّ أعـــدائها وأهم نقـــادها و هـــو الغزالي ليكون العرض موضوعيا و نقديـــا في الـــوقت ذاته قائما على المقارنة و استخـــلاص العنـــاصر المشتركة و الخلافية، علنا نقرّب بين التيارين السني و الشيعي و نكشف عـــن أصل الخلاف بينهمـــا والذي أساسه الإمـــامة . و نحن هنا قابلنا بين فـــرقة و شخص و لهذا الأمـــر مـــا يبرره فقـــد اقتضى الخـــوض في مســـألة الإمامة لدى الفرقة

الباطنية الشيعية الرجوع إلى حجة الإسلام " الغزالي" الــذي اشتهر بالرد عليـــها و بإبطاله لمزاعمها في أمر إمـــام الزمان المهدي المنتظر. والمعروف أن هذا الأخير تعرضت آراؤه للنقد و التفنيد من قبل أنصار الباطنية..

فلضرورة اقتضاها موضوع الدراسة كان لابد من التعرض لكل من تصـــوري الباطنية و الغزالي لمسألة الإمامة والمقابلة بينهما قدر المتاح.

فكان أنسب عنوان للبحث "الإمامة و تداعياتها العقدية بين الباطنية و الغزالي" والذي حاولنا حصر إشكاليته كما يلي :

– ما حقيقة الإمامة وما هي مكانتها في الفكر الإسلامي؟ وهل يختلف تصورها بين الباطنية و الغزالي؟ ترى أين تكمن أهم مواطن الخلاف و التباين بين كل منهما حولها ؟

و ترتب عن هذه الإشكالية عدد من المشكلات الفرعية أهمها:

– ما حقيقة الإمامة عند الشيعة الباطنية و ما هو موقف الغزالي منهما ؟ و ما العلاقة بين الإمامة والــــــــنبوة ؟

–ما حكم الإمامة ؟و هل من الضروري نصب و عقد الإمامة في الأمة ؟ما هو أساسها النص والتوارث أم البيعة و التشاور؟

–هل الإمام منصوص عليه معصوم يجب أخذ العلم عنه كما ترى الشيعة الباطنية أم أنه مختار، يبايع وفـــق شروط محددة متفق عليها سائر أهل السنة؟

– ما هو التصور الصحيح للإمامة؟ هل هو الوارد لدى الشيعة الباطنية أم لدى الغزالي السني؟

– أيهما الأصح التصور الشيعي للإمامة أم التصور السني لها ؟

– ترى هل سينهي الصراع و الجدل حول الإمامة بإيجاد سبل مشتركة للحوار و التواصل بين السنة والشيعة ؟ و هل سيتم التفكير في تسوية مسألة الإمامة للتوفيق والتقريب بين السنة و الشيعة ؟

– هل مازالت مشكلة الإمامة تكتسي هذه الأهميـــ ة في عصرنا الحاضر أم أنها مرحلة صراع دامية تجاوزهـــا التاريخ ؟ و ما هي إيجابياتها و سلبياتها ؟

وحتى نتمكن من الإجابة على كل هذه الأسئلة و الإشكاليات كـــان لزاما علينا إتباع منهج خاص نعرض فيه حقيقـــة الإمامة لدى الطـــرفين المتعارضين و نوضح تداعياتهـــا و ما يترتب عن التصوريـــن .. و رأينا أن المنهج المنـــاسب لذلك هو المنهج التحليلـــي النقدي مستعينين بالمنهج المقـــارن نظرا للحـــاجة الملحـــة إلى ذلك فالبـــحث يقـــارن بين تصورين للإمامة أحدهما سني

و الأخر شيعي يخالفه الرأي كما استفدنا من المنهج التاريخي للتعرف على سير الأحداث الماضية و ترتيبها و تناسقها الزمني.

و اعتمدنا في بحثنا هذا على مجموعة من المؤلفات الهامة لكلا الطرفين ، منها مصادر الفيلسوف " أبو حامد الغزالي" التي ألفهـــا في مجال الرد على الباطنية ، والتي تبرز فيها آراءه السياسية: كالمستظهري ،المسمى فضائح الباطنية ، الاقتصـــاد في الاعتقاد ،إحياء علوم الدين القسطاس المستقيم ...إضافة إلى رسائله المختلفة التي تتناول الجانب السياسي.

أما مصادر الشيعة الباطنية فكانت قليلة مقارنة مع مثيلاتها لدى "الغزالي" و من أهمها الرسائل لإخوان الصفـــاء ، كتاب النبوءات للسجستاني، السياسة المدنية للفارابي، أصل الشيعة و أصـــولهم لكاشف آل غطاء وشجرة اليقين لعبدان قرمط ...

و نحن مقلون في المراجع الفرنسية الأجنبية نظرا لتوفرها مترجمة باللغة العربية وأغلب هذه المراجع الأجنبية تستند إلى أمهات المؤلفات الإسلامية لتستقي منها روح الفكر الإسلامي.

وكانت الخطة المتبعة لمعالجة هذه الإشكالية مكونة من عدة فصول لكل منها هدف و غاية و تفصيلها كما يلي :

المقدمة :حاولنا أن نبرز فيها أهمية الموضوع و المشكلة المطروحة للنقاش ودوافـــع وأسباب الخوض فيها ومبرراته.

الفصل الأول: تعرضنا فيه لمفهوم الإمامة و مكانتها و الظروف التي ولدتها ، مشيرنا إلى ذلك الصـــراع الذي نشأ بين السنة و الشيعة حولها.

الفصل الثاني: تناولنا فيه التصور الشيعي الباطني للإمامة و ما أنجر عنه من تداعيات كالنبوة والتأويل والقول بالنص و التوارث...

الفصل الثالث :كان نقديا عرضنا فيه موقف الغزالي من الباطنية و الرد عليها مركزين على الخلاف السياسي بينهما حول الإمامة. عارضين فيه رأيه السياسي وموقفه من الإمامة موضحين تصوره للنبوة وعلاقتها بالإمامة مشيرين إلى منهجه النقدي المعتمد في ذلك الرد على الباطنية.

الخاتمة :كانت حوصلة و استخلاص لأهم نتائج بحثنا حاولنا فيها التقريب بين وجهتي نظر مختلفتين مشـــيرين لامتدادات مشكلة الإمامة عبر العصور و عودة الصراع حـــولها من جديد بشكل عنيف محاولين إيجاد حلول لتسوية الوضع و الخروج من دوامة الفتن.

فلكل طالب علم غايات يسعى لتحقيقها و طريقه محفوف بالمخاطر و المصاعب فهو يقطف الـــورد النادر من أعالي الجبال الشاهـــقة، و من أبرز صعوبات بحثنا كانت قلة المصادر الشيعية وتضـــارب ألآراء حول هذه الفرقة الباطنية. و كذلك ما عرفه الغزالي من تقلبات في الأفكار والمواقف فهو يتبنى في موضـــع و يعارض في أخر. و سبب أخر شخصي تمثل فيما عانيناه من صـــعوبات الترجمـــة أضف إلى مرضـــي المفاجئ الذي لازمني الفراش لفترة تملكني فيها اليأس والذي حال دون إتمامي للبحث في الوقت المناسب.

فلولا عون الله و مشيئته و تسامح المشرف بارك الله فيه ونصائحه لما استكملنا هذا البحث. لذا نشـــــكر المولى —عز وجل-أولا و قبل كل شيء ونسأله التوفيق و السداد.

الفصـــل الأول

حقيقة الإمامة و أهميتها في الفكر الإسلامي

المبحث الأول : مفهوم الإمامة و حقيقتها

المبحث الثاني : كيفية نصب الإمامة و انعقادها

المبحث الثالث : أهمية الإمامة و علاقتها باحتدام الصراع بين السنـــة و الشيعـــة

أرسل الله سبحانه و تعالى رسوله محمد ﷺ بن عبد الله برسالة الإسلام إلى الناس كافة باعتبارها خاتمة الرسائل السماوية إلى الأرض ، وأنه خاتم الأنبياء ، و المرسلين . لذلك جاءت هذه الرسالة كاملة شاملة تتضمن العقيدة والشريعة ، وأمور الدين و الدنيا ، و حددت كيفية تسيير المجتمعات وتنظيمها موضحة لما ينبغي أن تكون عليه علاقة الناس مع بعضهم البعض في المعاملات اجتماعية كانت أو اقتصادية أو سياسية... هكذا إذن حملت الشريعة الإسلامية لتأسيس الدول والأمم ونظّرت لطرق وأشكال الممارسات السياسية فيها.

فلم يكن الإسلام مجرد رسالة تحمل دعوة أساسها عقيدة التوحيد بل إضافة إلى ذلك احتوى جملة من القيم و المبادئ الأخلاقية، ودعا إلى تأسيس مجتمع متكامل . محددا من خلال الكتاب و السنة النبوية الشريفة ، مختلف المعاملات الاجتماعية و الاقتصادية ،مرسيا لقواعد سياسية هامة تسير وفقها دولة الإسلام ، من شأنها الحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية واستمرارها و ضمان استقرارها .

من هذا المنطلق حملت طبيعة الإسلام وجوهر الرسالة النبوية السمحاء في مضمونها منشأ الدولة الإسلامية . حيث أرسى ركائزها الرسول الكريم بنشر دعوة التوحيد ، و إقامة الدولة الإسلامية. بدءا من أخذ البيعة والهجرة ، و حكم المدينة فالفتح المبين لمكة. فكان هو الإمام والحاكم المطاع القاضي بأمر الله تعالى.

ثم خلف من بعده خلف ساس الناس و حكمهم وفق سنة الله و رسوله ، و استمر حال إمامة المسلمين بهذا الشكل ، إلى أن صارت الإمامة محل جدل بين المسلمين بسبب ما طرأ عليها من سلوكيات و ممارسات سياسية . حتى تمحورت حولها جل النظريات السياسية والعقائدية و ثارت بسببها الفتن و القلائل.

واحتلت مسألة الإمامة مكانة هامة في الفكر الإسلامي فجل النظريات السياسية للمسلمين تدور حولها. إذ هي من أكثر المسائل الخلافية بين المسلمين ، فقد تعددت فيها الآراء واشتدّ حولها الجدل . فالبعض يراها مرادفة للملك ، باعتبارها حقا متوارثا، بينما يجعلها آخرون خلافة إلهية أساسها الاختيار.. لذلك لم يكن من اليسير الاتفاق حول تعريفها لضبط مفهومها ، نظرا لتشعبها و تباين تصورات الخائضين فيها.

ولن نتمكن من الإحاطة بمعنى الإمامة والكشف عن حقيقتها إلا إذا وقفنا على أهم ما يدور حولها من الآراء و النظريات ، لا سيما تلك التي كان لها بالغ الأثر في التنظير لمسألة الإمامة ووضع اللبنة الأولى لها .

وبناءا على سبق نتساءل : ما مفهوم الإمامة و ما حكمها و كيف تقوم في الأمة ؟ و هل من الضروري نصب إمام في الأمة ؟ ترى ما الغاية من ذلك ؟ ما الذي يميز الإمـــامة عن غيرها من المصطلحات الأخرى كالخلافة والملك ؟ ترى متى ظهر البحث في الإمامة كمســـألة ذات أبعاد متعددة ؟ و ما الدواعي التي أدت إلى البحث فيها و التنظير لها ؟

– ما هي الظروف التي جعلت مسألة الإمامة تكتسي أهمية بالغة في حياة الشعوب الإسلامية ؟وهل للصراع الدائم حولها ما يبرره ؟

المبحث الأول : مفهوم الإمامة و حقيقتها

المطلب الأول : مفهوم الإمامة في اللغة و الاصطلاح

أولا :المدلول اللغوي للإمامة

إن خير سبيل نستقي منه مدلول مصطلح « إمامة » هو القرآن الكريم ، فقد ورد هذا المصطلح في الذكر العزيز الحكيم مرات عده حاملا دلالات معينة مشيرا إلى قضية بعينها مثل قوله تعالى ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾[1] أيضا قوله تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾[2].فأفاد لفظ إمامة هنا معنى الحكم.

و إذا ما بحثنا عن معنى هذا المصطلح في المعاجم و الموسوعات نجد أن اللغويين قد أجمعوا على أن الإمامة تفيد التقدم على الشيء، فيرى "الفيروز أبادي" (**729–817هـ**) في قاموس المحيط أن إمامة من لفظ « أمّهم تقدمهم ، وهي :الإمامة والإمام ما ائتم به من رئيس أو غيره.. و جمعها أيمه ، وأئمة.. فيقال: هذا أيمّ منه و أومّ : أحسن إمامة »[3].

فأفادت الإمامة معنى المتقدم للشيء و هو المعنى ذاته الذي أقرّه من قبله « ابن منظور» (**630–711 هـ**) في لسان العرب ،وجاء فيه عن الإمامة ما يلي « أم القوم ، و أمّ بهم تقدمهم وهي الإمامة، والإمام كل من ائتم به قوم كانوا على الصراط المستقيم أو كانوا ضالين..».

و عليه كان سيـــدنا رسول الله ﷺ إمام أمته و عليهم جميعا الائتمـــام بسنته التي مضى عليـــها «و قد ورد لفظ الإمامة في قوله الله تـــعالى ﴿ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ﴾ [4] . أي قاتلوا رؤساء

1– سورة البقرة آية **124**

2– سورة الأنبياء آية **72**، **73**

3– الفيروز أبادي ، قاموس المحيط ، ج**4** ، لفظ «أمة» دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ، ط **1**، **1999**، ص**9**

4– سورة التوبة آية**12**

الكـــفر و قادهم » [1] بمعنى آخر كان «الإمام الذي يقتدي به.. والقرآن إمام المسلمين والرسول ﷺ إمام الأئمة و الخليفة إمام الرعية وإمام الجند قائدهم» [2].

ومن حيث الاشتقاق اللغوي نلاحظ أن « إمامة » مشتقة من لفظ «إمام » و يراد بهذا اللفظ القائم بالصلاة، مما يشير إلى وجود صلة و ارتباط بين الإمامة و الصلاة . و السر في هذا الربط بينهما يوضحه الأستاذ "محمد صبحي الصالح" بقوله « لا ريب أن اشتقاق الإمامة من هذا اللفظ القرآني « إمام » - بمعنى الذي يؤتم به ويقتدي بعلمه في نظام معين — هو أقرب شيء إلى روح الشرع الإسلامي فيما تطور من نظمه ... » [3].

ويمكننا في هذا الموضع التذكير بقوله تعالى ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ [4] لتأكيد الصلة بينهما إذ غالبا ما ارتبطت الإمامة بالصلاة وكثيرا ما استعمل المسلمون إمام الصلاة للدلالة على مكانة إمام الأمة و قائدهـــــم « و هكذا وقع الربط بين الإمامة في الصلاة و خلافة النبي في سلطنته ».

و يمكن أن نستخلص من خلال هذا المدلول اللغوي ارتباط معنى الإمامة بالصلاة فمكانة الإمام في الأمة باعتباره قائدها و حاكمها و خليفة للنبي على الخلق ، مثل مكانة الإمام في الصلاة يسوس المصليين و يرشدهم فيقودهم و يقتدون به باعتباره خليفة للنبي فيها. أي « إذا استعمل المسلمون لفظتي إمام وخليفة للدلالة على نفس المعنى فإنهم إن أطلقوا لفظ إمام على من يقودهم في صلاتهم وحججهم ويقتدون به في عباداتهم ومعاملاتهم. وإذا أطلقوا عليه لفظة خليفة فإنهم يقصدون من وراء ذلك انه يخلف النبي ﷺ في أمته و يقودها حسب توجيهات الإسلام » [5].

ثانيا : المدلول الاصطلاحي للإمامة

يرتبط الـــمعنى الاصطلاحي للفظ « إمامة » ارتباطا وثيقا بلفظ «خلافة» باعتبـــار أن الإمامة ما هي إلا خلافة و نيابة ، وكلا المصـــطلحين « إمامة و خلافة » يدلان على القائم على شـــؤون

[1] - ابن منظور ، لسان العرب ،ج1، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ،ط3، 1999، ص 213

[2] - المرجع نفسه ص 214

[3] - محمد صبحي الصالح ، النظم الإسلامية نشأتها و تطورها ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1965 ص 290

[4] - سورة الفرقان آية 74

[5] - محسن عبد الناظر ، مسألة الإمامة و الوضع في الحديث ، عند الفرق الإسلامية،الدار العربية للكتاب [د ط] 1983 ص 41

الأمـــة ورعيتهـــا. فهما مترادفان و دالان على نفس المعنى « فالخليفة أو الإمام هو الحارس للشريعة و هو اليد القوية التي توجه فتتبع ، وتنهى فتطاع وتأمر فيستجاب لها »[1] .

ونفهم من ذلك الاشتراك في الاستعمال لكلتا اللفظين ، وجود تقارب كبير وارتباط بينهما من حيث الدلالة باعتبار أن « الإمامة والخلافة لا يجمع بينهما في اللغة أصل واحد إلا أن ارتباطهما في المعنى و الاستعمال الظاهر ظاهر،فكلاهما يفيد تحمل مسؤولية التسيير و القيادة »[2].

فقد أطلق على القائم الراعي لشؤون الحكم في الأمة إماما و خليفة،كما استخدم المسلمون للدلالة على هذا الشخص المتولي لشؤون الخلافة إماما وفي الوقت ذاته فهو خليفة .

وما أوردنا هذا الأمر الملتبس إلا لفك وإزالة ذلك اللبس والغموض الذي يكتنف مسألة الإمامة حيث كثر فيها القيل والقال وعلقت عليها الآمال. لذا آن الأوان لكشف حقيقتها حتى تظهر جلية واضحة للعيان خالية من أي تلفيق أو بهتان، إذ لطالما كانت الإمامة في الإسلام تأخذ معنى الخلافة .

لذا يؤكد " الماوردي" (**370-450هـ**) في "الأحكام السلطانية" أن « الإمامة أو الخلافة ليست إلا عقدا طرفاه الخليفة من ناحية وأولوا الرأي في الأمة من الناحية الأخرى » .

فكانت بذلك الإمامة هي عبارة عن إتفاق بين أفراد الأمة و بالتحديد أولي العزم منها على اختيار من يمثلهم ويخلفهم لتسيير شؤون الأمة ، فأساس هذا العقد الاختيار والقبول « ولا ينعقد العقد إلا بإيجاب وقبول» [3].

مما سبق يمكننا أن نقف على تعريف للإمامة يشمل تقريبا المدلولـــين اللـــغوي والاصطلاحي كما ما يورده " عبد الجبـــار المعتزلي" في شرح الأصول الخمس محددا من خلاله حقيقة الإمام مميزا له عن غيره يقول « أن الإمام في أصل اللغة هو المقدم سواء كان مستحقا للتقديم أو لم يكن مستحقا و أما في الشرع ، ففد جعله اسما لمن له الولاية على الأمـــة و التصرف في أمورهم على وجه لا يكون فوق يده يد احترازا عن القاضي و المتولي فإنهما يتصرفان أمر الأمـــة و لكن يد الإمام فوق أيديهـــم » [4].

---

[1] – محسن عبد الناظر ، مسألة الإمامة و الوضع في الحديث ، ص 51

[2] – المرجع نفسه ص 41

[3] – الماوردي ، الأحكام السلطانية ،دار الكتاب العربية ، بيروت لبنان ،ط3 ، 1999 ، (هامش الكتاب) ص39

[4] – عبد الجبار المعتزلي ، شرح الأصول الخمسة ، ج 2 ، موفم للنشر، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، وحدة الرغاية الجزائر [دط] 1990، ص 380

وإذا كانت الإمامة خلافة نبوية كما سبق و أشرنا من قبل ، فالظاهر من معناها وجود ألفاظ أخرى تشترك معها في هذا المعنى و تتقارب و تستخدم أحيانا كمرادفات لها أو بدائل تدل عليها مثـــل : الخلافة و الحكم و القيادة و الملك و الولاية ..

لكن الخلافة هي الأكثر قربا واستعمالا . فيا ترى لماذا الإمامة هي خلافة ؟ وما معنى هذه الأخيرة ؟ وما وجه الاشتراك بين اللفظتين خلافة وإمامة ؟

المطلب الثاني : الإمامة و الخلافة و الفرق بينهما

ترتبط الإمامة بالخلافة والولاية حتى أننا أصبحنا نستعمل هذه المصطلحات الثلاث للدلالة على معنى الحاكم و المنفذ للسلطة لكن إذا أمعنا في المعنى اللغوي نجد اختلافات بينهم خاصة و أن الخلافة هي الأكثر استعمالا لدى فقهاء الأمة السنيين و الإمامة هي ما تقول به الشيعة بفرقها المختلفة .

معنــى الخــلافــة

أولا : المدلول اللغوي للخلافة

من حيث الاشتقاق اللغوي لمفرد خلافة نجد أن « الخلافة مصدر خلف يقال خلفه خلافة كان خليفة ، و بقي بعده ، والخليفة هو الإمام أو السلطان و الجمع خلائف و خلفاء والخلافة موضوعة في الأصل لكون الشخص خلفا لأحد و من ثم سمي من يخلف رسول الله ﷺ في إجراء الأحكام الشرعية خليفة ».[1]

و عليه كان الخليفة كل من ينوب عن رسول الله في حكم الأمة و تدبير شؤونها فمترلته في الأمة – من حيث التسيير و وجوب الطاعة- كمترلة الرسول ﷺ في المؤمنين إلا أن معنى « الخلافة مقيدة بقوانين دينية شرعية يسوس الخليفة بها أمته ، و يحمل الناس على أحكامها بالنيابة من الرسول ﷺ و من هذا القبيل اشتمال الخلافة على الإمامة »[2] فالإمامة أخص من الخلافة ، و الخلافة أعم منها و أشمل ، و الولاية تفيد معنى الوصاية على المؤمنين و وجوب الطاعة منهم ، و مع ذلك ينادى الخليفة بإمام المؤمنين و وليهم .

هذا كله يفيد أن معنى الخلافة و الإمامـــة و الولاية لا يخرج عن مدلول الإقتداء بالنبي ﷺوالنيـــــــابة عنه في الأمة لتطبيق الأحكام و تنفيذ الحدود و حفظ الأمن فهو خليفة له في أمته .

---

[1] – علي حسن الخربوطلي ، الإسلام و الخلافة ، دار بيروت للطباعة و النشر ، بيروت ، لبنان ، [د ط] 1969 ص 29 ، نقلا عن حسين إبراهيم ، النظم الإسلامية ص 20

[2] –المرجع السابق ص 30

لقوله تعالى ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ﴾ .[1]

كما ورد لفظ الخلافة عدد من الآيات و الصور ليفيد معنى النيابة ، مثل قول الله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ [2] و أيضا قولـــه تعالى لداود ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ [3]

وقال أيضا ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [4] فأفادت الخلافة معنى الإمامة و دلت في معناها على النائب الذي يتولى شؤون الرعية في الأمة خلف لرسول ، الذي هو في الأصل خليفة لله تعالى.

فيتولى مهمة السهر على نشر العقيدة و العدل ولا سيما الأمر بالمعروف ، إذ يؤكد "عبد الجبار المعتـــزلي" في شرحه للأصول الخمسة ، باب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر اتصال مسالة الإمامة بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر لقوله « و قد اتصل بباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الكلام في الإمامة ووجه اتصاله بهذا الباب أكثر ما يدخل في الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر لا يقوم بها إلا الأئمة »[5].

و إذا كانت الإمامة تقترن بالصلاة عند البعض فإن للإمـــام "ابن حزم" (**384-456 هـ**) الإمام الظاهري في ذلك مقولة إذ « يذكر حديثا رواه أبو بكر و قد نطقه النبي ﷺ بمحضر منه و من سعد بن عبادة رأس الأنصار قال أبو بــــكر: علمت يا سعد أن رسول الله قال و أنت قاعد «إن الأئمة من قريش و الناس برهم تبع لبرهم و فاجرهم تبع لفاجرهم » قال له « صدقت»[6] .

و يحاول في هذا الموضـــع أن يميز و يفصل بين الإمامة و الخلافة فيرى بن حزم أن الصلاة لا علاقة لها إذن بالخـــلافة و « ليست عليها علـــة الصلاة ، لأن الصـــلاة جائز أن يليها العربي والمولى والعبد و الذي لا يحسن سياسة الجيـــوش و الأمـــوال و الأحكام و السير الفاضـــلة و أما

---

1 – سورة النور أية **55**

[2] – **سورة الأنعام آية 165**

[3] – **سورة "ص" آية 26**

[4] – **سورة البقرة آية 30**

[5] – **عبد الجبار المعتزلي ، شرح الأصول الخمسة ، ج 2 ، موفم للنشر، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، وحدة الرغاية الجزائر [دط] 1990، ص 380**

[6] – **ابن حزم ، الإحكام**

الخلافة فلا يجوز أن يتولاها إلا قريشي صليبه عالم بالسياسة ووجوهها وأن لم يكن محكما للقراءة وإنما الصلاة تبع للإمامة وليست الإمامة تبعا للصلاة » [1] فالإمامة هي الأصل والصلاة فرع من فروعها بحسب تصور بعض المفكرين كابن حزم الأندلسي .

في حين يضيف "بن خلدون" (**732-808هـ**) تأكيدا جازما يبرز ارتباط لفظتي « الإمامة والخلافة » في تحديده لتعريفهما فيقول « إن حقيقة هذا المنصب أنه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به . تسمى خلافة و إمامة و القائم به خليفة وإمام »[2].

وهذا يدل على أن لهما نفس المدلول مع فارق بسيط في المعنى يوضحه كما يلي « فأما تسميته إماما فتشبيها بإمام الصلاة في إتباعه والإقتداء به ولهذا يقال الإمامة الكبرى، و إما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته فيقال خليفة بإطلاق وخليفة رسول الله »[3] إذ غالبا ما يستعملان — إمامة و خلافة — كمترادفان تحمل كل منهما مدلول الأخرى من حيث المعنى والمهام أيضا « فالإمامة مصطلح يعني الخلافة في الدين وحفظ الرسالة و تبليغهما بحيث يجب
إتباع من يقوم مقامها وهو الإمام على كافة الأمة » [4].

و في الوقت ذاته نلاحظ أن « الخلافة مصطلح يعني الإمامة وهي على قسمين : خلافة صغرى وهي الإمامة و الرئاسة الظاهرية السياسية على الناس ، و خلافة كبرى وهي الإمامة و الرئاسة الباطنية ، وهذه تحققت للإمام علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- »[5] فهما تشركان في كون كل منهما نيابة عن الرسول ﷺ في حكم أمته وتدبير شؤونها.

ثانيا : المدلول الاصطلاحي للخلافة

لا يختلف كثيرا المعنى الاصطلاحي للفظ « خلافة » عن معناها اللغوي فالخليفة هو من يخلف غيره وينوب عنه. وحسب الماوردي « يسمى خليفة لأنه خلف رسول الله عليه الصلاة والسلام في أمته ، فيجوز أن يقال: يا خليفة رسول الله وعلى الإطلاق فيقال الخلـــيفة »[6].

---

[1] – عبد المجيد تركي ، مناظرات في أصول الشريعة الإسلامية بين بن حزم و الباجي ، ترجمة و تحقيق : عبد الصبور شاهين ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت لبنان ،ط 1 ، 1986 ، ص392 ، نقلا عن ابن حزم :الإحكام ،ج7 ص 125

[2] – عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة المسماة ديوان المبتدأ والخبر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ط 1،2004 ، ص232

[3] – المرجع نفسه ص 204

[4] – ممدوح الزوبي ، معجم الصوفية، دار الجيل للنشر و الطباعة و التوزيع ، ط1 ، 2004 ، ص 40

[5] – المرجع نفسه ص 155

[6] – الماوردي، الأحكام السلطانية ص 50

بالتالي فالخليفة هو من ينوب عن الرسول ﷺ ومن يتركه مكانه بعده باعتبار أن «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا» [1] فيتولى الخليفة مهام النبي ويعمل على إتمام دوره فهو نائب عنه .

وهذا المعنى يورده أيضا العلامة "بن خلدون " في مقدمته لقوله « أن حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا ». فالإمامة هي خلافة نبوية نراعي فيها مصالح العباد « فصاحب الشرع متصرف في الأمرين: أما في الدين فبمقتضى التكاليف الشرعية التي هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها ، وأما في سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشري » [2] فالخلافة أو الإمامة تكليف بهذا المعنى وأمانة تستوجب من صاحبها القيام بها على أكمل وجه، لأنه نائب عن النبي .

أما الشيخ الجليل " أحمد بن تيمية" (**661-728هـ**) فركز على وزن الكلمة ليستدل على معناها فقال « الخليفة هو من كان خلفا عن غيره، فعلية بمعنى فاعلة» ، و يضيف الإمام في التوضيح استشهادا بسنة الرسول الكريم إذ «كان النبي ﷺ إذا سافر يقول: اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل » و قال الرسول الكريم ﷺ أن « من جهز غازيا فقد غزا ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا » [3] .

وأخذت الخلافة في جميع الحالات معنى النيابة عن النبي ﷺ واستخلافه ، لكنها الآن ارتبطت أكثر بمصطلح الحكم والحكومة والسلطة والملك..وتداخلت هذه الألفاظ فيما بينها واتحدت وتنوعت التسميات والمصطلحات وسمي القائم بالإمامة أمير المؤمنين ، السلطان الخليفة، الحاكم.. و غيرها من الألقاب الدالة على صفة الحكم و الرئاسة.

و برغم هذا التعدد في التسميات و التنوع في الاصطلاحات المرادفة اللفظ "إمامة" تظل معانيها متقربة مثل « الخلافة والإمامة العظمى وإمارة المؤمنين: ثلاث كلمات معناها واحد وهو رئاسة الحكومة الإسلامية الجامعة لمصالح الدين والدنيا .. » [4].

و قد سمي من أتى بعد رسول الله ﷺ و ناب عنه في حكم أمته بالخليفة حيث تعاقبت الخلافات واحدة بعد الأخرى ، ورغم تغير أسمائها و مسمياتها و طرق ممارستها ، إلا أنها قد عنت جميعها مسألة النيابة عن الغير، ولو عدنا إلى أول من لقب بذلك اللقب في الإسلام بعد النبي

---

[1] – **الماوردي، الأحكام السلطانية ص 29**

[2] – **عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 232**

[3] – **أحمد بن تيمية ، الخلافة والملك ، شركة الشهاب للنشر و التوزيع ، الجزائر ،[دط] ، [دت] ، ص 50**

[4] – **محمد السيد رضا ، الخلافة ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة مصر ط2، 1988، ص17**

لظهر لنا أمر هام يتعلق ببدايات اعتماد ذاك اللقب عند المسلمين « وذلك أنه لما بويع أبو بكر رضي الله عنه وكان الصحابة – رضي الله عنهم- وسائر المسلمين يسمونه خليفة رسول الله ﷺ وبعد موته خلفه في الحكم عمر – رضي الله عنه–واستمر اللقب مع الإضافة إليه « فلما بويع لعمر بعهده إليه كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول ﷺ »[1].

ولما طالت هذه التسميات صار كل من اعتلى عرشا خليفة .. وزعيما للأمة باعتبار « أن الله جلت قدرته ندب للأمة زعيما خلف به النبوة وحاط به الملة ، وفرض إليه السياسة ليصدر التدبير عن دين مشروع و تجتمع الكلمة على رأي متبوع، فكانت الإمامة أصلا عليه استقرت قواعد الملة وانتظمت به مصالح الأمة » [2].

وقد ورد في القرآن الكريم آيات بيّنات توضح مسائل شتى من الإمامة كضرورتها و وجوبها ومكانتها ، منها قـــول الله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [3] أيضا قوله – جل وعلا- ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [4] ، و ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ [5]. وغيرها من الآيات التي احتوت كلمة إمام وأخرى كلمة خليفة » و دلت على اعتمادهما في الحكم الإسلامي كمرادفين أو كدالين على الشخص الذي يسير شؤون الأمة ويتولى السلطة فيها.

فأصبح المعنى المسيطر والمتربع على عرش الإمامة هو الحكم، إذ ساد هذا المصطلح وهيمن على الساحة السياسية. مما دفع بالمفكر "عبد العزيز الثعالبي" إلى القول « أما الإمامة الشرعية فمعناها في الأصل الحكومة أو الحكم وهي ظاهرة اجتماعية بارزة تتكيف بحسب عقلية وقابلية الأمة وفلسفتها ووجهتها في التمدن والرقي أو الجهل والانحطاط » [6] .

و نستنتج مما سبق ذكره أن الإمامة مسألة ارتبطت من حيث معناها بدلالتين هامتين:

الأولى: دلالتها على معنى الحكم والرياسة وجانب السلطة والملك.

أما الثانية: فاقترانها بالنبوة وبذلك التقديس الإلهي والتكليف الرباني فهي خلافة نبوية واستكمال للرسالة الإلهية.باعتبار الإمام خليفة للنبي و متمم لأعماله.

---

[1] –عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص **240**

[2] – الماوردي ، الأحكام السلطانية، مقدمة الكتاب

[3] – سورة البقرة آية **30**

[4] – سورة الأنعام آية **165**

[5] – سورة الفرقان آية **74**

[6] – عبد العزيز الثعالبي ، محاضرات في التفكير الإسلامي والفلسفة ، دار الغرب الإسلامي ، ط**1** ،**1991**، ص **268**

و بناءا على ما سبق ننتهي إلى النظرية التالية في الإمامة حسب استقرائنا لتاريخها الطويل والإطلاع على زبدة آراء المفكرين حولها، مفاده أن نظام الخلافة في الإسلام قد قام على أساس أنه رئاسة عامة في أمور الدين وشؤون الدنيا، نيابة عن النبي عليه أفضل صلاة وأزكى سلام حيث يتولى الخليفة حراسة الدين وسياسة الدنيا ، ولأجل هذه الغاية ، كان للإمامة كل الأهمية و المكانة لدى المسلمين .

المطلب الثالث : حكم نصب الإمامة و أدلته

أولا : حكم نصب الإمامة

إن الفرق الإسلامية على اختلافها وتعددها تقرّ بوجوب الإمامة بل وتتشدد في مسألة تعيين الإمام « والحق أن وجوب الإمامة عند المسلمين جميعا ثبت بالإجماع »[1] و ما ذلك إلا لما احتلته من مكانة هامة تكمل مهام النبوة ،إذ كما سبق و قلنا عنها عند تعريفها « الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع وإن شذ عنهم الأصم»[2].

وقد سارع صحابة رسول الله ﷺ عقب وفاته إلى مبايعة أبي بكر –رضي الله عنه–لخلافة النبي ﷺ وأجمعوا على بيعته لحفظ الأمة، فعلم بذلك ضرورة الإمامة « ثم إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين، لأن أصحاب رسول الله ﷺ عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر – رضي الله عنه– وتسليم النظر إليه في أمورهم، وكذا في كل عصر من بعد ذلك و لم يترك الناس فوضى في كل عصر من الأعصار، واستقر ذلك إجماعا دالا على وجوب نصب الإمام »[3].

فلا يمكن إغفال دور الإمام في حفظ الشرع والذود عنه وما التسريع في نصب إمام خلفا للرسول ﷺ إلا دليل على ذلك.و"بن حزم" يرى إقامة إمام فرضا لازما على المسلمين وأنه لا يحل للمؤمنين أن يبيتوا ليلة وليس في عنقهم بيعة لإمام . وهو ما اتفق عليه الفقهاء المسلمين وما تعارف عليه الناس منذ عهود فيه أن « الأمة الإسلامية واجب عليها الانقياد لإمام عادل يقيم فيها أحكام الله ويسويهم بأحكام الشريعة التي أتى بها رسول الله ﷺ »[4] .

---

[1] – محمد صبحي الصالح ، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، ص 286

[2] – الماوردي ، الأحكام السلطانية ص 29

[3] – عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ص 160

[4] – محمد أبو زهرة ، الإمام بن حزم، دار الفكر العربي ، القاهرة مصر ، [د ط]، [د ت] ،ص234، 235 ، نقلا عن بن حزم ، الفصل في الملل والنحل، ص 78

فالرســــول ﷺ أشد خوفا على أمته وأكثر حرصا على سلامتها بعده وكل ذلك يجعله يشدد على ضرورة طاعة أولي الأمر بعده وعدم الخروج عنهم حتى لا تقع الأمة في الفتنة.

ثانيا: علة ودليل وجوب الإمامة

ورد في القرآن والسنة ما يشير إلى وجوب نصب الإمام وطاعته برعاية مصـــالح العباد وتجنيب الأمة الفتن والقـــلاقل لقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهـــَـا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُـــــولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُـــمْ ﴾ [1] فأولـــياء أمور المسلمين بعد الله – عز وجل– والرسول ﷺ هم أئمتهم وحكامهم ورعاتهم ، فطاعتهم واجبة في غير معصية الـــله لأن الإمام خليفة لرسول الله ﷺ ومستخلف من الله تعالى.

لما ورد في القرآن الكريم من الدلائل المبرزة لذلك ، كقوله – عز وجل – ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ [2] كما قال الله تعالى في حق داود ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾[3] وقال أيضا سبحانه و تعالى في حق آدم – عليه السلام– ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [4]. كما ثبت أيضا أن الرسول ﷺ قال « من مات وليس في عنقه بيعة إمام مات ميتة جاهلية » [5] فلا بد للأمة من شخص مطاع يلزم أفرادها بإتباع الشرع ..

لكن هذا الوجوب أساسه الشرع لا العقل، بمعنى ورد في الشرع تأكيد على تولية أمور المؤمنين من قبل إمام مطاع إذ « أجمع سلف الأمة وأهل السنة و جمهور الطوائف الأخرى على أن نصب الإمام أي توليته على الأمة واجب على المسلمين شرعا لا عقلا » [6] .

فلا يتوقع خلو العالم من إمام يسوس الأمة ، فالشرع والدين واضحان في هذه المـــــسألة لحفظ الثغـــور وكف الفتن ، و عليه « إن إقامة حاكـــم أعلى للدولة في الإسلام – أيا كان لقـــبه– أمر واجب شرعا وعقلا فالشريعة الإسلامية معقولة الأحكام والغايات ولا يتعارض العقل السليم مع أحكامها » [7].

---

1 – سورة النساء ، آية 59

2 – سورة الأنعام ، آية 165

3 – سورة ص ،آية 26

4 – سورة البقرة ، آية 30

5 – رواه مسلم و أحمد

6 – محمد السيد رضا ، الخلافة ص 18

7 – محمد كامل ليلة ، النظم السياسية الدولة والحكومة ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ،[د ط] 1969، ص 436

فما أوجب الإمامة ، هو الشرع و السماع ، لا العقل. نظرا لاختلاف العقول وميلها إلى الزعامة في حين أن الشرع دعا إلى موالاة أولي الأمر وكلفهم بمهام جليلة منها حفظ أحكام الدين، فالحق « أن الإمامة فرض لازم لأن قيام الناس بما أوجبه الله تعالى من الأحكام في الأمور والجنايات والدماء والنكاح والطلاق وسائر الأحكام ومنع الظالم و إنصاف المظلوم وأخذ القصاص يحتاج إلى رئيس فإن الناس لا يصلحون فوضى و لا تقام تكاليف الدين مع هذه الفوضى » [1] فظهر من ذلك أن نصب الإمام في الأمة من الأمور الضرورية لحاجة الناس إلى من ينظم مصالحهم و يرعى شؤونهم.

[1] – **محمد أبو زهرة ، الإمام بن حزم ، ص 234، نقلا عن : بن حزم ، الفصل في الملل والنحل ، ص 78**

المبحث الثاني : كيفية نصب الإمامة و انعقادها

إن وجوب نصب الإمامة يفترض وجود طريقة تنعقد من خلالها، تكون هذه الطريقة مقبولة لدى الكافة غير مبتدعة، توافق ما سار عليه أهل السنة والجماعة ولا تخالف الشرع ولا تناقض ما جاء فيه، وقد كان السلف الصالح يعقد الإمامة لمن تجب له « بالبيعة ». وهي الطريقة المتفق عليها حسب ما وصلنا من الأخبار عن الرسول ﷺ والصحابة الكرام لنصب الإمامة و ثبوتها للمطالب بها .

رغم الاختلافات في كيفية المبايعة ، وإنكار البعض لها.. إلا أن التاريخ السياسي يذكر أن كثيرا من الدول والحكومات قامت لما انعقدت البيعة لأصحابها .

- فما هي البيعة و كيف تنعقد بها الإمامة ؟

المطلب الأول : انعقاد الإمامة بالبيعة و الاختيار

أولا : المدلول اللغوي للبيعة

للإحاطة بالمدلول اللَغوي لمصطلح "بيعة" ارتأينا أن نعود إلى اشتقاقها اللغوي فظهر لنا أن « بيعة مصدر باع وصارت البيعة مصافحة بالأيدي هذا مدلولها في عرف اللَغة ومعهود الشرع » [1].فهي ترتبط بما يقوم به البائع من عهود و عقود رغم ما يفصلها و يميزها عنه باعتماد على مبدأ الإيجاب و القبول مما جعل العلاّمة "بن خلدون" يؤكد على أن عملية البيعة تشبه عملية البيع والشراء .

و يبرر "بن خلدون" موقفه هذا محددا مفهوم البيعة بقوله « اعلم أن البيعة هي العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهد أميره على انه يسلّم له النظر فيأمر نفسه و أمور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره ،كانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيدا للعهد فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري فسمي بيعه » [2] .

و أشهر البيعات بيعة النبي ليلة العقبة عند الشجرة و بيعة الخلفاء..و بمقتضى البيعة يرعى الحاكم مصالح الأمة.

---

[1] – عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة، ص 222

[2] – المرجع نفسه ص 222

ثانيا : المدلول الاصطلاحي للبيعة

البيعة هي العهد الذي بموجبه يتولى المتقدم للإمامة منصب الإمامة فبه يطاع و به يقوم بواجباته وأساسها الاختيار باعتبار أن « الخليفة عند أهل السنة رجل من عامة المسلمين صار اختياره لهذا المنصب لفضله وشرفه وأخلاقه ومقدرته على الاضطلاع بأعباء الحكم إذ لم ينص رسول الله على خليفة » [1].

فكثير من الدول الإسلامية قامت عبر التاريخ بواسطة البيعة ، وما يزال استخدام هذه الأخيرة معمول به رغم تطورها ودخول بعض التعديلات عليها إذ « تقوم على أساس التعاقد، والعقد هنا يتم بين الرعية (الشعب) والحاكم بقصد التعاون على البر والتقوى ودفع الإثم والعدوان » [2] معنى ذلك أن الإمامة والحكم أساسها التعاقد والاتفاق، فلا ينصب الفرد إماما وخليفة للأمة إلا بموجب اتفاق يكون طرفاه الحاكم والشعب،أو ما يمثله من أولي العزم.

لكن هناك طريقة أخرى تتم من خلالها البيعة ظهرت من خلال تعريفنا لها و هي العهد – لكن ما معنى العهد؟ ولماذا يشترط في مبايعة الخليفة ؟

ثالثا : معنى العهد:

« يقصد به الأمان و اليمين و الموثوق و الذمة والحفاظ والوصية... ومنه اشتق العهد الذي يكتب للولاة »[3].

وما العهد إلا طريقة أخرى لنصب الإمامة شبيه بالبيعة يوردها الماوردي في الأحكام السلطانية الذي اعتبر الإمامة عقد مبايعة و هذه « الإمامة تنعقد من وجهتين : أحدهما باختيار أهل العقد والحل، والثاني بعهد الإمام من قبل » [4] كما هو حال الخلفاء بعد رسول الله ﷺ ، فقد سارع الصحابة إلى استخلاف أبي بكر (ض) نيابة عن الرسول ﷺ وفي هذا اختيار وتشاور لتأكيده تعالى على ضرورة اعتماد مبدأ الشورى بهدف صلاح حال الأمة في الآية الكريمة ﴿ وَأَمْـــــرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ [5].

و إذا كانت الإمامة تنعقد في الحـــــالة الأولى بالبيعة و اختيار أفاضـــــل الأمة و اتفاقهم على قبول شخص معـــــين لذاك المنصب فإنها في الحــــــالة الثانية لانعقادها تتم بموجب عهد من السابق

1– علي حسن الخربوطلي ، الإسلام والخلافة، ص 38

2 – محمد كامل ليلة ، النظم السياسية الدولة والحكومة، ص 432

3 – إسماعيل بن حماد الجوهري ،الصحاح تاريخ اللغة و صحاح العربية ،ج2 ،دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ط 4 ، 1990

4– الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص 33

5 – سورة الشورى آية 38

إلى اللاحق بالخلافة من بعده . و قد أقر فقهاء الأمة تلك الطريقة مما حصل في خلافة "بن الخطاب" حيث عهد أبو بكر إلى عمر –رضي الله عنهما– بالخلافة وهذا حال بني أمية أيضا ومن تلاهم، حيث كان الملوك يأخذون العهد بالبيعة لأبنائهم قبل وفاتهم " فلما دنت وفاة أبي بكـــر قال لكبار الصحابة : تشاوروا في هذا الأمر ، ثم وصف لهم، عمر– رضي الله عنه– بصفاته ورأى أن يعهد إليه بالخلافة من بعده »[1] فصح انعقاد الإمامة بالبيعة من خلال أخذ العهد للشخص المتصدي لها، المطالب بالحكم ... ليقوم مكان النبي في تسيير أمته.

المطلب الثاني : حكـم البيـعة

إن مبايعة الخليفة تكون من قبل الأمة التي سيترأسها وأفرادها الذين سيطبق عليهم سلطته لكن هل كل فرد من أفراد الأمة مطالب بالذهاب إلى الإمام ومبايعته ؟ وهل الإمامة ونصبها فرض عين لازم أم هي فرض كفاية ؟

الحقيقة أنه إذا ارتحل كل فرد من أفراد المدن والقرى لمبايعة الإمام لخلت مساكنهم وتعطلت مصالحهم و تعذر الترحال.. وعليه « اتفق أهل السنة على أن نصب الخليفة فرض كفاية وأن المطالب به أهل الحل والعقد في الأمة ووافقهم المعتزلة والخوارج على أن الإمامة تنعقد ببيعة أهل الحل والعقد » [2] .

فلا بد من وجود زعماء ونواب لأفراد الأمة كالعلماء والفقهاء ، الولاة والقضاة يجمعون على خليفة مختار من قبلهم للأمة يقدمون له الولاء و الطاعــــة ويبايعونه ليصير إماما وخليفة على الأمة «وإنمـــــا تصحّ المبايعة باتفاقهم أو اتفاق الرؤساء الذين يتبعهم غيرهم ومن لم يتبعهم بالاختيار سهل عليهم إكراهه بقوة الأمة على الطاعة والانقياد.. » [3].

وأساس البيعة الاتفاق في الاختيار بين أهل الحل والعقد الذين يختارون بروية بين الأفراد المتقدمين للإمامة عن تشاور وروية و إجماع لقوله تعالى ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [4].

و ذلك « أن الأصل في المبايعة أن تكون بعد استشارة جمهور المسلـــمين واختيار أهل الحل والعقد ولا تعتبر مبايعة غيرهم إلا أن تكون تبـــعا لهم .. » [5].

[1] – محمد صبحي الصالح ، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها ، ص 284

[2] – محمد السيد رضا ، الخلافة ، ص 18

[3] – المرجع نفسه ، ص 19 ، 20

[4] – سورة آل عمران آية 159

[5] – المرجع نفسه ، ص 251

المطلب الثالث : شروط البيعة

إن شروط البيعة الاختيار من الكافة والقبول والرضا من الأطراف المشاركة في هذا العقد لنصب الإمام « لأنها عقد مرضاة واختيار لا يدخله إكراه ولا إجبار » [1].

فيتفق أولوا العزم الذين سيحددون من يصلح للإمامة فإن حدث وأن اتفقوا على شخص محـــــدد، أو ذهب أكثريتهم إليه اختاروه لها و عرضوها عليه إن قبلها حقت له و إن رفضها فلا يكره عليها و هذا ما سار عليه المسلمون في المجال السياسي إذ « ذهب جمهور الفقهاء والمتكلمين إلى أن الإمامة لا تنعقد إلا بالرضا والاختيار »[2].

فالإمامة لا تنعقد إلا بطريـــقة واحدة ألا و هي البـــيعة و لا سبيل إليها إلا بها ، و تتمثـــل في «اختيار أهل الحل والعقد للإمام أو الخليفة » وعليه « فالإمامة أو الخلافة ليست إلا عقدا طرفاه الخليفة من ناحية وأولوا الرأي في الأمة من الناحية الأخرى ولا ينعقد العقد إلا بإيجاب وقبول وتكون من كلا الطرفين » [3].

رغم أن طائفة من الشيعة وخاصة الروافض والغلاة رأوا أن طريق الإمامة النص والتعيين من الله على لسان رسوله ﷺ ، لكن رأيهم مناف للإجماع وقد تكفل الإمام "الغزالي" وأيضا "ابن تيمية" بالرد على دعواهم و إبطالها .فها هو " الغزالي" يؤكد قيام الإمامة بالبيعة فقط وأن « الإمام من انعقدت له البيعة من أكثر الخلق والمخالف للأكثر باغ يجب رده إلى الانقياد إلى الحق »[4] ..

وسانده في هذا الرأي "بن تيمية" الذي ربط بين الإمام والبيعة من الأكثرية وحسبه « الإمام متى صار إماما فذلك بمبايعة أهل القدرة له » [5] .

وحتى تكون البيعة قائمة في حق صاحبها يتطلب ذلك وجود جانب مؤيد له سمي "الشوكة" التي تتردد كثيرا لدى "بن خلدون" و هذه الشوكة سيأتي الحديث عنها لاحقا باعتبار توفرها شرطا ضروريا لكل متصد للإمامة.

---

[1] – الماوردي ، الأحكام السلطانية، ص 35

[2] – المرجع نفسه ، ص 37

[3] – المرجع نفسه ، هامش الكتاب ، ص 39

[4] – أبو حامد الغزالي ، قواعد العقائد في التوحيد، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ،[د ط] ، [د ت] ، ص 97

[5] – أحمد بن تيمية ، منهاج السنة النبوية ، في نقض كلام الشيعة القدريةج1، مكتبة المعارف ، المغرب ، ط1، 1998 ص 190

المبحث الثالث: أهمية الإمامة و علاقتها باحتدام الصراع بين السنة و الشيعة

المطلب الأول : مكانة و أهمية الإمامة في الفكر الإسلامي

اكتسبت الإمامة أهمية بالغة في حياة الناس ولعبت دورا فعّالا في تطور المجتمعات الإسلامية باعتبارها قيـــــادة عامة للأمة من ناحية ، و من ناحية أخرى سياسة للرعية و حسن تدبير شـــؤونها « و لا ريب أن الله سبحانه و تعالى لا يترك عباده هملا و يدعهم سدى بلا راع يرعـــــاهم و لا إمام يعمل فيهم بأمـــر الله و يقيم حدوده وينفذ شرائعه و يحيي سننه و يميت البدع و الخرافات » [1].

لذا كان لزاما على أفراد الأمة تعيين إمام للأمة ليتولى شؤونها و يدير أمورها فلا ينال هذا المنصب إلا من استحقه عن جدارة و توافرت فيه الشروط الإمامة و بهذا يحترس أن يتربص بها المتربصون أو يحتكرها المحتكرون أو تتخذ الإمامة ذريعة للظلم و العدوان و الاستغلال فتنحرف عن وظيفتها النبيلة جارفة ورائها أمال الأمة وأماني الرعية كاشفة عن المكر والخداع والفرص الانتهازية...

ولهذه الأسباب دعت الحاجة إلى قيام الإمامة و نصب الإمام يقول عن ذلك عبد الجبار المعتـــزلي « اعلم أن الإمام إنما يحتاج إليه لتنفيذ هذه الأحكام الشرعية نحو إقامة الحد و حفظ بيضة البلد و سد الثغور وتجييش الجيوش والغزو وتعديل الشهود وما يجري هذا المجرى ولا خلاف في أن هذه الأمور لا يقوم بها إلا الأئمة » [2].

فكان نصب الإمام من الضروريات عند المعتزلة وغيرها باستثناء البعض وهذا ما يؤكده أحد أعلامها "عبد الجبار المعتزلي" في قوله « اعلم أن من مذهبنا أن الزمان لا يخلو من إمام ولسنا نعني به أنه لابد من إمام متصرف فالمعلوم أنه ليس، و إنما المراد به ليس يجوز خلو الزمان ممن يصلح للإمامة ثم أن العلم بحاجة إلى الإمام لا يجوز أن يكون عقليا بل إنما تعلمه شرعا » [3]. فالحاجة إلى نصب الإمام مما هو متفق عليه لما للإمام من وظائف و أدوار لا يمكن أن يقوم بها غيره من الخلق.

1- عاطف سلام ، الوحدة العقائدية عند السنة و الشيعة ،دار البلاغة للطباعة و النشر والتوزيع، بيروت لبنان ط 1،1987 ص287

2- عبد الجبار المعتزلي ، شرح الأصول الخمسة،ج 2 ، ص 381

3- المرجع نفسه ص387

لطالما ارتبطت مشكلة الخـــلافة بالحياة السياسية و شؤونها و تشعب البحث فيها إذ يقول المفكر «عبد المتعال الصعيدي» (1313-1377هـ) في هذا الشأن « أما مســـألة الخلافة فأمرها متشعب كل التشعب و للسياسية إصبع ظاهرة فيها و قلما يتفق الناس في أمر تدخـــل السياسة فيه بإصبعها على أن الخلافة يرجع أمرها إلى المسلمين كافة فلا يصح أن يقضي فيها بمثل هذا التحكيم وإنما يجب أن يترك أمرها للمسلمين ، فلا يملكون عزل الخلـــيفة القائم إلا بسبب يوجب العزل »[1].

فالخلافة – في مجملهــــا– لها حكمة إلهية و غاية وجدت لأجلها منها حماية مصالح العباد وحفظ الدين و هذه الأهمية تتأكد في قول بـــــن خلدون « و إذا نظرت سر الله في الخلافة لم تعد هذا ، لأنه سبحانه إنما جعل الخليفة نائبا عنه في القيام بأمور عباده ليحملهم علـــى مصالحهم و يردهم عن مضارهم »[2] .

لكن بالعودة إلى التاريخ السياسي للإسلام و المسلمين نجد أن النبي ﷺ لم بنص على خليفة بعينه من بعده بل ما حدث بعد وفاة النبيﷺ هو اتجاه الناس إلى مبايعة أبي بكر الصديق بالخلافة « فقيل أنه خليفة رسول الله و لم يتحدد نطاق حكومته كما لم يتحدد المقصود بكلمة خليفة والواقع أن كلمة الخليفة التي لقب بها أبو بكر الصـــديق تعني : من تبع النبي وتلاه في الزمان، ولا يفيد المعنى القانوني الذي هو وارثه كل الحقوق وكافة الالتزامات »[3].

فقد ثبت أن النبي ﷺ لم يستخلف أحدا من بعده كما لم يحدد القرآن و لم يشير إلى أي حكومة أو خلافة بعد وفاته ﷺ بل ترك للناس الحرية في الاختيار و التعيـــــين على أساس الشورى كما لم تنص الشريعة على نظام حكم معين و واضح المعالم و لم تحدد إماما بعينه .

المطلب الثاني : الإمامة أساس الصراع المذهبي بين السنة و الشيعة

هكـــــذا احتلت مسألة الإمامة مكانة هامة في الفكر الإسلامي و تاريخـــــه ، فبغض النظر عن ضرورة قيامها في الأمة ، و غاياتها لا ننسى أبدا أن « مسألة الإمامة أو الخلافة هي الأصل الـــــذي فرق المسلمين »[4]. و هو الذي شتت شملهـــــم في عهودهم الأولى ، و ضرب وحدتهم

1- عبد المتعال الصعيدي ، القضايا الكبرى في الإسلام ، دار آشريفة للطباعة و النشر و التوزيع، بوزريعة الجزائر [د ط] ، [د ت] ، ص 174

2- عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة، ص 209

3- محمد سعيد العشماوي ، جوهر الإسلام ، الوطن العربي ، بيروت لبنان ، ط1 ،1984، ص 51

4 – مصطفى حلمي ، نظام الخلافة بين أهل السنة و الشيعة ، دار الدعوة للطبع و النشر و التوزيع ، الإسكندرية مصر،ط1،1988، ص 40

وكان سببا رئيسيا في اختـــــلاف آرائهم وانعكـــس ذلك على أوضاعهم بمختلف جوانبـــها وإذا تأملنا النظريات و الأفكار السياسية الـــــتي صاغها مفكروا الإسلام منذ بداية عهودهم سنجـــدها تدور حول موضوع الإمامة معتمدين فيها على تجربة الرسول ﷺ مستـــــمدين من حكمه وخلافته أساسا لنظرياتهم السياسية التي اتحدت و تشابهت من حيث المبـــادئ واختلفت من حيث أشكالها و ممارساتها.

فالاتفاق بين الفرق الإسلامية حول أهمية وجوب نصب الإمـــــام ، قائم و هو محل إجماع الأكثرية منهم عدا طائفة الخوارج و الأصم « و لقد أجمعت الفرق الإسلامية على أن السلطة ضرورية لبقاء الشريعة و ديمومتها فقيامها واجب من واجبات الدين، إذ لولاها لمـــــا وجد مطبق لأحكامه و ناشر لتعاليمه ومنظم لمجتمعه... »[1].

لكن هذا الإجماع على وجوبها لا يخفي الاختلاف حول مضمونها و شروطها و من يقوم بها .. فلأجله ثارت ثائرة المطالبين بها و سقطت في سبيلها الأرواح حتى كرهها الناس و نهى العلماء عن الخوض فيها بل « و ظن هؤلاء أن المتسبب في كل هذه البلايا إنما هي الإمامة فكرهوها و طلبوا من المسلمين اعتزالها و تطرف جماعة ، فقالوا أنها أصل كل داء و رأس كل بلاء »[2].

وفي خضم هذا الصراع السياسي حول الإمامة ، برزا إلى الوجود تياران ، أخذا يتعاظمان تدريجيا، اتسع بينهما الخلاف حولها، و ازدادت الهوة بينهما مع اتساع نطاق الخلافات المذهبية و المسائل الكلامية و هذان التـــــــياران هما تيارا السنة و الشيعة ، فقد مثلا عملاقان متقابلان في الفكر الإسلامي .

و رغم اخـــتلافهما في جوانب عديدة « تتفق الفرقتان على أن النبي ﷺ جمع بين الســـلطتين الدينية والسياسية ، وبهذا أرسيت قواعد الحكومة الإسلامـــــية، فالإسلام ديـــن جامـــــع للدنيا والدين » [3] بمعنى الاشـــــتراك في فكـــرة وجوب نصب الإمـــام ، وخلافته للنبي و مراعاة مصالح الأمة بقيامه بوظائفه وواجباته إلا أن الاختلافات بينهما في أساســيات الإمامة ومبادئهــــا هي الـــتي تفصل بينهما إذ نرى « أن مـــــسألة الإمامة هي حجر الزاوية في العقيدة الشيعية ، ولكنـــها

1- محسن عبد الناظر ، مسألة الإمامة ، ص 51

2- المرجع نفسه ص 60

3- مصطفى حلمي ، نظام الخلافة بين أهل السنة و الشيعة ، ص 13

عند أهل السنة من المصالح العملية التي يفوض فيها الأمر إلى الأمة الإسلامية »[1] فقد كانت الإمامة عند الشيعة تحتل الصدارة في عقيدتهم فهي من أهم الأصول العقائدية بل و حتى الأركان الإيمانية أما عند أهل السنة و الجماعة فعلى الرغم من الأهمية التي تمثلها لم تكـــــن محورا و ركنا أساسيا للدين كالشهادتين و الصلاة.

و بسبب الإمامة و تداعياتها نشب الصراع بين الشيعة و السنيين ، و احتدم عبر التاريخ لينتقل من صعيد السياسة إلى صعيد الفكر في جميع ميادينه من الفن و الأدب و الشعر و حتى العمران .. فصاحب الخوض في مسألة الإمامة إبداع فكري و ثقافي خلاق أثرى الساحة الثقافية و اصطبغت به البيئة الإسلامية.

المطلب الثالث : الإمامة من الصراع السياسي إلى الإبداع الفكري والعقائدي

لقد تسببت الخلافات حول السلطة في صـــراعات سياسية دامية ، من سفك للدمـــاء وهتك للأعراض واستبيحت لأجلها الأموال، حتى اعتبرت طوائف من الناس الحكم يورث وهو ملك لفئات دون أخرى لاسيما بعد أن خابت الآمال في الحكومات المتعاقبة بعد الحكومات الرشيدة إذ « كان الناس يأملون خيرا كبيرا في ظهور الدولة العباسية بعد الدولة الأموية ، و يرجون أن تعيد عهد الخلفاء الراشدين فتكون دولة تحقن فيه الدماء و تحترم فيها العهود و يقوم فيها الحكم على الشورى .

و لكنها لم تكد تقوم حتى ضاع أمل الناس فيها واستبد ملوكها بأمر الرعية و اعتقدوا التقديس في ملكهم بقرابتهم من النبي ﷺ فأخذوا يتصرفون فيه بصرف من يعتقد العصمة في نفسه ولا يخشى رقيبا من الناس عليه » [2].

و يصف المفكر " عبد المتعالي الصعيدي" حال هؤلاء الملوك الذين أغوتهم شهوة الملك فكـــــانوا سببا في زيادة الفتن و احتدام الصراع بين الطوائف و المذاهب قائلا أنهم « قد أباحوا لأنفسهم في ذلك ما سفكوا من دماء وما نقضوا من عهود حتى بلغ من أمـــرهم أن يجعلوا ولاية العهد سلعة تباع و تشترى و لم يحصل هذا في عهد بني أمية » [3].

و يعكـــس لنا " أبـــو حامد الغزالي" (**450 - 505هـ**) في كثير من مؤلفـــــاته لا سميا المنقذ من الضلال ،حالة الصراع والفوضى هذه التي شتتت الناس فرقا وطوائف ، وتاهوا بسببها عن

1- المرجع السابق ص 156

2- عبد المتعال الصعيدي ، القضايا الكبرى في الإسلام ، ص 243

3- المرجع نفسه ص 243

إدراك الحـــق و لم يخلو مؤلفه "فضـــائح الباطنية" أيضا من الإشارة لذلك ، يقول الإمام "الغزالي" فيه « إن الزمان زمان الفترة و الدنيا طافحة بالمحن والاضطراب عام في ســـــائر البلاد ، لا يسكن فيها أوار الحرب ولا تنفك عن الطعن و الضرب » [1].

فكان العصر عصر فتن و صراع سياسي ومذهبي و اضطراب لذلك لم تخلو مؤلفاته من نقد لاذع لما ساد عصره من طوائف ومذاهب و اتجاهات وفـــــــرق متعددة مغالية أو متطرفة وحتى الفلاسفة والمتكلمون لم ينجوا من نقده.. وهذا في نظره يشكل خطرا متعاظـــما على الدين والعقيدة المـــــهددة بالتشويه. فالمعروف أن الصراع السياسي حول الإمامة، الذي خاضت فيه الفرق الإسلامية شيعية كانت أو سنية.. إضافة إلى ما نتج عنه من أنمـــاط للحكم و أشكال للخلافات و تنظير للإمامة فقد تولد عنه صراع فكري ، إذ كان من ثمار هذا الصراع السياسي على السلطة ، وضع نظريات و بروز آراء لم يشهدها العالم الإسلامي من قبل .

و طال الصراع السياسي مجالات الأدب و الشعر و الفن و الثقافة عموما . و تجلـــــى ذلك فيما عرفته تلك الحقبة من التنافس و الحاجة إلى دعمه باجتذاب الناس و الموالين . لاسيما ذلك الصراع الشديد بين الشيعة التي اشتهـــرت في بلاد المغرب الملقبة بالفاطمية ، والتي تعددت تسمياتها و فروعها ، و تلك التي ناهضتها من السنة العباسية و دخلت معها في جدالات كثيرة و انتشرت تعاليمهما و اختلفت عقائدهم و أفكارهم .

فقد انتقلت الدعوة الفاطمية لاحقا في بلاد فارس مع الباطنية التعليمية، واشتهرت عبر التاريخ بأعمالها الفكرية و مواقفها السياسية ، إلى أن أسست دولة عظيمة هي الدولة الفاطمية بالمغـــرب وقويت شوكتها ،حتى أنها نافست الخلافة العباسية و زاحمتها . وكـــان الصراع بينهما عنيفا مما كان له أثر محمود على صعيد الفكر والثقافة عامة « فقد عمد الفاطمـــــيون إلى توسيع نشاطاتهم السياسية و ذلك ببث دعاتهم في البلاد العباسية وإنشاء التنظيمات السرية وتنظيم الخطط للمواجهة المباشرة والعلنية إن اقتضى الأمر» [2] معتمدين على سلاح السيف والقلم متخذين من العلماء وسيلة لنشر دعوتهم .

و انعكــــس ذلك على صعيد الفكر والثقافة إضافة إلى إثراء الجانب العقائدي و غيره من المستجدات التي أفرزه الخوض في الإمامة و لم يجد السنيون وسيلة لدحض الأفكار الفاطمية الشيعية إلا في الفكر ذاته.

1– أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، الدار القومية للطباعة و النشر ، القاهرة مصر ،[د ط] ،1964 ، ص186

2– عبد الحميد خطاب ، الغزالي بين الدين و الفلسفة ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، [د ط] 1986 ، ص46

– في ختام هذا الفصـــــل نستنتج أن الإمامة قد كانت مسألة هامة من تلك المسائل الكثيرة التي شغلت مفكري الإسلام منذ أولى عهودهم، قد أفرزتها ظروف متعددة يعد أهمـــها الحاجة الملحة إلى من يخلف رسول الله في أمته ليسوس القوم . ورغـــم اتفاق أغلب مفكري الأمة الإسلامية و إجماع كثير من فرقها على وجوب نصب الإمامة ما يزال الاختلاف بينهم قائما حول أســـــاس ذلك الوجوب « الفرق التي تتفق على وجوب الإمامة تختلف في أصل وجوبها».

فالبعض يدعي أن العقل هو موجب نصب الإمامة بمعنى صارت الإمامـــة ضرورية بمقتضى أحكام العقل كما هو رأي الشيعة عموما « إن الشيعة الإثني عشرية وكذلك الإسماعيلية قـــد أوجبوا الإمامة عقلا ، و تعسفوا في هذا الوجوب حتى أصـــبح في رأيهم أن الإمامة واجبة على الله تعالى »[1] و مفاد هذا الاعتقاد أن الله تعالى ورسوله قد نص على إمامة علي وذريته من بعده حتى أن هذه الفرق الشيعية جعلت الإمامة ركنا من أركان الدين .

ويصف العلامة " بن خلدون " حال هؤلاء الشيعة مع الإمامة و كيفية تصورهم لحالها وطريقة نصبها و قيامها كما يلي « قد ذهب بعض الناس إلى أن مدرك وجوبـــها العقل وأن الإجماع الذي وقع إنما هو قضاء بحكم العقـــل فيه . ومنهم الأصم من المعتزلة وبعض الخوارج وغيرهم والواجب عند هؤلاء إنما هو إمضاء أحكام الشرع ، فإذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يحتج إلى إمام »[2].

و في مقابل هؤلاء رأى فقـــهاء الأمة السنيين أن موجب نصب الإمامة هو الشرع وذلك اقتداءا بالسلف الصالح الذي يستمد الأحكام من الشرع تماشيا مع سنة رسول الله. أما أولئك الموجبون لها عقلا فلا مبرر لهم. و يمكن أن ندرك عن كثب حقيقة مشكلة الإمامـــة وما دار حولها من صراع وجدل بالقلم أو بالسيف..حين نتعرض لتصور كل من الشيعة وكذا السنة لها و ما تمخض عن موقف كل منهما من نظريات وآراء محاولين من جهة إبراز تصور كلا منهما لها و من جهة أخرى إدراك أهم المسائل الخلافية بينهما.

و يعكس لنا كل من "الباطنية" و"الغزالي" في تصورهما لحقيقة الإمامة ، بعضا من ملامح ذلك الصراع السياسي و الفكري و المذهبي القائم بين التيّارين الشيعي المتمثل في الفرق الباطنية ونظيره السني بزعامة " الغزالي" و هو ما سنحاول تسليط الضوء عليه في ثنايا بحثنا.

---

[1] – مصطفى حلمي ، نظام الخلافة ، ص **148**

[2] – عبد الرحمن بن خلدون ،المقدمة ، **205**

الفصل الثاني

الإمامة و تداعياتها العقدية عند الشيعة الباطنية

المبحث الأول: الشيعة الباطنية التعليمية ، مفهومها ، تاريخها ، تعاليمها

المبحث الثاني : عقيدة الإمامة عند الشيعة الباطنية

المبحث الثالث : ارتباط الإمامة بالنبوة و الوحي

المبحث الرابع : المنهج التأويلي الباطني و دوره في تبرير

و تدعيم عقيدة الإمامة

للإحاطة بحقيقة الفرق الباطنية لا سيما تلك التي أدلت بدلوها في المجال السياسي وكان لها صدى واسع سجله تاريخ الفكر الإسلامي، كان لابد من العودة إلى أصل تلك الفرق بالكشف عن بذرتها الأولى التي تسببت في ظهورها و ضمت عدة فرق أخرى غير الباطنية وحدت بينها في الهدف و من حيث المبدأ رغم تشعب و تعدد وسائلها و سبلها..

و نقصد من كل هذا فرقة الشيعة ، تلك الفرقة التي ظهرت في عهد مبكر من عهـــــود الإسلام و تميزت عن غيرها من سائر الفرق التي ظهرت فيما بعد إذ انفردت في آرائها وتصوراتها للإمـــــامة و النبوة و مسائل أخرى.. وتشعبت فروعها وفرقها وربما كان أقواها وأشدها بروزا عبر التاريخ فرقة الإسماعيلية الباطنية كأهم ممثل لطائفة الإمامية.

إذ كان لفرقة الإسماعيلية الباطنية الملقبة أيضا بالتعليمية دور بارز في رسم مبادئ التيار الشيعي وسن تعاليمه و نشرها بشكل واسع . بل لم يشهد تاريخ التشيع حركة مماثلة كان لها ما للفرق الباطنية من تميز وانفراد في التصورات و الآراء لا سيما في مسألة الإمامة.

و قبل الكشف عن حقيقة تصور فرقة الباطنية لمشكلة الإمامة التي احتلت مكانة هامة في الفكر الإسلامي عموما والشيعي على وجه الخصوص ، يجدر بنا في البدء معرفة بدايات التشيع والإلمام ببعض ملامحه للكشف عن خصوصياته ، التي اصطبغت بها سائر فرقه التي ظهرت عبر التاريخ .. لنبرز فيما بعد الجديد الذي أضافته فرق الباطنية للمذهب الشيعي ونقف على حقيقة موقفها من مسألة الإمامة و ما انجر عن ذلك من تصورات و معتقدات انفردت بها دون غيرها و خصّت بها مسألة "الإمامة" . و بناءا على ما سلف ذكره نتساءل:

- ما معنى التشيع وكيف ظهر ؟ هل كانت أصوله عربية أم أجنبية ؟
- وكيف أفرز التشيع في تطوره حركة الباطنية ؟ وما هي هذه الفرقة الباطنية ؟ وما هي المبادئ والتعاليم التي أسست وفقها عقيدته ؟
- كيف كان تصورها للإمامة ؟ و على أي أساس بنت آراءها السياسية حولها ؟
- ترى ما هو موقف علماء الأمة من الآراء السياسية للشيعة الباطنية ؟ ...

هذه الأسئلة و غيرها مما يثير فضولنا للكشف عن الغموض الذي يكتنف فرقة الباطنية ويدفعنا قدما للبحث في آرائها و تعاليمها لا سيما مفهومها للإمامة و هذا للإحاطة ببعض من ملامح التشيع الباطني الذي ترك أثرا واضحا في الفكر السياسي الإسلامي.

المبحث الأول: الشيعة الباطنية التعليمية ، مفهومها ، تاريخها ، تعاليمها

المطلب الأول : معنى الشيعة و تاريخ ظهورها

أولا : المدلول اللغوي للشيعة

إن التشيع في أصله اللغوي لفظ يتصل بكلمة "شيعة" التي تدل على الجماعة من الناس أو الفرقة، و يقول الباحث في الفكر الشيعي"كامل مصطفى الشيبي" (ولد:1927م) أن« شيعة الرجل أتباعه والفرقة على حده وتقع على الواحد و الاثنين والجمع المذكر والمؤنث »[1] .

فدل لفظ الشيعة في مجمله على الجماعة التي يتبع بعضهم بعضا فكان « أصل الشيعة الفرقة من الناس [...] وكل قوم أمرهم واحد واجتمع بعضهم على رأى بعض فهـــم شيعة »[2] . كما يرد في قاموس المحيط تعريف للشيعة أكثر توضيحا و تخصيصا يجعل منها دالة على الإتباع لأن « جمعها أشياع ، وشيع ، والتشيع في أصل اللغة هو الإتباع على وجه التدين والولاء للمتبوع على الإخلاص»[3] .

و يرد هذا المصطلح في عدد من الآيات للدلالة على الفرقة و الجماعة ، مثل قوله الله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾[4] و ارتبط هذا المصطلح "شيعة" بآل بيت النبي ﷺوصار ملازما لهم مقترنا بهم ، ومعنى ذلك أن « هذا اللفظ غلب واختص على كل من يتولى عليا وأهل بيته ، حتى صار اسما خاصا بهم فإن قيل فلان من الشيعة .. عرف أنه منهم ، وأصل ذلك من المشايعة وهي المطاوعة والمتابعة »[5].

ثانيا : المدلول الاصطلاحي للشيعة

لا يختلف كثيرا المدلول الاصطلاحي للفظ "شيعة " عن المدلول اللغوي لها ، من حيث دلالته على أتباع آل البيت العلوي لكن في شكل سياسي ، فكانت « الشيعة حزبا سياسي يمثل مع الخوارج جانب المعارضة لنظام الحكم في تاريخ الإسلام »[6].

1– كامل مصطفى الشيبي ، الصلة بين التصوف والتشيع، دار المعارف ، القاهرة مصر، ط2 ، [د ت] ص 15

2– محمد أمين بدوي ، الشيعة ونشاطهم السياسي في العصر الأموي مطبعة الجبلاوي ، القاهرة مصر ، ط1، 1985 ص11

3– الفيروز أبادي ، قاموس المحيط ، ج3 ، ص 47

4– سورة الأنعام آية 159

5– محمد أمين بدوي ، المرجع السابق، ص11

6– أحمد محمود صبحي ، في علم الكلام : الزيدية ، ج3 ، دار النهضة العربية ، ط3 ،1991 ، ص 47

فقد عرفت الشيعة بمعـــــاداتها الشديدة لنظام الحكم المتداول . و ما ذلك إلا لكرههم قيام الخلافة في غـــــــيرهم من الشيعة عقب وفاة نبي الله "محمد" فهم ﷺ يـــوالون أهل بيته الطاهرين. لذا « كانت البذرة الأولى للشيعة الجماعة الذين رأو ا بعد وفاة الرسول أن ﷺ أهل بيته هم أولى الناس أن يخلفوه « . فقد أقام هؤلاء الدعوة لعلي – رضي الله عـــنه – دون غيره من سائر الصحابة فهو الأحق بخلافة النبي ﷺ بل ووريثه الشرعي « وذهب أصحاب علي إلى أنه ميراث أدبي ولو كان النبي يورث في ماله لكانت قــــرابته أولى بإرثه فكــذلك الإرث الأدبي«[1] .

وأصبح المعنى المرادف للشيعة : الفرقة التي شايعت عليا – رضي الله عنه – وناصرته ووالته هو وذريته من بعده ودعت له ولأبنائه من بعده بالخلافة والولاية . و ارتبط مفهومها بمفهوم الولاية حتى أنه « يقال أن الشيعة هي عقيدة الولاية ، و أصحاب الشيعة يعتبرون أنفسهم أصحاب الولاية«[2] .

إذ عدّت الإمامة أهم الأمور التي خاض فيــــها الشيعة لأنهم لم يكتفوا بالبحث فيها فقط و إنما كان في موقفهم منها ما يظهر انحيازهم للذرية العلوية .

ومن أشهر التعريفات التي قدمها المفكرون للشيعة ما ذكره الفقيه "أبو الحسن الأشعري" (**270-324هـ**) حيث رأى ارتـــباط لقبهم بموالاتهم لعلي وآل بيته مؤكدا أنه قد « قيل لهم الشيعة لأنهم شايعوا عليا رضوان الله عليه، ويقدمونه علــــى سائر أصحاب رسول الله ﷺ«[3].

و إلى نفس الرأي ذهب المفكر الإسلامي الشهير"الشهرستاني" (توفي:**548هـ**) في مؤلفه "الفرق بين الفرق" حين حصر التشيـــع في تلك الفئة التي اتبعت العلويين و خصّتهم بالإمـــامة دون سواهم مؤكدا أن الشيعة « هم الذين شايعوا عليا على الخـــصوص بإمامته وخلافته نصا و وصاية إما جليا وإما خفيا واعتقدوا أن الإمامـــة لا تخرج من أولاده وإن خرجت فبظلم يكـــون من غيره أو بتقيا من عـــنده «[4] .

و سار على هذا الاعتقاد كثير من الناس العلماء منهم و العامة كل يرى مصطلح "شيعة" مرادفا لكل موال مناصر لإمام "علي" و ذريته معترف لهم بحق الولاية و الخلافة بعد النبي الكريم باعتبار أن "علي" هو أفضل الناس و الصحابة في اعتقاد الشيعة.

1- محمد الطاهر النيفري ، أهم الفرق الإسلامية ، نشر الشركة التونسية للتوزيع ، [د ط] 1974، ص 70

2- Mohammed – Ali Amir – Moezzi .Qu est-ce que le Shiisme? Libraire Artheme Fayard.2004

3- أبو الحسن الأشعري ، مقالات الإسلاميين و اختلاف المصلين ، مكتبة النهضة المصرية، ط2 ،1969 ، ص 65

4-أبو الفتح الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1، المكتبة التوفيقية ، القاهرة مصر، [د ط] ، [د ت] ، ص 155

حتى أننا نلاحظ الفقيه "ابن حزم" قد أخذ يحدد معنى التشيع معنا خاص مركزا على مسألة "الإمام الأفضل " بعد النبي ، تلك القضية التي فرقت شمل المسلمين إلى شيع مختلفة جاء فيه « من وافق الشيعة في أن عليا رضي الله عنه أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ وأحقهم بالإمامة وولده من بعده فهو شيعي وإن خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعيا »[1] .

فالمعروف أن هناك من رأى بعد موت رسول الله ﷺ أن أبا بكر هو أفضل الصحابة لما عرف به من طاعة للنبي و طول صحبة ، و يليه عمر-رضي الله عنهما- فكانت الخلافة لهما قبل أي صحابي آخر ، و على خلاف هذا التصور رأى أتباع علي الملقبون بالشيعة بأنه أفضل الصحابة وأقربهم للرسول ﷺ فهو بن عمه و صهره و نصيره ووريثه منكرين أي فضل أو أسبقية لأبي بكر وعمر، بل من الشيعة من قام بسبهما معتبرا إياهما مغتصبين للخلافة.

ثالثا : بدايات ظهور التشيع و تطوره عبر التاريخ

لا يمكن الجزم بأن ذلك الأمر- تاريخ ظهور التشيع- كان محل اتفاق ، فقد تناولته دراسات عديدة ومختلفة عربية وغير عربية ، حاولت الوقوف على بدايات ظهوره، و لا يمكن فهم هذا الأمر إلا بعد الإطلاع على الأسباب والأحداث الهامة التي جعلت التشيع يطفو ويطغى على الساحة.
فالتشيع مختلف في تاريخ ظهوره بالنظر إلى الأسباب التي ساهمت في ذلك ، فالبعض يرجعه إلى حياة الإمام علي ، بينما يرجعه آخرون إلى حياة أبنائه وخاصة الحسين، بينما يرجعه آخرون إلى فترات أخرى.

و ها هو " أبو الحســــن الأشعري" يجزم أنه حتى هذه الفترة من حياة الإمام علي كرم الله وجهه ، لم يكن لفظ الشيعة قد استخدم وأضيف إليه للدلالة على هذا الحزب الذي وقف بجواره وناصره [2] بل يذهب نفس هذا المفكر إلى التأكيد على أن التشيع كمذهب فكري وسياسي لم يتكامل بنيانه إلا مع ظهور القول بنظرية النص و التعيين التي أعطت له من المميزات و الملامح ما جعله بتخصص و يتميز عن غيره من الاتجاهات والمذاهب [3] .

رغم أن قسما آخر منهـــم رأى أنه قد بدأ في حياة هذا الخليفة الرابـــع بمجرد نشوب الخـــــلاف على الحكم بينه و بين معاوية -رضي الله عنهما- فمن خلال دراسة الأستاذ "صبري

1- صبري خدمتلي ، العقيدة و الفرق ، ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون ، الجزائر، [د ط] 1994 ص 70، 71، نقلا عن :بن حزم الفصل في الملل والنحل ، ج2 ، ص 113

2- أبو الحسن الأشعري ، مقالات الإسلاميين، ص65

3- المرجع نفسه ، ص14

خدمتلي" للفرق المتعددة و منها الشيعة أوضح أن « التشيع قد ظهر كحركة سياسية بعد أن نازع معاوية على الإمارة وتدبير شؤون المسلمين ، عليا الخليفة الشرعي »[1].

ولا يمكن إهمال أعمال اليهودي "عبد الله بن سبأ" (عاش في حياة الإمام علي) صاحب فرقة السبئية الذي دعا لمشايعة الإمام علـــــي في حياته بل قال بتأليهه أيضا حتى اشتـــــد غضب الخليفة عليّ عـــــليه ، وأحرق كثيرا من القائلين بدعواه . فقد « أعلن ابن سبأ أنه لم يكن خليفة بحقه الإلهي فحسب ، وإنما حلت فيه روح إلهية عن النبي حتى ارتفع إلى مستوى فوق الطبيعي» .

و حين مات الإمام "علي" نشر ابن سبأ فكرة تأليهه وتقديسه بين الشيعة. فانتشرت وكثر شيعته « أعلن عبد الله بن سبأ أن روحه الشهيدة قد ارتفعت إلى السماء ، و أنها ستهبط في الوقت المناسب مرة أخرى إلى الأرض، إن روحه في السحاب وأن صوته ليسمع في الرعد وأن عصاه لهي البرق »[2] و هذه الفكرة متداولة بكثرة لدى الشيعة الغلاة .

و حكى "الشهرستاني" ذلك التأليه لعلي الذي يمكن أن يكون المنطلق الأول للتشيع في مؤلفه " الملل و النحل" موضحا « أن ابن سبأ زعم أن عليا لم يمت ففيه الجزء الإلهي ولا يجوز أن يستولي عليه،وهو الذي يجيء في السحاب و الرعد صوته و البرق تبسم ه و أنه سيترل إلى الأرض بعد ذلك فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا »[3] كان هذا من أبرز الأسباب التي جعلت بعض الباحثين يشكُّون في عودة التشيع إلى حياة الإمام علي ونشوب الخلاف حول الإمامة ثم الدعوة له والقول بتأليهه ورجعته ..

إلا أن من المفكرين من ينكر ظهور التشيع لآل البيت في حياة الإمام "علي" و عليه يرجع بعض الباحثين بدايته إلى واقعه "كربلاء" ومقتل الحسين – رضي الله عنه – فإذا كان التشيع في حياة الإمام علي لم يتعدى مجرد ذلك الشعور الديني والحركة الدينية الروحية فإنه أصبح حزبا سياسيا عقب مقتل الحسين « فالتشيع قد ظهر كحركة سياسية بعد أن نازع معــــاوية على الإمارة وتدبير شؤون المسلمين عليا الخليفة الشرعي كما أن تبلور الحركة السياسية تحت اسم الشيعة كان بمقتل الحسين مباشرة ، وإن كانت الحركة سبقت الاصطلاح »[4] باعتبار أن تلك الحادثة وحدة جموع الشيعة المتشتتون و وحدت مسعاهم و أهدافهم.

---

[1] – صبري خدمتلي ، العقيدة والفرق الإسلامية ، ص69

[2] – ديلاسي أوليري ، معالم الفكر العربي و مكانته في التاريخ ، ترجمة تمام حسان ،المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة و الطباعة و النشر ، مصر ،[د ط] [د ت] ، ص 110

[3] – أبو الفتح الشهرستاني ، الملل والنحل ،ج1، ص 171

[4] – صبري خدمتلي ، المرجع نفسه ، ص 69

لكــن ليس معنى ذلك عـــدم وجود تشيع سابق لهذه الحادثة ، بل نرى أنه قويّ واشتـد وبرز إلى الوجود في شكله الكلي والنهـائي بمقتل الحسين ، و أصبح عقيدة راسـخة لدى الشيعة .لذا يصح القول أن التشيع لم يـرتقي إلى هــذه المكانة في قلوب أنصاره إلا بـفاجعة كربلاء فكأن «دم الحسين– رضي الله عنه– هو الذي أنبت العقيدة الشيعية في صورتها النـهائية »[1].

ليبقى السؤال المحير الذي ما ينفك يتبادر إلى الأذهـان باحثا عن إجابة تشفي غليل المتعطـش للحقيقة ألا و هو: كيف حدث ذلك التشيع الهائل لطوائف و فئـات مختلفة من الناس بسبب مقتل الحسين ؟ و كيف كان لهذه الواقعة التي تحييها طوائف الشيعة سنويا ، كل ذلك الصدى الواسـع في نشر حركة التشيع و إبرازه كحزب سياسي عتيد ؟ وكيف تغيرت الموازين في العالم الإسلامي علـى هذا النحو؟ وما الذي جعل قتل الحسين نارا يزداد نطاقها ويمـتد لهيبها حتى يبلغ هذا المبلغ العظيم ؟

حسب اعتقاد كثير من الباحثين المتتبعين لتاريخ التشيع « كانت واقعة كربلاء – التي قتل فيها الحسين حفيد النبي عليه الصلاة والسلام، قتلة شنيعة – سيئة الأثر على المسلمين فقد أنتجت ضروبا من الشقاق والجدال بينهم ، كما خلقت في العراق وفارس شعورا عدائيا ضد بني أمية »[2].فهذه الحادثة أثارة قلوب الكثيرين واستمالتهم لنصرة آل بيت النبي فتشيعوا لهم .

كذلك يمكن التأكيد مما سبق عل مسألة هامة تتمثل في أنه « إذا كان(أي التشيع) قبل مقتل الحسين رأيا سياسيا نظريا فلما قتل أصبح عقيدة راسخة في نفوسهم »[3]. فمقتل الحسين ابن علي – رضي الله عنهما–كان نقطة تحول هامة في العقيدة الشيعية التي انظم لها الأتباع من كل حدب وندب ومن كل فج عميق.

رابعا : أسباب التشيع

نلخص أسبـاب هذا التشيع في حدثين بارزين : أحدهما التنازع على الخـلافة بين علي ومـعاوية وإن كان قبله أيضا في فترة وفاة الرسول ﷺ إلا أنه لم يكـن ذا خطر أو ذا صيت ثم بدأت علامات ظهوره أثناء خلافة أبي بكر و عمر باعتبارهما خالفا أمر رسول الله و اغتصبا

1- المرجع السابق ص 67

2- محمد جلال سرور، الحياة السياسية في الدول العربية الإسلامية خلال القرنين الأول و الثاني بعد الهجرة ،دار الثقافة العربية للطباعة، مصر،[د ط]، 1960 ، ص 138

3-المرجع نفسه ، ص 138

حق الخلافة من علي حسب ما تدّعي بعض الشيعة. أما السبب الثاني لظهور التشيع بشكل مكثف جمع بين توحيد الروابط الروحية الدينية للأتباع وبين أهدافهم وغاياتهم السياسية في حزب أكثر تنظيما .. فتمثل في فاجعة " كربلاء" و مقتل أبناء "علي" و بالتحديد الحسين وغيرها من الاغتيالات في صفوف آل البيت بعد سلبهم حقهم في الخلافة .

وبغض النظر عن تاريخ التشيع وأسبابه ، تمكّن هذا الحزب المنشق من الوقوف في وجه السلطة المغتصبة من الأمويين ومحاربتها. إذ أصبحت الشيعة تعبيرا دينيا عن معارضة الدولة والنظام القائم (السنة) الذي يناصرها و يؤيد سلطانها وكان « الشيعيون يدعون أن خـــــلافة الرسول كانت يجب أن تتم عن طريق علي ابن عمه و زوج ابنته فاطمة ، لحدوث عكس ذلك فقد كانت مشاكل في السلالة الحاكمة فـــي أولى سنوات الإسلام نتج عنها اغتيال علي و ابنه الحسين و قد قيل أن هذه الاغتيالات جاءت وحيا من الإله« [1].

فكان لهذه الدعوات صدى واسع على حركـــة التشيع ، التي اجتذبت الأتباع من كل الأقطار ومن شتّى الأنـــــواع و الأصناف « فكان ككل حزب ينظم إليه المخلص ومن له نفع فيه فتشيع إليه قوم إيمـــــانا بأحقية علي للخلافة وتشيع له قوم كرهوا الحكم الأموي ثم العباسي لظلمـــــــهم فيه ، أو لتعصب فريق من العرب للأمويين فكان العداء يقتضي أن يكون خصومهم في الجانب المقابل و تشيع كثير من الموالي لأنهم رأوا أن الحكم الأموي مطبوع بالأرستقراطية العربية فانظموا إلى من عاداهم.. « [2].

فهؤلاء كانت لهم دوافعهم ومبرراتهم المقبولة ، فماذا عن أولئك الذين تظاهروا بالإيمان في حياة النبي عليه الصلاة والسلام وعهد أبي بكر ومن تلاه، فلما رأوا عودة الفتن، عادوا إلى سابق عهدهم من الكفر وأرادوا الإساءة للإسلام.

معنى هـــــذا أنه قد كانت بعض الأطراف المتشيعة تنتسب للتيار الشيعي و تظـــهر الولاء لآل البيت و هي تبطن للإسلام و للمسلمين العـــــداء مما يعني أنه قد « تشيع آخرون لأنهم أرادوا الانتقام من الإسلام فتظاهـــــروا بالغلو فيه خديعة ومكـــرا « [3]. و خاصة فـــــرقة انتمت للشيعة في طور تطورها كان لها انجازات عرفت بها بل مثلت مرحلة هامة و مثيرة مليئة بالأحــــــداث ...

1- Philippe Lannois. L'orient désoriente. Etudes vivantes Paris– Montréal . 1980 p 40

2- محمد الطاهر النيفري ، أهم الفرق الإسلامية ص72

3- المرجع نفسه ص72

وهي جماعة « ميمون القداح وابنه عبد الله الذين أشاعوا الفساد والبدع حيث كان ميمون ملحدا من جنوب فـــارس و كـــان إمام جماعة من الملاحد ة الذين كانوا يزيفون الأحاديث وينشرون في العامة مبادئ الإلحاد و الهدم والإباحة تحت ستار التشيع لآل البيت » [1].

خامسا : تطور التشيع وفرقه

على هذا المنحنى سار الشيعة وتطورت عقيدتهم بالتدرج تحت تأثير عدد من الظروف والعوامل الداخلية والخارجية . فتداخلت فيها الأفكار و حتى المعتقدات والديانات الأخرى . و ظهر لدى بعض فرق الشيعة فيها أفكـــــار ليست من الإسلام في شيء ، كالنص على الإمامة و تـــقديس الإمام ، الرجعـــة و الغيبية ، واتصال النبي بالوصي، و اعتماد التأويل الباطني وادعاء تحريف و تزييف القرآن ،كما أباح غلاة الشيعة المحرمات ورفعوا بعض العبادات ..

و استمر تيار التشيع عبر التاريخ مؤيدا في كل مراحله مسألة الإمامة العلوية مدافعا عن أحقية الذرية العلوية من أبناء فاطمة فيها .و يحصي الباحثون ثلاث فرق رئيسية في تاريخ التشيع ألا و هي الإمامية الزيدية و الإسماعيلية و كان لكل منها فروع في العالم الإسلامي.

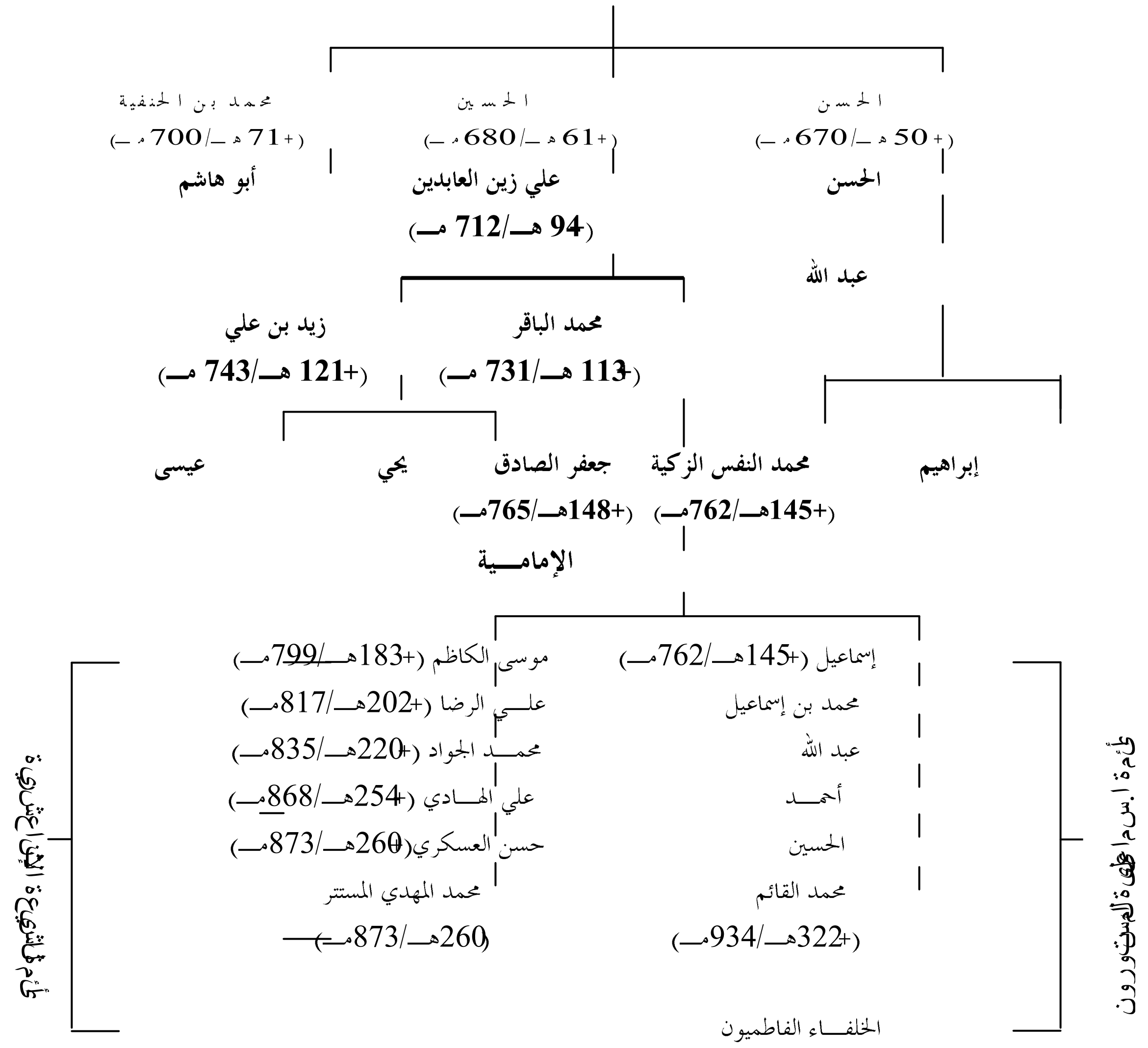
فتشتتت وتفرعت الشيعة فرقا منها أقليات ما تزال قائمة حتى الآن، أبرزها الفرع الإسماعيلي القائل بإمامة إسماعيل (**110-158هـ**) بن جعفر الصادق (**83-148هـ**) و هو الإمام السابع ، إضافة إلى الإثني عشرية كفرع آخر لا يقل أهمية عن الفرع الأول ، و ترد الإمامة إلى غير إسماعيل بل ترى أن الأئمة اثنا عشرة .

و ليس معنى كلامنا هذا أن باقي فروع الشيعة و فرقها قد تلاشت من الوجود ، بل اقتصرنا في حدينا على أهم الفروع و أكبرها لما لها من صدى على الصعيد الفكري. أما باقي الفرق الأخرى فأكثرها انضوى تحت هذين الفرعين أو تفرق أتباعه بموت الأئمة أو تسترهم.. و هكذا لم يصلنا عنها الكثير من أخبارها فقد تكون موجـــــودة و تنشط في بقاع مختلفة لكن الغالب عليها هو التســــتر . و يوضح لنا المخطط التالي الأساس الذي تنحدر منه أهم فرق الشيعة و أشهر أئمتهم وصولا إلى فرقة الإسماعيلية الباطنية:

1- محسن عبد الحميد ، حقيقة البابية والبهائية ، منشورات المكتب الإسلامي ، ط1 ،1999 ، ص 22

مخطط لأهم فرق الشيعة و أئمتها :

علي بن أبي طالب (توفي سنة40هـ/661مـ)[1]



و ما يمكن قوله إجمالا في ختام تحديدنا لحقيقة التشيع هو أن هذه الفرقة ارتبطت في ظـــــهورها و تطورها بآل البيت النبوي ، بالتحديد بالذرية العلوية رغم تعدد فـــــروعها و تنوع فرقها إلا أن القاسم المشترك بينها هو الإمام "علي" الذي كان أول إماما للشيعة ثم أبنائه من بعده ، و ما تزال هذه الشيعة موجودة حتى اليوم متمركزة في مناطق معينة .

1- عارف ثامر، القرامطة ، أصلهم نشأتهم تاريخهم حروبهم ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت لبنان [د ط] [دت] ص 44 ، 45 . وأيضا : حنا الفاخوري ، وخليل الجر ، تاريخ الفكر الفلسفي عند العرب، مكتبة لبنان الشركة المصرية العالمية للنشر لو نجمان،القاهرة ط1، 2002 ص 200

و حسب بعض الإحصائيات التي أجريت حول التشيـــــع تبين لنا أن « الشيعة هي الفرع الكبير الآخر للدين الإسلامي حيث تجمع حوالي 18%من المسلمين و تضم جماعات مهمة في إيران (الأغلبية)، و في العراق و لبنان (أين يمثلون إحدى الجماعات الوطنية) و في الديمقـــــراطية العربية لليمن (شمالا) »[1] و هناك أقليات أخرى من الشيعة منتشرة في أماكن عديدة ومن العــــالم ، تكتم تعاليمها و معتقداته بل يصعب أحيانا أخر كشف حقيقته .

المطلب الثاني : مفهوم الشيعــة الباطنيــة التعليميــة

أولا * المدلول اللغوي للباطنية

للوقوف على حقيقة الباطنية التعليمية من حيث هي فرقة شيعية قائمة على مبادئ هامة، كان لا بد لنا أولا من التعريج على معناها اللغوي وأصلها الاشتقاقي، فالباطنية مأخوذة من لفظ «باطن« Esotérique ضد الظاهر. و [Esoterusme] هو ما يضمر اعتقاده« [2] أما لفظ « باطني " فهو يطلق على الفرد المنتمي للباطنية، المؤمن بالباطن وأولويته على الظاهر الذي يراه بعيدا عن الحقيقة .

أما حقيقة الباطنية Esoterusme « وهو مذهب من يقول أن للعلم باطنا وظاهرا « وعليه فإن « الظاهر هو علم العامة والباطن هو علم الخاصة ، و أن علم الخاصة ينبغي أن يصان من الابتـــذال ويحجب عن الجاهلين « [3] .

فالباطنية كما ذكر في معاجم اللغة ومنها لسان العرب لابن منظور من لفظ «بطن« و«البطن من كل شيء جوفه وفي وصف آيات القرآن الكريم : لكل آية منها ظهر و بطن « و أراد بالظهر ما ظهر بيانه وبالبطن خلاف الظاهر والجمع بواطن.. و الباطن من أسماء الله عز وجل .. وقد روي عن النبي ﷺ في تمجيد الـــــرب: « اللـــهم أنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء «[4] و قال "بن منظور" في إيضاحه « معنـــــاه أنه علم السرائر و الخفيـــات كما علم كـــل ما هو ظاهر الخلق .. « [5].

1- Philippe Lannois. L'orient désoriente. p 40

2- عبد المنعم الحفني ، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة ، مكتبة مدبولي ،القاهرة ، مصر، ط3، 2000 ، ص 144

3- المرجع نفسه ص145

4 – صحيح، ذكره أبو داوود

5 – ابن منظور ، لسان العرب ج1 ، لفظ "بطن" ، ص 434

فالشيعة الباطنية إنما سميت بهذا الاسم لقولها بأن الحقيقة في الباطن لا في الظاهر. وأيضا لقولها بأن للقرآن ظاهرا وباطنا كما يورد ذلك المفكر "ديلاسي أو ليري" إذ « وضعت فكرة الباطن أو تفسير تفسيرا على غير ظاهره في المراتب الأولى باعتبـــــارها ضرورية لفهم معناه فهما صحيحا لأن المعنى الحرفي غالبا ما يكون غامضا ويشير أحيانا إلى أشياء غير مفهومة »[1].

و ذهب البعض الآخر من المفكرين إلى اعتبار « الباطــــــنية سميت كذلك لأنها ترى إن القرآن فيه المعنى الباطني و هذا المعنى الباطني وقف على الدعــــاة المجتهدين لا المكلفــــين بهداية المؤمن نيابة عن الإمام »[2]. و الباطنية شملت العديد من الفلاسفة والعلماء و حـــــتى غلاة متطرفين ، وما سموا كذلك إلا لقولهم بأن للقرآن باطنا وظاهرا . فقويت شوكتهم وتعاظـــم شرهم و زاد تخوف الخلق منهم .

لهذا كان معنى الباطنية محددا محصورا في فئة تؤمن بوجود الحقيقة في الباطن دون الظاهر و غالبا ما كان « يستخدم مصطلح البــاطنية للدلالة على فكرة أو نظرية لا تعني إلا الخاصة ولا يستوعبها إلا القليل من الذين أوتوا العلم .. وقد بدأ يطلق هذا الاسم على الطوائف التي تلجأ إلـــى تأويل النصوص الظاهرة في الكتب الدينية إذ أخذوا يعتبرون هذه النصوص الظاهرة رموزا لحقائق خفية »[3]. فالباطنية ارتبطت في معناها بالتأويل الباطني للنصوص الشرعية والعودة عن ظواهرها « وكان أول باطني إسلامي هو بن سبأ »[4] اليهودي الأصل.

ثانيا * المدلول الاصطلاحي للباطنية

الباطنيـــــة التعليمية بعيدا عن الجانب اللغــوي للكلمة ما هي إلا فرقة من الفــــرق الكلامية التي ظهرت لظروف و عوامل معينة كما حدث لسائــر الفــرق الأخرى و هي فرع من فـــــروع الشيعة ، و مرحـــلة من مراحل تطور هذا العمـــلاق الموالي لآل البيت وعليه « الباطنية شعبة من شعب الشيـــعة الـــباطنية كانت ترمي من وراء دعوتها إلى غايات سياســـــية خطيرة استفزت الخلافة في ذلك العهد »[5].

---

1 – ديلاسي أوليري ، معالم الفكر العربي ، ص 168

2– كامل حمود ، دراسات في الفلسفة العربية ، دار الفكر اللبناني ، بيروت لبنان ،[د ط] ،1991،ص228

3– كميل الحاج ، الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي ،مكتبة لبنان ناشرون ، ط1 ، 2000 ص 89

4– المرجع نفسه ص 89

5– أحمد توفيق عياد ، التصوف الإسلامي ، تاريخه و مدارسه و طبيعته و أثره، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة، مصر [د ط] ، [د ت] ص 123 ، 124

و هذا تعريف أكثر تحديدا لها فهي منتمية إلى الشيعة الفاطمية التي سيطرت على المغرب ومصر وحكمتها لفترة من الزمن اصطبغت خلالها هذه المناطق بالفكر الشيعي.

حيث ادعــت الباطنية العصمة لأئمتها و التقــديس لهم حتى أن الإمام " محمد أبو زهرة" (**1315-1394هـ**) يتحدث عن سر تسميتهم باطنية بــقوله « أنهم قالوا : إن الإمام مستور وإنه قد استمر مستورا إلى أن أنشئت لهم دولة بالمغرب ثم انتقــلت إلى مصر.. ولأنهم يقولون: إن للشريعة ظاهــرا وباطنــا ، وإن الناس يعلمون علم الظاهر وعند الإمــام علم الباطن ..»[1].

فالباطنية ما وصفت بهذا الوصف إلا لقــــولها إن للقرآن ظاهرا و باطنا ، و أن الحقيقة في الباطن دون الظاهر، مستدلة على دعواها بالآية الكريمة ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُـــــونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُــــمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَـــذَابُ ﴾ [2] ولمعرفة هذه الفرقة عن قرب كــان لزاما علينا الإحاطة بتاريخها و عقيدتها والإطلاع على تعاليمها ومبادئها.

المطلب الثالث : تاريخ ظهور الباطنية التعليمية و تعاليمها

أولا : تاريخها وألقابها

بالــعودة إلى تاريخ التشيع يمكن تحديد كيفية ظهـــــور الفرق الباطنية في العالم الإسلامي بالتحديد تلك الفرقة التعليمية والتي هي فرع من فروع الإسماعيلية.

- فكيف ظهر التشيع الباطني في العالم الإسلامي ؟ وكيف تشكلت الباطنية التعليمية ؟ و ما علاقتها بالإسماعيلية و الإمامية ؟ ترى ما هي أبرز فرقها و حركاتها ؟ و ما هي أهم التطورات التي عرفتها عقيدتها و تعاليمها ؟

يحدد لنا المفكــر الشيعي الحديث" حسن كــــاشف آل غطاء " تــاريخ التشيــع في مؤلفه عن أصـــل الشيعة و أصولهم قائلا عنه « إن أول من وضع بــذرة التشيع في حقل الإسلام - هو نفس صاحب الشريعة الإسلامية- يعني أن بذرة التشيــع و ضعت مع بذرة الإســـلام جنبا إلى جنبا و سواء بســواء »[3] لكن " الغطاء" لم يكتف بجعل بدايات التشيع مرافقة لنزول الوحـــي

1- محمد أبو زهرة ، تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة و العقائد وتاريخ المذاهب الفقهية ، دار الفكر العربي ، بيروت لبنان ،[د ط]، [د ت] ، ص 91 ، 93

2- سورة الحديد آية 13

3- حسن كاشف آل غطاء ،أصل الشيعة وأصولهم ، منشورات المكتبة الحيدرية في النجف ،ط14 ، 196، ص 82

أي منذ جاء الهـــــدي بل يرى أن النبي الكريم يد في ذلك ، أي أنه ســــاهم في خلق التشيع و احتضنه ، يقول " الغطاء" عن دور النـــبي الذي حسبه اعتقاده أول من وضــع بذرة التشيــع « و لم يزل بتعاهدها بالسقي و بالعناية حتى نمت وازدهرت في حياته ثم أثمرت بعد وفاته»[1] .

حيث استندت الشيعة التي ظهــرت بسبب المولاة لعلي – رضي الله عنه- إلى أحاديث مشهورة منها ما أورده "كـــاشف الغطاء" لأصل التشيع مؤكـــدا أن « أكثرها مروي في الصحيحين مثل قول النبي ﷺ « علي مني بمنزله هارون من موسى »[2] و أيضا قوله ﷺ «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله و عترتي أهل بيتي[3] »[4].

فهذه الشيعة الموالية لعلي في اعتقاد "حسن كاشف آل غطاء " تأسست في عـــهد مبكر من عهود الإسلام، و تفرعت إلى فرق وحركات مختلفة اختلفت فيما بينها ، وما يهمنـــا في بحثنا هذا هو التركيز على كيفية ظهور الحركات الباطنية بالتحديد والتي كان لها شأن عظيم و خـــطير في التاريخ في الوقت ذاته.

و لا بد من العودة إلى تاريخها لإطلاع أكثر على معتقداتها و كيفية ظهورها و فروعها و ألقابها و أماكن تمركزها.

إن من أشهر الفرق الشيعية التي ذاع صيتها في سائر كتب التاريخ بل ولقيت انتشارا واسعا على مر العصور حتى نسجت حولها الأساطير والخرافات وتداولت عقيدتها ومبادئها على الألسنة بين المؤمن المستجيب والمستهزأ المستنفر.. تلك الفرقة المعروفة بالباطنية أو الإسماعيلية أحيانا أخرى.

و يجمعوا الدارسون لتاريخ هذه الفرق على الاعتقاد الجازم بأن « الإسماعيلية فرقة من فرق الشيعة الإمامية ظهرت بعد موت جعفر الصادق (**148هـ/765م**) حين انقسم أتباعه على قسمين : قسم تبع ابنه البكر إسماعيل، وعرفوا بالإسماعيلية ، كما عرف بعضهم بالشيعة بالسبعية لأن إسماعيل في نظرهم هو الإمام السابع . و اعترف قسم آخر منهم بالأئمة إلى مـــوسى الكاظم أخي إسماعيل الأصغر ثم أحفاده من بعده حتى الإمام الثاني عشر (المهـــدي المنتظر)»[5] .

1- حسن كاشف آل غطاء ، أصل الشيعة وأصولهم ص 82

[2] **– صحيح ، وارد في الصحيحين ،و لدى بن ماجة ،**

[3] **– صحيح النسائي و الحاكم**

[4] **– حسن كاشف آل غطاء ، المرجع نفسه ، ص85**

[5] **– حسين علي حمد ، قاموس المذاهب والأديان ، دار الجيل ، بيروت لبنان ، ط1 ، 1998 ، ص 35**

وهؤلاء هم المعروفون الإثني عشرية . وبالنسبة للإسماعيلية فقد « اشتق اسمهم من اسم الإمام السادس ، وهم في حد ذاتهم ينقسمون إلى عدة جماعات ، و أهم مراكزهم تتواجد خارج الشرق الأوسط (في باكستان و الهند) وبعضهم يتواجدون في اليمن و سوريا و إيران و يترأسهم أغا خان«[1].و ما يزال نشاط الشيعة مستمرا إلى يومنا بل إن بعض الدول كإيران تعمل وفق تعاليم الشيعة وتؤمن بأفكار المهدي بل تتحدث اليوم عن مسألة ولاية الفقيه للأمة.

و تنتسب أغلب الفرق الباطنية إلى الإمامية التي تتخذ من مسألة الإمامة محورا تدور عليه جل عقائدها و الإمامية « هم القائلون بإمامة "علي" -رضي الله عنه- بعد النبي -عليه الصلاة و السلام- نصا ظاهرا وتعيينا صادقا من غير تعريض بالوصف بل إشارة إليه بالعين . قالوا وما كان في الدين و الإسلام أمر أهم من تعيين الإمام حتى تكون مفارقته الدنيا على فراغ قلب من أمر الأمة فإنه إنما بعث لرفع الخلاف وتقرير الوفاق فلا يجوز أن يفارق الأمة ويتركهم هَملا.. « [2].

وهذه الإمامية طعنت في الصحابة وشوهت صورتهم ، و لكن أتباعها مختلفون حول الإمام القائم « ثم إن الإمامية لم يثبتوا في تعيين الأئمة بعد الحسن والحسين ، وعلي بن الحسين رضي الله عنهم .. على رأي واحد بل اختلافاتهم أكثر من اختلافات الفرق كلها حتى قال بعضهم أن نيفا وسبعين فرقة من الفرق المذكورة في الخبر هم في الشيعة خاصة «[3] رغم كونهم متفقين على مسألة تفرغ الإمامة عن الإمام جعفر الصادق.

و انتهجت اغلب الفرق الشيعية في بداياتها طريق السرية وهو نفسه الدرب الذي سلكته الإسماعيلية الباطنية ، فبعد أن انتصرت هده الحركة الإسماعيلية الشيعية في دعوتها السرية لإمام العصر أثمرت جهوداته ا حيث أسست دولة لها، تضاهي و تنافس في الوقت ذاته الخلافة العباسية ألا و هي الدولة الفاطمية و الأئمة الإسماعيليون « اجتنبوا المجاهرة بالدعوة إلى اللحظة التي أثمرت الحركة الإسماعيلية السرية بظهور الإمام الشرعي في شخص "عبيد الله" على اعتبار أنه المهدي المنتظر. و قد أسس هذه الدولة الفاطمية في شمال إفريقيا سنة **910** م

---

[1]- Philippe Lannois. L'orient dés oriente .p41

[2] – أبو الفتح الشهرستاني ، الملل والنحل ،ج1، ص 169

[3] -المرجع نفسه ص 172

و أطلق على هذه الفرقة اسم السبعية تمييزا لها عن فرقة الأمامية المعروفة « [1].

وفي تسمية الإسماعيلية بالسبعية والباطنية وغيرها يؤكد العلامـــة"بن خلدون" «ويسمي هؤلاء الإسماعيلية نسبة إلى القول بإمامة إسماعيل ويسمون أيضا بالباطنية نسبة إلى قولهم بالإمام الباطن أي المستور ، ويسمون أيضا الملاحدة لما في ضمن مقالاتهم من الإلحاد «.

ويميز الدارسون بين الباطنية القديمة والباطنية الجديدة و ما دخل عليها من تطورات ويرى "بن خلدون" أن »ولهم مقالات قديمة ومقالات جديدة دعا إليها" الحسن محمد الصَّبَّاح" (**430-519**) في آخر المائة الخامسة وملك خصوصا بالشام والعراق و لم تزل دعوته فيها إلى أن توزعها الهلاك بين ملوك الترك بمصر وملوك التتر بالعراق فانقرضت « [2].

ويطلق الباحثون على الباطنية صفة "الشيعة الفاطمية" لموقعهم من شمال إفريقيا وأيضا لملكهم العظيم ودولتهم الفاطمية الزاهرة . ويحدد "عبد القاهر البغدادي" (توفي:**429هـ**) تاريخ ظهور فرق الباطنية بقوله « ظهرت الباطنية في زمن المأمون وانتشرت بعد ذلك في زمن المعتصم « [3]. ويضيف أيضا "الشهرستاني" في الملل والنحل ما يفيد تعدد ألقابهم « وأشهر ألقابهم الباطنية، وإنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطنا ولكل تنزيل تأويل «[4]

ليتبين أن الفرق الشيعية قد اختلفت تعددت بحسب المناطق التي تنشط بها فقد تلقبت في كل منطقة بلقب خاص « ولهذه الفرقة ألقاب متعددة منها القرامطة المزدكية (في العراق) والتعليمية والملحدة (في خرسان) «[5] و ربما يقع الكثير من الناس في الخلط بين العقيدة الباطنية وغيرها من العقائد الشيعية نظرا لتشعب الفرق المتفرعة عنها والمنسوبة إليها والتي تأثرت بعوامل حضارية وثقافية لتلك المناطق التي تنشط بها فامتزجت باليهودية والمجوسية والوثنية.

يقـــول الأستاذ "سليمان مظهر" في قصة الديانات « انقسمـــت الإسماعيلية نفسها أقساما خـــاصة بعد أن فـــرّ المعتنقون لها إلى فارس وخرسان وما وراء ذلك من الأقاليـــم الإسلامية

---

[1] – أجناس جولد تسيهر، العقيدة و الشريعة في الإسلام ، ترجمة محمد يوسف موسى ،علي حسن عبد القادر ،عبد العزيز عبد الحق ، مطابع دار الكتاب العربي مصر، ط2 ، [د ت] ، ص238

[2] – عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 215

[3] – عبد القاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ،دار المعرفة للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت لبنان ، ط3، 2001 ، ص 284

[4] – أبو الفتح الشهرستاني ، الملل والنحل ،ص 154

[5] – حسين علي حمد ، قاموس المذاهب والأديان ، ص 46

كالهند وتركستان وهناك خالط مذهبهم بعض أراء من عقائد الفرس والهند وتحت تأثيرها انحرفت بعض الطوائف الإسماعيلية حتى خرجت دائرة الإسلام «[1].

ومن أشهر هذه الفرق الباطنـــــية تطرفا أو إغراقا في الإلحاد والزندقة " السبئية" التـــي تعود ﷺ تسميتها حسب ما ذكر "الجرجاني" (740-816هـ) إلى "عبد الله ابن سبأ" قال فيها «السّبائيّة وهو عبد الله ابن سبأ(وأصحاب) قال لعلي-رضي الله عـــــنه- أنت الإله حقا، فنفاه إلى المدائـــــن و قال ابن سبأ لم يمت علي و لم يقتـــل و إنما قتل ابن ملجم شيطانا تصوره بصورة علـــي «[2] ولعب "ابن سبأ" دورا هاما في القول بألوهية علي وتقد يسه وخلوده و هي أفكار تداولتها من بعده السبئية وغيرها حيث أشاع في الناس أفكارا لم يقل بها علي ولا ذريته.

و الدراسات تكشف عن أصله اليهودي الهادف إلى ضرب وحدة الإسلام وتشويه تعاليمه و دوره في ما نشب من فتن بين المسلمين إذ « تولى كبر هذا الإفك عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء وكان يهوديا أسلم ، لكن الأحداث التي شارك فيها تدل على أنه كان يخفي يهوديته تحت ستار الإسلام « وما أقدم عليه في عهد عثمان ثم علي من بعد، يؤكـــــد يهوديته المعادية للإسلام فقد « ألبس الفتنة ثوب الأمر بالمعروف والنـــــهي عن المنكر فرغم أن عثمان ظلم عليا في أمر الخلافة وردّ الظلم واجب، ومن هذه الفكرة استطاع أن يخرج الفتنة من مصر إلى بقية الأمـــــصار وأن يجمع حوله الأتباع«[3].

مما سبق يتأكد بجلاء وجود صلة واضحة بين الباطنية باليهودية خاصة إذا نظرنا إلى فرقة السبئية إذ يؤكد الدكتور" فتحي الزغبي" في مؤلفه "غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام" وجود ارتباط واضح و تأثر بارز للشيعة بالديانات الأخرى لاسيما اليهودية فيقول « أن هناك صلة وطيدة بين الباطنية واليهود و هذه الصلة لها جوانب متعددة فالبعض يذهب إلى أن مؤسس الباطنية يهودي [أي ميمون بن ديصان المعروف بالقداح]والبعض الآخر يذهب إلى أن أفكار الباطنية هي بعينها أفكار اليهود خاصة فيما يتعلق بالظاهر والباطن «[4].

و من الفـــــرق الأخرى المنسوبة للباطنية القرامطة أو المزدكـــية وقد ذكـــــرهما " أبو حامد الغزالي" في مؤلفه فضائح الباطنية وهي تنسب إلى حمـــــدان قرمط .. وغيرهما من الفرق الأخـــرى

---

[1] – سليمان مظهر ، قصة الديانات ، مكتبة مدبولي ، مصر، ط2، 2002 ، ص 543

[2] – محمد الشريف الجرجاني ،التعريفات ،مكتبة لبنان ،بيروت لبنان ،[د ط]، 1990، ص 103

[3] – فرج الله عبد الباري ، موسوعة العقيدة و الأديان ، الاختراق اليهودي للمجتمعات الإسلامية، ج13، دار الأفاق العربية، ط1 ، 2006 ، ص 36 ص 32، 35

[4] – المرجع نفسه ، ص 43 ، نقلا عن فتحي الزغبي ، غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة ، ص 384

و الغالب لدينا أن أغلب الفرق الإسماعيلية الباطنية مشوبة بتعاليم الفرس وغيرهم وأنهم- أي أتباعها- اعتمدوا إخفاء عقائدهم السابقة للإسلام في طور الستر والتقية حتى تتاح لهم فرصة الظهور. و قـــد انحرفت بذلك الفرق الباطنية الإسماعيلية إلى الغنوص والمجوسية و ذلك بفعل عامل الاختلاط الثقافي والاحتكاك الحضاري حيث « ظهرت * الغنوصية على شكل طوائف أو فرق باطنية تحت اسم الغلاة أو الماموية أو القرامطة أو الحشاشين أو البابية أو البهائية أو إخوان الصفاء « [1].

ثانيا : تعاليمها و مبادئها

كان للإسماعيلـــــــية الباطنية سياسة خاصة ميزتها عن غيرها من فرق الشيعة لا سيما من حيث مبادئها وتعاليمها إذ اكتسبت طابع الغموض و التعقيد والسرية مما جعلهـــــا من أشد الفرق تنظيما وقوة « فهؤلاء ينظمون جمعية منظمة تنظيما دقيقا لها تعاليم سرية على حظ كبير جدا من الدهاء وتنتسب إليهم الدولة الفاطمية التي أسسها الفاطميون في مصر « [2] و لم تنكشف لنا هذه التعاليم إلا من خلال ما نقل عنهم في كتب التاريخ أو ما ظهر من مؤلفاتهم الخفية إذ كانوا يحرصون كل الحرص على كتمها و إخفائها لأسباب ودواع حتّمت ذلك.

ومن تعاليمهم:

- القـــــول بأفضلية الإمام علي وأنه الوصي وذريته هم أوليـــــاء وأئمة الدهر و هم في هذا الأمر كغيرهم من الشيعة « والشيعيـــــون يدعون أن خلافة الرسول كانت يجب أن تتم عن طريـــــق علي ابن عمه و زوج ابنته فاطمة لحدوث عكس ذلك فقد كانت مشاكـــــل في السلالة الحاكمة في أولى سنوات الإســـــلام نتج عنها اغتيال علي والحسين و قد قيـــل أن هذه الاغتيالات جاءت وحيــــا من الإلــــه« [3] و قـــد سبق الإشارة من قبل إلى مسألة " أفضل الصحابة " و كيـــف

* الغنوصية :كلمة غنوص أصلها كلمة يونانية تعني المعرفة أو الكشف واختلط معناها الاصطلاحي بالأسرار والسحر و الطلاسمة ، نشأت أول ما نشأت على يد كل من "باز ليدس و فالنتيوس" اللذان مزجا المذاهب اليونانية والوثنية بالنزاعات الفارسية والسريانية والأفلاطونية والفيثاغورية والسيراتية باليهودية والنصرانية والصابئة خاصة في العهد الهيلني المتأخر على يد القديس " كيلمانس ، أورجين" نقلا عن محمد عزيز نظمي سالم ، جدلية التاريخ والحضارة ، ص 204

1-محمد عزيز نظمي سالم ، جدلية التاريخ والحضارة ، مؤسسة شباب الجامعة ،الإسكندرية مصر ،[د ط] 1996 ، ص 204

2- سليمان مظهر ، قصة الديانات، ص 542

3- Philippe Lannois .L'orient désoriente .p 40

اختلف الخلق بشأنها ، و كان لهذه المسألة بالغ الأثـــر على ما جرى من أحداث في العالم الإسلامـــي لا سيما في الجانب العقائدي و الفكري و السياسي ، أين تجل التباين حول من الأفضـــل و الأولى بالحـــــكم .

- يعترف هؤلاء الباطنية بأن إسماعيل الإمام السابع «وظل الإسماعليون يعترفون بالإمامة لإسماعيل برغم أن أباه بعد أن نصبه للإمامة رجع فسحب الولاية منه لما رآه عليه من انغماس في الملذات والمنكرات وتعاطي الخمور».

- كما أحلو المحرَمات وأباحوا المنكرات « فزعموا أن الإمام مباح له أن يفعل كل شيء لأنه مطهَر عند الله ومعصوم من الخطأ و المنكر. فكل ما يأتيه من قول أو فعل يراه الرائي منكرا لـــيس كذلك إلا في الظاهر فقط أما الحقيقة فهو مبرأ منذ القديم من المعاصي معصوم من الخطأ »[1] بل لا يتبادر إلى الأذهان صدورها عنهم .

- إضافة للدعوة السريــــــة والقول بالتستر والتقية الضروريان ، فعند الحاجة يستتر الإمام حتى تنتصر دعوته و تقوى شوكته فكان لها نظام داخلي لا تعرف فيه الرئيس من المرؤوس و التابع من إمامه « و كان الإسماعيلية يخفون ما يريدون أن يحملوا الناس على إتباعه ويتظاهرون أمامهم بأمور أخرى و كان دعاة المذهب الإسماعيلي إذا شككوا المدعو وطلبوا إليه حل رموز الدعوة التي جعلوها سرية وأخذوا عليه العهود والمواثيق بألا يكشف عن سر دعوتهم وان يدافع عنها وان يتحمل في سبيل الدفاع عنها كل ضروب العذاب والآلام »[2].

لــــــذا عرف أتباعها بصبرهم على الأذى الذي تعرضوا له ، فرق الباطنية جميعا قد اضطهدت بل نكّل بمناصريها فقد «اضطهدت كغيرها من المذاهب الشيعية ففر معتنقوها على بلاد فارس وخرسان وهناك بلغ بهم الكتمان إلى درجة أنهم كانوا يكتبون رسائلهم وكتبهم دون أن يعلنوا أسماء كاتبها لذلك سموا بالباطنية »[3] و تجلى ذلك في رسائل *إخوان الصفاء الذين أعلنوا في رسائلهم عن انتمائهم للشيعة والتعاطف مع آل البيت. فصوروا فيها معانتهم وما عرفوه من ظلم و قسوة بسبب مغتصبي حقهم في الخلافة سواء كانوا أمويين أو عباسيين .

1- سليمان مظهر ، قصة الديانات، ص 542

2- المرجع نفسه ص 543

3- حسين علي حمد ، قاموس المذاهب والأديان ، ص 35

*** إخوان الصفاء : جماعة من المفكرين المجهولي الأسماء ، والذين تركوا آراء ومؤلفات هامة في مختلف المعارف والعلوم أجملت في "الرسائل " يؤكد جميع المؤرخين أنهم من الشيعة الأوائل الذين أسسوا الحركة الإسماعيلية الباطنية .**

إضافة إلى تعاليمهـــــم و مبادئهم السابقة لهم آراء و معتقدات أخـــــرى يؤمنون بها و يعملون بمقتضاها من أهمها :

–اعتقد الإخوان بأن الشريعة قد دنست بالجهالات و اختلطت بالضلالات و لا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة [1].

– « إن الله تعالى خلق النفس ، والإله هو الأول والنفس هي الثاني وهما مدبرا هذا العالم .

– الإمام معصوم عن الخطأ وليس مسؤولا أمام أحد من الناس .

– أنكروا المعجـــــــزات ونزول الملائكة و إباحة نكاح البنات والأخوات وشرب الخمر والتمــــتع بالملذات » [2].

زيادة على كل ذلك ، كان لهم تأويل للأحكام والأركان والعبادات وفسروا الظواهر الجلية تفسيرا باطنيا حيث « تعتقد بأن الأنبياء سبعة فقط . و تزعم بأن الله أوجد العقل والــعقل أوجد النفس ، ثم الكواكب وتفسَر الآيات تفسيرا باطنيا وتسقط بعد التكاليف الشرعية وتبيح عدم الاغتسال بعد الجماع ويذهب بالقول بأنه من لا إمام له فلا دين له » وهذا ما وجد خاصة عند فرقة « القرامطة أو الحشاشين ونسبهم إلى حمدان القرمطي وحسن الصَّبَّاح » [3].

لكن يبقى أهــم مبدأ ترتكز عليه جل تعاليم الشيعة بما فيها الباطنية هو موالاتهم لآل البيت وحبـــهم ونصرتهم لهم ، إلى حد تقديس البعض لهم . كما دفع هذا الأمر فئة من الشيعة إلى مسألة الوضع في الحديث بهدف إبراز مكانتهم و شرفهم آل البيت النبوي من نسل الإمام علي – رضي الله عنه – و فيما سيأتي تفصيل لكل ذلك.

1 * أفضلية أهل البيت و مكانتهم عند الشيعة (قداستهم و خلودهم)

مهما يكن من أمر الشيعة وحقيقتهم إلا أنهم – لا اختلاف في ذلك – مجتمعـــون على طهارة آل بيت رسول الله ﷺ الواردة في القرآن الكريم لقوله تعالى﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِـبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾[4].

[1] – إخوان الصفاء ، رسائل إخوان الصفاء ، ج 1 ، موفم للنشر،طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر ،[دط] 1992، مقدمة الرسالة الأولى

2– المصدر نفسه ، ص 47

3– محمد عزيز نظمي سالم ، جدلية التاريخ والحضارة ،ص 209

4– سورة الأحزاب ، آية 33

لأن أهم عامل وحد المتشيعين كان حبهم لأقربـــــاء الرسول الكريم ونصرتهم، فهم مجتمعون على حماية ذريته و حفظها مستدلين بقول المولى —عز وجل-﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْ ـــــراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾[1]

و يورد المفسر العظيم "بن كثير" (**700-774هـ**) تفسير بعض الشيعة لهذه الآية ، مشـــيرا إلى اختلافهم عن أهل السنة في ذلك فذكر أن « شيخا شيعيا هو حسين الأشقر فسرها على أن المقصود منها فاطمة وولدها رضي الله عنهما. والحق تفسير هذه الآية بما فسرها به حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – كما رواه البخاري ، ولا ننكر الوصاة بأهل البيت ، و الأمر بالإحسان إليهما واحترامهم وإكرامهم فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخرا وحسبا ونسبا »[2].

كذلك أوصـــــى الرسول بآل بيته وحث على إتباعهـــــم في قوله ﷺ في خطبته "بغدير خم" لقوله « إني تارك فيكـــــم الثقلين كتاب الله و عترتي ، و إنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض»[3] و في حديث آخر نقله الرواة عنه ﷺ حين سمع بأن قريشا إذا لقيت آل بيته لا تلقاهم بوجوه حسنة فغضب وقال « و الذي نفسي بيده لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله »[4] أو كما ورد في حديث أخر «حتى يحبكم لله ولقرابتي[5]»[6].

يؤكد جل الشيعة على أفضلية الإمام"علي" وآل بيته على غيرهم من الناس لذلك كانوا أتباعا لهم وموالين إذ «لا يقاس بآل محمد ﷺ و أله من هذه الأمة أحد و لا يسوى بهم من جرب نعمتهم عليه أبدا ،هم أساس الدين وعماد اليقين، إليهم يفئ الغالي و بهم يلحق التالي ولهم خصائص حق الولاية وفيهم الوصية و الوراثة، الآن إذ رجع الحق إلى أهله ونقل إلى منتقلة »[1] وإلى آل البيت العلوي ينسب الفضل كله والخير هم منبعه فهم عتره النبيﷺ .

---

[1] – **سورة الشورى آية 23**

[2] – **إسماعيل بن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج4 ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان ، ط1 ، 1985 ، ص179**

[3] – **صحيح ، أورده النسائي و الحاكم**

[4] – **صحيح ، أكده الترمذي**

[5] – **ضعيف ، من جامع السيوطي**

[6] – **إسماعيل بن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ص 180**

[1] – **علي بن أبي طالب ، نهج البلاغة ، مراجعة و تحقيق محمد عبده ، ج1، دار الجيل ، بيروت لبنان ، ص 30**

فآل البيت هم أفضل الخلق و أشرف البيوت وأطهرها و لم يبق لنا من نسل النبي سوى ابني فاطمة من علي و ذريتهما التي ما فتئ العدو يتربص بها ، ليفتتك منها شرف الإمامة ويسلبها حقها في خلافة النبي الذي ينحدرون من صلبه .

بل ذهب فريق من المتشييعيين للعلويين إلى القول بالخلود فقـــــد روى عن على- رضي الله عنه- أنه قال « أيها الناس خذوها من خاتم النبيين ﷺ و آله و سلم إنه يموت من مات منا و ليس بميت و يبلى من بلى منا و ليس ببال » فهم ليسوا كباقي البشر، إنهم أعلام مخلدون قادة الحق نور يقتدى به سائر الخلق لقوله - رضي الله عنه — للناس « بل كيف تعمهون وبينكم عتره نبيكم وهم أزمة الحق وأعلام الدين وألسنة الصدق » [1].

ومن مناقب الإمام "علي" التي يتغنى بها الشيعة ما يورده البخاري عنه من أحاديث تبرز فضله ومكانته عند الرسول الكريم منها قول النبي ﷺ لعلي « أنت مني وأنا منك » وقول عمر رضي الله عنه « توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راض »[2].

وجاء في حـــــديث آخر عن سهل بن سعد — رضـــــي الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال « لأعطين الراية غدا رجلا يفتح الله على يده » قال فبات الناس يدركون ليلتهم أيهم يعطاها ، فلما أصبح الناس غدوا على رسول ﷺ كلهم يرجون أن يعطـــــاها فقال « أين علـــي ابن أبي طالب ؟ فقالوا: يشتكي عينه يا رسول الله . قال فأرسلوا إليه فأتوني به »

فلما جاء بصق في عينه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال علي: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال له النبي « أنفذ على رسلك حتى تنزل ساحتهم ثم أدعهم على الإسلام وأخبرهم بما يجب علـــــيهم من حق الله فيه، فوا لله لئن يهدي الله بك رجلا واحد خير لك من أن يكون لك حمر النعم »[3].كما أثبت " البخاري" صحة الحديث المروى عن النبي ﷺ لعلي « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هـــــارون من موسى » [4] .

1- علي بن أبي طالب ، نهج البلاغة ، ص 30

2- البخاري ،صحيح البخاري ، ج3، دار الفجر للتراث ، القاهرة مصر ، [د ط] ، 2005 ، رقم الحديث 3700، ص 17

3- المرجع نفسه، رقم الحديث 3701 ص 20

4- المرجع نفسه ، رقم الحديث 3706 ص 21

و هكذا استندت الفرق الشيعية في دعواها و عقيدتها على حب آل البيت و خاصة الإمام علي و لم تكتفي بما روي عنهم من الأحاديث ، بل اعتمدت الوضع في الأحاديث لتأكيد مكانة آل البيت الطاهرين،و أحقيتهم بالإمامة حتى نسب إليهم بعض الشيعة كثيرا من الأخبار و الأحاديث المتواترة عن أهم أعلامهم و أئمتهم.

*2 كتاب الجفر

يؤكد كثير من الباحثين أن التعاليم السرية للباطنية قد حفظت في كتاب خاص بهم شامل لمذهبهم هو" كتاب الجفر" إذ يعتبر مرجعا لهم فيما يخص أمور العقيدة وغيرها وتحدث عنه "بن خلدون" في مقدمته قائلا « واعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هارون بن سعيد العجلي وهو رأس الزيدية كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم ولبعض الأشخاص منهم [...] وكان مكتوبا عند جعفر في جلد ثور صغير فرواه عنه هارون العجلي وكتبه وسماه الجفر ، باسم الجلد الذي كتب عليه [...] وصار هذا الاسم علما على هذا الكتاب عندهم »[1] و هو جلد معز لأن الجفر في اللغة كما أوضحه "الجوهري" (**332-400هـ**) أحد اللغويين هو« من أولاد المعز، ما بلغ أربعة أشهر »[2] فارتبط الجفر بالجلد الذي كتب عليه و حمل اسمه.

يقول عنه الأستاذ "محمد رضا" « اعلم أن الجفر عبارة عن العلم الإجمالي بلوح القضاء والقدر المحتوي على كل ما كان وما يكون كليا وجزئيا »[3] وكثير من شيعة اليوم يعودون إلى هذا الكتاب ليستقوا منه أحكاما تفـــــيدهم و تساعدهم على قضاء حاجاتهم فالجفر مرجع هام لـــــكافة المتشيعين ، و الاعتقاد السائد في الوسط الشيعي أن واضعه هو "علي" أو ربما "جعفر الصادق" صاحب المذهب الجعفري .

و رغم أهمية كتاب الجفر إلا أن الاختلاف قائم حـــــول شخصية واضعه و مسن تعاليمه السرية التي تضمنها « وقد ادعى طائفة أن الإمام علي بن أبي طالب وضع الحروف الثمانية والعشرين على طريـــق البسط الأعظم في جلد جــــــفر، وهو الذكر من المعز و الشاه الذي يبـــلغ أربع أشهر ، يستخرج منها بطريق مخصوصة و شرائط معينة ألفاظ مخصوصـــــة، يستخرج منها ما في لوح القضــــــاء والقدر وهذا علم يتوارثه أهــــــل البيت ومن ينتمي إليهم ويأخـــــذ منهم من

1- عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 149

2- إسماعيل بن حماد الجوهري ، الصحاح ، مرجع سابق ص 615

3-محمد رضا ، الإمام علي بن أبي طالب ، ص 233

المشايخ الكاملين وكانوا يكتمونه عن غيرهم كل الكتمان وقيل لا يقف على هذا الكتاب حقيقة إلا المهدي المنتظر ». فالتستر على محتوى ذلك الكتاب بما فيه من تعاليم سريـــــة لم يسمح لأي أحد من خارج المذهب الشيعي بالإطلاع على ما فيه من معتقدات و آراء.

وعليه رجـــــع الشيعة إلى هذا الكتاب واعتبروه أساسا متينا بنوا عليه جـــــل عقائدهم بل تأولوا آيات القرآن ونصوصه بحسب ما دوّن لديهم في الجفر، فتضمن عقيدتهم التي نسبوها إلى الإمام علي رضي الله عنه « وكون الجفر من العلوم التي أسرها رسول الله ﷺ إلى علي رضي الله عنه وتوارثه عنه أبناؤه، هو عقيدة المتقدمين من الشيعة الذين يعتقدون أن الأئمة لا تـــــــذنب ولا تخطئ تتريها لآل البيت ، وقيل إن الجفر كتاب وضعه الإما م جعفر الصادق الإمام السادس »[1] .و بعض المفكرين ينسبونه إلى علي أو فاطمة و الأمر محل جدال.

وهذا الكتاب إما أن يكون قد ألفه الإمام الصادق نفسه .. لأن أغلب الأحاديث منسوبة إليه .. وإما أن يكون قد ألفه الإمام علي كما ادعى آخرون ذلك . و المهم عندنا هو كونه منسوب إلى أهل البيـــت وحامل لتعاليمهم المتداولة بين شيعتهـــم مروية عن أشهر أئمتهم علما ، لما نقله عنهم بن خلدون في مقدمته لقوله « وكان فيه تفسير القـــرآن وما في باطنه من غرائب المعاني مروية عن جعفر الصادق»[2] . لذا لا يخفى على أحد من الدارسين للفكر الشيعي- لا سيما- الإسماعيلي الباطني ما لهذا الكتاب قيمة كبيرة لدى أصحابه.

3* التخطيط والدعاية وحسن التنظيم للفرقة الباطنية

إن الدعوة الباطنية التي اشتهرت في مصر كانت تعتمد أساليب خاصة في نشر عقيدتها بسرية تامّة حتى تتغلغل بين الناس وحينها تكشف عن نفسها وكـــــان أسلوبها - بالنظر إلى الدعوة الباطنية الجديدة مع الحسن ابن الصَبَاح- مختلفا في الإعداد والتنظيم ودرجـــــات وطبقات الدعاة ومـــراتبهم و مهامهم ..

و للإحاطة بأسلوب الباطنية في التخطـــــيط و التنظيم يمكن أن نستعرض بعضا من أســــــرارها التنظيمية في الدعاية ونشر دعوتها حتى قبل قيام ملكهم في شمال إفريقيا أي في دور الستر يذكر عنهم الدكتور " محمد كامل حسين" (**1901-1977**م) في مـــؤلفه العظيم "طائفـــة الإسماعيليـــة" قولـــه « أما قبل ظهـــور هذه الـــــدولة بينما كان الأئمة في دور الستر ، فـــكان

1- محمد رضا ، الإمام علي بن أبي طالب ، ص **233**

2- عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص **149**

لابد لهـــم من دعاة يدعون لهم سرا ، و يبشرون النَاس بقرب ظهورهم حتى تمَ للإمـــــام الإسماعيلي تأسيس ملكه« . فالتستر كان مرحلة هامة في الفكر الشيعي الباطني بل هو عقيدة راسخة لازمت نصب الأئمة و نشر الدعوة في مراحلها الأولى . و ما ذلك كله إلا لضمان سلامــــــة هؤلاء الأئمة و دعاتهم و من والاهم.

لهذا ركزت الإسماعيلية على انتقاء الدعاة ونشرهم في الأقطار والأمصار المترامية الأطراف حتى يتيسر لهم بفضل هذا الأسلوب التخطيطي المحكم نشر الدعة الباطنية في سرية تامة ، فنجاح الفرقة مرهون بمدى حنكة الدعاة ، وحسن التخطيط و التنظيم للدعوة « فالدعاية إذن هي الوسيلة التي اتخذوها لتحقيق نجاحهم في دور الستر وفي دور الظهور معا ومن ثم كان اهتمامهم بأمر الدعاي ة وأمر الدعاة حتى جعلوا الدعاية من صميم المذهب الإسماعيلي «[1] ولم يكن تقسيم الدعاة إلى مراتب ودرجات بالأمر البسيط لدى الإسماعيلية بل تراع فيه شروط وقواعد.. لشدة حرصهم على سرعة الانتشار من جهة وحفظ الدعوة وحماية الدعاة من المتربصين بها من جهة أخرى .

ولكـــــل داع عمل خاص موكل إليه لا يتجاوزه ولا يحيد عنه فمثلا كان هنالك دعـــاة للنهار وآخـــرون لليل وما هذه إلا رموز تدل على الدعاة الظاهـــــرين ونظرائهم من المستورين . « فدعاة النهار الإثني عشر في كل جزيرة كانوا يعرفون بالمكاسرين أو المكالبين وهم أصغر طبقة من درجـــات الدعاة كانت وظيفتهم أن يشككوا الناس في عقيدتهم، ولا يتجاوزون ذلك إلى أي عمل آخر «[2].

فإن نجح هؤلاء الدعاة الظـــــاهرين [دعاة النهار] في تشكيك المستجيبين ، وزعزعة يقيـــنهم ، ونشر البلبلة في أوساطهم ينتهي دورهم ويبدأ دور دعاة الليل الذين يتدرجون به إلى معرفة الحقيقة فينتقل المستجيب من داع إلى داع وصولا إلى أحـــد الدعاة الملقب "بالمأذون" « و الداعي المأذون و هو من دعاة الليل الذي يبدأ بأخذ العهود و المواثيق المؤكدة عليه (أي المستجيب) بأن لا يفشي سرا ولا يطلع على آرائه أحدا من الناس«.[2]

فـــــإن اطمأن الداعي إليه و وثـــــق من شدة تلهفه لعلم الحقيقة ، أرسله إلى من هـــــو أعلى درجة ومـــرتبة منه . وهنا ينتهي دوره أيضا ليبدأ دور من هو أعـــــلى منه فيكشف له من

1- محمد كامل حسين ، طائفة الإسماعيلية ، تاريخها نظمها و عقائدها ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة مصر، ط1، 1959 ، ص 132

2- المرجع نفسه ص 134

2 - المرجع نفسه ص139،138

المعرفة الباطنية ويعلمه من التأويل ما يثير تلهفه فإن وجد منه إقبالا أرسله إلى غيره .. وهكذا دواليك تتدرج مراتب الدعاة و مهامهم .

كما لاحظنا من خلال اطلاعنا على طبقات و فئات الحركة الباطنية حسن تنظيمها بحيث لا تتداخل وظائف الدعاة و مهامهم بقدر يحترم فيه كل ما أوكل له لا يتعداه و لا يقصر فيه« وهكذا نظم الإسماعيلية دعاهم تنظيما دقيقا جدا بأن جعلوا لكل داعية عملا خاصا لا يتعداه واختاروا هؤلاء الدعاة اختيارا دقيقا وأعدوهم هذا الإعداد حتى يستطيعوا أن يقوموا بما يعهد إليهم وقد أطلق عليهم حدود الدين »[1] .

لكن ماذا عن الإمام والمقر بين إليه من الدعاة وما دورهم ؟ وهل هم في مرتبة واحدة ؟ الحقيقة إن الإمام الإسماعيلي محاط بجملة من الدعاة المقربين يسمون "القيادة العليا" ونذكر منهم بعض المراتب كما تداولتها الكتب و كشف عنها المؤرخون للفكر الشيعي الباطني .

فلدينا مرتبة داعي "الدعاة" و هي الأكثر شهرة « إن الإمـــام يختار من دعاة الجزائر أقواهم بنانا وأصدقهم جنبا وأغزرهم علما فيجعله في مرتبة داعي الدعاة » ومن مهامه أنه موكل بالإشراف على سير الدعوة وتنظيم دعاها وموكل بعقد المجالس « وهو الواسطة بين دعاة الجزائر وبين الإمام فداعي الدعاة إذن لا يستتر بل هو معروف بين الدعاة جميعا وبين حاشية الإمام في أدوار الستر والظهور لأن مرتبته ليست من المراتب السرية »[2] .

ويوكل الإمام مرتبة أخرى إلى داعي الدعاة أحيانا وهي "الحجة" و قد يفرد لها داع آخر أقل منه درجة فهي مرتبة سرية فكان «يستر اسم صاحب مرتبة الحجة فلا يعرف أحد حتى داعي الدعاة نفسه» بهذا تظهر مدى سرية التنظيمات الشيعية ككل لاسيما الباطنية خاصة.

ومرتبة أخرى هي الباب وهي أشد سرية من غيرها إلى درجة أن من عرفوا بها كانو ا يعدون على الأصابع فكان باب الأبواب معروفا لدى الإمام فقط حتى « وصفه أحد علماء الإسماعيلية بقوله : وحدّ الباب هو من الحدود الصفوة والباب هو أفضل الحدود، وهو حدَ العصمة ولا ينتهي إلى ذلك إلا الآحاد والأفراد ».

إضافة إلى مرتبة أخرى تظهر غريبة التسمية لما يكتنفـــــها الغموض وهي « داعي البلاغ وهي من المراتب السَرية أيضا .. قيل إنَها مربية الاحتجاج بالبرهان في إثبات الحـــــدود العلوية ومراتبها وتعريف الـــمعاد »[3] وعليه نجد أن هؤلاء السابقي الذكر هم من يحوطون الإمام و يمثلون

1– محمد كامل حسين ، المرجع السابق ، ص 138، 139
2– المرجع نفسه ص 140
3 المرجع نفسه ص 141،142

الدعـــاة المقربين أو بالأحرى القيادة العليا.وهذه المـــراتب هي على التوالي «مرتبة باب الأبواب: وهي أعلى المراتب كـــلَها وهي مرتبة سرية ،ومرتبة الحجة، ومرتبة داعي البـــلاغ « و كلَها سرية عكس « مرتبة داعي الداعي أو الداعي المطلق وهي أعلـــى مرتبة ظاهرة»[1].

المطلب الرابع : الحسن بن الصباح ودوره في بناء الفرقة الباطنية التعليمية ونشر عقيدتها

بعد أن طاب للشيعة المقام في الدولة الفاطمية التي ساندت فكرهم و دعمته و نشرته من خلال مدارسها أصبح للشيعة شأن عظيم فقد قامت لهم و باسمهم دولة عظيمة بالمغرب . وتربصوا بالخلافات و الحكومات الأخرى و أرهبوا الملوك و السلاطين المجاورين بعد ما عانوه من أدى واضطهاد من قبل أقربائهم من بني العباس .

و كانت الدولة الفاطمية تجتذب إليها الأتباع و الأنصار من الشيعة المتفرقين في الأمصار لنصرة مذهبهم و نشر دعوتهم ، و يوضح الباحث المعاصر"كارل بروكلمان" (1868-1956م) أنه« وكان من جملة دعاة الشيعة المتنقلين في البلاد في عهد ملكشاه لاجتذاب الغوغاء من طريق التبشير بظهور المهدي المنتظر الذي سينتقم لهم من حكامهم الظالمين رجل يدعى الحسن بن صباح »[2] فقد كان له شأن عظيم في نشر العقيدة الشيعية الباطنية في فارس حيث كان.

أولا : تأسيس ابن الصباح للحركة الباطنية التعليمية

ما يذكره عنه الباحثون في بداية تأسيسه لحركته « إنه رحل إلى مصر حيث استهوته الدعوة الفاطمية و انحاز إلى صف نزار بن الخليفة المستنصر»[3] ضد أخيه "المستعلي" خلال الخلافة الفاطمية . إذ قصد "ابن الصباح" مصر واطلع على ما ساد فيها من أفكار وعقائد وكان يرى في الابن نزار الخليفة الشرعي للحكم الفاطمي بعد المستنصر لذا رفض « الحسن الصباح و أتباعه من الفرس أن يعترفوا بوريثه على العرش لضعفه واستكانته للقواد العسكريين و قطعوا علاقتهم بالنظام القائم في القاهرة وأعلن الإسماعليون الشرقيون ولاءهم لنزار، و هو ابن المستنصر تخطاه القواد العسكريون وولوا غيره ملكا »[4].

1- المرجع السابق ص 141،142

2- كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة : نبيه فارس و منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ، ط10، 1984 ، ص281

3- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

4- عبد المحسن عاطف سلام ، حيوات العرب ، الشركة القومية للتوزيع ، ط1 ،1968 ص585.

فدعا " ابن الصبّاح " للابن "نزار" ، وسمي هو و أتباعه الإسماعيليون "بالنزاريين" وقادوا ثورة كبيرة على السلاجقة « و قد تسمى أصحاب الدعوة الجديدة باسم الحشاشين ولعله اسم أطلق عليهم لاستخدامهم الحشيش لإحداث النشوة في إتباعهم »[1].

ثم نقل الحسن ابن الصباح الدعوة الشيعية الجديدة من مصر إلى بلاد فـــــارس و التف به المتعاطفون مع الخليفة "نزار" و هناك شرع في تشييد حـــــركة كـــان لها من التعاليم و الأعمال ما أرهبت به عدوها و حسب ما نقله عنه المؤرخون عن مسيرته في تلك الفـــترة أنه « في سنة **1090** ،عاد إلى فارس كداعية من دعاة الفاطميين فعسكر مع عصبة قليلة من أتباعه أمام قلعة ألموت* الجبلية »[2] .

و هناك حيث المسالك الجبلية الوعرة و الحصون المنيعة تمركزت الدعوة الباطنية وانطلقت عقيدتها و « لقد تحصن الحسن و أتباعه في قلعة آلموت في بلاد فارس فنشروا الهلع و الذعر، و فرضوا الضرائب على الناس و أسرفوا في القتل و قطـــع الطريق و الاعتداء على الأمنيين وسلب أمـــــوال القوافل والسابلة »[3].

و هكذا اقترن اسم هذا الداعية بفرقة الحشاشين الخطيرة ، و هؤلاء « الحشاشون فرع من فروع الحركة الإسماعيلية قادها احد الملا حدة الذين تستروا وراء حق آل البيت في الخلافة . و هو الحسن بن الصباح و أسسها على أسس تنظيمية دقيقة قسمها على سبع مراتب » وكانت لهم كغيرهم من الغلاة أعمال شنيعة إرهابية طالت العلماء و رجال السياسة على السواء . والتاريخ السياسي يتحدث بإسهاب عن جرائمهم البشعة المرتكبة في حق غيرهم إذ « اعتبروا الدين شيئا باطلا و كان شعارهم لا حقيقة الوجود وكل شيء مباح »[4] .

لـــذلك ظلت هذه الفرقة تفتك بالخـــلافات وتتربص بالحكومات و قويت شوكته حين اجتذبت إليها أصنافا شتى من الأتباع من ملل مختلفة وحدهم مبدأ نصرة الإمام العـــلوي و آله المضطهدين ، و رد الحق إلى أهله المستضعفين . بأي وسيلة كانت. و قد نجع "الصباح" في إقناعهم وتوحيدهم حتى أنه سمح لهم بإباحة بعض المحضورات ومنحهم من المزايا ما أرادوه بل و أكثر مما يسمح به لغيرهم من الناس .

---

[1] -المرجع السابق ص**585**.

* آلموت:ملجأ العقبان و تقع من ناحية "روذ بار"على مسافة (**60**) ستين فرسخا إلى الشمال من قزوين.

[2] – كارل بروكلمان ، المرجع السابق ص**282**

[3] – محسن عبد الحميد ،حقيقة البابية و البهائية ، ص **26**

[4] – المرجع نفسه، ص **25**

وصار الأتباع يبيحون كثيرا من المحرمات وينتهكون حرمات الدين و ابتدع لهم دعاقم ما يبررون به تلك الأفعال » و أشاعوا الرعب في بقاع كثيرة و لقد ظل الرعب منهم قائما حتى قضى عليهم المغول في القرن الثالث عشر «[1] إذ تمكن العالم من الإطمئنان و لو نسبيا حين » أدرك هولاكو ضرورة القضاء على طائفة الإسماعيلية قضاءا مبرما « حتى يسهل عليه فيما بعد الإستلا ء على كامل العالم الإسلامي .

و بفضل قوة إرادة الأشياع و دهاء ابن الصباح ، تمكن من الصمود و تطوير حركته لفترة لا أمل فيها بالنصر ملتجئا و أتباعه في قلعة ألموت الحصينة رغم أن المغول فتك بكل القلاع الإسماعيلية » في حين امتنعت قلعة ألموت فطال حصارها «[2] إلى أن وقعت على يده وتشتت شمل الأتباع .

» و هكذا تم القضاء على طائفة الإسماعيلية بعد أن ألقت الرعب في نفوس الخلفاء والسلاطين عن طريق فرقة الفداوية (الحشاشين) «[3] بينما بقيت أقليات منها منتشرة في جبال فارس و البهرة و شمال بلاد الشام . » و أصبحت الإسماعيلية بعد ذلك مجرد حركة صغيرة وتقلصت جهودها «[4]. و السبب في شهرتها واستمرارها راجع إلى دقة تنظيمها وحسن إعدادها الذي ساهم في إطالة عمرها.

ثانيا : درجات و طبقات الباطنية التعليمية

*تقسيم الحسن ابن الصباح للجماعة و دهائه و حنكته

لقد كانت الإسماعيلية كأي فرقة شيعية تسعى إلى التغلب و السيطرة للوصول إلى السلطة السياسية و في سبيل هذه الغاية لن يتردد دعاتها عن اعتماد شتى الوسائل و السبل المحققة لتلك الغاية المنشودة و الحسن بن الصباح أهم زعمائها و دعاتها، فهو بحق داهية شيعية محنكة أراد كسب الأتباع و نصرة "نزار" و ضمان الطاعة المطلقة له و عدم الخروج عليه فكان له ما أراد، بل و أكثر من ذلك. لكن كيف تسنى له دلك ؟ وبأي السبل تمكن من بلوغ غايته؟

أثار " الحسن بن الصباح " بأسلوبه التنظيمي المحكم في التخطيط و الدعاية دهشة أعدائه الذين عجزوا عن إخماد حركته الجديدة المناوئة لهم و نقصد الملوك العباسيين ، فقد استفاد مما

1- عبد المحسن عاطف سلام ، حيوات العرب ، ص586

2- عصام محمد شيبارو، السلاطين في المشرق العربي "المماليك " ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ،[د ط] 1994 ص 50

3- المرجع نفسه ، ص 50

4- عبد المحسن عاطف سلام ، حيوات العرب ، ص 586

شاهده حين كان بمصر خلال عهد الفاطميين » و الواقع أنه نظم الجماعة على الطريقة الفـــاطمية و جعل أتباعه درجات منهم المقربون و منهم ما دون ذلك « [1] .

و تقسيمه لأتباعه إلى طبقات ، ضروري لتنظيم الجماعة و أدوارها، و قد وجد عند القرامطة أيضا تقسيم للجماعة بحسب مراتب الوجود إذ أنّ » مراتب الوجود عند هذه الجماعة هي الله فالعقل فالنفس فالمكان فالزمان ، وطبقا لهذه المراتب كانوا يتخيلون أن المظهر الإلهي لا يتجلى في الكون فحسب بل يتجلى أيضا في نظام جماعتهم المتفاوتة المراتب « .

فهذه الجـــــماعة الشيعية المنظمة مقسمة إلى درجات و طبقات »كانت طبقات بعضها فوق بعض ممـــــا يقضي بالطاعة و التضحية « [2] و عليه تختلف التعاملات مع كل طبقة، حتى العقيـــدة و مبادئها و كيفية شرحها كان مختلفا أيضا بوجود هذا التقسيم و يظهر ذلك في علاقة الصبـــاح معهم » و بينما كان أفراد الطبقة الأكثر اتصـــــالا به يحيون حياة إباحية لا يحد منها أي من قيود الأخلاق أو الدين كان أتباعهم ينشئون على أشد التعصب وأغلظه « [3] ولهدف من تفاوت طبقات الجماعة الشيعية بالنسبة لابن الصباح هو تنظيمها و حســـن التخطيط للوظائف فهناك الدعـــــاة و هناك أيضا الحجج و ما دونهم .

و أرسى مبدأ التضحية في سبيل الجماعة و الإخوان و غرس في الأتباع عقيدة الإخلاص للدعوة و الموت في سبيل الإمام فلا يحق لأي كان بث أسرار الدعوة الباطنية أ كشف أسرارها إلا لمن وثقوا بموالاته لهم » وكان المقدمون في الجماعة يدخلون في روع هؤلاء الأتباع أن من قتل رجلا من أعداء الإيمان الحق إذا أشار به زعيمهم و ما يكسبونه من رضوان الله و يدخلهم جنات النعيم « [4] فالجهاد ضد أعداء العلويين ومغتصبي حقهم في الخلافة واجب سرا و جهرا . و على هذا المنوال تم ارتكاب المجازر و قتل العلماء المخالفين للفكر الباطني و لتعاليم الأئمة.

ما يذكره " دي بور" عن إخوان الصـــــفاء في هذا المجال – محبة الإخوان و التضحية في سبيل الجماعة و نصرة أمام العصر... - يؤكـــد ارتباطهم بالإسماعيلية البـــاطنية » وهـــم ينادون

1- كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص282

2- ت. ج . دي بور ، تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت لبنان ، ط5 ، 1981 ، ص 158

3- كارل بروكلمان ، المرجع نفسه ص 282

4- المرجع نفسه ص 282

بأن يكون الواحد منهم مخلصا حتى الموت إذ أن ملاقاة الموت في سبيل صلاح الإخوان هي عندهم الجهاد الصـــحيح « [1].

و كان يبيح لأتباعه المحرمــــــات و يرفع عنهم التكاليف الشرعية و لإحداث نشوة الأتباع وشهوة تدفعهم إلى الإبداع اعتمد وسائل جهنمية كالخمر و الحشيش لذلك «كان هؤلاء الفتاك يدعون الفدائيين أو الحـــشاشين « بسبب تعاطيهم الحشيش و أنواع المخدرات التي كانت رائجة آنـــذاك،كما أوضحها "بروكلمان" بقوله « و الحق أن تعاطـــــي المنبهات كان فاشيا في الحلقات الصوفية في غير هذا الموطن« [2] .

ثالثا :التخطيط والدعاية في عهد الحسن الصباح ودعوته

كما سبقت الإشارة من قبل أن " الحسن بن الصَّبَّاح" كان أهم رواد الدعوة الباطنية الجديدة في بلاد فارس وسميت حركته بالتعليمية لقوله بضرورة أخذ العلم والتأويل عن الإمام المعلم المعـــصوم ..و اتضح لنا من خلال ما سبق عرضه أن جميع الفرق الشيعية عملت على تنظيم دعوتها حتى تلقى النجاح المرغوب و على نفس المنوال صار "بن الصباح" و أتباعه .

فقد أسس دعوته على أسس وتعاليم لا تختلف كثيرا عن ما كان سائد في الدولة الأم مهد الشيعة ، لكن ابن الصباح كان له في تقسيم طبقات جماعته شأن خاص،كما رأينا لتنظيم الدعاية التي ترتكز عليها في دعوتها، فقد قسمها إلى قسمين « القسم الأول : الخاص بالدعاية الدينية فهو شبيه على حد بعيد بما كان عليه أيام الفاطميين بمصر ولكن عدد الدعاة تقلص ونقص بأن جعل " الشيخ" في مرتبة داعي الدعاة وله ثلاثة نواب فقط في الجبل وخورستان والشام ومع كل نائب عدد غير محدود من الدعاة الذين كانوا يدعون الناس للعقيدة الإسماعيلية النزارية « [3] .

فمن الواضح انه كان أحرص من سابقيه في السرية و الكتمان لما شهده الشيعة عموما من بطش العباسيين وغيرهم من الموالين لهم فكانت الدرجات العليا تركز عملها على العقيدة في جانبها النظري من معارف و أصول وعبادات و تأويلات « و أما القسم الثاني فهـــو خاص بالفدائيين وهؤلاء كانوا يتبعون شيخ الجبل نفسه مباشرة كانوا شبه حرس له وهو في الوقت نفسه قائدهم الأعلى يتلقون منه الأوامر مباشرة « [4].

1- دي بور ، المرجع سابق ص 159

[2] – كارل بروكلمان ، المرجع سابق ص 282

3 – محمد كامل حسين ، طائفة الإسماعيلية ، ص 143، 144

4 – المرجع نفسه ص 144

و هذه هي المعروفة بالفتك و الــقتل عند مؤرخـــي الإسلام فغالبا ما يرادف اسم الفـــدائيين تلك الفئة المعروفة بأعمال القتل والإرهاب وسلسلة الاغتيالات في صفوف العلماء ورجال السَياسة وهذه المجموعــــة مقسمة بدورها إلى مراتب وليســـوا ثلة واحدة » و لكنَهم على ثلاث درجـــات : أولا مرتبة الرفاق : وهم أشبه شيء برؤساء الفرق الذين كانوا يدربون الفدائيين ويشرفـــون على حاجياتهم ومطالبهم «.

و هناك مرتبة أخرى لها مهمة التنفيذ و هي التي تتولى أداء الأعمال التي يأمر بها الأئمة أو الدعاة جاء في وصفها ما يلي » والمرتبة الثانية : هي مرتبة الفدائيين وهم المجندون للقيام بما يأمرهم به شيخ الجبل بعد أن تم تدريبهم و أظهروا استعـــــدادهم للتضحية في سبيل إمامهم ومذهبهم «[1] و هؤلاء هـــم مـــنفذوا عمليات التخريب التي طالت العالم الإسلامي بكامله ونشرت الرعب في صفوف العامة والخاصة .

و لو نظرنا إلى العالم الإسلامي اليوم ، وما يشهده من عمليات تعرف » بالفدائية « خاصة في العراق موطن الشيعة لوجدنا عودة الفدائيين بالنموذج القديم إلى الحياة مجددا محيينا لتلك الحروب الطائفية بين السنة والشيعة مؤكدين على سياسة الموت التام والتضحية في سبيل تحقيق أهداف الحركة وعدم خيانة العهود والمواثيق ولا إفشاء سرّ الجماعة أو خيانة الإخوة والرفاق بل من واجبها التضحية في سبيل الآخرين .

و مرتبة أخرى تظهر في بداية الدعوة وهي التي تسمح بتمييز المعتنقين للعقيدة و إدراك قــــدراتهم و التفطن إلى ملكاتهم كمرحلة أساسية في الدعوة و هي مرتبة المؤمنين المستجيبين للدعوة يقول عنها "كامل حسين " » أما المرتبة الثالثة : فهي مرتبة المستجيبين وهم الذين في دور التدريب والتعليم وهؤلاء كانوا من الشبان الذين لا يزيد عمر الواحد منهم على عشرين عاما وهؤلاء كانـــوا في صغرهم يدربون بإشراف شيخ الجبل في قصره «[2] و هــؤلاء يتدرجون عبر عدة مراحل من الدعوة و يتم تهيؤهم و تعليمهم بالتدرج.

هكذا وضعت طبقات بالغة الترتيب محكمة البنيان من خلالها يتم تبليغ الدعوة وفي الوقت ذاته إرساء قواعد الدولة الفاطمية تدل على ذلك التكتيك السياسي المحكم الذي سارت عليه الباطنية في نظامها الداخلي و الذي نلخصه كما يلي:

1- المرجع السابق ص 144

2- المرجع السابق ص 144

إن نظام الإسماعيلية الداخلي ينقسم إلى خمسة أقسام :

* **المقدمون : وهم الرؤساء**

* **الدعاة : وهم الدين يثبتون الدعوة** [1]

* الرفاق : ويتولون إدارة حركة المؤمنين

* الفدائيون : وهم المنفذون للأحكام

* **المؤمنون : وهم المستجدون في الطريقة** [2]

هكذا إذن كان للباطنية طرق خاصة في إيصال المعارف والأسرار ، بمراعاة مراتب ودرجات الجماعة وفق خطوات محددة يكتنفها الغموض والسرية « أولها : اختيار استعداد الشخص لقبول التعاليم و ثانيها : الاستئناس به ، وثالثها : إدخال روح التشكك في أعماقه. فإذا نجحت هذه الخطوات الثلاث تؤخذ عليه المواثيق بألا يبوح بشيء مما يسمع ثم تبدأ خطوات الإقناع وأولها غرس الإيمان بعقيدة الإسماعيليين و قوتهم و ثانيها تلقين التابع تعاليم العقيدة ، فإذا تم ذلك رفعت عنه بعض الفروض الشرعية ومنح السرّ الأعظم» .

وما هذا التنظيم والأحكام السرية إلا لضمان انتشار دعوتهم في مأمن من تهديدات الحكومات والخلافات القائمة فلا يكشف المنخرط إلا القدر القليل لاستمالته ولا يعرف عن ما يليه من الدرجات إلا القليل .. « فإمام العصر يستمد فيضه من الله ليتم شريعة الناطق والحجة يستمد فيضه من الإمام ويكون حجة لوجوده، وذو المصة : يمتص العلم من الحجة والداعي الأكبر وهو أعظم المؤمنين مقاما ، والداعي المأذون يأخذ العهد ممن يريد الدخول في الإسماعيلية من أهل الظاهر والمكلب لا يؤذن له بالدعوة لكنه يرشد الطالب إلى المؤذون والمؤمن هو الذي دخل في زمرة الجماعة » [3] وعليه يستتر الإمام وهو ما يعرف بالتقية فيقوم الداعي يدعوا إليه حتى يكشف عن نفسه في الوقت المناسب للظهور والكشف .

***علاقة الإسماعيلية بالباطنية:**

– ترى هل هما فرقة واحدة تعددت تسمياتها و اختلفت بحسب المواقع و البقاع التي تنشط فيها ؟ أم أنهما فرقتان منفصلتان رغم تقاربهما و لكل عقائدها الخاصة ؟

1– سليمان مظهر ، قصة الديانات ص 543

2– المرجع نفسه ص 544

3 – **المرجع نفسه ص 544**

إن أغلب الدراسات التاريخية للحـــركات الشيعية وتطورها تؤكد أن الإسماعيلية والباطنية مختلفتان في القديم ربما في مرحلة النشأة فقط أما في مرحلة التطور فقد اندمجتا بحيث أننا نصـــادف في الكتب التي تتناول الحركات الباطنية و التي تم توظيفها في هذا البحث ،أنها تميز بين الباطنية والإسماعيلية من حيث النشأة تم تجعل منهمـــا فرقا انطوت تحت المذهب الشيعي الباطـــني باعتبار أن لهما نفس المذهب والمعتقد و حتى "الغزالي" يجعل من الاسمين دالين على فرقة واحدة هي التي انهـــــال عليها بالنقد لفضح و كشف أمرها في مؤلفه المستظهري، ملقبا إياها الإسماعيلية الباطنية والتعليمية بالتحديد.

ومن الواضح أن العقيدة الإسماعيليـــة تطورت في عهد الدولة الفاطمية وعقب وفـــاة الإمام الفاطمي " المستنصر بالله العبيدي" انقسمت هذه الفرقة إلى قسمين نزارية أتباع ابنه "نزار" و"مستعلوية" أتباع ابنه "المستعلي" و سبب الخلاف هو الصراع على الخلافة « وكان الحسن بن الصباح مؤسس الفرقة النزارية أو الحشاشين قد افتتح دورا جديدا هو دور القيامة وجـــعل من نفسه الحجة الكبرى لقائم القيامة »[1]

واعتبرت هذه الدعـــوة الجديدة المؤيدة للإمام " نزار" كإمام شرعي « أن نفس الحجة الكبرى هي امتـــــداد لنفس الإمام » فيكون بذلك كل إمام « يعلن بأنه قائم القيامة الجديد وخليفة الله على أرضه فهو إذن ناسخ الشريعـــة محلل الحرام ورافع الأصــــــار والأغلال التي هي الصلاة والصوم و الزكاة والحج » [2].

و ليضمن "الـــــصباح" تأييدا أكبر من مناصريه وأتباعه أسس مذهب التعليم الذي عـــــرفت به فرقته فيما بعد بالتعليمية و كانت تنشط ببلاد فارس و من خلاله يضمن الموالاة التامة من الأتباع فتحسن قيادتهم. يؤكد أبو حامد الغزالي في مؤلفه فضائح الباطنية الذي انتقدهم فيه بشدة أنه « لكي يستطيع ابن الصباح السيطرة على أتباعه أوجد لهم مبدأ جديدا هو مبدأ التعليم » [3] .بمعنى آخر ضمن "بن الصباح" بفضل اعتماده مبدأ أخذ العلم عن الإمام الذي هو المعلم المعصوم عدم العصيان من قبل الأتباع و طاعة عمياء لكل ما يصدر عن الإمام أو أي داع من دعاته المكلفين بتبليغ رسائله و تأويلاته للناس .

[1] – محمد أحمد الخطيب ، الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ، دار عالم الكتب ، للنشر و التوزيع ، الرياض السعودية، ط2، 1986، ص 106

2 – المرجع نفسه ص 107

3 – المرجع نفسه ص 107

و حسب ما يورده " الغزالي" « يقوم مبدأ التعليم على أصلين: الأصل الأول: هو التسليم [...] كلما سلم كل حد من هذه الحدود(الجماد ، النبات الحيوان) نفسه إلى الحد الذي يليه مقام ورتبة وجعل نفسه تحت تصرفه تحقق كماله « [1]. يضيف " الغزالي" عن الأصل الثاني الذي تعتمده التعليمية الباطنية « والأصل الثاني هو محبة الإمام وآية هذه عدم محبة النفس وذلك لأن من أحب نفسه مثقال ذرة فكأنما لم يحب الإمام قط« [2].

وهكذا صار من الضروري الجزم بأن هذه الحركة التعليمية الباطنية قد تفرعت عن الإسماعيلية أو بالأحرى ما هي إلاّ مرحلة من مراحل تطور الإسماعيلية عبر التاريخ . وقد أكد ذلك "الديلمي" في مؤلفه الشهير « بيان بطلان مذهب الباطنية « نفس الفكرة « فقد أجمعت الأمة المسلمة أن الإسماعيلية و الباطنية واحدة « [3].

رغم أن دراسات أخرى حديثة جعلتهما مختلفتان متمايزتان فالدكتور" علي سامي النشار" يرى أنه « من الخطأ الشنيع أن يقال إن هذه الباطنية هي الإسماعيلية « و حسبه تأكيد الدكتور النشار « هي أبعد ما يكون عن الإسماعيلية و إن كانت قد شابتها مسحة إسماعيلية « [4] فالإسماعيلية فرقة شيعية تقول بالإمام المعصوم وقد تبنت العقيدة المعتزلية في بداية أمرها حتى قوي عودها واشتد، وباشرت نشر عقيدتها الشيعية فيما بعد ومرت بفترات من التستر ثم الظهور حتى تمكنت فيما بعد من بلوغ ما بلغته.

وكان لها تاريخ عريق ، حافل بالأحداث ، رغم أن الخلط بين الباطنية والإسماعيلية من قبل المفكرين والباحثين يبقى الفرق بينهما قائما، و يكمن في اختلافهم حول مسألة الظاهر والباطن « تؤمن الباطنية بالباطن فقط ، بينما تؤمن الإسماعيلية بالظاهر و بالباطن « [5].

ومع تطور الفرقتين واتحاد أفكارهما صار من الصعب الفصل بينهما ، إذ يجعلهما البعض دالين على فرقة واحدة بينما يفصل بينهما آخرون « و قد أدى هذا الخلط إلى قيام مؤرخي الإسماعيلية من أهل السنة بالمزج بين الاثنين فنسب إلى الإسماعيلية كل طوائف الباطنية

1- المرجع السابق ص 107

2- المرجع السابق ص 108

3- محمد بن الحسن الديلمي ، بيان مذهب الباطنية و بطلانه ، مطبعة الدولة ، استانبول ، [د ط] 1938 ، ص92

4- على سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، نشأة التشيع و تطوره ، ج2 ، دار المعارف ، ط4 ،1969 ص546

5 – المرجع نفسه ص 64

والمجوســـية التي انتشرت في فارس وكثيرا ما اعتبر أهل الـــسنة والجماعة الخرمية إسماعيلية، كما نسبوا إلى الإسمـــــاعيلية التناسخ والحـــــلول«[1].

و مـــــن أهم المبادئ التي قامت عليها الباطنية و تميزت بها عن غيرها، حسب ما وردت في كتبهم وفي الكتب التي تناولتهم هي « الفيض الإلهي من المعرفة التي يفيض الله تعالى به على الأئمة فيــــجعلهم بمقتضى إمامتهم فوق الناس علما واحتسابا وقربا من النبـــي- صلى الله عليه وسلم وربه فعندهم علم الشــــــريعة«[2].

هذه النظـــرية موجودة عند "أبي نصر الفارابي" (**872-950**م) وأيضا أخذها فرق الشيعة عن الفلسفات « الأفلاطونــــــية المحدثة« والمبدأ الثاني دائما متعلق بالإمامة، إذ لا تخلوا الأرض من إمـــام قط ظاهرا معروفا أو غائبا منتظرا فهي أي الباطنية — تقول بوجوب الإمامة وأنه(لن تقوم القيامة حتى يظهر ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جوارا وظلما) .

ومهما يكن من أمر هذه الفرقة محل الجدل ، فإنها على اختلاف تسمياتها ، تبقى حقيقة وجودها راسخة، لما عرف عنها من أعمال الرعب بسبب موقفها السياسي . فقد استمرت تفتك بنظام الحكم العباسي وتطالب بالإمامة للعلويين و استمر الصراع قائما حول مشكلة الإمامة حتى يومنا هذا ، إذ نرى عودة بعض مظاهر الصراع المذهبي بين السنة و الشيـــعة أكثر احتداما في العراق اليوم حول السلطة والأحق بممارستها.

ضف إلى مـــا سبق ما انجر من مسائل عقائدية تؤكد وتثبت وجوب نصب الإمام بالنص،كمبدأ التوارث والوصية، وعصمة الأئمة وتسترهم .. ومـــا إلى ذلك من العلم بالغيبيا ت والأسرار الكونية من حركة الكـــواكب والأفلاك..وأغلب تعاليمهم محفوظة في الجفر.

- مما سبق عرضه في هذا المبحث يتبين أن للفرقة الباطنية دور بالغ الأهمية،على الفكر والسياســـــة،ولم يتوقف تأثير الحركة الباطنية على شمال إفريقيا حيث تمركزت دولتهم الفاطمية بل شملت مناطق هامة في العالم الإسلامي و استقطبت عددا هائلا من المستجيبين لعقيدته.

و سواء كانت الفرق الباطنية هي ذاتها الإسماعيلية أو تطور لها فالظاهر للعقول مدى التأثير المتبادل بينهما . بل إن كثير من الأفكار الباطنية مستقاة من الإسماعيلية القديمة لا سيمـــا و آن الاتفاق بينهما قائم حول أحقية الإمام السابع بالخلافة إضافة إلى مسائل أخرى مشتركة .

---

[1]- المرجع السابق ص**539**

[2]- محمد أبو زهرة ، الوحدة الإسلامية ، دار الفكر العربي ،القاهرة مصر ،[د ط] ، [د ت] ، ص**185**

– فالباطنية الإسماعيلية هي تلك الفرقة التي تركت بصماتها في تاريخ الفكـــر الإســـــلامي في جوانب متعددة « قام الإسماعيلية بدور خطير في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في بلدان مختلفة من العالم الإسلامي ولهــــــم اثر في التاريخ لا نستطيع آن ننكره ولا أكـــاد أعرف فرقة من الفـــــرق الإسلامية كان لها ما للإسماعيلـــية من تاريخ طويل حافل بالحوادث والتيارات »[1] . وما نقله عنها الدارسون لتاريخها و أفكارها يتفق مع ما قلـــــاه عنها.

إذ اجتذبت إليها الكثير من المؤيدين الذي شبوا على العقيدة الشيعية متسلحين بالشجاعة والإقدام بفضله لعبت الحركة الإسماعيلية دورا هاما في تاريخ البشرية و أثــــرت فيه تأثيرا بارزا و« كانت في أكثر مراحلها أداة هائلة من أدوات التغيير والإصلاح والبناء وزعزعة أركان المجتمع وإزالة رواسيه وتفكيك روابطه »[2].

ويذكر المفكر "يحي هو يدي" عن هذه الحركة « والأصل فيها كما نعلم التشيع لعلي بن آبي طالب وقولهم بأحقيته للخلافة بعد الرسول –صلى الله عليه وسلم– ومنادتهم بأن الإمامة حق شرعي له ولأبنائه من بعده »[3] لذلك يوضح أبو الحسن الأشعري سر تسميتهم بالشيعة في كتابة مقالات الإسلامية أنهم من الشيعة وأنهم« إنما قبل لهم الشعبة لأنهم شيعوا (شايعوا) عليا –رضوان الله عليه– ويقدمونه على سائر أصحاب الرسول ﷺ »[4].

والـــــملاحظ أن أغلب الباحثين يخلطون بين فرقة الباطنية و غيرها من الفرق الشيعية فالكتب التي تتناول الحـــركات الباطنية تصنف الإسماعيلية على أنها من أهم هذه الحركات الباطنية التي استمرت عبر التاريخ. وهـــا هو المفكر المعاصر "مصطفي غالب" (1923–1981م) يؤكـــــد على أنه « من استقراء النصوص التاريخية والعلـــمية الموجودة لدينا يتبين أن الحركة الإسماعيلية نشأت نشأتها الأولي سنة (127هـ)كحركة دينية علمية فلسفية تأويلية باطنية في العراق وفي الكـــــوفة بالذات خطط لهــــا ونظمها الإمام جعفر الصادق– عليه السلام –عميد المدارس الفكـــرية في الإسلام »[5]. ربما يميز كثير من المفكرين بين الباطنية والإسماعيليــــــة إلى الحد الذي يفصل بينهما نظرا لاختلافهما في بداية ظهورهما لكنهم لا ينكرون ما بينهما من ارتباط وتأثير أيضا.

---

[1]– محمد كامل حسين ، طائفة الإسماعيلية، مقدمة الكتاب

[2]– عارف ثامر ، القرامطة ، ص 100

[3] – يحي هو يدي، تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية، ج1 ، مكتبة النهضة المصرية ،[د ط]،[د ت] ص 80

[4] – أبو الحسن الأشعري ، مقالات الإسلاميين ، ص 05

[5]– مصطفى غالب ، الحركات الباطنية في الإسلام ، دار الكاتب العربي ، بيروت لبنان ، [د ط] ، [د ت] ص71

المبحث الثاني :عقيدة الإمامة عند الشيعة الباطنية

لعبت الباطنية التعليمية دورا بارزا على الساحة السياسية والاجتماعـــية والثقافية من خلال خوضـــها في مشكلة الإمامة وانفرادها بآراء في ذلك كان لها صداها وأثرها فيما بعد رغـــم أنها « لم تكن في أول أمرها تختلف عما ذهب إليه غيرهم من المسلمين في شيء وكان الخلاف ينـــحصر في نقطة واحدة ليست من صميم الدين في شيء إنما كان الاختلاف حول الإمامة حقا شرعيا للإمـــام علي بن أبي طالب ولأبنائه من بعده وذهبوا إلى أن هذا الحق الشرعي هو بأمر من الله سبحانه وتعالى ونص منه إلى نبيه الكريم» [1].

وهكذا أثبت أشياع الباطنية و مؤيدوها وجوب الإمامة وضرورة نصب إمام في كل عصر، وهذا ما ذهبت إليه جميع الفرق الشيعية عموما ، بل وأكـــدوا على عصمة الأئمة وضرورة التعلم عنهم . فأبطلوا بذلك النظر العقلي و الرأي مادام التأويل و العلم يؤخـــذ فقط عن الإمام الشيعي من ذرية "علي" فهو العالم بأسرار التنزيل والقادر على علم التأويل وهو المشرع و المسن و المتّبَع و أقاموا تصورا مميزا للإمـــامة أظهروا فيه مسائل جديدة خصتهم وانفردوا بها مثل مسألة عصمة الأئمـــة و خلودهـــم و غيرها من الأفكار الشيعية .

ولآجل تأكيد رواد الباطنية لدعواهم في الإمامة ، اعتمـــدوا على التأويل الباطني للشريعة، بل إنهم رمزوا إلى العبادات والأركان الشرعية بمرموزات غريبة وأولوا الظواهر الجلية واعتمدوا على الحروف والأعداد وحتى الأفلاك .. وما كل ذلك إلا لتدعـــيم رأيهم في مسألة الإمامـــة التي تدور حولها جل معتقداتهم الشيعية الباطنية.

ولنا الآن أن نفصل هذا الرأي المزعوم في الإمامة بعدما أجملناه من قبل لتتضح لنا الرؤية عن قرب و لنتمكنـــا من النفوذ إلى عمق الفكر الإسماعيلي الباطني ونميز بين غلوه أو مغالاته وبين اعتداله أو تفريطه فيما يخص الإمامة وتداعياتها العقدية .

المطلب الأول : التصور الشيعي الباطني لمسألة الإمامة

أكدت الشيعة على وجوب نصب الإمام كغيرها من الفرق الإسلامية فلا تستقيم حياة الأفراد دون إمام حسب ما ورد عن تصور" إخوان الصفاء" للإمام وهم من الشيعة الإسماعيلية الباطنية أنه صورة الصورة « فالإنسان صورة مختصرة من جميع صور الحيوان » [2] .

1- محمد كامل حسين ، طائفة الإسماعيلية ، ص03

2-إخوان الصفاء ، رسائل إخوان الصفاء ، ج4 ، ص 213

و بهذا رأوا أن الإمام شخص قد تجمعت فيه من الخصال ما جعله أهلا لاستحقاق منصب الإمامة ليكون خليفة لله إذ « أن هذه الصورة هي خليفة الله في أرضه متحكما على حيواناتها ونباتاتها ومعادنها حكم الأرباب على خولها »[1] ونستشف مما سبق أن الإمام مادام خليفة لله على خلقه ، فوجوده ضروري وبالتالي صار نصبه واجبا على الخلق .

هذا الرأي الشيعي الباطني هو ما أورده "الغزالي" عنهم في مؤلفه "فضائح الباطنية" لتأكيده أن هؤلاء الباطنية « قد اتفقوا على أنه لابد في كل عصر من إمام معصوم قائم بالحق يرجع إليه في تأويل الظواهر وحل الإشكالات في القرآن و الأخبار والمعقولات »[2].

أولا : الإمامة عقيدة شيعية في الأصل

لم يناد الشيعة حاكمهم باسم الملك أو الخليفة أو غيره من الألقاب بل انفردوا بتسميته إماما و الملاحظ « ان الشيعة خصوا عليا باسم الإمام نعتا له بالإمامة التي هي أخت الخلافة وتعريضا بمذهبهم في أنه أحق بإمامة الصلاة من أبي بكر لما هو مذهبهم و بدعتهم » باعتبار أن الإمامة مرتبة أشرف من الخلافة ولكن أغلب الخلق لا يعقلون ذلك وأيضا لغرض في أنفسهم « فكانوا كلهم يسمون بالإمام ما داموا يدعون لهم في الخفاء حتى إذا يستولون على الدولة يحولون اللقب فيمن بعده إلى أمير المؤمنين كما فعل شيعة بني العباس»[3] .

فظهر أن الإمامة عقيدة شيعية في الأصل، مفادها أحقية علي و ذريته في خلافة النبوة باعتبارها أمرا وراثيا لا تخرج من آل بيت النبي ﷺ. لذلك كان للإمامة شأن عظيم في الفكر الشيعي على اختلاف فرقه و مذاهبه فهي جميعها و إن شذا عنها البعض توجب نصب الإمام العلوي من نسل النبي الطاهر و هذا تكملة للرسالة الإلهية.

حتى المؤرخون لبداية التشيع يجعلون من الإمامة أساسا لبداية الخلاف بين المسلمين ومدعاة لفرقتهم و تشتتهم و تحزب فئة من الصحابة لعلي و موالاتهم لآل البيت . والشيعة في عمومهم يعتبرون الإمامة المحور الأساسي الذي تدور حوله كافة العقائد وكان « قوام مذهب الشيعة هو الإمامة لأن الإمام عندهم هو أكبر معلم و متصف بصفات وصف بها الأنبيا ء اللهم إلا النبوة فالإمام الأول قد ورث علوم النبي ﷺ و هو ليس شخصا عاديا »[4].

---

[1]– إخوان الصفاء ، رسائل إخوان الصفاء ، ص 114، 115

[2]– أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 42

[3]– عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ص 241

[4]– صبري خدمتلي ، المرجع السابق ص 63

و يؤكد الشيعة عموما على أهمية الإمامة و مكانتها في تسيير المجتمعـات و الإسماعيلية الباطنية بدورها لا تخـرج عن ذلك الإعتقاد .إذ يرى "إخوان الصفاء" في رسائلهم أنها أساس الخلاف القائم بين الفرق فيقولون « اعـلم أن مسألة الإمامة هي أيضا من إحدى أمهات مسائل الخلاف بين العلماء قد تاها فيها الخائضون إلى حجج شتى و أكثروا فيها القيل والقال وبدت بين الخائضين فيها العداوة و البغضـاء و جرت بين طالبيها الحروب و القتال و أبيحت بسببها الأموال و الدمـاء و لا تزال باقية إلى يومنا هذا لم تنفصل بل كل يوم يزداد الخائضون المختلفون فيها خلافـا على خلاف » [1] مما يبرز بوضـوح تأثيرها على الإنقسامات الفكرية والسياسية ، و دورها في استمرار النزاع بين الفرق و تأجيجه.

و مسألة الإمامة بالمفهوم الشيعي كغيرها من الآراء الشيعية الأخرى مستوحاة من أفكار فارسية و معتقدات فارسية قديمة إذ تأثرت العقيدة الشيعية بأفكار الفرس وامتزجت بها و ظهر ذلك خاصة في مشكلة الإمامة و نصب الخليفة بعد النبي ﷺ فبالنسبة للفرس« ان مبدأ انتخـاب خليفة للنبي أمرا غير معهود و لا مفهوم لأنهم لم يعرفوا غير مبدأ الوراثة في الحكم لهذا اعتقدوا أنه مادام محمد لم يترك ولدا يرثه فإن عليا هو الذي يجب أن يخلفه و أن الخلافة يجب أن تكون وراثية في آل علي» [2].

فـكان « معنى ذلك أن الخلافة لديهم بعيدة كل البعد عن مبدأ الشورى أو الانتخاب بل أنها بطريـق النـص من رسول اللهﷺ »[3].

ثانيا : العقل أساس وجوب الإمامة

يجعل الباطنية من العقل أساسا لنصب الإمامة و تأكيد وجوبها ، إذ لا يعقل ترك مصالح العباد دون اختيار إلهي و تحكم رباني لذا « يجب أن يعتقد كل مسلم بأن الرسول ﷺ لم يترك الدنيا بدون أن يعين خليفة له و إلا فيلزم أن يكون قد ترك أهم الأمور الدينية و ارتكب ما هو قبيح في نظر العقل وعند العقلاء وهـو منزه عن ذلك » و ما دام النبي ﷺ يهتم بشؤون أمته و يحرص على إتمام رسالته و نشرها بعد رحيله عنهم . لذا كان من الضروري أن « الإمام يجب أن يتم تعيينه من قبل الله كما هو في الرسول ﷺ لأنه هو الذي يعلـم من الذي يصلح للإمـامة » [4] .

---

[1]– إخوان الصفاء ، رسائل إخوان الصفاء ، ج4 ، ص 305

[2]– محمد أمين بدوي ، الشيعة و نشاطهم السياسي ، ص 22

3– المرجع نفسه ص 23

[4]– عبد الحسن دستغيب، النبوة ، ترجمة أحمد القبانجي ، دار التعارف للمطبوعات ، [د ط] ، 1988، ص 149

وحسب ما يؤكـــــده الفكر الشيعي " السيد عبد الحسن ديستغيب " اقتضـــى ذلك الوضع أمرا بالغ الأهمية لا غــــنى عنه لحفظ مصالح العباد تمثل في و جوب نصب الإمام ، بـــل و تعيـــنه من قبل النبي ﷺ لأنه »إذا لـــم يعيّن النبي ﷺ خليفة بعده فيلزم من ذلك القبح العقلي. لمــــاذا؟ لأن رئيس القوم أو القبيلــــــة إذا أرادا السفر فإن العقلاء يقولون إن عليه ألا يترك قومه بدون رئيس فكيف إذا كان السفر سفر الآخرة «[1] فبان من ذلك كـــله ارتكاز الإمامة الباطنية على العقل كدليل قاطع على وجوبها.

ولـــــم يكتف الشيعة الباطنية بذلك بل أضفوا على الإمامة هالة من التقديس و نوعا من التعاليم الممـــيزة لتكون محورا تدور حوله كافة معتقداتهم » فعقيدة الإمام هي حجر الزاوية في المذهب الشيعـــي بل أن كثيرا من المعتقدات الشيعـــــية الأخرى كالعصمة و الرجعة و البداء والتقية تدور حول الإمامة فهي جوهر العقيدة الشيعية «[2] .

مما سبق يتوضح لنا أن الإمامة كمسألة رئيسية في الفكر الشيعي كانت محور الخلاف بين المــــسلمين بل حتى بين الفرق الشيعيــــــة ذاتها، وهي واجبة وجوبا عقليا لا شرعيا » قال الإسماعيلية أن الإمامة أهم أركان الدين وأنهـــــا واجبة عقلا لأن القرآن و السنة في حاجة إلى تفسير و إيضاح«[3] وبذلك خالفوا غيرهم و خرجــــوا عن ما اتفق عليه اجماع أهل السنة .

المطلب الثاني : وجوب الإمامة بالنص و توارثها في الأعقاب

إذا كان نصب الإمام من الضروريات لحفظ الأمة وسياسة الرعية كما سبق الحديث عن ذلك من قبل، فإن هذه الضرورة تتأكد عند الباطنية ، حين تربط وجوبها بالنص ، وتعتبرها حقا متوارثا في الذرية العلوية ، لا مجال فيه للاختيار أو الانتخاب، لتضفي عليها هالة من التقديس، وتجعلها ركنا من أركان الإسلام و شرطا لصحة الإيمان أيضا .

أولا : النص على الإمامة

اتخذت الباطنية من النص سبيلا لإقامة عقيدتها في الإمامة التي اعتبرت المحور الأساسي الذي تتمحور حوله كافة عقائدها ، و كان لقولها بذلك أسبابه و مبرراته . ففي وجوبها بالنص مجلبة للطاعة من الأتباع، وبـــاعث على الخضوع التام لسلطة الإمام و عدم رفع راية العصيان في وجـــــهه ، ما دام قد تم تنصيبه بنص شرعي رادع للطغاة والمتمردين والضالين.

1– عبد الحسن دستغيب، النبوة ، ترجمة أحمد القبانجي ، ص 147

2– صبري خدمتلي ،العقيدة و الفرق الإسلامية ، ص 63

[3]– محسن عبد الناظر ، مسألة الإمامة ، ص 61

وبالنسبة لفرقة الإسماعيـــلية الباطنية يتم توارث هذا الحق في تولي الإمامة في ذرية "علي بن أبي طالب" بوصية من السابق فيـــهم إلى اللاحق الذي يليه ويعـــهد له بالخلافة والإمامة من بعده حتى « إن الإمامية تعتقد أن الله سبحانه لا يخلي الأرض من حجة عـــلى العباد من نبي أو وصي ظاهرا مشهورا أو غائبا مستورا وقد نص النبي ﷺ وأوصى إلى علي وأوصـــى علي ولده الـــــحسن وأوصى الحسن أخاه الحسين وهكذا .. »[1] و هكذا ينص كل إمام على غيره ليصبح أمر الـــنص شرعيا بل سبيلا لعقد إمامة الأئمة العلويين.

*1 أدلة وجوب الإمامة بالنص

و إذا كان النــــص على الإمامة قائما في الفكر الشيعي للتدليل على أحقية آل البيت العلوي بالخلافة ، فإن طبيعة هذا النص متفاوتة بين فرق الشيعة .إذ تجدر بنا الإشارة هنا إلى اختلاف فرق الشيعة في أمر النص على "علي" و إمامة « فالإمامية ومنها الإسماعيلية الباطنيـــــة قالوا بإمامة "علي" نصا ووصاية ويكون هذا بنص جلي بينما جعلته الزيديه خفيا واعتقدوا أن الإمـــامة لا تخرج من أولاده بعده وإن خرجت بظلـــم واغتصاب»[2].

ففرق الشيعة في مجملـــها نسجت معتقداتها وطـــورت مذاهبها بالاستناد إلى مسألة الإمـــامة فكان لها بذلك دور بالغ الأهـــمية على الصعيد السياسي والـــعقائدي، أرهبت به خلفاء عصرها على مر الزمن من غير العلويين الذيـــن ساندتهم ودعت لهم وإليـــهم مؤكدة على أن « الإمامة ليست من المصـــالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ويتعين القائم بها بتعيينهم ، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام ولا يجوز لنبي إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيـــــين الإمام لهم،ويكون معصوما من الكبائـــر والصغائـــر وأن "عليا" رضي الله عنه- هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها».

كما يميز العلامة "بن خلدون" بين تلك النصوص التي اعتمدتهـــا الشيعة لإثبات الإمامة ويرى أنها تنقسم إلى نصوص جلية وأخرى خفـــــية (بحسب الفرق) « فالجلي مثل قوله النبي ﷺ للناس في حجة الوداع « من كنت مولاه فعلي مولاه »ولما تطرد هذه الـــولاية إلا في "علي" ولهذا قال "عمر" « أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة».[3]

1- حسن كاشف آل غطاء ، أصل الشيعة وأصولهم ، ص 104

2- عبد الفتاح أحمد فؤاد ، الفرق الإسلامية وأصولها الإيمانية ، ج1 ، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر،الإسكندرية مصر،[د ط] [د ت] ، ص313

3 – صحيح أورده البخاري و غيره

إضافة إلى قـــول النبي الكريم في مدح الإمام "علي" « أقضاكم علي » و المقصود هنا الإمامة إذ « لا معنى للإمامـــة إلا الفضاء بأحكام الله و هو المراد بأولي الأمر الواجب طاعتهم لقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيـعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[1] لهذا كان (علي) حكما في قضيه الإمامة يوم السقيفـــة دون غيره .

كما وظف الشيعة من الباطنية حـــديثا هاما نسبوه إلى النبي أظهروا فيه نص النبي عليه وتعيينه له كوصي و ولي على ما خلف من بعده فرووا عن النبي قوله لعشيرتــــه عند بداية الوحي « من يبايعني على روحه وهو وصي وولي هذا الأمر من بعدى؟ فلم يبايعه إلا عـــلي»[2].

وأما غير الجلي فاعتمدوا فيه على التأويل لظاهر النصوص والخوض فيـــها بحثا عن بواطنها تماشيا مع مذهبها لكـــن العلامة بن خلدون يذكر بعضا من هذه النصوص الخفية في مقدمتـــه فيقول « وأما الخفي فهو بعث النبي ﷺ "عليا" لقراءة سورة "براءة" في الموسم حين أنزلت فكـــان "علي" القارئ المبلغ وهـــذا يدل على تقديم أي النبي ﷺ لعلي وهذه كلها شواهد بتعيين "علي" للخـــلافة دون غيره »[3]

كمـــا وظف الشيعة نصوصا من شرعية من القرآن والسنة وأولوها تأويلات باطنية ليعتمدوها كأدلة قاطـــعة ، يؤكدون من خلالها النص على الأئمة الشيعيين من الذرية العلوية لتولي زمام الإمـــامة وهذه الأدلة مــــتفاوتة فيما بينها من حيث صدقها وقوتها وتفسيراتها ..

فقـــــد أورد الدكتور "محمد أحمد الخـــــطيب" في كتابه "الحركات الباطنية في العالم الإسلامي" بعض النصوص الشيعية المؤولة للتدليل على وجوب الإمامة بالنص منها ما ورد في قوله " فهم يفسرون بعض الآيـــــات القرآنية بأن المقصود بها الأئمة من أهل البيت كقوله تعالى﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[4] فيزعمون أن رســـول الله قال في شرح هذه الآية « أنا المنذر وعلي الهـــــادي من بعدي » بل فسر الباطنية أيضا قوله تـــــعالى ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[5]. بأنه إقســـام بما هو غاية القسم « أن ذلك الكتـــــاب الناطق المترجم عن هذا الكتاب الصامت لا ريب فيه وأنه مختار من الله لمحمد وصيا كاختيار محمد من الله سبحانه »[6] .

---

[1]- سورة النساء آية **59**

[2]- صحيح أورده البخاري

[3]- عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص**210**، **211**

[4]- سورة الرعد أية **07**

[5]- سورة البقرة أية **02**

[6]- محمد أحمد الخطيب ، الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ، ص**102**،**101**

هـــــذه الأراء و الأفكـــار الشيعية القائلة بالعصمة هي ذاتها التي أوردهـــا الباحثون في الفكر الباطني من أمثال "جولد تسيهر" صـــاحب كتاب " العقيدة والشريعة في الإســـلام " و الذي جاء فيه بخصوص مسألة التنصيص اعتـــــقادا هام لطالما كان سادا بين الـــشيعة يفيد أن النبي قد أرث آل بيته الخلافـــة و العلم الإلهي أيضا « فقالـــوا بأن النبي بثه علوما كـــــان يخفيها عن جمهور صحابته لأنهم لم يكونوا أهلا لها » .

ويضيف أيضا"جولد تسيهـــر" موضـــحا سبب ذلك الــــــفعل النبوي قائلا " كما اختار النبي عليا وعيـــــــنه صراحة ليكون خليفة له فيـــما بـــعث لأجله هداية الأمة وحكمها وتدبيرا أمورها فهو لذلك وصي أي أنه انتخب برغبة النبي وإقــــراره» [1].

مما سبق نستنتج أن إمامة " علي" واجبه الطاعة بالنص- عند الــــشيعة- و ليس بعد النص عليه شك في إمامته هو و ذريته من بعده ، و يقولون « لا تصح صلاة ولا صـــــوم ولا عبادة إلا معرفة الله، النبي والإمـــــام "ومن أنكر إمامته [...] حسبهم فهو مخلد في النار (تراه الشـــــيعة كافرا) » [2] فكان نصب الإمامـــة من الضروريات و معرفة الإمام القائم من أشد الواجبات.

وكما رأينا أن الإسماعيلية البـــــاطنية لا تختلف عن غيرها من الفرق الشيعية الإمامية الأخرى في مسألة النص الجلي ، إذا « حكـــــى شيخنا أبو القاسم البلخي أن الإمامية تزعم أنه ﷺ نص على"علي"- عليه السلام-باسمه وأظهر ذلك وأعلنه وأن أكثر الصحابة، بل كلها ارتدوا إلا ستة أنفس وتزعم أن الإمامة قرابة وأن الإمام يعلم مــــا تحتاج إليه الأمة من دينها »[3].

ويذكر الإمام "محمد أبو زهرة" في مؤلفـــــه " الوحدة الإسلامية " أن الشيعة الإمامية تجمع على القول بأن « الأئمة عينوا من النبي ﷺ بالـــــشخص لا بالوصف فعين النبي ﷺ عليا وهو يعيين من بعده بوصيته من النبي ﷺ وكذلك من بعده ...الخ . كما أجمع الإمامية على أن إمامة علي- كرم الله وجهه - قد ثبتت بالنص عليه بالذات من النبـــــي ﷺ نصا ظاهرا ويقينا صادقا من غير تعريف بالوصف بل بالعين» [4].

---

[1]- أجناس جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام ، ص**196**

[2]- سميح دغيم ، موسوعة مصطلحات علم الكلام، الجزء الأول، مكتبةلبنان، ط **1**، **1998**، ص **212**

[3]- المرجع نفسه **219**

[4]- محمد أبو زهره،الوحدة الإسلامية ، ص**181**

رغم أن " البغدادي" يشير إلى أن هذه الفرقة الشيعية على اختلافها، إن كانت تتفق في مسألة وجوب النص على الإمامة فهي لم تتفق على علة ذلك الوجوب، إذ يقول « واختلف هؤلاء في علة وجوب النص عليه فمهم من بناه على أصله في إبطال الاجتهاد ومنهم من بناه على أصله في وجوب عصمة الإمام»[1].

2* بطلان الاختيار في وجود النص

ومما يرد عن الشيعة في مختلف المؤلفات التي تناولتها بالبحث و التحليل أنها لا تخرج عن نفس المبدأ القائل بالنص على الإمام و رفض الاختيار، و يورد أبو الحسن الأشعري رأيهم هذا في مقالات الإسلاميين فقد« قالوا لا تكون إلا بنص من الله سبحانه و توقيف و كذلك كل إمام بنص على أمام بعده فهو بنص من الله سبحانه على ذلك وتوقيف عليه »[2].ذكرهم الأستاذ "عبد العزيز الثعالبي" في مؤلفه "محاضرات في التفكير الإسلامي والفلسفة" حين قال «أما الشيعة فقد أنكروا الاختيار وهم مجمعون على أن الإمامة في النص والتعيين»[3].

فكان نصب الإمام عند الشيعة كغيرهم من سائر المسلمين ضرورة للأمة مع زيادة في القول بإمكانية تستره غيبته أي ليس من الضروري أن يكون ظاهرا للعيان ، بل نتبعه ونطيعه و لا نستبدله بغيره ، يظهر ذلك فيما يذكره عنهم البغدادي بقوله « أجازت الروافض غيبته عن جميع الناس وأوجبوا انتظاره و لم يجيزوا نصب إمام في حال انتظارهم من ينتظرونه»[4].

3* الإمامة تفويض إلهي توجهه عناية إلهية

مع غياب الاختيار و القول بالنص الإلهي و التفويض ، أصبح الحكم السياسي الذي دعا إليه الشيعة وأرسوا دعائمه حكما " *تيوقراطيا " أساسه الاختيار الإلهي للإمام الحاكم المنصوص عليه من النبي و الذي يوصي لمن يليه بتوفيق من الله فالعناية الإلهية تتدخل في نصب الإمام يظهر ذلك من خلال أراء المفكر الشيعي"حسن كاشف الغطاء" التي تؤكدا على

1- عبد القاهر البغدادي ، أصول الدين ، مطبعة الدولة ، استانبول ، ط1، 1982، ص280

2- أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين ، ص148

3- عبد العزيز الثعالبي ، محاضرات في التفكير الإسلامي و الفلسفي ، ص270

4- عبد القاهر البغدادي ، المرجع نفسه ، ص 273

* تيوقراطي théocratie :حكم تمارسه طبقة قدسية مغلقة...و يستعمل بعض الكتاب الإنجليز هذه الكلمة للدل على المذهب القائل : إن الله هو المصدر الحق للسلطان الأخلاقي في المجتمع * أندريه لالاند ، موسوعة لالاند الفلسفية، الجزء3، ترجمة: خليل أحمد خليل ، منشورات عويدات ، بيروت لبنان ، ط2 ، 2001 ، ص 1449

وجوب الإمامـــة بالنص وارتباطها بالنبوة . إذ يقول أن «الشيعة الإمامية زادوا ركنا خمسا وهو الاعتقاد بالإمامة يعني أن يعتقدوا أن الإمامة منصب إلهي كالنبوة».

بل ويزيد في التوضيح أكـــــثر عن ذلك الاختيار الإلهي للأئمة تماما كاختيار الأنبياء قائلا «كما أن الله سبحانه يختار من يشـــاء من عباده للنبوة والرسالة و يـــؤيد بالمعجزة التي هي كنص من الله عليه [...] فكذلك يختار للإمامة من يشاء و يأمر نبيه بالنص عـــليه وأن ينصبه إماما للناس » [1]إذن الإمامة بالنص من الله على لسان نبيه، فعليه أن يحسن تبليغ ذلك للخلق أجمعين.

يؤكد المفكر الشيعي الحديث "حسن كاشف آل غطاء" كل ما سبـــق الحديث عنه من أفكار وآراء تتعلق بمسألة توارث الإمامة والنص عليها الإمامة في مؤلفه " أصل الـــشيعة وأصولهم " و الذي زخر بشتى أرائهم حولها ، لا سيما تأكيد توارثها و النص عليها من الله عند الإمامية و التي تعتبر الباطنية أهم فرقها فيحكـــــي تصور هده الشيعة الإماميـــــة لعقيدة الإمامة بقوله « إن مرادهم بالإمامة كونها مذهبا إلهيا يختاره الله بســــــابق علمه بعبادة كما يختار النبي بأن يدل الأمة عليهم » [2]و النبي مخبر عن كل ما بلغه عن ربه بما في ذلك الإمامة و الوصاية .

و هـــــذا الاختيار من الله إلى الحاكم واضح في أمره لنبيه بأن يدل عليها، أي ينص ويوضح ذلك للأمة فالإمامـــــة هنا لا تكون إلا بنص واختيار الله هذا نفسه ما قالت به أوروبا العصور الوسطى عن الحكم "الـــــتيوقراطي" الذي يكون فيه الحاكـــم بأمر من الله وانقـــــياد من الشعب بفعل الإرادة والعناية والإلهية.

و لا تختلف الإسماعيلية الباطنية عن غيرها من سائر فرق الإمامية الذين « يعتقدون أن الله سبحانه أمر نبيه بأن ينص على "علي" وينصبه علما للناس من بعده » ولكن حسبهم أن النبي تردد في ذلك لأنه أدرك أمرا ما و خشـــــيه « وكان النبي يعلم أن ذلك سوف يثقل على الناس و قد يحملون على المحاباة والمحبة لابن عمه وصهره» [3].

[1]- حسن كاشف آل غطاء ، أصل الشيعة و أصولهم ، ص **98**

[2]- المصدر نفسه ، ص **102**

[3]- المرجع نفسه ، ص**102**

فحـــاول الإشارة إلى ذلك بأحاديثه يمكن فهم مضمونها والمقصــــــود منهـــا بتدبر وتأمل وتأويل وتفسير فهي أمثلـــــه مضروبة وإيماءات مكشوفة.. حتى أتى أمر الله الذي طلب منه الإفصـــــــاح بدقة عن الأمر الإلهي يقول آل غطاء « لكن الله سبحانه لم يعذره في ذلك فأوحى إليه ﴿ يَا أَيُّهَـــا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهـــْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [1] «[2].

وبذلك أتى الأمر الإلهي الداعي إلى الإفصاح بدقة عن المقصود الإلهـــــي بالنص على الإمامة لعلي وبهذا كانت الإمامـــــة واجبة بالنص من الله على لسان نبيه الكريم "محمـــــد" الذي عمل على تبليغ ذلك في حادثة غـــدير "خـــــم" أثناء حجة الوداع ليعلمها الناس كافة.فيدرك أتبـــــاعه أحقيته بالخلافـــــة دون ريبة أو شك، حتى أن التزارية وهي من الإسماعيلية الباطنية قـــد « جعلت من نور الإمام مبدأ الكون الأسمى و اعتبرت مبدأ الإمـــــامة ، أي مبدأ الهداية موجودا قبل إبداع الكون «[3] و ربطته بالوجود و خلق الكون فالإمام هو إذن الأمر الإلهـــي و الكلمة وهو"كن" التي انطلق منها الوجود كله .

و نتيجة لما سبق وصف الحكـــــم السياسي الشيعي بأنه حكم تيوقراطي، ولا يخفى على أحد ما لهذا الحكم" التيوقراطي" من صـــدى و تأثير علي الرعية و تسيير الأمة، فقد ساد أوروبا وعرفت به قرونها الوسطى التي حكم فيهـــا الأباطرة الناس باسم الدين بدعوى اختيارهم من الله فهم كلمته وهم خلفاؤهم الدين اختارهم بعناية ليسودوا أرضــــــه وليحكموها نيابة عنه وباسمه كما حكمها من قبلهم الرسل و الأنبياء .

فكــــــانت الخلافة بالمنظور الشيعي تعيين من الله « و لهذا المبدأ جسدوا معنى الحكم "التيوقراطى" داخل الأمة الإسلامية . ومعناه أن يصبح مصدر السلطة السياسية للإمام وحكمه ولا يستمد من الأمة و إنما يستمد من الله «[4] والحاكم هنا على قدر كبير من القداسة نظرا لارتباطه بالرسول- صلى الله عليه وسلم- من ناحية النسب العلوي.

---

[1]- سورة المائدة آية **67**

[2]- **حسن كاشف آل غطاء ، المصدر السابق ، ص102**

[3]- **حنا الفاخوري، وخليل الجر، تاريخ الفكر الفلسفي عند العرب ، ص220**

4- إسماعيل زروخي ، الدولة في الفكر العربي الحديث ، دار الفجر للنشر و التوزيع ، القاهرة مصر ، ط1 ، 1999 ، ص22 ، نقلا عن محمد فاضل زكي ، الفكر السياسي العربي الإسلامي ، ص 241

ثانيا : توارث الإمامة

إن الباطنية التعليمية تذهب مذهب غيرها من الفرق الشيعية على اختلاف فرقها وتوجّهاتها في مسألة وجوب الإمامة من الذرية النبوية « فوجود إمام لكل عصر أمر ضروري لا غنى عنه لأن الغاية من التشريع السماوي والتوجيه الإلهي لا تتحقق دون إمام حائز لمثل هذه الهداية وهذه العلوم الربانية » لكنها تزيد على القول بالوجوب أمرا يتعلق بتوارث هذا الحق في الخلافة لتبقى و بشكل حصري قائمة في آل البيت من أبناء فاطمة .

مما يؤكد على أن الوارثة هي أساس الإمامة عند الشيعة أما الإختيار و الإتفاق لتعيين الخليفة فهو مما لا يؤخذ به في الفكر الباطني « فالإمامة هي نظام واجب وتنتقل بوارثة لا تنقطع إلى أفراد الذرية النبوية الحائزين على مثل هذه الصفات »[1] فالوصاية و الوراثة مرتبطان بمسألة النص على الأئمة وتعاقبهم على الحكم.

و هذا معروف عند سائر فرق الشيعية من أتباع الإمام "علي" « القائلون بإمامته بعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم- بالنص الجلي أو الخفي ويرون أن الإمامة لا تخرج عن أهل بيته وهي ليست قضية مصلحيه وأمرا سياسيا يتحقق بتعيين الأمة بل هي قضية مبدئية»

بل يجمع أتباع "علي" على الاعتقاد بأن الإمامة لا توكل إلى الخلق ليختاروا من يؤمهم و يراعي مصالحهم و إنما هي أمر يتجاوز حدود البشر و اتفاقهم لأنها « هي ركن من أركان الدين ولا يجوز على النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يغفل هذا الأمر ويوكل تعيين الإمام إلى عامة الناس»[2] بل عليه نصب الإمام و تعيينه للخلق حتى لا تتضارب أراؤهم و أهواءهم .

هكذا إذن دلل الشيعة عموما و الباطنية خصوصا على إمامة العلويين على مر الزمن وتعاقب الفترات بنصوص شرعية أكدوا- حسبهم -صحتها ويقينها. معتمدين سبلا عدة منها التأويل الباطني مادامت الغاية المنشودة من كل ذلك الإقناع بالإمامة الشيعية و التأكيد على صحتها و أحقيتهم بها « فقد زعمت أغلب فرق الشيعة و منها "الإمامية "و " الجار ودية " من " الزيدية "و"الراوندية " من العباسية أن الإمامة طريقها النص من الله تعالى على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإمام ثم نص الإمام على الإمام بعده»[3] .

1– أجناس جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام ، ص197

2– مجموعة من الباحثين ، موسوعة الأديان في العالم ، ج4 ، الفرق الإسلامية ، دار كريبس أنترناسيونال ، بيروت لبنان ، [د ط] ،2000 ص 37 ،38

3– عبد القاهر البغدادي ، أصول الدين ، ص270

يوضح الإمـــام " أبو حامد الغزالي" قول الإسماعيليـــة الباطنية بفكرة التوارث في "فضـــــائح الباطنية " مبرزا مدى تمسكهم بضرورة توارث حق الذرية العلوية في خـــلافة النبي « و اتفقوا على أنه المتصدي لهذا الأمـــــر ، و أن ذلك جاد في نسبهم لا ينقطع أبدا الدهر و لا يجوز أن يقطـــع»[1] ثم يذكر " الغزالي" دليلا لهم في ذلك التمسك بالحق في الإمامة و توارثها في الأعقاب حتى لا تنقطع قائلا « و لا يجوز أن ينقطـــع إذ يكـــون فيه إهمال الحق وتغطية عن الخلق وإبطال قوله – عليه السلام– « كل سبب ونسب ينقطع إلا سببي ونسبـــي » و أيضا قوله « ألم أترك فيكم القرآن و عتـــرتي.. »[2].

و في مسألـــة النص على الإمامة تأكيدا جازم و أشد وضوحا على النص على توارثها، بل إنه هذا حق عند هـــذه الفرقة إذ « يرى التراريون أن الجزء الإلهـــــي الموجود في الإمام ينتقل من الأب إلى الابن عن طريق النص »[3] ورغم إنكار المنكرين لحق التـــوارث نجد أنصار الشيعة من الشعراء يؤكدون ذلك فقد ورد على لسان "الكميت":

يقولون لم يورث ولولا تراثه	لقد شركت فيه بكيل وأرحب*
ولانتشلت عضوين منها يحابر*	وكان لعبد القيس عضو مورب
فإن هي لم تصلح لحي سواهم	إذا فذوو القربى أحق وأقرب[4]

حتى أن "علي سامي النشار" أكد ذلك في دراسته للشيعة وعقائدها إذ خلص في بحثه إلى أن أساس عقيدتهم هي الفكرة القائلة « لولا وجود الإمام لساحت الأرض بمن فيها فالإمام إذن عنصر وجودي كوزمولوجي» .

بل يضيق الدكتور " علي سامي النشار" تأكيدا آخر يوضح من خلاله عقيدتهم الراسخة في ارتباط وجود الإمام بنظام الكون فحسبه «خلق الكون لأجله ولا يوجد الكون بدونه ولو لم يوجد لما وجد الكون، فهو مركز السكون ونقطة الوجود »[5]

---

[1]– أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص **42**

[2]– المصدر نفسه ، ص **42**

3– حنا الفاخوري و خليل الجر ، المرجع السابق ، ص**221**

*بكيل وأرحب: قبيلتان وهما من همدان

*يحابر: قبيلة من مراد ، نقلا عن أحمد أمين ، المرجع السابق ، ص **305**

4– أحمد أمين ، ضحي الإسلام ، ج**1**، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، ط**1** ، **2005** ، ص**305**

5– على سامي النشار ، نشأة الفكر الفلسفي الإسلام ، ص**527**

لكن إن كانت الفرق الشيعة تختلف في إسناد الإمامة إلى أبناء علي ، فإن الباطنية تحصرها في أبناء علي من فاطمـــة وصولا إلى جعفر الصادق الذي ترى الإسماعيلية أنه أوصى بالإمـــــامة إلى ابنه البكر "إسماعيل" الذي أوصى بها إلى أبنائه من بعده ، وبقيت متوارثة فيهم ، و لا يجوز أن تخرج عنهم و سبق أن أشرنا إلى ذلك عند تعريف الباطنية.

المطلب الثالث : عصمة الإمام وضرورة التعلم منه

أولا : عصمة الإمام

من المصطلحات التي ظهرت و انتشرت مع ظهور الشيعة و اتسع نطاقها فيما بعد حين أثبتوا أن الأئمة من أهل البيت معصومو ن عن الخطأ و الخطيئة. فإضـــــافة إلى تقديسهم وتوارثهم للإمامة أضيف إليهم جانب العصمة و لشدة إلحـــاح الشيعة على القول بها، أصبح هناك ارتباط وثيق بيـــنها و بين الإمامة بل « لقد فهمت العصمة على أنها قوة تحمي الإنسان من الأخطاء والمخاطر مادية كانت أو معنوية »[1] كأنها وقاية له من ارتكاب المعاصي فهي واجبة له كوجوبها للأنبياء رغم اعتراض أهل السنة و الجماعة على ذلك .

فدعوى عصمة الأئمة من الشيعة توجب الطاعة لهم من قبل الأتباع « و من هنا فإن المؤيدين لا يرتكبون شيئا من الكبائر وإنهم معصومون لأن أرواحهم تصورت بصور الجن في قوالبهم و الصغائر مغفورة لهم لأن أحكامهم شبيهة بأحكام الإنس بالقوة وذلك لتشبصهم في القوالب »[2] وبـــذلك اعتبر أئمة الشيعة من طينة خاصة و وجبت لهم الطاعة العمياء.

و بعدما أكدنا على قول الباطنية بالعصمة كصفة ملازمة للإمام الشيعي علينا أن نكشف عن بعض الأغراض التي من أجلها تعمد هؤلاء الشيعة إضفاء هذه الصفة على أئمتهم .وكان أهمها عدم رفع راية العصيان على الإمام باعتباره معصومـــا وأيضا مقدسا فهو ظل الله في أرضه و هذا يقتضي عصمته و عليه لا يجب على الناس معارضته « حتى لقد تعرض الناس للموت إذ أظهروا سخطا أو تذمرا أو قاومـــوا أوامر الخليفة و نواهيه لأنها صادرة من الله الذي أملاها على الإمام المعلم لأنه تلقى علمه من الله عن طريق الوحي»[3].

1- محسن عبد الناظر ، مسألة الإمامة ، ص 415

2- عبدان قرمط ، شجرة اليقين ، دار الأفاق الجديدة ، ط1 ، 1982 ، ص 30

3- حسن الخربوطلي ، الإسلام و الخلافة ، ص 202 ، 203

الأئـــــمة الشيعيون معصومو ن مقدسون طاهرون يرثون بعضهم البعض و هم حقيقة خلفاء الله في أرضه و ظله وهذا يدل على نوعية الحكم الشيعي التيوقراطي القائل بفكرة الحق الإلهي والتفويض الربـــاني إذ « لقيت نظرية الحق الملكي المقدس التي كانت سائدة في بلاد الفرس في عهـــــد " آل ساسان " و التي أخذها عنهم الخلفاء العباسيون فيمــــا بعد قبولا عند الخلفاء الفاطميين ، و أصبح الإمام في نظر الناس ظل الله في الأرض» [1].

و حسب ما ورد من أخبار عن الشيعة أنها تقول بعصمة الأئمة تماما كعصمة الأنبياء وقد ذكر عنهم "البغدادي" في "أصول الدين" لقوله « قال الشيعة كلها بوجوب عصمة الإمام في الجملة » يضف « وهم مناقضون لهذه الدعوى في التفضيل لأنهم ثلاث فرق زيدية وأمامية وغلاة » [2] مما يبرز أن العصمة والمناداة بها متفاوتة في القوة والتفضيل بين فرق الشيعة رغم أنها قصر عليها هي فقط ،لأنه قد« قال أكثر الأمة أن العصمة من شروط النبوة والرسالة وليست من شروط الإمامة وإنما يشترط فيها عدالة ظاهرة» [3] .

و بهذا يظهر أن مسألة عصمة الأئمة العلويين قد انفردت بها الشيعة و بلغت فيها ما قد بلغت من الغلو والتطرف في بعض الأحيان، حتى أن من الشيعة من بني الإمامة على وجوب العصمة « و زعم أن العصمة لا تعرف بالاجتهاد وإنما يعرف المعصوم بالنص» [4] .

ومن خلال دراسات بعض المؤرخين للتيار الشيعي تبين لهم وجود تقارب و تأثير بينهم وبين التيار الصوفي في بعض جوانبه حيث ظهر « توافق المتصوفة والشيعة في إسباغ العصمة على الأولياء والأئمة» بمعنى أن صفة العصمة ظهرت لدى الطرفين وشاعت بين أتباعهما ولوعدنا للفكر الشيعي عموما نجد « أن أول شيعي قال بعصمة جعفر الصادق كان هشام بن الحكم المتكلم الشيعي الكوفي وأنه رأى أن الإمام أحوج إلى العصمة من النبي» [5].

و السبب في ذلك الإختلاف حسب ما ورد عن هذا المتكلم « أن الثاني – أي النبي – يوحي إليه فيســـدد الله خطاه ، و أما الثاني فلا يوحي إليه و لذلك احتاج إلى العصــــمة» [6]

1- حسن الخربوطلي ، الإسلام و الخلافة ، ص 202

2- عبد القاهر البغدادي ، أصول الدين ، ص278

3- المرجع نفسه ص 277 و 278

4-المرجع نفسه 280

5- كامل مصطفى الشيبي ، الصلة بين التصوف والشيع ، ص385

6- المرجع نفسه ص 385

و لم يظهر وصف العصمة إلا في الفكر الشيعي مرتبطا بالأئمـــة و قد أثبت " دونا لدسن " أن العصمة فكرة شيعية أصلية لم تتطرف إليها الأسفار الدينية المسيحية واليهودية، و لم يقل بها المسلمون الأولون في جدالهم المسيحيين وأن القرآن نفسه لم يذكر عصمة الأنبياء[1].

لكن العصمة عن الكبائر وصف بها الأنبياء والأئمة معا لدى الشيعة ماعدا بعض المغالين الدين قصروها على الأئمة دون سواهم لأن « الشيعة على العموم يعصمون الأنبياء والأئمة معا » فقالوا بأن الله « حفظ الأنبياء بالوحي والأئمة بالعصمة»[2] لكن بعض الغـــلاة من الشيعة تمادوا في القول بعصمة الأئمة إلى درجة بلغت حد تأليههم و رفع الأحكام والتكاليف عنهم باعتبـــــار أن الإمام معصوم من الخطأ والخطيئة .

رغم أن جمهور الأمة يقر بعصمة الأنبياء دون الأئمة باعتبار « أن أهل السنة متفـــقون على عصمة الأنبياء في تبليغ الرسالات و كل ما يبلغونـــــــه عن الله تعالى من أمر و نهي فهم مصدقون »[3] قد ورد في العصمة للأنبياء ما وصف به سيدنا يوسف- عليه السلام- حين حكى الله تعالى حاله على لسان زوجة العزيــــــز لما جمعت له من النسوة ليتربصــــــن به ، قال الله تعالى ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيــــهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونــاً مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾[4].

إلا أن اتفاق هدا بخصوص عصمة الأنبياء، ما يزال محل جدل فالبعض يرى عصمتهم في الكبائر والصغائر معا، في حين يرى آخرون أنهم معصومون من الكبائر دون الصغائر لأنهم بشر مثلنا يخطئون و يصيبون،والغزالي بدوره يؤيد هدا الموقف الثاني « فالأنبياء كما وصفهم القرآن لا يتعمدون المعاصي و لا يفكرون فيها ، و لكنها قد تصدر عنهم عرض فينبههم إذ ذاك الوحي و يرشدهم و لذلك كان الرسول يقول : إنه ليغان على قلبي و إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة[5] »[6] فـــالنبي الكريم محمد و غيره ممن سبقه من المرسلين لم تثبت عصمتهم وهم أقرب الخلق إلى الله . فكيف بحال الأئمة إذن؟

1- كامل مصطفى الشيبي ، الصلة بين التصوف والشيع ، ص385

2- المرجع نفسه ص 387

3- مصطفى حلمي ، نظام الخلافة ، ص 240

4- سورة يوسف الآية 32 :

5 -صحيح متفق عليه

6 - أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1 ،دار السلام للطباعة و النشر و التوزيع و الترجمة ، القاهرة مصر ، ط2، 2005 ،ص 320

فإذا كان النـــــبي يرى نفسه عرضة لارتكاب الأخطاء و يلجأ إلى الاستغفار اليومي و الدائم لإحساسه بأنه غير مـــــعصوم فما بالوا الشيعة إذا يدَعون العصمة للأئمة الذين هم من جملة البشر يخطئون و يتمادون و يعــــتريهم النقص و الخلل.

لذلك يرى الدكتور مصطــفى حلمي بطلان القول بالعصمة للأئمة لما يرد عــــنه من القول «أما دعوة عصمـــــة الأئمة فلم تقم حجة تدعمها إلا ما يراه الشيعة من ضرورة عدم خـــلو العالم من أئمة معصومـــين و هم علة اللطف و المصلحة «[1].

ثانيا : بطلان نظر العقول في وجود معلم معصوم

1* أخذ العلم عن الإمام المعلم المعصوم

قامت الدعوة الباطنية على مبدأ أخذ المعرفة من معلم ادعت له كل العصمـــة حتى تلقبوا بهذه الصـــفة و عرفوا بالتعليمة الدين مثلوا الدعوة الباطنية الجديدة مع "الحسن ابن الصَبــَاح" في بلاد فارس . الذي أرسى مبادئ دعوته انطلاقا منه فدعا إلى وجوب أخذ العلم من معلم هو الإمام المعصـــــوم كما ذكر ذلك الشهرستاني عنه " الفصول الأربعـــــة " التي ابتدأ بها دعوته وكتبها عجمية ويوضح كل منها مطلبا معينا وفكرة تبطل الرأي ونظر العقل لتؤكد ضرورة العودة دائما إلى معلم معصوم ويمكـــن أن نتعرف على محتوى هذه الفصول كما عرضها "الشهرستاني" في مؤلفه الشهـــير " الملل والنحل".

فقد أورد "الشهرستــــاني" أهم ما احتواه الفصل الأول لإبن الصبــــاح و الذي جاء فيه أن « الأول قال للمفتي في معرفة الله تعالى أحد القولين: إما أن يقول أعرف الباري تعالى بمجرد العقل والنظر من غير احتياج إلى تعليم معلم وإما أن يقول لا طريق إلى المعرفة مع العقـــل والنظر إلا بتعليم معلـــــم ، قال: ومن أفتى بالأول فليس له الإنكار على عقل غيره ونظره ، فإنه متى أنكر فقد علم ،والإنكار تعليم ، ودليل على أن المنكر عليه محتاج إلى غيره ، قال والقســـمان ضروريان لأن الإنسان إذا أفتى بفتوى أو قال قولا فإما أن يعتقده من نفسه أو من غيره «[2] ليظـــــهر من خلال ما سبق الحاجة إلى التعليم لبلوغ مقاصد الخالق فالإنسان لا يقدر على تحقيق معرفة دون ارشاد مرشد و عون معلم نظرا لشتت الآراء و تضاربها .

1- مصطفى حلمي ، المرجع نفسه ص 240

2- أبو الفتح الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1، ص 201

ثم يقـــول "الشهرستاني" في ختام هذا الفصل أن « هذا هو الفصل الأول فهو كسر على أصحاب الـــرأي والعقل» و بالتالي ثبتت الحاجة إلى التعليم نظرا لاختلا ف العقول و الحاجــــــة إلى نهل العلم من معلــــــــم .

أما الفصل الثاني "الإبـــن الصباح" فقد تضمن تأكيدا لوجوب وجـــــود المعلم مع ابراز شروطه فلا يصلح لهذا الدور أي كـــان من البشر .لذا يصف "الشهرستاني" بعض ما احتواه ذلك الجزء بقوله « وذكر الفصل الثاني : أنه إذا أثبت الاحتياج إلى معلم أفيصلح كل معلم على الإطلاق أم لا بد من معلم صادق؟ قال : ومن قال : إنه يصلح كل معلم ما ، يساغ له الإنكار على معلم خصمه وإذا أنكر فقد سلَم أنه لا بد من معلم صادق معتمد» .

و في هذا الفصـــــــــل تأكيد لضرورة العودة إلى معلم شرط أن يكون معصوما عن الخطــــأ تقي، صادق عدل. وهو من ذريـــــة علي وآل بيته الصادقين وبالتحديد من ذرية الإمام "إسماعيل" بن "جعفر الصادق" لا من غيره من آل البيت ، لما عرف عنهم من غزارة المعارف و لا سيما جعفر الصادق-رضي الله عنهم جميعا-

ليكون الفصل الثالث دالا دلالة واضحة لا مجال فيها للشك على ضرورة معرفة الإمام والإعتراف به كخليفة لله تعالى هذا ما قرره "بن الصباح" و أكد عليه حيث « وذكر في الفصل الثالث : أنه إذا ثبت الاحتيــــاج إلى معلم صادق فلا بد من معـــــرفة المعلم أولا والظفر به ثم التعلم منه ؟ أم جاز التعلم من كل معلم من غير تعيين شخصه وتبيين صدقه ؟ و الثاني رجوع إلى الأول ومن لم يمكنه سلوك الطريق إلا بمقدم ورفيق ، فالرفيق ، ثم الطريق وهو كسر على الشيعة »[1]. و هنا تظهر تلك التـــــعاليم الشيعية التي تستوجب معرفة الإمام المعلـــــــم المعصوم أولا ثم أخذ المعرفة عنه المعصوم أولا ثم أخذ المعرفة عنه لنشر واستكمال الدعوة وإعلاء كــــــلمة الحق وهـــذا تأكيدا لتعاليمهـــــم « أن من مات و لم يعرف إمام زمانـــــه فقد مات ميتة جاهلية »[2].

و في ختـــام مقالات "ابن الصــــباح" أوجب ضرورة العودة إلى ذلك الإمـــام المعصــــوم عند معرفته إذ « ذكـــر في الفصل الرابع : أن الناس فرقتان ، فرقة قالت نحن نحتاج في معرفـــة الباري تعالى إلى معلـــم صادق و يجب تعيينه و تشخيصه أولا ثم التعلم منه ، و فرقة أخذت في كل

1- أبو الفتح الشهرستاني ، الملل والنحل ،ج1، ص 202

2- المرجع نفسه ص 198

علم من معلم و غير معلـــم . و قـــد تبين بالمقدمات السابقة أن الحق مع الفرقـــة الأولى ، فرئيسهـــم يجب أن يكونوا رؤساء المبطلين«.

وهكـــذا يختم فصول دعواه بقوله « بالاحتياج عرفنا الإمـــــام وبالإمام عرفنا مقادير الاحتياج « كما يؤكد حاجاتنا الماسة إلى المعلم نظرا لاختلاف العقول في إدراك الحق فاحتاجوا إلى قائد يهديهم ويرشدهم بعد الرسول ﷺ لتكون تعاليمه واحـــدة ليست محل اختلاف باعتبار أن بن الصَبّاح «يذكر أن في العالم حقـــــا وباطلا، ثم يذكر أن علامة الحق هي الوحدة وعلامة الباطل هي الكثرة وأن الوحدة مع التعليم والكثرة مع الرأي والتعليم مع الجماعة والجماعة مع الإمام والرأي مع الفرق المختلفة وهي مع رؤسائهم « [1].

فثبت بذلك بطلان الرأي ونظر العقل والتأكيد على الرجـــوع إلى الإمام المعلم لما له من المعرفة و يقين العلم ليحل ما استعصى من مسائل الدين . فله علم الظاهر و الباطن ، و هو القائم على تأويل التنزيل وتفسيره ولن يتمكن من فعل التعليم ما لم يكن معصوما. فالشيعة الإمامية و منها الإسماعيلية « يشترطون أن يكون الإمـــــام معصوما كالنبي عن الخطأ والخطـــــيئة وإلا لزالت الثقة به« [2] و ذلك لقوله تعالى ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قـــَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[3].

والغرض من القول بعصمة الإمام الشيعـــــي بحسب ما يستند إليه المفكر الشيعي "كاشف آل غطاء " « أن يكون أفضـــــل أهل زمانه في كل فضيلة وأعلمهم بكل علم لأن الغرض منه تكميل البشر وتزكية النفوس وتهذيبها بالعلم والعمل« [4].

* إبطال الرأي و نظر العقل

فشيعة الإمـــــام والموالين له عليهم أخذ العلم عنه فهو القدوة التي ينبغي الإقتداء بها، فيتولي تعليمهـــــم الحكمة والديـــــن وتأويله.ويورد حجة الإسلام " الغـــــزالي" بعضا من أدلة فرقة الباطنية التي اعتمدها دعاتها فينشر تعاليمهم مثل قولهم عن الكثرة و الوحدة و استخدامـــــها لإبراز أن العـــــودة لتعاليم الإمـــــام أفضل من الإحتكام إلى شطحات العقل إذ « ان الحق إما أن يعرف بالرأي المحـــــض أو بالتعليم المحض، وإذا بطل أحدهـــما ثبت الآخر وباطل أن يكون مدرك بالرأي

1- أبو الفتح الشهرستاني ، الملل والنحل ،ج1، ص 202 ، 203

2- حسن كاشف آل غطاء ، أصل الشيعة وأصولهم ، ص 98

3- سورة البقرة آية 124

4- حسن كاشف آل غطاء ،المصدر نفسه ص 98

العقلي المحض لتعارض العقـــول والمذاهب فثبت أنه بالتعليـــتم » [1].فدعاة الباطنية ينكرون الرأي والنظر العقلي بدعوى اخــــتلاف العقول حول الأمور وتعدد وجهات النظر والآراء أمام المسألة الواحدة لذلك كان لا بد من الاحتكام إلى من إذا عدنا إليه ما اختلافنا وهذا هو إمام العصر.

وبذلك ألغت فرقة الباطـــنية أي دور للاجتهاد وبدد دعاقما دور في وجود الإمام المبلغ والمبلغ . وبرهنوا على ذلك حسب ما جاء في الآثار الواردة عنهــــم في "المستظهري" "للغزالي" حيث قال« فلقد سمعت كثير من أقولهم: إن الحق مع الوحـــدة والباطل مع الكثرة ومذهب الرأي يفضي إلى الكثرة،ومذهب التعليــــم يفضي إلى الوحدة فيلزم منه أن يكون الحـــق في مذهب التعليم» [2] و باعتماد ذلك الأسلوب قللوا من شأن العقل و أرجعوا الفضل كله في حصول المعرفة الحقة إلى الإمام المعلم المعصوم . يقول الإمام " أبو حامد الغزالي" الذي أمعن في تناول فكرهم وعقيدقم أنهم « بهذا يبطلون النظر العقلي ويقللون من قيمته» [3] .

فـــكان من أهم النتائـــج المترتبة عن الإمامة والقول بالعصمـــة مسألة التعليم من الإمام، فهو الآمر الناهي والمسنّ والمنفـــذ لأحكام الشريعة، يؤخذ الحق عنه ولا يؤخذ عن سواه لذا «إن الشيعة أنكروا الإجماع العام كأصــــل من أصول التشريع لأن هذا يسلّم إلى الأخـــذ بأقوال غير الشيعة وأنكروا القياس لأنه رأي، الدين لا يؤخذ بالرأي وإنما يؤخذ عن الله ورســـوله وعن الأئمة المعصومين » [4] فتعاليم الأئـــمة مرجع هام في الشريعة عند الشيعة و هو سابق عن الإجـــماع و القياس خلافا لما سار عليه أهل السنة و الجماعة .

***المنكرون للرأي و نظر العقل من غير الشيعة الباطنية**

لم يكـــن الشيعة من الباطنية وحدهم من أبطلوا العمل بالرأي والقياس و و رفضوا فتح المـــجال لنظر العقـــول حتى لا يتعارض ذلك مع ما ينص عليه الإمام المعصوم من التعاليم،بل اتفق مع مذهبهم عدد من المنكرين للقياس والرأي ذكرهم العلماء في كتبهم وكان منهم الظاهرية والنظامية والشيعة والروافض و غيرهم عدا الزيدية وبعض المعتزلة [5]

1- أبو حامد الغزلي ، القسطاس المستقيم ، دار المشرق ، بيروت لبنان ، ط3 ، 1991 ، ص74

2- المصدر نفسه ص73

3- المصدر نفسه ص73

4- أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ص255

5- محمد محدة ، مختصر أصول الفقه الإسلامي ، شركة الشهاب الجزائر ، ط4، 1990، ص 192

و تذهب أغلب تلك الفرق و المذاهب إلى إنكار العمل بالرأي و تعتقد بأن ما يستنبط من الأحكام بالقياس غي جائز . و الملاحظ أن « مذهب الشيعة الإمامية والنظام وداود الأصفهاني أن التعبد بالقياس مستحيل عقلا لأنه يترتب على اختلاف الأقيسة في نظر المجتهدين لزوم اجتماع النقيضين »[1] فتفاوت العقول و اختلاف الأراء و الأهواء من شأنه أن يفسد الشريعة و أحكامها .

و قد استدل منكـــروا الرأي و القياس بأدلة من الكتاب و السنة و ذلك لإنكار أي دور قد يؤديه القياس ونظر العقول في فهم أحكام الشريعة . فمن الكتاب استدلوا بقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِـــهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2] إضافة إلى قوله تعالى ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـــئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[3]

أما من السنة فاحتجوا بما قاله النبي ﷺ لإبطال الرأي المتمثل في هذا الحديث « تعمل هذه الأمة برهة بالكتاب وبرهة بالقياس فإذا فعلوا ذلك ضلوا » و من خلال تلك الأدلة النصية يمكن أن نفهم أن القول بالقياس والعمل بالرأي يؤدي إلى الضلال ويجلب المفاسد.

و لم يكتف هؤلاء الرافضون للرأي والقـــياس بغلق الباب في وجه كل من سولت له نفسه النظر بعقله و رأيه في فهم أحكام الشريعة بل أثبت بعضهم استهجان كبار الصحابة له و نفورهم منه . حيث ذكروا من الإجماع ما استدلوا به على بطلان القياس « فهذا أبو بكر الصديق الخليفة الأول لرسول الله ﷺ يقول: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن قلت في كتـــاب الله برأيي » وأيضا ما ذكر عن عمر-رضي الله عنه- من التحذير شديد اللهجة لأولئك المقبلين على الرأي لما روي عنه من الحديث « إياكم وأصحاب الرأي فإنهم أعداء السنن أعيتهم الأحاديث أن يحصوها فقالوا بالرأي فضلوا وأضلوا » ، وقال علي — رضي الله عنه- « لو كان الدين يؤخذ قياسا لكـــان باطن الخف أولى المسح من ظاهره »[4] .

واستند هؤلاء المنكرون لنظر العقـــول إلى أدلة عقلية يردون بها على من أجاز الإشتغال به فمن المعقول تأكيدهم بأن القياس والرأي مفضي إلى الخلاف والتنازع وهذا مفسدة للشرع[5]

1- محمد محدة ، مختصر أصول الفقه الإسلامي ، ص 197

2- سورة الحجرات آية 01

3- سورة المائدة آية 47

4 -محمد محدة ، مرجع سابق ، ص 192

5- المرجع نفسه ص 193

عملا بــــقوله تعالى ﴿ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [1] .

فالاجتهـــــاد وإعمال القياس فيما استجد من الدين يفتح باب السؤال فيما نهى الله عنه ورسوله فعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال «لن يبرح الناس يســألون حتى يقولوا هذا الله خالق كل شيء فــمن خلق الله «[2]مع أنه تعالى نهى عن ذلك في قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُـــمْ ﴾ [3].

وهكـــــذا نصل إلى أن إنكار الرأي وإبطال نظر العقل مسألة اتفق فيها الشيعة الباطنية بتعاليمها المختلفة مع عدد من الفرق والمذاهب التي فضلت الإحتكام إلى الشرع وحده . في حين اتخذت الباطنية من تعاليم الإمـــــام المعصوم و تأويلاته بديلا عن نظر العقل هذا ما يؤكده أحد أهم دعاتها "الحسن بن الصباح" صاحب فرقة التعليمية و الذي جعل من مبدأ التَعلّـــــم عن الإمام الشيعي المعصوم شرطا لصحة العقيدة ، فالعلم لا يؤخذ عن سواه نظرا لتفاوت العقول و كثرة الآراء و تضـــــاربها .

المطلب الرابع : مبدأ التقية والتستر للإمام

لو تأملنا بدايات اعتماد التقية والتستر لوجدناها مغرقة في القدم،إذ استخدمها غالبا المستضعفون في الأرض الدين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ولا يملكون الجهر بدعواهم ولاعقا ئده م خوفا من أعدائهم أو من كل من يتربص بهم من المتربصين. فكان لزاما عليهم التقية والتستر حفاظا على أنفسهم وأهليهم استدلالا بقوله تعالى ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً ﴾ [4]و﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾[5].

فما هي التقية؟ وهل ينبغي للإمام الاتقاء و التخفي دائما؟

أولا : مفهوم التقية و التستر

إن اختفـــاء الإمام عن العيون و احتجابه عن الخلق يسمى التستر و يقـــــال بالمعنى المتداول لدى الأتباع أنه استتر و دخل طور التقية « وهـــــي تعني لغة اتخاذ الوقاية واصطلاحا أن يكتم الإنسان الحق في قلبه ويظهـــــر خلافه ولا ريب أن سياسة العسف هذه قد امتدت عبر العصـــــور

1– سورة الأنفال آية **46**

2 – البخاري ، صحيح البخاري ، ج**4** ، حديث رقم **7296** ، ص **424**

3 – سورة المائدة آية **101**

4 – سورة الطلاق آية **07**

5 – سورة الشورى آية **19**

والدهـــــور إلى وقتنا هذا وكانت التقية بمثابة المخرج من تلك الأخطار التي تحدق بالفـــرد والجماعة « [1]. و يقدم الدكتور "علي سامي النشار" في كتابه "نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام" تحديد لمعنى التقية والتستر عند الشيعة جـــــاء فيه « إنما التستر عندهم هو اختفاء إمام حي أو هو نوع من التقية التي عرفت عن الشيعة عامة فلكي يتقي أعدائه ويحافظ على حياته يختفي الإمام ويستتر حيا « [2] بمعنى أن التقية و التستر لها مبرراتها و دوافعها التي أظهـــــرتها.

ثانيا : حكمها

كانت التقية سبيلا لتجنب الظلـــــم و الاعتداء و استبدا د الأعداء والأقوياء بالمستضعفين فحكمها "الجواز" بحسب المصلحة العامة للإسلام والمسلمين .. مادام غرضها دفـــع الضرر عن الإسلام والمسلمين ونصرة دعوته وتجنب كل جور وظلم « وفي ظل هذا الموضع الجـــــائر يكون أهل الحـــــق مستضعفين لا يمكنهم المواجهة والتغيير بل لا يمكنهم الوفاء بما يعتقدونه من الحق حيث أن الظلمة يتربصون بهم الدوائر ويقعدون لهم كل مرصد فلا محيص عندئذ من استخدام التقـــية إلى أن تنكشف الغمة وتنمحي الظلمة ويرتفع البلاء ويعود الحق إلى نصابه « [3] .

ثالثا : الظروف و الأسباب التي دعت الأئمة إلى التستر و التقية

والدوافـــــع كثيرة ، تلك التي قادت الحركات الباطنية إلى التستر و التقية كان من أبرزها ذلك الظلم الشديد و الاعتداء الوحشي الذي تعرض له الشيعة من قبل العباسيين خاصة بعد ما هوت الدولة الأموية . حيث لاقت الحركـــات الشيعية ولاسيما الإسماعيلية الباطنية اضطهادا كبيرا منذ ظهورها و حتى بعدما شهدته في تطورها ، و بسبب ذلك الظلم الذي ألم بها لجأت إلى التخفي والتستر وعرف هذا بمبدأ التقـــية .

هذا ما وضحته دراسة أجراها الدكتور " مصطفى غالب " عن الحركات الباطنية في الإسلام حيث ينوه إلى انعكاس هذا الاضطهـــــاد على سرية العقيدة والذي « اضطر الإسماعيلية إلى إحاطة دعوتهم بهالة كثيفة من السرية والكتمان معتمدين على الطـــرق الخفية لنشرها وبذر بذور معتقداتها شأن كل دين أو فكر اجتماعي ممنوع مضطهد « [4].

---

1 – عاطف سلام ، الوحدة العقائدية ، ص 263

2 – علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص528

3 – عاطف سلام ، المرجع نفسه ، ص264

4 – مصطفى غالب ، الحركات الباطنية في الإسلام ، ص70

فليتك تتصور خيبة أمال العلويين بعد أن استحكم ذووهم من بني العباس بالخلافة من بعدما تحالفوا معهم على الأمويين و وعدهم باسترجاع حق أبائهم لكن العكس هو ما حدث «إذ بالآمال تستحيل سرابا وحلاوة الانتصار تنقلب غضة ؟ و مرارة ، بعد أن غدر الخلفاء واغتصبوا البيعة لأنفسهم و انقلبوا على أصحاب الحق يعملون فيهم قتلا و تشريدا » حتى قال فيهم أحد الشعراء الموالين لهم واصفا خيبتهم تلك بقوله :

يا ليت جور بني مروان عاد لنا   باليت عدل بني العباس في النار[1]

و في الرسالة الخامسة " لإخوان الصفاء " وصف لمعاناة الذرية العلوية من ظلم وشرور أقربائهم العباسيين وذكر لمظاهر من هذا الشر و مآله ، مؤكدين على قرب زوال ملك هؤلاء الإغراب المغتصبين ، و مما ورد فيها من تلميحات أو تصريحات و « اعلموا أن كل دولة لها وقت منها تبتدئ و لها غاية إليها ترتقي وحدّ إليه تنتهي و إذا بلغت إلى أقصى مدى غاياتها و منتهى نهاياتها ، أخذت في الانحطاط و الخذلان و بدأ في أهلــها الشؤم و الخــذلان »[2] فاندفع الشيعة من العلويين بفعــل هذه الدعوة و تلك الدوافــع إلى التستر والتخفي وتغيير أسلوبهم من المواجهة بحد السيف إلى المعارضة بسلاح الكلمة و الفكر.

هذا الحال من الظلم و الإضطهاد الذي آل إليه الشيعة العلوية هو تحديدا ما أدى إلى بروز حركات باطنية سرية ، هي التي قاومت الخلافات المغتصبة لحقهم الشرعي في الخلافة النبوية . و استمر صراعها مع العباسيين محتدما على مر التاريخ ،أملة في استرجاع الحق لأهله من الذرية العلوية الطاهرة . و هكذا « استخفت الخلايا الإسماعيلية كما اختفى الإمام وانتشرت الدعوة سرا – تحت الأرض كالنار تحت الرماد — لتظهر فجأة في القرن الثالث مقوضة أجزاء من الدولة العباسية في شمال إفريقيا و في مصر و مناطق إسلامية أخرى»[3].

لذ رجّح الشيخ الدكتور " أبو زهرة " أنهم « قد سموا الباطنية أو الباطنيين وذاك لاتجاههم إلى الاستخفاء عن الناس وقد ابتدأ الاستخفاء بسبب الاضطهاد »[4]، و الملاحظ أن أغلب حكامهم «كانوا أئمة مستترين متخفين اجتنبوا المجاهرة بالدعوة »[5].

1– أحمد محمود صبحي ، في علم الكلام ، "الزيدية" ، ج3 ، ص 50

2– إخوان الصفاء ، رسائل إخوان الصفاء ، ج 5، ص 56، 57

3– أحمد محمود صبحي ، المرجع نفسه ، ص 51

4– محمد أبو زهرة ، الوحدة الإسلامية ، ص185

5– محمد جلال شرف ، دراسات في التصوف الإسلامي ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ، [د ط] ،1984، ص 358

و لم يكن هذا التستر والاختفاء وعدم الظهور خوفا من الملوك سواء الأمويين أو العباسيين فقط لكن كان له سبب آخر وردت في رسائل" إخـــوان الصفا "جاء نصها « اعلم أيها الأخ البار الرحيــــم أنا لا نكتم أسرارنا عن الناس خوفا من سطوة الملوك ذوي السلطة الأرضية ولا حذر من شغب جمهور العوام ولكن صيانة لمواهب الله – عز وجل – لنا، كما أوصى المسيح فقال : لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم»[1].

و عليه نستنتج أن لجوء الشيعة الإسماعيلية الباطنية إلى مبدأ التستر و التخفي أو كما عرف عنـــدهم بالتقية كان أمر لازما فرضته عليهـــم ظروف الدعوة في مراحلها الأولى و أطلق على تلك الفترة التي يستتر فيها الإمام و يتقي بدور الستر و في مقابله دور الظهور.

رابع : أهمية دور الستر في الحفاظ على عقيدة الإمامة

والتستر والتـــخفي مرحلة لا بد منها للإمام لتجاوز مرحلة الخطر فإذا جاء دور الكشف ظهر للعيان باعتباره حجة الله على خلقه وخليفة في أرضه « وهو تعالى لا يرفع حجته ولا يقطع الحبل الممدود بينه وبين عبـــاده فهم أوتاد الأرض وهم الخلفاء بالحقيقة في الدورين جميعا »[2] كما يتأكد ذلك الأمر بشكل أوضح عند " إخوان الصفاء" حين فسروا أعمال الأئمة في الدورين إذ « في دور الكشف يظهر ملكهم في الأجسام والأرواح وفي دور الستر يجري أمرهم في الأنفس والعقول وأصحاب المملكة الأرضية والخلافية الجسمانـــية»[3].

ومع ذاك التخفي والتستر والتزام مبـــدأ التقنية ينبغي الإطلاع على العالم وما يجري فيه من قبل الإمام بواسطة دعاتـــه وشيعته المنتشرين في أقطار الأرض المبشرين برجعته و ظهور بعد طول غيبته و هذا ما أكده لنا إخـــوان الصفا من الإسماعيلية الباطنية المؤيدين لولاية العلويين وعودتهم من غيبتهم و تســـترهم في أخر الزمان بقولهم «فمـــا من جزيرة في الأرض و لا إقليم ولنا فيه حجج و دعاة يدعـــون إلينا ويدلون علينا و يأخـــذون بعلمنا و يذكرون رجعتنا وينشرون علمنا و ينذرون بأسنا ويشرون بأيامنا »[4].

1– إخوان الصفاء ، رسائل إخوان الصفاء ، ج5، ص28 ، 29

2– المصدر نفسه ص319

3– المصدر نفسه ص319

4– عارف ثامر ، إخوان الصفاء و خلان الوفاء ، ص 20 ، نقلا عن أنماط الحنفا ، للمقريزي ، ص139

و ها هو "دعبـــــل الخزاعي" يؤكد تلك الرجعة للإمام الشيعي بعدما عانته الشيعة العلـــــوية من قساوة واضطهـــاد من قبل أعدائهم إذ نشد قائلا في تائيته البديعية التي مدح بها "علـــــي بن موسى" بخرسان:

الذي أرجوه في اليوم أو غــــــد	لقطع قلبي إثرهم حســـــــــراتي
فلولا خروج إمام لا محالة خارج	يقوم على اسم الله والبركـــات
يميز فينا كل حق وباطـــــــــــل	ويجزي على النعماء والنقمات[1]

فالتستر و التقية من العقائد الراسخة في الفكر الشيعي فلهم أئمة مشهورون في التاريخ بتسترهم و« يعتبر الإمام محمد بن إسماعيل (ولد **141هـ**) موجد دور الســـــتر عند الإسماعيلية »[2] ليس فقط هذا بل« يعتبر رأس الأئمة المستورين وصاحب فكرة الاستتار ومبدع طريقة التسمية بأسماء مستعارة للتضليل وإبعاد الشبهة »[3] و أبرز الأئمة المستورين كان الإمـــــام "إسماعيل" بن جعفر حين اختفى عن عيون الخليفة "المنصور" ثم تلاه آخرون كإبنه "محــــــمد بن إسماعيل" و عبد الله وأحمد،و الحسن وعبيد الله..و عرف هذا بدور الستر.

و قد أحسن أئمة الشيعة من إسماعيلـــــية و إثني عشرية الاختفاء والتستر و أجادوا طرق التمويه خلال فترات الحكم المتعاقبة لأعدائهم من مغتصبي الخلافة ، إلى أن قامت دولتهم الفاطــــــمية بالمغرب، حيث يروى عن "محمد ابن إسماعيل" أنه تستر تحت أسماء مستعارة لنشر دعوته جهله أقرب الناس إليه حتى يبلغ غايته « باعتماده ألقابا منهــــا الشاكر والمكتوم والمستور والسابع، وميمون الـــقداح .. »[4] ما ذلك إلا لتضليل أعدائهم وتوفير الجو المناسب لبث دعوتهم السرية قبل تفجيرها.

و دور الســــــتر والتخفي الذي باشرته هذه الحركة مثل ذروة نشاطها بل وأخــــــطر مراحلها التي ساد فيها الفكر الشيعي الباطـــــني حتى أن الدكتور سامي النشار يصف المذهب الشــــــيعي في هذا الدور قائلا « قد كـــــان في دور الستر من أخطر المذاهب على وحدة الإسلام الدينية والسياسية فلمـــــا دخل في دور الظهور كون دولة من أعظـــم دول الإسلام الدينية وهي الـــدول

1- أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ص**311**

2- عارف ثامر ، القرامطة ، ص **66** ، **67**

3- المرجع نفسه ص**46**

4- المرجع نفسه ص**48**

الفاطمـــية ولما عاد إلى دور الستر حيث يعيش الآن أصبح مذهبا سريا يمزق في عصورنا الحاضرة وحدة المسلميـــــن ويلحق أفدح الأضرار بمستقبل الإسلام وكيــــانه «[1] و قد سمح دور الستر والتخفي بنشر العقيدة الباطنية بأمان أكثر بعيدا عن عيون الحكام والموالين لهم، من أفراد الأمة فكانت أسرع انتشارا في حــــالة السرية.

فكانت تعـــاليم هذه الفرقة مجهولة عبر التاريخ إلى أن ظهـــرت بعض مؤلفاتـــهم في الهند وغيرها معلنة بعض من تعاليمها كاشفة عن بعض الغموض الذي يكتنفها « كل شيء في التشيع الإسماعيلي غامض مختلف علـــيه لا من خصومهم فحسب بل من دعاقم أيضا و تلك طبيعة الدعوات الباطنية و الحركات السرية لكن حسب كثير من الدراسيـــن كانت الإسماعيلي ة أكثرهـــا غمـــوض و التواء «[2].

لكن هذه الأفكار الشيعية حول التقية والتستر، لا تقول بها كل فرق الشيـــعة و بنفس الإيمان الراسخ بها بل بعضها فقـــط، المتمثلة خاصة في الإمامية والفرق الباطنية من تعليمية وإسماعيلية..أما الزيدية « و هم في تعاليمهـــم أقرب إلى أهل السنة فلا يقولون بالتقية و لا يتبرؤون من أبي بكر وعمر.. و لا يلعنونهما ولا يقولـــون بعصمة الأئمة ولا يقولون باختفائـــهم« بل وعلى خلاف غيرهم من الشيعة « يشترطون الاجتهاد في أئمتهم فلذلك كـــثر فيهم الاجتهاد وكثرت آراؤهـــم في الفقه «[3]

كما يرفضون تستر الإمام و يشترطون خروجه و ظهوره. و خـــلافا للإسماعيلية الباطنية وفرق الإمامية الأخرى رأت الزيدية أنه « لا يكون الإمام إماما إلا إذا خرج على الظلم شاهرا سيفه ولا يكون إماما من يرخي ستره ويغلـــق بابه فلا يسع الإمام إلا الخروج «[4] إذ ترى فالزيدية ضرورة خروج الإمام و ظهـــوره وتفرض عليه رفع السيف لتحقيق أهـــدافه.

بناءا على ذلك يظهـــر مدى تباين آراء و تصـــورات الفرق الشيعـــية لأمر التقية و تفاوتها في قبول مســـألة احتجاب الإمـــام و عدم ظهوره للأتباع فقد« انتقدت الزيدية التقية بالتصور

1- على سامي النشار ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص546

2- أحمد محمود صبحي ، في علم الكلام ، "الزيدية" ، ج3 ، ص 51

3- أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ص276

4- أحمد محمود صبحي ، المرجع نفسه ، ص 49 ، 50

الإمـــــامي الذي يتيح للمرء أن يكون سنيا مع السنين و شيعيـــــا مع الشيعيين و يهوديا مع اليهود مسيحيا مع المسحيين « [1].

باعتـــــبار أن الشيعي الإمامي يخاطب الناس على قدر عقـــولهم ، بحسب ما يفهمون و يورد أحـــــد المؤلفين المعاصرين بعض ملامح التقية الشيعية و أسبابها جاء نصه « أن أصل مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية قائم على اعتبار جميع الحكومات الإسلامية من يوم وفاة النبي ﷺ إلى هذه الساعــــة عدا سنوات حكم علي بن أبي طالب ، حكومات غير شرعـــــية و لا يجوز لشيعي أن يدين لها بالـــــولاء و الإخلاص من صميم قلبه بل يداجيها مداجاة و يتقيها تقاة لأنهـــــا كلها ما مضى منها ، ومـــــا هو قائم الآن و مـــا سيقوم منها فيما بعد حكومات مغتصبة «[2].

و لـــــعلى أبرز ما تميزت به الحركة الباطنية الإسماعيلية هو قولها بأن لكل ظاهـــر باطن مع العمل على تطبيقـــه في جميع جوانب عقيدتها ، حيث اعتـــــمدت المعارض ة المتمثلة في سلاح الحركات السرية مما ساعد على انتشار تعاليمها ، و حفظ عقـــــائدها و استمرارها عبر التاريخ رغم الخطر المـــــحدق بها.

المطلب الخامس : الغيبة و الرجعة

الرجعة مبدأ شيعي يفيد ظهور الأئمة المختفين و ظهورهم بع غيبتهم و تسترهم ، كما جاء في "رسائل الإخوان " ما يؤكد ذلك الأمر حيث يصرح الإخوان في إحدى تلك الرسائل لأشياعهم بانقضاء دور الستر و بداية دور الظهور و الرجعة فيقولون موجهين كلامهم لكل شيعـــي موال لهم « إذا لقيت أحدا منهم وأنست منه رشدا فبشره بما يسره و ذكره باستئناف دور الكشف والانتباه وانجلاء الغمة عن العباد « [3] بمعنى أن الإمام سيظهر و يتولى الإمامة والقيادة و يحكم الأمة الموالية له ليقضي على كل جور أو ظلم حلّ بها في فترة غيبته.

لكـــــن فكرة الرجعة تعدت عودة الأحيـــــاء المختفيين عن الأنظار إلى عـــــودة الأموات بعد مفـــــارقة الحياة وهـــــذا أمر قائـــم لدى الشيعة خاصة الروافـــض « قال بعض الروافض من الشيعة بالرجعة و هي رجعة الأموات في الحياة الدنيا مرة ثانية « [4] واستدلوا على وجود الغيـــبة

1– محسن عبد الناظر ، مسألة الإمامة ، ص 425

2– محب الدين الخطيب ،الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الإثني عشرية ، مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، 1401 هـــ ، 1980مـــ ، ص 16

3– إخوان الصفاء ، رسائل إخوان الصفاء ،ج5 ص 2

4 – علي عبد الفتاح المغربي ، الفكر الديني الشرقي القديم و موقف المتكلمين ، مكتبة وهبة ، القاهرة مصر ، ط1، 1996، ص 201

والرجـــــعة و شرعيتهما بما قاله الله تعالى في الذكر الحكيم من الشواهد التي وظفت لتثبت ذلك مثل قوله تعالى ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ 1 وقالت الشيعـــــة الباطنية برجعة الإمام المنتظر بعد غيبته لتجعل الأتباع يثقون بوجود مخلّص لهم مما هم فيه من ظلم وأذى وفقر..

و يرجع الباحثون و المؤرخـــون بداية ظهور فكرة الرجعة بعد الغيبة إلى عهد الإمـــــام "علي" و يعتقد "الشهرستاني أن " السبئية " أصحاب عبد الله بن سبأ « هـــــم أول فرقة قالت بالـــــتوقف والغيبة والرجعة وقالت بتناسخ الروح الإلهي في الأئمــــة بعد علي » و حسب "الشهرستاني" أن "إبن سبأ" « زعم أن عليا حي لم يمت ففيه الجـــــزء الإلهي »[2] ومن هنا دعا إلى الاعتقاد بعـــودته الأكيـــــدة.

أولا : أدلة تثبت الرجعة بعد الغيبة

وظف الشيعة الباطنية أدلة من الشرع يؤكـــدون بها كلامهم عن الرجعة و العودة بعد الغيبة والظهور عقب التستر، منها ما ذكره عنهم "البـــغدادي" كاستشهادهم بقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْـكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾[3]. ومن خلال هذه الآية الكريمة أمنوا « أن علي سيعود بعد قتله ، فهو حي و يعود ليملأ الأرض عدلا ، فهو يجيء في السحاب و الرعـــد صوته والبرق تبســـمه»[4] لذلك أقدم بعض المتشيعين على السجود و التسبيح عند حدوث ظواهر كالرعد و البرق و السحاب بدعوة ظهور الإمام في تلك الأثناء.

كـــذلك وظفت أدلة نقلية أخرى متعددة للتأكيد على وجود رجعه للإمام بعد طول غيبته لدفع الأتباع و الأشياع إلى التمسك بعقيدتهم في انتظار ظهور مخلصهـــم، مثل قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُـــواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾[5] و أيضا قول المولى - عز وجـــل- ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِـــي هَــَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾[6] فأفادت تلك البراهيـــن الشرعية إمكانية قيامك الرجعة بع الغيبة و شرعيتها .

---

1 - سورة غافر الآية 11

2 – أبو الفتح الشهرستاني ، الملل و النحل ج1 ، ص 181

3 - سورة القصص أية 85

4 – عبد القاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص 223

5 – سورة البقرة آية 243

6 – سورة البقرة آية 259

كما يورد الدكتور "محســـن عبد الناظر" حديثا منسوبـــــا إلى الرسول ﷺ ورد في مؤلف "أنـــوار الإسلام " لمؤلف شيعي مجهول جـــاء نصه « أن الرسول ﷺ قال إن غائبنا لم يغب وميتنا لم يمت و إن قتلانا لم يقتلوا [...] . و هذا الحديث ينسب إلى الرسول ﷺ فكـــرة انتقال الأئـــمة من الحـــياة الدنيا إلى حياة ثانية ليس فيـــها موت . فهي تقتصر على غيبة الإمام عن أبصار الناس ، و هذه الغيبة لا يكون لها معنى إلا إذا ارتبطت بالرجـــــعة« [1] .

ويورد المفكر "كامل مصطفى الشيبي" الحديث السابق بمعنى أخر نقلا عن بعض الشيعـــــة مرويا عن النبي ﷺ بما نصه أن النــــبي قـــال« أيها الناس خذوها من خـــاتم النبيين إنه يموت من مات منا و ليس بميت و يبلى من بلى منا و ليـــــس ببال « [2].

و تؤكـــــد الأحاديث المنسوبة إلى النبي ﷺ و المروية من قبل الشيعة أنه – أي هذا المهدي المنتظر- يــــكون من آل البيت بل من ذرية فاطمة – رضي الله عنها – كحديث "الرايات" والذي أوردوه ابن ماجة في كتاب السَنن ، عن عبـــد الله بن مسعود من طريق يزيـــد بن أبي زياد عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قـــال « بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذا أقبل فتية من بني هاشم فلما رآهم رسول الله ﷺ ذرفت عيناه وتغير لونه قال فقلت : ما نزال نرى في وجهك شيئا نكـــرهه. فقال ﷺ : إنا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا . و إن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءا وتشريدا و تطريدا ، حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخير فلا يعطونه فيقاتلون وينصرون فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعوها إلى رجـــل من أهل بيتي فيملأها قسطا كما ملؤوها جـــورا « [3]

و هــــذا الحديث و غيره مما وضعه الشيعة لتبرير غيبة الأئمة عن الناس ، ثم عـــــودتهم بعد زمن من انتظـــــارهم .. مشكوك في صحته و الـــرافضون له كثيرون أكدوا على كون مثل هذه الأحاديث هـــادفة إلى تأييد سلطة الأئمـــة و تدعيم فكـــــرة خلودهم وعودتهم فقد روى «عن الحسن البصري عن أنس ابن مــــالك أن النبي صـــلى الله عليه وسلم قال : لا مهـــدي إلا عيسى ابن مريم « [4] .

---

1 –محسن عبد الناظر ، مسألة الإمامة ، ص 485

2 –حديث موضوع لا أثر له ،أورده :كامل مصطفى الشيبي ، الصلة بين التصوف و التشيع ، ص486

3 – عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 332

4 – المصدر نفسه ، ص 337

وعـــليه كان الشيعة يقسمون الإمامة إلى فترات منها البـــــاطن أو دور الستر و الغيبة، ومنها الظاهـــر أو دور الظهور و الرجعة ، ليبرروا سبب اختفاء الأئمـــة مع دفع الخلق إلى الاعتقاد بعودتهم و لزوم انتظـــارهم .

ثانيا : أسباب القول بالرجعة بعد الغيبة

و رغم تعدد الأحـــــاديث و الروايات المؤكدة لحتمية ظهور الإمام الغائب المنتظر تبقى الأسباب الموجبة لغيبته واستتاره متضاربة . إذ « لم يتفق القائلون بالغيبة على أسبـــــابها فذهب بعضهم إلى أنهـــــا لطف إلهي و قال آخرون إنها تابعة لعصمة الأئمة وأكد قسم ثالث أنها لـــطف ناتج عن قصور الإنسان و ابتعاده عن الحقيقة » [1].

فكثرت الأساطير و الحـــــكايات التي نسجت حول غيبة كثير من الأئمة كالإمام إسماعيل بن جعفر وأبنائه من بعده ، ودخول الإمام الثاني عشر في سرداب تسترا. و ما أطلق من ألقاب على هؤلاء الأئـــــمة أثناء غيبتهم و استتارهم .. فكانت آراء الشيعة مزيجا من أفكار وثقافـــــات فارسية و مجوسية .

و إذا كانت السبئية من أول الفـــرق الشيعية التي تثبت فكرة الغيبة و الرجـــعة فما ذلك إلا تبريرا لعقيـــدتها في الإمامة و بداية للخوض في مســـألة تقديس الإمام و تأليهه ،إيمانا منهم بأنه من المستحيل فقدان علي –رضي الله عنه – كما فُقد الرســـول ﷺ . إذ « السبئية المتشبثون بنظام الحكم التيوقراطي و المسجونة أرائهـــم في حدود الأساطير و الديانات القديمة لم يستطيعوا أن يتحملوا نبأ استشهاد الإمـــام علي لإخلاصهم للدين أولا ، أو لآل البيت . لأن البعض منهم كان يرى فيه و في آل بيته الوارث الطبيعي للدماء الساسانية » [2].

فـــكانت هذه الطـــــائفة الموالية للإمام "علي" هي أول من أشاع فكرة غيبته لهول فـــاجعة مقتله وهو ابن العـــم والصهر والصديـــق .. ثم شاعت هذه الفكـــرة مع الفرق الشيعية جميعـــــا خاصة الإمامية إذ « فلسف الإمامية مبدأ الغيبة و الرجعة و ربطوه بنظريات فلسفية ما ورائية » [3].

و قد ورد في مـــــُؤلَّف يحـــاول صاحبه التقريب بين مذهب أهل السنة و الشيعة حديث عن فكـــرة الرجعة بعد الغيـــــبة عند الشيعة جـــــاء فيه « ومن عقائدهـــــم الأساسية أنه عنـــدما

1 – كامل مصطفى الشيبي ، مرجع سابق ص 57

2 – محسن عبد الناظر، مرجع سابق ص 481

3 –المرجع نفسه ص 482

يـــقوم المهـــدي (و هو الإمام الثاني عشر) الذي هو حي حتى الآن و ينتظرون خروجه - أي ثورته ليثوروا معه- و إذا ذكروه في كتبهم يكتبون في جـــانب اسمه أو لقبه أو كنيتـــــه حرفي "عج" أي عجل الله فرجه »[1] و مسألة الرجـــــعة بعد طول الغيبة و التستر تجعل من الأئمة أشخاصا من طينة فوق طينة البشر و تضفي عليهـــــم هالة من التقديس مما ترتب عنه أمر آخر ارتبط بالعقيدة الــــشيعية ككل و الباطنية خصوصا، تجسد في فكرة خلود الأئمة الشيعيين والإعتقاد الجازم بضرورة تقديس سلطتهم. .

ثالثا : خلود الأئمة والتقديس المطلق لسلطتهم

و يمكن القول أن مفهومي الغيبة و الرجعة يؤكدان عقيدة خلود الأئمة و قداستهم من وجهة نظر الشيعية الإسماعيلية الباطنية حتى يظل التمسك بالعقيدة قائما لا تفريط فيه.

* خلود الأئمة

يذكر العـــــلامة "بن خلدون" عن فرق الشيعة تحدثهم بفكرة العودة والمهدية بعد الغيبة والتستر مما يمنح لأئمتهم جانبا من التأليه ويؤكد على التقديس المطلـــــق للإمام وسلطته ، لما يحكيه عنهم في مـــقدمته « و جاء الإسماعيلية منهم يدّعون ألوهية الإمام بنوع من الحلول وآخرون يـــدّعون رجعة من مات من الأئمة من التناسخ وآخرون منتظرون مجيء من يقطع بموته منهم وآخرون منتظرون عود الأمر من أهل البيت .. »[2] .

ففكـــــرة العود الأبدي والرجعة إلى الحياة تأكيد و دليل على خلود الأئمة و هذه الفكرة رائجة بين العوام و الكافة من الخلـــق إذ « أن المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على ممر الأعصار أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيـــــد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلـــمون و يستولى على الممالك الإسلامية و يسمى بالمهدي »[3].

* التقديس المطلق لسلطة الأئمة

و بسبب إتباع سلطة الإمام المعلم «غلا الإسماعيلية في الثقة غير المحدودة التي خولوها لأصحـــاب الســـلطة وهي تطابق في غلوها نظريتهم في الإمامة ولهذا أطلق عليهم اسم التعليمية أي الـــذين يعتمدون اعتمـــاد مطلقا علي سلطة الإمـــام التعليمية »[4] ممـــا يكشف بجلاء أن الحركة

---

1 – محب الدين الخطيب ، الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الإثني عشرية ، ص 19

2 – عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 338

3 – المرجع نفسه ص326

4 – أجناس جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام ، ص244

التعليـــمية الإسماعيلية الباطـــــنية قد عملت على نشر و تدعيم العقيدة الباطنية إلى درجة تقديس الإمام والثقة العمياء به و بكل ما يقوله أو يسنه من أحكـــــام .

فلم يكـــــن الإمام الإسماعيلي الشيعي كما هو عند أهل السنة فردا كغيره من أفراد الأمـــــة امتاز عليهم بخصلة واختاروه ليسوسهم بل هو شخص متميز فوق الناس في طينته وتصرفاته وهو مشرع وهو منفذ وأكثر من كل هذا القدر من التعظيم جعل الخير والشر يقاس به فما عمله هو خير وما نهى عنه فشر فسلطته مطلقة وطاعته واجبة » وتفرع عن هذا التقديس لسلطة الإمام واجب الطاعة المطلقة للرؤساء كما هـــو الحال على الأخص عند طائفة الحشاشين إحدى فروع الحركة الإسماعيلية التي خلقت من هذه الطاعة العمياء حكما إرهابيا صارما «[1]

فمـــــن جهة دعت هذه الأفكار السياسية الشيعية إلى تقديس الإمام لأنه مختار من الله فهو معصوم عن الخطأ و من جهة أخرى ترتب عن ذلك أن تكـــون سلطته مطلقة باعتباره » هو قائد روحي له سلطة روحية تفوق حتى سلطة البابا في الكنيسة الكاثوليكية «[2].

فلا أساس للعبادات أو الطاعات، بل سائر الأركان ما لـــــم يسبقها إيمان به فتكون الإمامة ركـــن الدين » و لولا وجود الإمام لساحت الأرض بمن فيها «[3] فإذا خلا خلت الأرض بمن فيها و كأنه الرب الذي بيده زمام الأمور فلا يجوز خلعه ولا التمرد علـــــيه فهو المسن والمشرع والآمر الناهي مادام نص عليه الشرع .

وقد بلغ تقديس الأئمة الشيعيين أوجه في عهد الدولة الفاطمية حين أغرقوا في الدعوى لهم وصف "الشهرستاني" لهم أنهم » قالوا ولن تخلو الأرض قط عن إمام حي قائم إما ظاهر مكشوفا وإما باطن مستور فإذا كان الإمام ظاهر يجوز أن تكون حجته مـــستورة وإذ كان الإمام مستورا فلابد أن تكون حجته و دعاته ظاهرين«[4] .

فالإعتراف بالإمام الشيعي من الذرية العلوية أمر لازم لصحة الإيمان سواء كان ظاهـــرا أو مستترا نظـــــرا لتَشديد دعاة الفرق الشيـــعية الباطنية على ضرورة معرفة إمام العصر وطـــاعته والإقـــرار له بالولاء وإلا " فإن من مات و لم يعرف إمام زمانه مات ميته جاهلــــية وكذلك من مـــات و لم يكن في عنقه بيعه إمـــــام مات ميتة جاهلية«[5] و يقرن الباطـــنية بين معرفة الإمـــام

1 – أجناس جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام ، ص 245

2 – أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ص 221

3 – علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص 527

4 – أبو الفتح الشهرستاني ، الملل والنحل ،ج1، ص 197

5 – المرجع نفسه ص 198

والإعـــــتراف بأحقيته في ذلك المنصب وبين سلامة الإيمان و قبول العبادات و الطاعات و سائر الأركان الأخرى للشريـــعة .

وانجر عن هذا التقـــديس لسلطة الأئمة أن قال البعض بإلوهيتهم كحال الأئمة الشيعيين من الفاطميين يقول " علي سامي النشار" حاكيا ما شهدته تلك الفـــرق بقوله « وقد كان من أثر إغراق الإسماعيلية في الجــــانب الروحي وإضافتهم الصفات الإلهية إلى الأئمة أن قيل بإلهية الحاكم بأمر الله الفاطمـــي (المتوفى **411هـ–1020م**) » [1].

فإذا خلا خلت الأرض بمن فيها و كأنه الرب الذي بيده زمام الأمور فلا يجوز خلعه ولا التمرد عليه فهو المسن والمشرع والآمـــــــر الناهي مادام نص عليه الشرع حتى اعتبر أحمد أمين «أن عقيدة الشيعة على هذا المنوال تشل العقل وتميت الفكر وتعطي للحاكم أو الخليفـــــة أو الإمام سلطة لا حدود لها [...] وهي أبعد ما تكون عن الديمقراطية الصحيحية » [2] .

- مما سبـــق يتبين أن الإمامة من أهم المباحث التي قام عليها الفكر الشيعي ،الذي أضفى عليها هالة من التـــــقديس ، و جعل الحاكم آمرا بأمر الله بل لا ينبغي مخالفته بل الطـــاعة له والإتباع هما الواجبان في حقه تماما كإمـــام الصلاة، حتى « كان المفهوم المتـــداول عندهم للحاكـــم لزمام أمور السلطة والسيادة في الدولـــــة هو الإمام واعتبروا أن هذا اللقب هو الأنسب لمعنى الحكم في الدولة الإسلامـــية لأنه يدل في معناه على مــــــقام ديني ومكانه دينية ملحوظة لا تـــوجد في غيره من الألفاظ » [3]

فـــكان الشيعة الباطنيون يسبغون على أئمتهم نوعا من التقديس و التأليه و يمنحونهم قدرات و صفـــات لم تتوافر لغيرهم من سائر البشر " فهو يتلقى علمه من الله عن طـــريق الوحي و يعده الله إعدادا خاصا من حين أن يكون نطفة ، و يحفظه برعايته السامـــــية ويعصمه من الذنوب ويورثه علم الأنبياء والمـــرسلين» [4] مما يجعله في مرتبة قريبة من مرتبة النبي بل إن الإسماعيلية الباطنية تربط بين الإمامة و النبوة و لها في ذلك تصورات و آراء فريدة تميزها عن غيرها و هذا ما سنكشف الستار عنه فيما سيلي.

---

1 – علي سامي النشار ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص 210

2 – أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ص221

3 – إسماعيل زروخي، الدولة في الفكر العربي الحديث ، ص23

4 – أحمد أمين ، المرجع نفسه ، 122

المبحث الثالـث : ارتباط الإمامة بالنبوة و الوحي

المطلب الأول : حقيقة النبـوة عند الباطنية

لم تقتصر الشيعة في مذهبها على بيان مسألة الإمامة ووجوبها بالنص بل تعدها إلى ربط هذه الإمامة بالنبوة ، ليكون لموفقها أكثر قوة . حتى أن « أقدم المعطيات لإقامة علم النبوة الإسلامية نجدها في تعاليم الأئمة » مما يدل على وجود صلة وثيقة بين الإمامة و النبوة.

فبالنظر إلى طبيعة فرقة الشيعة و العدد الهائل من المتشيعين لها على اختلاف عقائدهم ونزعـاقم و ما ساد من تعاليم و معتقدات خاصة بها « يمكن القول أن الوسط الشيعي هو الوسط الذي كان ملائما لينشأ فيه علم النبوة ، و يكون مدارا للتأمل و التطور فلا يمكن إلا للبني أن يتصل به وشروط هذا الاتصال وظروف ما يمكن أن يعطيه محتواه من نتائج بعد اختتام النبوة تشكل الموضوع الذي تدور الفلسفة النبوية حوله و هذه الفكرة تشكل مع صلب الفكر الشيعي وحدة لا تفصم »[1].

هذا لا يعني أن مفكري الإسلام من غير الشيعة لم يتناولوا مسألة النبوة بالبحث والدراسة بل إنهم خاضوا فيها وكانت لهم فيها مواقف لا تتعارض مع ما حوته الشريعة الإسلامية السمحاء .لكن الوسط الشيعي أضفى على النبوة خصائص من مذهبه و ربطها بتعاليم الأئمة واضعا في الوقت ذاته نظرية في النبوة تتوافق مع نظريتهم في الإمامة.

و يمكن التدرج في تحديد بعض من ملامح التصور الشيعي الباطني للنبوة انطلاقا من هذا الحديث الذي يرويه " ابن بابويه" (القرن الثالث الهجري) عن الإمام" جعفر" أنه قال « يا مفضل إن الله جعل للنبي خمسة أرواح ...وليس للمؤمنين الصادقين منها إلا أربعة ، و أما ما تبقي من الخلق فلديهم منها ثلاثة » بمعنى أن للنبي من الخصال ما يزيد عن ما يتوفر لدى سائر الناس ، فهو بشر مثلهم لكن مؤيد بالمعجزات و أكثر قربى منّا إلى الله تعالى .

إذن فإن ضرورة النبوة تعني من جهة ضرورة وجود أشخاص ملهمين أشخاص فوق مستوى البشر حتى أنه ليمكن لنا أن تقول بوجود « إنسان رباني أو رب إنساني دون أن تتضمن هذه المقالة فكرة التجسيد » . و من جهة ثانية فإن « علم النبوة الشيعي يختلف تماما عن المدارس السنية السابقة له »[2] .

---

[1] – هنري كوربان ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ، مراجعة موسى الصدر ، عويدات للنشر و الطباعة ، بيروت لبنان ، ط1، 2004 ، ص98

[2] – المرجع نفسه ص 98

هذا يبرز اختلاف تصور مسألة النبوة عند الشيعة عن غيرهم و انفرادهم بمعتقدات خاصة لذا كلما ذكرت هذه الطـــائفة الشيعية تبادر إلى الأذهان شيئان طالما ارتبطا بها وهما: إمام الزمان المنتظر والنبوة المحمدية، وقد كان لهم في الأولى آراء ومعتقدات راسخة عرفوا بـــها أما الثانية أي النبوة، فارتبطت كثيرا بالإمامـــــة و الولاية « فبعد دور النبوة التي أقفلت يلي دور أخر هو دور الولاية الذي يكون ظهور الإمام خاتمة له »[1].

شرح كيفية حدوث النبوة عند الشيعة الباطنية

ما روي عن الشيعة الباطنية في مفهوم النبوة مثير للغاية ، فلهم فيها معتقدات يبتعدون فيها عن ما جاء في الشريعة الإسلامية ويقتربون بها أكثر إلى أفكـــــار الفلاسفة منها ما ذكره عنهم الإمام "الغـــــزالي" إذ يقول « والمنقول عنهم في بيان معتقدهم من النبوات قريب من مذهب الفلاسفـــــة ، و هو أن النبي عبارة عـــن شخص * فاضت عليـــــه من السابق- بواسطة التالي- قوة قدسية صافية مهيأة لأن تنقش-عند الاتصال بالنفس الكليـــة- بما فيها من الجزئيات، كما قد يتفق ذلك لبعض النفوس الزكية في المقام حتى تشاهد من مجرى الأحـــوال في المستقـــــبل إما صريحا بعينه أو مدرجا تحت مثال يناسبـــــه مناسبة ما فتفتقر منه إلى التعبير، إلا أن النبي هو المستعد لذلك في اليقظة ، فلذلك يدرك النبي الكليات العقلية عند شروق ذلك النور وصفاء القوة النبوية كـــــما ينطبع مثال المحسوسات في القوة الباصـــرة من العين عند شروق نــــــور الشمس على سطوح الأجرام السفلية »[2].

و مـــن الـــواضح أنهم مزجوا بين الفلسفة و الدين في تصورهم للنبـــوة و يبرز لنا ذلك بجلاء حين يوظفون مسألـــة العقول و الأنفس و الفيض تحديد مراتب و درجات للاتصال...و غيرها من كـــلام الفلاسفة. و ينقل لنا الغزالي بعضا من أفكارهم في النبوة و الوحي و كـــذا تفسيراتهم في"المستظهري" فيقـــول « وزعموا أن جبريل عبارة عن العقل الفـــائض عليه ورمز إليه لا أنه شخص متجسم متركب عن جســـم، لطيف ، أو كثيف يناسب المكـــان حتى ينتقل من علو إلى سفل، و أمـــا القـــرآن عندهم فتعبير محمد عن المـــعارف التي فاضت عليه من العقـــل الذي هو المـــراد باسم "جبريل " و سمي " كلام الله " تعالي مجازا فإنه مركب من جهته و إنما الفائض عليه من

---

[1] – هنري كوربان ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ص **80**

*الفيض **émanation**: صيرورة تكمن حسب بعض العقائد في أن الكائنات الكثيرة التي تشكل العالم تصدر(طفيف) من الكائن الأحد الذي يكون مبدأها دون أن يكون ثمة فصل في هذا التطور، الفيض يتعارض مع الخلق **creation** .. – من :أندريه لالاند ، الموسوعة الفلسفية، ج**1**، ص **335**

[2] – أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ص **40**، **41**

الله بواسطة "جبريـــــل " بسيط لا تركيب فيه وهو باطن لا ظهور له،و كلام النبي ﷺ عبـــارة عن ظاهر لا بطون له وزعمــوا أن هذه القوة القدسية الفائضة على النبي ﷺ لا تستكمـــل في أول حولها كـــما لا يستكمل النطفة الحـــالة في الرحم إلا بعد تسعة أشهر كذلك هذه القـــوة كمالها في أن تنتقل مـــن الرسول ﷺ الناطق إلى الأساس الصامت وهكذا تنتقل إلى أشخاص بعضهم بعد بعض فيكمـــل في السابع« [1].

فالـــوحي يبلغ النبي بهذا الشكل المنظم و المحكم ليتمكن النبي من إدراكه فعبر عنه ويبلغه للناس لذلك كان وجوده أي النبي بالغ الأهمية وعليه » فإن ضرورة النبوة تعني من جهة وجود أشخاص ملهمين أشخاص فوق مستوى البشر « [2] . و لا تتوقف النـــوة عند شخص النبي فقط بل تجعل الشيعة للإمـــام دورا مكمـــلا لدور النبوة باعتبار أن النبي هو الناطق و الإمـــام هو أساسه الصامت و سيأتي تفصيل المصطلحين لاحقا.

المطلب الثاني : مكانة وترتيب الإمامة بين النبوة والوصاية

ومما ينفرد به الفكر الشيعي الإسماعيلي الباطني في مسألة الإمامة هو التمييز بينها وبين الوصاية من ناحية وبينها وبين النبوة من ناحية أخرى فيمنحون لكل منزلته و درجته و لهم في ذلك ترتيب و في الوقت ذاته يرون أن تلك المراتب مرتبطة فيما بينها و متضافرة .

أولا : النبوة و الوصاية

إن ازدواجية النبوة و الإمامة كانت محورا أساسيا للفكر الشيعي بل هـــي المبدأ الذي ناضل لأجله كل معتقد بإمامة آل البيت و خلافتهم للنبوة . فالأئمة من نسل علي هم الأحق بالإمامة و علي وصي النبي ﷺ حيث ذهب الشيعة عـــموما إلى » أن الوصية لعلي بالخلافة قد ابتدأت مع ظهور الدعوة فقد أخبر الرسول ﷺ ابن عمـــه أن جبريل -عليه الســـلام- نزل عليه بقوله تعالى﴿وَأَنــذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقــرَبِينَ ﴾[3] « [4] .

و عليه يمكن أن نستخلص فكرة هامة مفادها » أن الوصية لعلي بن أبي طالب نشأت مع الإسلام ثم أخذ أمرها ينمو بنموه حتى ركز في النفوس و أصبح عقيدة يوم اجتماع الغدير قبل انتقال الرسول ﷺ على ربه بزمن قصير« [5].

---

1 – أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ص41، 42

2 – هنري كوربان ، مرجع سابق ، ص 99 ، 100

3 – سورة الشعراء آية 214

4 – محسن عبد الناظر ، مسألة الإمامة ، ص 151

5 – المرجع نفسه ص 152، 153

الملاحظ أن الشيعة الباطنية حاولت اعتماد سبل شتى لتأكيد الوصاية من النبي لصهره وبن عمه الإمـــام علي . و كان من بينها إحصاء الأحاديث التي من شأنها تأكيد ذلك الأمر حيث « روَوا الأحـــاديث التي تفيد أن الله جعل نصف الديـــن تحت مسؤولية الرسول ﷺ والجزء الأخر كلفوا به عليا و وصلوا إلى نوع من الاشتراك بين الرســـول و الوصي »[1].

فالوصية لعلي كانت من النبي كما ذهب إلى ذلك المـــؤلف الشيعي الإثني عشري "المسعودي" صاحب "مروج الذهب" حين صنف كتابا في إثبـــات الوصية للإمام "علي بن أبي طالب" و لذريته من بعده و لم يكتف في هذا المؤلف بإثبات الوصية "لعلي"بل تعداه إلى مسألة بالغة الأهمية و هي مسألة توارث الإمامة و النبوة في عقب واحد طاهـــر منذ خلق الله الخلق إلى اليوم الذي وصلت فيه إلى الإمـــام علي ثم خلفته عليها ذريته من بعده ..

فالحـــديث عن أمـــر الوصاية من النبي هو ما أكده المؤلف الشيعي "المسعودي" الذي « ذهب إلى اتصـــال الحجج والأوصياء من لدن آدم- عليه السلام- إلى القائم بالأمر أو قائـــم الزمـــان بمعنى أن كـــل رسول قد أوصى بإمـــــام، " آدم " أوصى لهبة الله وهـــو" شيث" بالعبرانية »[2] و استمرت الوصية تنتقل في أولاد " شيث " إلى أن سلمها آخرهم إلى إدريس و كان من دوره آدم الذي أنزل الله عليه صحفه و انتقلت من بعده إلى أولاده حتى سلمهـــا آخرهم إلى نوح عليه الســـلام .. »[3].

و بعد نوح –عليه السلام- استمر تناقل هذه الوصية في الأعقاب « و انتقلت من نوح في أوصيائه من ذريته حتى وصلت إلى إبراهيم ثم بالطريقة عينها و من خـــلال الأوصياء انتقلت من بعده إلى موســـى ثم إلى عيسى ثم إلى محمد خاتم الأنبياء ، لكن محمدا أوصى بعلي واستمرت الوصية من بعده في ذريته»[4] .

ثانيا : الإمامة والوصاية

لقـــد ميز الإسمـــاعيلية بين الوصاية و الإمامة باعتبار أن الوصاية أعلى من الإمـــامة ، والنبوة أعلـــى من الوصاية وهذا مـــا يوضحه لنا الـــدكتور محمد أحمد الخطيب بقوله « فلـــم يكن علي بن أبي طالب إمامـــا من أئمتهم بل ذهبوا إلى أن الإمـــامة في الرتبة دون الوصايا فعلي كان وصـــي

[1] – **محسن عبد الناظر ، مسألة الإمامة ، ص 180**

[2] – **يحي هويدي ، تاريخ فلسفة الإسلام في إفريقيا ، ص 81**

[3] – **المرجع نفسه ص 81**

[4] – **المرجع نفسه ص 82**

النبي ﷺ وكانت الإمامة بعده إلى الحسن بن علـــي وهو أول أئمتهم وبعده كانت الإمامة في الحسين« [1] و بقيت الإمامة في عقبه متوارثة بوصية من إمام العصر إلى من يأتي بعده أي ولدا بعد ولد وهذا الكـــــــلام أولوه من قول الله – عز و جل– ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَـــةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [2] فعلي هو وصي النبي –عليه الســـلام– ومن جاءوا بعده كانوا الأئمة وهكذا توارث نسل علي هذه الإمامة والوصاية جيلا بعد جيل فهم الخلفاء من بعده.

أمـــا إذا نظرنا إلى الوصاية أو بالأخرى الوصية بمعنى أن الأول من الأمة يوصى للثاني الذي يليه كان « كـــل إمام منهم وصي لسلفه الذي عينه بإقراره الصريح موافقا للترتيب الإلهي وجاعلا إياه المرشح الشرعي للوظيفة الربانية وهذا الترتيب سبق أن قضى الله به وكتبه على كل عصر وأقره الرسول كتقليد إلهي لمنصب الحكم وولاية أمور الأمة « [3].

إذن النبوة كـــانت لمحمد و الوصاية لعلي و توارثت ذريته الإمامة من بعده فهـــم ولاة هذا الأمر لا يخرج عنهم إلى سواهم و يعرف الأستاذ "محمد أحمد الخطيب" مصطلح الولاية المعمول به كمرادف للإمـــامة عند الشيعة الباطنـــية الإسماعيلـــية بقوله « فالولاية عند الإسماعيليـــة هي اعتقاد وصاية علي وإمـــامة الأئمة المنصوص عليها من ذرية "علي بن أبي طالب" و"فاطمة" بنت الرســـول ﷺ « [4].

حتى أن" إخـــوان الصفاء" حين يذكرون في رسائلهم عليا –رضي الله عنه– يصفونه بالوصي كقولهم مثلا « ومما يجمعنا وإياك أيها الأخ البار الرحيم محبة نبينا عليه السلام وأهل بيت نبيه الطاهرين وولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب خير الوصيين صلوات الله عليهم أجمعين «.كما أنهم يميزون بين الإمـــامة والنبوة وواضح هذا بشكل جلي في قولهم « وأعلم أن الإمامة إنما هي خلافة والخلافة نوعان خلافة النبوة وخلافة الملك« [5] .

ثالثا : النبوة و الإمامة

و الأئمـــة كالأنبيـــاء درجـــاتهم متفاوتة و لكـــل مرتبته يظهـــر هذا الرأي على لســـان أحد مفكري الشـــيعة من خلال تعرضه لمشكلـــــة النبوة في كـــتاب "إثبات النبوءات" الذي جاء فـــيه

[1] – محمد أحمد الخطيب ،الحركات الباطنية في الإسلام ، ص105

[2] – سورة الزخرف آية 28

[3] – أجناس جولد تسيهر ، العقيدة والشريعة في الإسلام ، ص 196

[4] – محمد أحمد الخطيب، المرجع السابق ، ص100

[5] – إخوان الصفاء ، رسائل إخوان الصفاء ، ج5 ، ص 68 ، 69

شرح لكيفية انتقال النبوة و الإمامة في النسول الطاهرة ، يقول السجستاني « إن كل رسول يفضل على الذي تقدمه بدرجة أو درجات لقوله تعالى ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾[1] »[2] .

يتبين من هذا الرأي السابق أن الأئمة أيضا درجات أي أنهم متفاوتون فيما بينهم وهذا الارتباط يكشف عنه قول" السجستاني"كما يلي « لما كانت الإمامة متولدة عن النبوة ثم وجدت الإمامة تزداد عند كل إمام شرفا وفضلا »[3]. لذلك يميز الشيعة بين الإمامة والنبوة من خلال تقسيمهما إلى ما يسمى الولاية الكبرى والولاية الصغرى المخصوصة « فالولاية العظمى والخلافة الكبيرة التي هي خلافة الله تعالى والمستخلف بها هو النبي ﷺ »[4] وبهذا الشكل يكون من استخلفه النبي ﷺ من بعده من آل بيته قد تولى الخلافة الصغرى.

و سبـــق و قلنا مرارا من قبل أن تولي آل البيت للإمامة هو عين الصواب لأنهم هم أصحاب هذا الحق يديـــرونه كيفما شاءوا دون تدخل من غيرهـــم ممن لا يرتقون إلى مرتبتهم و يحيطون دعوتهم بكثير من الســـرية و الكتمان « وهذه الولاية المخصوصة لأهل بيت الرسالة عليهم السلام لا يحتاجون فيها إلى مـــدبرين غيرهم وإلى علماء سواهم ، و لا يطلع على أســـرارهم ، و لا يعرفون أخبارهم ولا يطلـــعون على مواليدهم ، و لا يعرفـــون سنيهم في موتاهم و لهم عـــلوم يتميزون بها و ينفصلون عن العالم بمعرفتها و أعمال يعملونها لا يشركون فيها غيرهم . لذلك استحقوا الريـــاسة و وُسِموا بالخـــلافة وأنهم لا يبدون عملا من الأعمال ولا يظهرون فعلا من الأفعـــال إلا بمشيئة إلـــهية وإرادة ربانـــية»[5] .

وكانت القراءات الشيعية لمسألة النبوة لا تخلو من دلالات واضحة تؤكد في مجملها على الارتباط الوثيق بين هذه النبوة والإمامة و تحدد مهام و أدوار كلا منهما مستدلة بحركات الأفلاك و الكـــواكب .فهاهم " إخوان الصفاء" يعملون على تفسير النبوة بالتأثيرات الفلكية شارحين كيفية بلوغ الوحي « فالنبي هو الذي يتلقى الأخبار من الملائكة وهم الكواكب .. فالنبي يسمع كلام الملائكة من عـــالم الأفـــلاك»[6] .

[1] – سورة البقرة آية **253**

[2] – أبو يعقوب السجستاني ، إثبات النبؤات ، دار المشرق ، بيروت لبنان ، ط**1** ، **1982** ، ص**162**

[3] –المصدر نفسه ص**166**

[4] – إخوان الصفاء ،رسائل إخوان الصفاء ، ج**5**، ص **313**

[5] – المصدر نفسه ص**313**، **114**

[6] – حنا الفاخوري وخليل الجر ، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص **254**

هكذا إذن يتلقى النبي الوحي الإلهي ليعمل فيما بعد على تبليغه بكل أمانة للناس ليرشدهم إلى طريق الحق ويخلصهم من الشرور.فكان « غرض النبي تأديب النفوس الإنسانية ونقلها من رتبة البشرية إلى رتبة الملائكة » وهـــي فكرة أفلاطونية استمدها الأخوان من الفلسفات اليونانية التي كانت رائجة في الوسط الشيعي و الفارسي ، وأحسنوا توظيفها في مناقشة مســـألة النبـــوة فصارت « النبوة في رأي الإخوان فيض من النفس الكلية على نفس النبي الجزئية »[1] فللنبوة خصائصها الهامة في الفكر الشيعي الباطني ويميزها هذا عن الإمامة والوصاية .

رغم الصلة الوثيقة بين النبي و الإمام إلا أن هذا لا يعني إسقاط كلا منهما على الآخر فهما مرتبطان لكن لكل منهما خصائصه و وظائفه هذا ما يؤكده لنا شروحات" كاشف آل غطاء" للفرق بينهما .ففي نظره« الإمام لا يوحى إليه كالنبي وإنما يتلقى الأحكام منه مع تسديد إلهي فالنبي مبلغ عن الله والإمام مبلغ عن النبي »[2] فحسب رأي "آل غطاء" يكون النبي أعلى درجة من الإمام بالنظر إلى قربه من ربه وصلته المباشرة به عن طريق الوحي.

كذلك يظهر هذا الفرق بوضوح إذا عرفنا مدلول النبي عند الإسماعيلية وما يميزه عن الإمام إذا «يطلق الإسماعيلية على النبي اسم الناطق فالأنبياء هم النطقاء، ولكل نبي أو ناطق إمام أو وصي هو الصاحب أو السوس أو الأساس»[3] فالنبي ناطق بالوحي و الإمام صامت ومتمم له.

فيبقي دائمـــا النبي أعلـــى درجة من الإمام الذي يسمى عندهم الأســـاس فحسب " المقريزي « الأساس هو صاحب الشريعة الباطنية في حين أن النبي هو صاحب الشريعة الظاهرة »[4]. ولكل نبي إمام أو وصي يوصي به بعده ولكل منهما سلطة نافذة على الخلق إذا « يخضع الناس لناموسين.. ناموس الشريعة و ناموس القيامة و أما ناموس الشريعة فإنه يحدد علاقات الإنسان بالإنسان و هو من النبي وأما ناموس القيامة فيحدد علاقة الإنسان بالله و هو من قائم القيامـــة »[5] الناموس الأول يكون مع النبي أما الناموس الثاني الخاص بالقيامة فيتولاه الإمام .

و ما مصطلـــح "قائم القيامة" هذا إلا مصطلح مرادف للفظ "إمـــام"، ابتدعه "الحسن ابن الصبّاح" لإبراز سلســـــلة الأدوار المتعاقبة التي تكمـــل بظهور قائم للقيامة هو الإمـــام الشيعي السابع في كل دور .

---

[1] – **حنا الفاخوري وخليل الجر ، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص255**

[2] – **حسن كاشف آل غطاء ، أصل الشيعة وأصولهم ، ص 98**

[3] – **يحي هويدي ، تاريخ فلسفه الإسلام في القارة الإفريقية،ج1 ، ص81**

[4] – **المرجع نفسه ص81 ، نقلا عن المقريزي ،الخطط ، ج1، ص 393**

[5] – **حنا الفاخوري وخليل الجر، مرجع سابق ، ص217**

لكن يمكـــن الاستدلال بطريقة أخرى على طبيعة العلاقة بين الإمام والنبي بالعودة إلى الحوار الذي دار بين " الكليني محمـــد بن يعقوب " (توفي:**329هـ**) و هو أحـــد أعلام الشيعة الإمامية و أحد سائليه من طلبة العلم عن الفرق بين النبـــي و الإمـــام و هذا جزء من نص الحوار « كتب الحسن ابن العباس المعروف إلى الرضا: جعلت فداك أخبرني ما الفرق بين الرسول والإمام والنبي؟ فكتب أو قال: الفرق بين الرسول والنبي والإمام أن الرسول هو الذي يترل عليه جبريل فيراه ويسمع كلامه ويترل عليه الوحي وربما رأى في منامه نحو رؤيا إبراهيم. والنبي ربمـــا سمع الكلام وربما رأي الشخص و لم يسمع، والإمام هو الذي يسمع الكلام ويرى الشخص »[1].و هذه بعض من الجوانب التي تظهر اختلاف النبي عن الرسول.

وحسب "إخـــوان الصفاء" يحدث هناك اشترك بين النبي والإمام أو الملك من حيث الخصال فقد ورد في رسائلهم« أعلم أنه ربما تجمع هذه الخصال في شخص واحد من البشر في وقت من الزمان فيكون هو النبي المـــبعوث وهو الملك وربما تكون في شخصين اثنين: أحدهما النبي المبعوث إلى تلك الأمة والأخر المسلط عليهم » والنبي الكريم خاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ قد آتاه الله من كليهما بمعنى «جمع الله الملك والنـــبوة لنبيه محمد عليه السلام »[2].

وبذلك كـــان للنبي المِلِك ميزات وخصال خاصة لا يشاركه فيها أحد كالرغبة والرهبة لذلك يؤكدون على قوة الرباط القائم بينهما حيث أجمع هؤلاء الأخوان على « أنه لا قوام لأحدهما إلا بالآخر كما قـــال ملك الفرس" أردشير" في وصيته: إن الملك والدين أخوان توأمان لا قوام لأحدهما إلا بالآخر وذلك أن الدين أس الملك و الملك حارسه فما لا أس له مهدوم وما لا حافظ له ضائع ولابد للملك من أس ولابد للـــدين من حارس »[3].

ورأي آخـــر في النبوة والإمامة تستشفه من المؤلَّف الإسماعيلي" إثبات النبوءات" لصاحبه للفيلسوف الإسمـــاعيلي "السجستاني" جاء فيه أنه قد« حكم الله تعالى بأن الذرية الـــتي تجري النبوة فيها ذرية واحـــدة غير منتقل عنها ذلك الشرف إلى غيرها من النسول كأنهم خلقوا لها لا يمكن لأحـــد غيرهم قبولها» و يرى "السجستاني" كغيره من مفكري الشيعة أن الإمـــامة كالنبوة متوارثة لا تخرج من أهلـــها مستدلا بقول الله تعالى ﴿ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّـةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيـعٌ عَلِيمٌ﴾ [4].

---

[1] – أحمد أمين ، ضحي الإسلام ، ص**213** ، **214** ، نقلا عن الكليني ، أصول الكافي ، ص**82**

2– إخوان الصفاء ، رسائل إخوان الصفاء ، ج**4** ، ص**309**

3– المصدر نفسه ص**310**

4– سورة آل عمران آية **33** ، **34**

لأن خروجها يجلب الضـــرر إذ « النبـــوة من نسل إلى نسل آخر ضرب من الفـــساد »[1]
وقد فـــهم جل الشيعة من ذلك أن نسل النبوة الطـــاهر الشريف قد عقبه نسل الأئمة الطاهـــرين من حفدة النبي والذين جعلت الإمامة فيهم بالتوارث نســـلا بعد نسل تماما كثبوت النبوة في نسل واحد . وقد حكـــى الله تعالى في الذكر الحكيم سؤال خليله النبي إبراهيم -عليه السلام- في أن يجعل النبوة متوارثة في عقبه فأجابه إلى ذلك الطلب راضيا لما علمه من حسن سيرهم وعظم شأنهم قال تعـــالى ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَـــةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [2] .

ممـــا يعنى أن الإمامة باقية في نسل سيدنا إبراهيم متوارثة ، هكذا برهن "السجستاني" على أن النبوة مثل الإمامة باقية في نسل واحد طاهر شريف لا تحق لسواهم . « فإذا كانت الإمامة لا تستقر إلا في أهل بيت النبوة فكيف يتوهم أن النبوة تستقر في غير بيت أهل النبوة فإذا النبوة ثابتة في نسل واحد غير منقطعة » [3].

و يذهب المستشرق "هنري كوربـــان" إلى الاعتقاد بخلو الزمـــان اليوم من الأنبياء بمعنى «إن دور النـــبوة مقفل و قد كان محمد خاتم الأنبياء الذين جاءوا للإنسانيـــة بشريعة جديدة » كـــما يضيف « أما عند الشيعة فقد كـــان أجل النبوة النهائي موعـــدا لابتداء دور جديد وهو دور الولاية أو الإمامة » [4] لتكون جميع المهام موكلة للإمام وحده فيؤدي أدواره ويكمل مهام النبي و يؤول الشريعة التي أتى بها النبي للناس .

فبالنظر إلى ما انتشر من أفكـــار شيعة أكدت على ارتباط النبوة بالإمـــامة وخروجها من النسل الواحـــد الطاهر الشريف، يمكن القول أن لعلـــم النبوة متمم ضروري هو علم الإمامة فالنبي صاحب الشريعة الظاهرة المترلة من المولى عز وجل، أما الإمام فهو صاحب التأويل والباطن لأن « دور الباطن يعقب دور الظاهر والحقيقة تتلو الشريعـــة »[5].

وهكـــذا كان تعاقب أنبياء الله على الأرض كل بشريعة تنسخ ما قبله ا مصحـــوبا بوصي وأئـــمة« فكل حقبة من دور النبوة أي من دور الستر يبتدئهـــا ناطق أو وصي تليه سباعية واحدة أو أكثر من الأئـــمة ثم تختتم بإمام أخير وهو القائم أو إمـــام القيامة »[6].

---

[1] – أبو يعقوب السجستاني ، إثبات النبؤات ، ص156
2– سورة الزخرف آية 28
3– أبو يعقوب السجستاني ، إثبات النبؤات ، ص 158
4– هنري كوربان ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ، ص 82
5– المرجع نفسه ص 82
6– المرجع نفسه ص 164

لكن علاقة ارتباط كلا من مرتبة النبوة بالإمامة هو محل اختلاف لدى الفرق الشيعية، فإذا كانت الإثنا عشرية « تحفظ التوازن بين الشريعة والحقيقة بين النبوة و الأئمة دون أن تفصل بين الظاهر و الباطن »[1] و على العكس من ذلك كان للإسماعيلية في ترتيبهما رأي مختلف عن الإثني عشرية وترى من المهم « تقديم الإمام والإمامة باعتبارها باقية على النبي و الرسالة النبوية لأنها وقتية إذ تخلص الإسماعيلية إلى نتيجة جذرية : فبما أن الولاية متقدمة على النبوة التي هي معينها ، فإن شخص الولي أي الإمام متقدم على شخص النبي »[2].

ويؤكد الشيعة الباطنية الإسماعيلية بهذا الرأي أن للأئمة منزلة روحية سامية تقترب من منزلة النبوة إلا أنهم ليسوا بأنبياء تحرم عليهم بعض المباحات على النبي، لا كلها ، أما ماعدا ذلك فهم بمنزلة النبي و هم بذلك يجعلون له مقام الإبلاغ عن النبي و كأن تعاليمه هي تعاليم النبي نفسها و ذلك أن الإمامة وراثية روحية و هي من صلب تعاليم الإسلام .

المطلب الثالث : توارث النبوة وتأثير ذلك على مسألة الإمامة

من المعتقدات التي جعلت للشيعة الباطنية تميزا وانفرادا عن غيرها هو قولها بتوارث الإمامة في نسل واحد وهو نسل النبي من أبناء فاطمة وعلي ،وقولهم بهذا راجع إلى الفكرة الهامة التي دارت حول توارث النبوة فالإمامة مثل النبوة متوارثة في ذرية علي من فاطمة .

لذلك ربط الشيعة عقيدتهم في الإمامة بفكرتهم عن النبوة فالإمامة مثل النبوة لا تخرج عن نسل واحد إلى غيره لقوله تعالى في النبوة ﴿ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[3].

وإذا كـــان هذا حال النبوة فقد ارتبط به حـــال الإمـــامة مـــن حيث التوارث في الأعقاب وفي هذا الشـــأن يقـــول "السجستاني" « فحكـــم الله تعالى بأن الذرية التي تجري النبوة فيها ذرية واحـــدة غير منتقل عنـــها ذلك الشرف إلى غيرها من النسول كأنهم خلقـــوا لها لا يمكن لأحد قبـــولها »[4] فهي ثابتة لهم راسخة فيهـــم .

وأما ما نراه من تدهور و فساد في الأمـــة بعد انقضاء طور النبوة فذلك مرده خروج الإمامـــة عن أهلـــها الحقيقيين إلى المغتصبين لها من الأمويين وغيـــرهم، فمتى رجعت إليهم رجع الأمن والاستقرار ، لكن مادام هذا الحق ضائعا سيظل الفساد و الظلـــم سائدين.

1- هنري كوربان ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ص 83
2- المرجع نفسه ص 172
3- سورة آل عمران آية 33 ، 34
4- أبو يعقوب السجستاني ، إثبات النبوءات ، ص 156

و في هذا الشـــأن يصف "السجستاني" تدهور حال الأمـــة لما غدت الإمامة في غير أهلها فيقول « ومـــا يصنع بالنبوة وأنت ترى الإمامة والخلافة لما انتقلت مـــن أهل بيت النبوة ورفعت إلى أولاد تيم وعدي وأمية، أتت بالخلاف وإظهار الفتن من سفك الدمـــاء واستحلال الفروج وانتهاك الأمـــوال و التجارات وفي كل يوم تزداد شرا حتى لم يبقى من الإســـلام إلا اسمه ومن القرآن إلا رسمه »[1] و يعود سبب البـــلاء كله إلى خروج الإمامة عن العلويين إلى أعدائهم ممن اغتصبوا حقهم الشرعي في النيابة عن النبي الكريم في أمته.

و عليه يتأكد للشيعة الباطنية الإسماعيلية و لمن والاها – من خلال ما أقره أعلام الشيعة وعلماؤها– استحالة خروج الإمامة من الذرية العلوية الشريفة وهم أهل بيت التي كما لم تخرج النبوة عن نسل إبراهيم ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[2].

فالله وعد إبراهيم الخليل بعدم خروج هدا الشرف العظيم للنبوة من نسله ، و ما كان الله مخلف وعده أبدا و هدا هو حال الإمامة أيضا « فإذا كانت الإمامة لا تستقر إلا في أهل بيت النبوة فكيف يتوهم أن النبوة تستقر في غير بيت أهل النبوة »[3] . و فكرة التوارث هذه التي قال بها أئمة الشيعة عموما تؤخذ في أصلها من مسألة توارث النبوة و شرفها مادام الارتباط بينهما كبيرا وقائما.

أما ما نراه من تدهور و فساد في الأمة بعد انقضاء طـــور النبوة فذلك مرده خروج الإمامة عن فالإمامة عند الإسماعيلية الباطنية عقيدة استمدت جذورها من عقيدة أخرى هي النبوة لا سيما في مسألة توارث الإمامة في الأعقاب الشريفة العلوية دون سواها « لقد أمن الشيعة عموما والغلاة خصوصا بأن الأئمـــة خلقوا من طينة خاصة ونور انبثق من ساق العرش و انتقل في الأصـــلاب الزكية الطاهـــرة النقية »[4].

فالشيعة على خلاف غيرهم من سائـــر الفرق الإسلامية تجعل من الإمامة تكملة وتتمة للنبوة فهـــي دور يعقبها و ما قامت لأجله النبـــوة هو ذاته الذي نصبت بسببه الإمامة « فكل الناس في الإسلام ينادون بأن دورة النبوة قد ختمت مع خاتم النبيين أما في التشيع فإن ثمة دورة ثانية وهي الولاية والتعريف الروحي يبدأ فور ختـــام دورة النبوة »[5].

1– أبو يعقوب السجستاني ، إثبات النبؤات ص 159

2– سورة الزخرف آية 28

3– المصدر نفسه ص 159

4– محسن عبد الناظر، مسألة الإمامة ، ص 437

5 – هنري كوربان ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ، ص 103، 104

برهن الشيعة الباطنية على قضية توارث للإمامة بالاعتماد على النصوص الدينية المؤولة التي تؤكد أن الإمام علي-رضي الله عنه – وارث النبي ووصيه والمتصدي للإمامة من بعده ومن هذه الأدلة نصوص يوردها " هنري كوربان " نقلا عنهم مثل قول الرسول ﷺ « أنا وعلي من نور واحد»[1] وأيضا قوله ﷺ « لولا أن يقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم لقلت فيك اليوم مقالات لا تمر على ملأ من المسلمين إلا أخذوا من تراب رجليك وفضل طهورك يستشفون به ولكن حسبك أن تكون مني وأنا منك ترثني وأرثك وأنت مني بمترلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»[2].

ولا يكتفي كوربان بذلك بل يورد أحاديث كثير بطرق مختلفة جميعها تبرز صلة "علي" الوثيقة بالنبي و تحدده كوصي له و وريث على الملك . منها قول النبي ﷺ « أرسل علي مع كافة الأنبياء سرا وأرسل معي جهرا »[3][4] . ليفيد بمعنى أوسع خلود "علي" و قدم خلقه و قداسته.

* توارث الأئمة لعلم الأنبياء

يمتاز الإمام الشيعي إضافة إلى كونه الحاكم الشرعي خليفة النبي في الحكم ، بكونه وارث علمه أيضا ولكن ليس أي علم منسوب إليه بطريق الاكتساب والتعليم بل هو علم نبوي موروث ، و علة ذلك أنه « لما أمن الشيعة بالحكم الوراثي الذي ينتقل في الأعقاب كان لزاما عليهم أن يقرنوا إرث العلم بإرث الحكم »[5] فعلي ورث علوما و قد تركها في عقبه نسلا بعد نسل ، و لو أردنا الإطلاع عليها كان لا بد من التقرب إلى الأئمة العلويين فهم وحدهم مالكي خزائن العلم النبوي و ورثته . لكن ما طبيعة هذه العلوم ؟ وكيف يتم توارثها ؟

إن الشيعة ما قالت بتوارث الإمام للعلم إلا لتدعم وتتم مسألة عصمته « وحتى تكون العصمة تامة ذهب القائلون بها إلى أن إمامهم يمتاز بعلوم لا يمكن لغير الإمام أن يتصف بها أو أن يحصل عليها »[6] ونفهم من ذلك أن معارف وعلوم الأئمة هي خاصة أي وقف عليهم

---

1 – لا أثر له ،موضوع

2 – ضعيف و لا إسناد له

3 – لا أثر له ، موضوع

4 – هنري كوربان ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ص 102

5 – محسن عبد الناظر، مسألة الإمامة ، ص 445

6 – المرجع نفسه ص 437

نظر لقداستهـــم وشرفهم فعلومهم فوق علوم البشر،خاصة عند الشيعة الغلاة إذ« آمن الشيعة عموما والغلاة خصوصـــا بأن الأئمة خلقوا من طينة خاصة و نور انبثق من ساق العرش وانتقل في الأصلاب الزكية الطاهرة النقية «[1] فالأئمة خلفـــاء الأنبياء .

لذا ظلت فكرة ارتباط النبي بالوصي والإمام وتكاملهما مهيمنة على العقيدة الشيعية خاصة في عهد الغلاة والمتطرفين لا سيما بعد فشلهم السياسي وخيبة آمالهم في اعتلاء السلطة السياسية وعرش الخلافة. إذ " لاحظ بعضـــهم أنه لا يمكنهم عمليا تحقيق ما تصبوا إليه نفوسهم فانتهجوا طريق السلبية و تركوا للحكام السلطـــة السياسية وحولوا وجهتهم نحو السلطة الروحية التي من أبرز مقوماتها الناحيـــة العلميـــة « [2].

حـــتى يتدارك دعاة الحركات الباطنية ذلك الفشـــل السياسي ويرفعوا من معنويات مؤيديهم وشيعتهم « أكدوا على أن العلوم التي يمتاز بها أئمتهم والتي بفضلها يستطيعون معرفة الغيب ومصير الأمـــم لن تكتسب اكتسابا و لم تنقل إليهم نقـــلا بل ورثوها عن الـــرسول ﷺ الذي كان قد ورثها عن الأنـــبياء قبله « .

فحـــركة العلم دائرية مستمرة من الأنبياء إلى الأئمة المتسلسلين المتعاقبين على مر الزمن «فالـــعلم منذ أن نزل على آدم – عليه السلام – بقي متوارثا يأخذه رسولا عن رسول عن رسول أو وصي عن وصي أو إمام عن إمام « [3]. فالسابق من الأنبياء و الأئمة يفضي بما لديه من علوم وأسرار إلهية للاحق الذي يليه وهدا بدوره لمـــن يأتي بعده وهكذا..

و عليه نسج الشيعة أحاديث وقصص عن النبي ﷺ يدعمون بها رأيهم في توارث العلم عنه منها ما ينقله المستشرق "هنري كوربان" عن الإمام علي–رضي الله عنه– أنه قال حسب ما يرويه الشيعة « ما أنزلت آية في القرآن على رسول الله ﷺ إلا و أقـــرأنيها وأملاها علـــي فكتبتها بيدي وعلمني تفسيرها وتأويلهـــا ومحكمها ومتشابهها وناسخها ومنسوخها و خاصها وعامها ، و دعا الله أن يعطيني فهمها وحفظها ووضـــع يده علـــى صدري ودعا الله أن يملأ قلبي علما وفهما وحكما ونـــورا«[4] . و يعد هـــذا النص من أشهر الأحاديث المنقولة عن " علي" بروايات شيعية لا يمكن الجزم بصدقه مادام الوضع في الحديث كان أشهر ما أقدمت عليه الشيعة لتقيم دعوتها و تســـاند أحقيـــة أئمتهـــا بالخلافـــة.

1– محسن عبد الناظر، مسألة الإمامة ، ص 437

2– المرجع نفسه ص 446

3– المرجع نفسه ص 446

4 – هنري كوربان ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ، ص 96

وهذا الحديث المنسوب "لعلي" يظهر مدى معرفته الواسعة و علمه الفياض الذي حصل عليه من النبي لقربه منه ، فكأن النبي ﷺ كان يهيئه ليحل محله في أمته و يخلفه فيها و بالتالي كان حريصا كل الحرص على تلقينه من العلـــوم و المعارف التي أوحاها الله إليه ما يساعده على تحمل أعباء منصب الإمــــامة مثلما تحمل منصب القضاء .

فعلي –حسب الشيعة الباطنية– خليفة رسول الله هو الأحق بتركته سواء المادية أو المعرفية فهو وصيه وبن عمه وصهره .. لذلك « أشاروا إلى أن كل ما كان فيه من صفات وعلم وعمل قد انتقل إلى الأئمة من بعده بضرب من ضروب الوراثة »[1] . "فعلي" أكثر الناس علما بعد النبي ﷺ حيث كان يقول للناس « سلوني قبل أن تفقدوني » فهو مدينة العلم و أيضا شهد له أبو بكر الصديق– رضي الله عنه– بأنه أعلم منه –حسب ما روى عنه الشيعة لتقليل شأنه وإبراز فضل "علي"– و ذلك في قوله « أقيلوني ولست بخيركم وعليٌّ فيكم »[2] و هذه الأحاديث هي ما يقرها و يؤكدها المفكر الشيعي"عبد الحسين دستغيب ".

و قد قلنا من قبل أنه وريث الرســـول الكريم لأنه ﷺ حين جمع عشيرته و طلب منهم العون و المبايعة أبوا و رفضوا و لم يبايعه إلا علي – رضي الله عنه– و كان صغير السن ومع ذلك قال له ﷺ « أنت أخي ووصيي ووارثي ووزيري وقاضي ديني[3] »[4].

إن مشكلة النبوة بما يتصل بها، من أكثر المسائل العقائدية التي اهتم بها المفكرون لا سيما في الفكر الشيعي الذي ربطها بالإمامة وعلق عليها الآمال فذكر "كوربان" أن « أقدم المعطيات لإقامة علم النبوة يجدها في تعاليم الأئمة [...] ويمكن القول أن الوسط الشيعي هو الوسط الذي كان ملائما لينشأ فيه علم النبوة ويكون مدارا للتأمل والتطور »[5].

و على الرغم من وفات النبي ومعرفة الناس بكونه خاتم النبيين إلا أن مشكلة النبوة سواء بين الديانات أو الفرق الإسلامية لطالما كانت مسارا للجدل لكنها في الفكر الشيعي اتخذت منحى آخر مغاير لما هو سائد يرتبط في جوانب عدة بمسألة الإمامة وتداعياتها حتى « أن التشيع يستند إلى علم للنبوة يتسع فيصل إلى علم إمامــــة »[6].

1– محسن عبد الناظر ، المرجع نفسه ، ص 421

2 – عبد الحسين دستغيب ، النبوة ، ص125

3 – ضعيف ، السلسلة الضعيفة

4 – عبد الحسين دستغيب ، المرجع نفسه ، ص 153

5 – هنري كوربان ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ص 98

6 – المرجع السابق ص55

و يتضح ارتباط عقيدتي الإمامة والنبـــوة عند الشيعة الإسماعيلـــية بالتحديد عندما تطلق عليهما مصطـــلحات خاصة بها تكاد تنفرد بها وتميزها عن سائر الفرق لولا أن استخدمهـــا بعدهم المتصوفة. وهاته المصطلحـــات تـــؤكد حسب مضمون كل منها أن للنبوة دورا لا يكتمل إلا بوجود متمم لها هو الإمامة.

ومن أبرز هذه المصطلحات المتداولة لديهم : الدور، الناطق ، الصامت ، السابق، التالي القائم،الحجة الداعي الوصي ، والمستودع والمستقر.. و يمكن الإحاطة ببعض مدلولات هذه المفردات و علاقتها ببعضها عند عرضها ضمن أدوار الإمام .

المطلب الرابع : أدوار الإمام

حتى نحيط بمعنى الدور لابد لنا أولا من تحديد بعض المصطلحات اللازمة لفهم معناه أهمها:

أولا : الناطق و الصامت

يـــراد بالناطق الدلالة على النبي المبلغ للشرائع الإلهـــية والصامت هو معينه على ذلك والمفسر لهذه الشريعـــة والموضح لمعانيها . ففي كل فترة وكما يسمى عند الشيعة **الدور**، يبعث الله ناطقا وصامتا للأمة لتبليغ رسالاته وهكذا « إن الدور لا يكون إلا من اثنين صامت وناطق لما كان الناطق يأتي لنسخ شريعة ما قبله بإظهار شريعة جديدة كذلك يكون الصامت فيأتي لنسخ التأويل الذي قبله وإنه لابد للناطق من صامت يكون قريبا منه وأساسا له »[1].

و يســـتدل الشيعة الباطنية بقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِـــتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً ﴾ [2] ليبرزوا أن كل دور لا يخلو من الاثنين الناطق و الصامت، فالثاني يعين الأول ويشدُّ على يديه فيأخذ في مشورته و نصحه، فيتولى تفسير القرآن أو كما يقـــولون تأويل التنزيل « وقد وجب أن يكـــون الصامت قد اطلع مثل الناطق على جميع الأسرار النبوية ليمكنه موازرته ومعاونته ومعاضدته بتنفيذ أحكامـــها » [3].

والناطق هو النبي المبلغ للشريعة و الناموس الإلهـــي، بينما الصامت هو وصيه الـــذي يتولى شرحها وتفسيرها، لأن « الله سبحانه وتعالى أنزل فرائضه في الشرائع مجملة وغير مفسرة ومقسمة ففســـرها وقسمها الرسول ظاهـــريا و وضع كل شيء في موضعه، ثم عهد بتقسيمها وتفصيلها باطنيا إلى صامت»[4].

1– أبو يعقوب السجستاني ، إثبات النبؤات ، ص 191

2– سورة الفرقان آية 35

3– المصدر نفسه ص 191، 192

4– المصدر نفسه ص 192

فوصف النبي محمــد ﷺ بالمستودع و سمي علي الوصي الــذي استقرت فيه الإمامة ثم في ذريته من بعده « وكان محمــد الإمام الناطق وعلي الإمام الصامت وحين أعلن محمد ﷺ استقرار الإمامة في علي ،أصبح علي الإمام الناطق وانتقل الرسول الأعظم إلى الرفيق الأعلى وترك إمامين إمام صامت هو القرآن وإمــام ناطق هو علي» [1].

و غالبا ما كان الناطــق دالا على النبي المبلغ للوحي في حين عُدّ الصامت أساسه ووصيه الشارح للوحي ، المفسر للشريعــة ، والمؤول لها . و هذا تماما ما ذكره " البغــدادي" عن الباطنية أنهم « قالوا إن النبــي هو الناطق والوحي هو أساسه الفاتق وإلى الــفاتق تأويل نطق الناطــق على ما تراه يمــيل إليه هواه فمن صار إلى تأويله الباطن فهو مـــن الملائكة البررة ومن عمل بالظاهر فهو من الشيــاطين الكفــرة » [2].

حسب مـــا ورد في مؤلـــــفات الشيعة و ما كتب عنهم أن كل نبي لـــه وصي بمعنى لكل ناطق صامت ويحصـــون الفترات التي جاء فيها هؤلاء، والتي يصطلحـــون عليهـــا اسم " دور" بسبعة أدوار إذ أن « أدوار النطقاء سبعة و تبدأ من آدم صاحب الدور الأول و تنتهي بالْقائـــم صاحب الدور السابع و هذا الــدور يسمـــى الدور الكبير، أما مابين كل ناطق وناطق فيسمى دورا صغيرا ويكون فيه سبعة أئمـــة» [3] معـــنى ذلك اشتمال كل دور على ناطق هو النبي وصامت هو الوصي، ويعقب كل وصي أئمة سبعة فإذا بلغ السابع منهم وانتهى دوره ليبدأ منه دور جديد إلى غـــاية سبعـــة أدوار.

و يمكن تفصيل هذه الأدوار بما تـــحويه من أنبياء و أوصياء كما يلي « فآدم هو الناطق الأول للدور وأساسه الصامت شيث وبعده ستة أئمة وبعده نوح صاحب الدور الثاني وأساسه الصامت سام، وبعده ستة أئمة، وبعده إبراهيم صاحب الدور الثالث وأساسه الصامت إسماعيل، وبعده ستة أئمة ،وبعده موسى صاحب الدور الرابع وأساسه هارون، ومن بعده ستة أئمة و بعده عيسى صاحب الدور الخــامس و أساسه شمعون الصفا، ومن بعده ستة أئمة، ومن بعده محمد صاحب الدور السـادس وأســاسه علــي» [4] .

1– علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ج**2** ، ص **504**

2– عبد القاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص**261**

3– أبو يعقوب السجستاني ، إثبات النبؤات ، ص**193**

4– المصدر نفسه ص **193**

و لا تتوقف حلقـــة الأدوار عند "علي" بل تجعلهـــا الشيعة الباطنية الإسماعيليـــة سلسلة متواصلة بعده ، إذ يلي علي أئمة من نسله توارثوا النبوة و الإمامة جيلا بعد جيل لا تخرج عنهم إلى سواهم . يقول عنهم "السجستاني" « و من بعده أئمة كثيرين حتى القائم الذي هو صاحب الدور السـابع و صاحب الكشف والظهور » [1].

فبعد علي والأئمة من بعده أي الحسن والحسين وزين العابدين والباقر وجعفر الصادق وابنه الأكبر إسماعيل يلي دور آخر يكون فيه أئمة متعاقبون « وقد انتهت الدورة الأولى بمحمد بن إسماعيل وقد جمع قوى الأئمة الستة فهو الأساس ونهاية الدور، ثم أتى الإمام الثامن و هو قائم لأنه الأول في الدور الجـديد وانتهى الدور الثاني بالإمام الفاطمي المعز لدين الله الفاطمي وهو أيضا أساس ومتمم للـدور » [2] وكانت سلسلة أدوار الأئمة محل اهتمام مفكري الشيعة الذين ربطوا بحركة الأفلاك و تنظيم الـكون.

فالإسماعيلية اتخذت من دورات الأفلاك وتأثيرات الكواكب أساسا نصبـت عليه قولها بالدورات والتعاقب الدوري للأئمة مما يبرز تأثرها بفلسفات ما ورائية مرتبطة بأصل الكون وحركته.. و عليه أكدت « وجود دورات متعاقبة لهذا العـالم في كل دور نبي ناطق و وحي وأئمة ستة فإذا جاء السابع افتتح دورا جـديدا وصار ناطقا » [3].

ثانيا : السابق والتالي

تأثر الشيعة الباطنية بأفكار فارسية الأصل كانت الغنوصية والمجوسية أبرزها وضوحا في هذه النزعة الشيعـية ظهر ذلك متجليا في كثير من نظرياتهم وآرائهم مثل القول بإلهين النور والظلمة فقد حكى عنهم " الغزالي" ذلك في مؤلفه الكاشف لبدعهم " فضائح الباطنية" ما جـاء فيه « أنهم قائلون بإلهين قـديمين لا أول لوجودهما من حيث الزمان إلا أن أحدهما علة لوجود الثاني واسم العلة السابق واسم المعـلول التالي وأن السابق خلق العالم بواسطة التالي لا بنفسه وقد سمي الأول عقلا والثاني نفسا وحسبهم هذان السابق والتالي متمـايزان مختلفان حتى أن الباطنية يزعمون أن الأول هو التام والفعل الثاني بالإضافة إليه ناقص لأنه معلـوم »[4] .

1- أبو يعقوب السجستاني ، إثبات النبؤات ص 193

2- علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ج2 ، ص 396 ، 397

3- علي عبد الفتاح المغربي ، الفكر الديني الشرقي القديم ، ص 86

4- أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 38

رغم أنهم - أي التعليمية - لا يصرحون صراحة بهذين الإلهين كما تصرح بها ديانات المجوس وذلك للتضليل والتزييف وخوفا من تعرضها للأذى فالغزالي يؤكد ذكرهم ذلك ويثور على معتقداتهم في والألوهية بل يراها « كفر مسترق من الثانوية والمجوس في القول بإلهين مع تبديل عبارة " النور والظلمة " "بالسابق والتالي" إلى ضلال منتزع من كلام الفلاسفة »[1].

و لم تقف هذه الفرقة عند هذا الحد بل أضافت إلى نظريتها في النبوة و الإمامة أفكار ابتدعتها أو لنقل لم تكن موجودة أو معروفة لدى المسلمين من قبل . فقد « ذهبت الباطنية إلى آراء في النبوة تعد مخالفة لما ورد في النصوص الدينية في ذلك فهي ترى أن النبي فاضت عليه من السابق بواسطة التالي قوة قدسية صافية وزعموا أن جبريل عليه السلام عبارة عن العقل الفائض لا أنه شخص واتفقوا على أنه لابد لكل عصر من إمام معصوم قائم بالحق يرجع إليه تأويل الظواهر، مساو للنبي عليه السلام في العصمة»[2].

والقول بالسابق والتالي مرده حسب "البغدادي" إلى التأثر بالأفكار الفارسية وبالثانوية خاصة « أن الثانوية زعمت أن النور والظلمة صانعان قديمان والنور منهما فاعل الخيرات والمنافع والظلام فاعل الشر والمضار [...] إلا أن الباطنية عبرت عن الصانعين بالأول والثاني وعبر المجوس عنهما بيزدان و أهرمن »[3].

ثالثا : المستودع والمستقر

عندما يربط الشيعة الباطنية كغيرهم من فرق الشيعة الإمامة بالنبوة يكون غرضهم تأكيد شرف الإمامة و توارثها في النسل النبوي الطاهر، مع مراعاة وظيفة لا منهما و سماته لذا استخدموا مفهومي " الاستيداع والاستقرار" الواردتان هذان في الذكر الحكيم لقوله تعالى ﴿ و هو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر و مستودع قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون﴾[4].

- فما مدلول كل منهما يا ترى؟ و على من تطلقان ؟ و متى يحدث الاستيداع والاستقرار؟ ز هل يمكن حصولها للشخص الواحد؟..

1- أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ص 40

2- علي عبد الفتاح المغربي ، المرجع نفسه ، ص 8 ،نقلا عن ابن الجوزي ، تلبيس إبليس ، ص 107 ، 108

3- عبد القاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص253

4- سورة الأنعام آية 28

في الحقيقـــة لـــم يتوانى دعاة الفـــرق الشيعية عن وضع مصطلحـــات و ألقاب يُدللـــون من ورائـــها على أئـــمتهم و يخفون بها حقيقة أمرهم خوفا عليهم مـــن بطش الأعداء و هـــذا الأمـــر هـــو المعـــروف لديهم بمبدأ التقية و التستر « قد أطلـــق الإسماعيليون على مرتبة النبوة والرسالة مرتبة الاستيداع أما مرتبة الإمامة والوصاية فسموها مرتبة الاستقرار« .

و لهـــم حديث في ذلك يبرزون من خـــلاله مراتب الأنبيـــاء و من تلاهـــم من الأوصياء والأئمة « إذ زعموا أن إبراهيم الخليل-عليـــه الصلاة والســـلام- اجتمعت لديه مرتبة الاستيداع وائتمن علـــى مرتبـــة الاستقرار فأورث إسحاق مرتبة الاستيداع وأعـــطى إسماعيل مرتـــبة الاستقرار ، وتـــوارث أولادهما هذه المـــراتب حتى وصلت مرتبة الاستقرار إلى عبد المطلب جد النبي – عليـــه الصلاة والسلام- « [1] .

وحسب هذا الترتيب كان هناك من تحفظ فيه الإمامة كوديعة وأمانة يعـــمل على صيانتها إلى أن يودعها صـــاحبها فتستقر له وعنده ، ويورثها أبناءه وهي لا تنتقل من أخ إلى أخ بل من الأب إلى الابن « واستودع عبد المطلب مرتبة النبوة و الرسالـــة لمحمد ثم استودع أبو طالب مرتبة الوصاية و الإمامـــة أيضا « [2] إن عبد المطلب كان له ولدان " أبـــو طالب" و "عبد الله" ولما مات " عبد الله" والـــد النبي في حياة أبيه ثم تـــوفي الجد ، فكانت النـــبوة في أبناء عبد الله والوصاية والإمامـــة في أبناء أبي طـــــالب.

والمـــلاحظ أن النبي كان جامعا لكـــل تلك المراتب حين نزل عليه الوحي في حياة عمه « فلمـــا مات أبو طالب اجتمعت كل هـــذه المراتب لمحمد ﷺ فكـــان إليه جماع الرتب جميعا: النبوة والرسالة والإمـــامة والوصـــاية « [3] لكن كان ذلك كان لفترة وجيزة ، حتى تمكن من تبليغ الرسالـــة و إنباء الناس بأخبار ربه « و في غدير خم سلّم الرسول محمد مرتبة الاستقرار إلى علي بن أبي طالب ولأولاده الأئمة من بعده ولإمام الاستقرار كل صفات صاحب الاستيداع إلا في الرسالة والنبوة« [4] فالرسول كان الإمـــام الناطق المستودع ، وعليه أن يسلم الإمامة لعلي فلما استقرت فيه رحـــل الرسول إلى جوار ربه الأعلى.

1- محمد أحمد الخطيب، الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ، ص104

2- المرجع نفسه ص 104 ، نقلا عن ديوان المؤيد في الدين ، تحقيق كامل حسين ص 72 ، 73

3- علي سامي النشار ، المرجع السابق ص 504

4- المرجع نفسه ص 504

المطلب الخامس : الأصول الفلسفية لعقيدتي النبوة و الإمامة عند الباطنية

مما لاشك فيه أن التـــأثير الفلسفي على الشيعة الباطنية كـــبير و بارز بوضوح في جل عقائدهم ومذاهبهم فـــقد تأثروا بالمعتزلة خاصة ، كفرقة كلامـــية ذات نزعة فلسفية في اعتمـــادها على العقل والتـــأويل ...لكن الشيعة الإسماعيلية أو كـــما يطلق عليها " الغزالي" التعليمية كانت أكثر تأثرا في مسألـــة النبوة بالفيلسوف " أبو نصـــر الفارابي".

أكد الدارسون لفكر الفيلسوف "الفارابي" وفلسفته على وجود تقارب كبير بين نظرية النبوة الفارابية و عقيدة الإمامة الإسماعيلية في جوانب عدة . و يمكننا القول بشكل أدق أن « هناك تشابه بين وجهة نظر الـــــفارابي في العلاقة بين رئيس المدينة الفاضلة والله ونظرية نصر الديـــن الطوسي في الإمام المعصوم فكما أن الأئـــمة لا يكونون على الأرض إلا واحدا بعد الآخر« [1]. فالإمام الشيعي و رئيس المدينة الفاضلة يشتركان في أمر تولي رئاسة المسلمين بشكـــل دوري متسلسل فلا يظهر الأئمة و لا الرؤســـاء في وقت واحد بل لكـــل دور محدد .

و من الواضح فرقة الإسماعيلية قد تأثرت إلى حد كبير بآراء الفارابي في مسألة النبوة والوحي و استوحت منها تعاليم أضافتها لعقيدتها في الإمامة ، مما يؤكد أن « فكرة الإمام عند الإسماعيلية لا تختلف عن النبوة اختلافا جوهريا فالنبي متعلم ومعلم في آن واحد، هو متعلم لأنه يتلقى المعرفة عن طريق الوحي وهو معلم لأنه يعطي الناس ناموس الشريعة و يخاطبهم بلغتهم وبحسب عقلياتهم « [2].

وحتى مســـألة الإرشاد والحاجة إلى التعلم من إمـــام يقود الناس إلى سبل السعادة هي نقطة اشتراك بين الفارابي و الإسماعيلية لأن كلا منهما يؤمن بقصور مدارك الفرد وحده عن بلوغ الحقيقة و يحتاج إلى من ينير طريقه و يأخذ بيده « فليس في فـــطرة كل إنسان أن يعلم من تلقاء نفسه السعادة ولا الأشياء التي ينبغي أن يعملها بل يحتاج في كل ذلك إلى معلم ومرشد«

وهـــذا الإنسان الذي يملك القدرة على إرشـــاد وتعليم غيره والأخذ بيدهم هو وحده الذي يصلح لرئاستهم « ومن كـــانت له قوة على أن يرشد غيره إلى شيء ما ويحملـــه عليه أو يستعمله فيه فهو رئيس في ذلك الشـــيء « [3] .

1- محمد جلال شرف ، نشأة الفكر السياسي وتطوره في الإسلام ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ، ط2 ،1990، ص 198

2- المرجع نفسه ص 199

3- أبو نصر الفارابي ، السياسة المدنية ، دار المشرق ، بيروت لبنان ، ط2 ، 1993 ، ص 78

فالــرئيس عند " الـــــفارابي" لا يختلف عما قالت به الإسماعيلية التي أكدت علمـــه الواسع فله إحاطة بكل العلوم الإلهية وله علم تأويل التنزيل الـــذي يسمح له تفسير الشرع وتوجيه الخلق و نفس الاعتقاد الذي ساد عند "الفارابي" « فالرئيـــس الأول على الإطلاق هو الذي لا يحتاج ولا في شيء أصلا أن يرأسه إنســـان بل يكون حصلت له المعارف والعلوم بالفعل ولا تكون له حاجة في شـــيء إلى إنسان يرشده » مما يظهر اتصال الفارابي بالإسماعيلـــية و انتمائه لها.

إذ أن صفـــات هذا الرئيس تنطبق تماما على الإمام الشيعي الذي له كـــمال و تمام العلم ونجدها في شخص الإمام "علي" الذي جعله أشياعه مـــالك مفاتيح مدينة العلم، فهو بابها وذريته ورثة علمه « وهذا الإنسان هـــو الملك في الحقيقة عند القدماء وهو الذي يقال فيه أنه يوحى إليه فالإنسان إنمـــا يوحـــى إليه إذا بلـــغ هذه الرتبة وذلك إذا لـــم يبق بينه وبين العقـــل الفعال واسطة » [1] و تلك الصفـــات التي حـــددها "الفـــارابي" للرئـــيس لا تختلف عن مثيلاتها لدى الإمام الشـــيعي ، مما يبرز التأثر الواضح و الارتباط الكبير بينهمـــا.

فيصبح هذا الإنسان المرشد و المعلم و الموجه الذي حصلت له جميع العلوم و المـــعارف ملكا للناس ورئيسا « ورئاسة هذا الإنسان هي الرئاسة الأولى وسائر الرئاسات الإنسانية متأخرة عن هذه وكائنة عنها » [2] كما هو حـــال الإمام الشيعي الـــذي يتولى تعليم الأتباع وتأويل الشريعة فلا يحصل لأحد سواه ما له من علم إلهي خصّ به وحده دون سواه .

من خـــلال المقـــارنة البسيطة بين نظريـــة النبوة الفارابية و مسألة ارتبـــاط الإمـــامة بالنبوة عند الإســـماعيلية الباطنية يتضح أن هناك تأثرا متبادلا بينهما يكشف في سياقه عن ميل "الفارابي" إلى التيار الشيعـــي حتى أن بعض الباحثين يعدونه من أصل شيعي لتقارب فكره مع الفكر الشيعي خاصة الإسمـــاعيلي . و يؤكد الدكتور "إبـــراهيم مذكور" ذلك الارتباط بقوله « قد تأثر الإسماعيلية بالأفكـــار الفلسفية في غير موضـــع إلا أن نظرية النبوة على الخصوص راقتهم إلى حد كبير و صـــادقت هوى في نفوسهم فإنها لا توضح النبوة فحسب بل تشرح فكـــرة الإمـــامة التي قامة عليها دعوتهم » [3] .

1- أبو نصر الفارابي ، السياسة المدنية ص79

2- المصدر نفسه ص 80

3- إبراهيم مذكور، في الفلسفة الإسلامية منهج و تطبيقه ، ج2 ، دار المعارف ، القاهرة مصر ، [د ط] ،[ط ت] ، ص 108،109

ويعـــد " الفارابي" أكثر الفلاسفة الذين انبهر بهم الإسماعيلية خاصة نظريته في الإمامة «فالنظرية الفارابية للنبـــوة اعتبرت أساسا علميا متينا تبنى عليه الإسماعيليون كثيرا من تعاليمهم و لم يزيدوا عليها شيئا إلا أنهم تأولوا بعض النصوص التي سكت عنها الـــفارابي»[1].

كما نلاحـــظ في استعـــرضنا لموقف الشيعة الإسماعيليـــة من مسألة النبوة احتواءها على تلك الأفكـــار الفلسفية المتعلقـــة بالفيض والألـــوهية وهي نفسها الأفكـــار التي تحدث عنها " الفارابي" ممـــا يبرز بجلاء « أن للنبوة الفارابية تأثيرا كبيرا على من ينتمون إلى الإسمـــاعيلية الباطنية خاصة على " إخـــوان الصـــفا" الديـــن لم يبق اليوم شك في اتصالهـــم بالإسماعيلـــية فهم يشيدون بذكر قوة المخيـــلة ويبينون مالهـــا من أثر في الظـــواهر النفسية المختلفة وخاصة في المنامات والأحلام والـــوحي والإلهـــام »[2] إذ الـــواضح أن نظـــرية النبوة الشيعية البـــاطنية ترتد في مجملهـــا إلى أصـــول فلسفـــية .

– مما سبق يظهـــر المذهب الباطني و التروع إلى ما وراء الظاهر لدى هذه الإسماعيلية الباطنية في تناولها لمسألة النبوة والربط بينها و بين الإمـــامة مؤكدة أن « الإمامة المحمدية هي بالذات باطن النبوات السابقة جميعا و ما ذلك إلا لأنها باطنية الإسلام فثمة نبوة مطلقة عامة ومشتركة و ثمة نبوة مقيدة ضيقة و خاصة [...] وكذلك بالنسبة للولاية التي هي باطن النبوة الباقية فثمة ولاية مطلـــقة وعامة ، و ولاية مقيدة خاصة »[3].

و نفهـــم من ذلك أن ولاية علي حسب الإسماعيليـــة الباطنية ظاهرهـــا النبوة وباطنهـــا الولاية والنبوة لم تنته مع محمد خاتم الأنبياء بل لدى الشيعة « ثمة دورة ثانية هي دورة الولاية والتعـــريف الروحـــي يبدأ فور ختام النبوة »[4] ليتبين في الخـــتام أن الشيعة الباطنية الإسماعيلية تعتبر الولايـــة متقدمة على صفة النبي المرسل لأن ولاية الإمـــام مطلوبة في الظاهر ولما كانت للباطن الصدارة على الظاهـــر فيجب أن نصل من ذلك إلى أن الإمام متقدم وبشكل رئيسي على النبي وأن البـــاطن مستقـــل عن الظـــاهرة .

---

1 – إبراهيم مذكور، في الفلسفة الإسلامية منهج و تطبيقه ، ص 108،190

2 – هنري كوربان ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ، ص 103، 104

3 – المرجع نفسه ، ص 103، 104

4 – المرجع نفسه ص 104، 105

المبحث الرابع: المنهج التأويلي الباطني و دوره في تبرير وتدعيم عقيدة الإمامة

المطلب الأول : التأويل أصله ومعناه أسباب ظهوره

يعد * التأويـــل من أهـــم المســـائل التي بنيت عليها العقيدة الشيعية ، و الباطنية خصوصا ، لمـــا له من صـــلة وثيقة بعقيدتهم في الإمـــامة .فقد كـــان التأول منهجـــا و أداة فعالة في نشر عقيدة الإمام المعصـــوم المنصوص عليه .لكن قبل الخوض في هذا الأمـــر، تجدر بنا الإشارة إلى معنى التأويـــل واستخدامـــاته.

– فما المقصود به ؟ و هل هو نوع من التفسير للتتريل ؟ترى ما رأي الشريعة فيه؟

أولا : معنى التأويل

أ* المدلول اللغوي للتأويل

لتحـــديد حقيقة التأويل ينبغي أولا العـــــودة إلى آراء بعض اللغويين للوقـــوف على أصله ومعناه ففي قاموس الهادي إلى اللغة العربيـــة ، نجد هذا التعريف للتأويل« أول يؤول تأويلا ، و أول الرجل الشيء جعله في الأول . أول الله علـــى فلان رد عليه ضالته، أو ما فقده ، أو خسره . و يـــقال أول الله عليك ضالتك و أول الله عليـــك شملك أي رده ، و أول المفسر الكلام رده إلى معناه الأصلي وإلى ما يفهم منه و هذا لا يكون بالتفسير وحده ، ولا بالترجمة وحدها .و أول الرجل الرؤيـــا فسرها و عبرها . و تأول الرجل الكـــلام أوله ، و يقال هو يتأول أي يعطي الكلام معنى من عنده فكـــأنه يتصـــرف في المعنى من عنده« [1].

لكـــن التعريف السابق يتميز بالعموم و الشمـــولية لأنه جامع لكـــل استخدامات مفردة "تأويـــل" .و نجد تعريفا آخر له أكثر تخصيصا و تحديدا في كتـــاب "التعريفات" "للجرجاني" إذ يجـــعل التأويـــل مرتبطا بالنصـــوص الشرعية و معانيها باعتـــبار « التـــأويل في الأصل التـــرجيع و في الشـــرع صرف الآية عن معناه الظاهـــر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقا بالكتاب و السنة « [2] .

---

* التأويل **exégèse** : استنباط تأصيلي لغوي و عقيدي لنص ، خصوصا لنص مرجعي : التوراة ، النصوص القانونية.من أندريه لالاند ، الموسوعة الفلسفية ،ج1، ص384

1– عبد الرزاق قسوم ، سلطة التأويل في الخطاب الرشدي ، مجلة دراسات فلسفية ، العدد الخامس ، الجزائر ، 1998، ص 173، نقلا عن حسن سعيد الكرمي قاموس الهادي إلى لغة العرب ، دار لبنان للطباعة و النشر ، بيروت ، 1411هـ ،ص101

2– محمد الشريف الجرجاني ،كتاب التعريفات ، مرجع سابق ، ص 52

فيظهـــر لنا من معنى التأويل أنه ما احتيج إليه إلا لوجـــود غموض اكتنف بعض النصوص الشرعية وحال دون معرفة المراد منها ، فظاهر النص لم يكن معبرا عن المقصود وكان لابد من الرجـــوع إلى باطن النص . لذا عرف "الغزالي" التأويل من خلال مقابلته بالظاهـــر، فإذا كان «الظاهر في اللغة عبارة عن الواضح ونقول ظهر الأمر الفلاني أي اتضح وانكشف » أما التأويل فهو كما يـــقول يعرفه الغزالي في المستصفى« ما غلب فهم معنى منه من غير قطع»[1].

مما ســـلف نستنتج أن التأويـــل في اللغة جذره "آل يـــؤول" بمعنى ردّ و رجـــع ، لقوله تعالى ﴿ابتغاء تأويـــله﴾ أي النظر إلى ما يؤول إليـــه . فغلب على معنى التأويل أنه ردّ الشـــيء إلى أصله لاستبيـــان حقيقته .

ب*المدلول الاصطلاحي للتأويل

ظهـــر التأويل بعد وفاة الرسول الكريم عندما صار ما نقل إلينا عن النبي و الصحابة من تفسيرات للقرآن غير شامل لكل الآيات،أو يكتنفه الغموض لاسيما و أن العارفين بأمور الدين تتخطفهم الموت يوما بعد يوم. فاجتهد التابعون من في استدراك ذلك النقص معتمدين على لغة العرب و أساليبهم البلاغـــية فـــمنهم واقف عند حدود النص و منهم متعد إلى باطنه مجتهد فيه برأيه وهـــو ما عرف بالتـــأويل و « يطلق إصطلاحا على تفسير مادة القرآن لأنه جزء هـــام للشرح اللفـــظي الظـــاهري»[2]و ذلك لبلوغ مغزى الآيات القرآنية و الإحـــاطة بمدلولها. لذلك يظهر تباين التأويل عن التفســـير فالتأويل أخص منه قد ظهر مع ظهـــور الفـــرق والمذاهب.

و من أشهر تعريفات التأويل ما يذكره " الغزالي" في المستصفى بقوله « التأويل عبارة عن احتمال يعضده دليل يصير به أغلب على الظن من المعنى الذي يدل عليه »[3] و يجعل"بن رشد" (**520-595 هـ**) التأويل مرتبطا بما يثيره اللفظ من معان ودلالات فيقول « معنى التأويل هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب في التجوز من تسمية الشيء بشبيهه أو بسببه أو لاحقه أو غير ذلك »[4].

1- رفيق العجم ، الأصول الإسلامية ، منهجها و أبعادها ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ، ط1 ، 1983، ص 160 ، نقلا عن الغزالي ، المستصفى من علم الأصول ،ج1 ، ص 384، 386

2 – عبد الحميد خطاب ،الغزالي بين الدين و الفلسفة ، ص 161

3 – رفيق العجم ، المرجع نفسه ، نقلا عن الغزالي ، المستصفى ، ج1، ص 387

4 – أبو الوليد بن رشد، فصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشريعة من اتصال،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، [دط]،[د ت] ص32

ثانيا : الفرق بين التأويل و التفسير

يــــكثر الخلط بين مصطلحي التأويــــل والتفسير لما بينهما من تقــــارب و ارتباط وأحيانا يتدخلان من حيـــث الاستعمال ، فيصعب لغير المتخصص التمييز و الفصل بينهما .

و سنحاول فيما يلي إبراز الفرق بينهما موضحين معنى كل منهما . ففي لسان العرب "لابن منظور" ورد أن « التفسير كشف المــــراد عن اللفـــظ المشكل » لذا كان التفسير « بيان كلام الله أو انه المبين لألفاظ القرآن و مـــفهوماتها »[1].

و يوضــــح "الجرجاني" الفرق بين الـــتأويل و التفسير مستندا إلى قوله تعالى « يخرج الحي من الميت » إن أراد إخراج الطير من البيضة كان تفسيرا ، و إن أراد إخــــراج المؤمن من الكافر أو العالم من الجاهل كان تـــأويلا »[2]. فكان التفسير يرتبط بالأشياء الحسية الـــظاهرة الجلية للعيان بحيث يمكن تأملها بوضوح في حين يتمحور التأويل حول بواطن الأمور وبعبارة أخــــرى المعنى الباطن الخفـــي والمعنـــوي..

ومن ناحية أخرى الفرق بين التأويــــل و التفسير أن التفسير إعطاء المعنى بحسب ما ورد من الكــــلام و الـــتأويل إيراد المعـــنى بحسب ما يراه المؤول أي بحسب ملابسته . فالتأويل فيه تصرف و التفسير فيه تقييد. فتأويل القرآن الكريم يختلف من تفسيره .و أهل التأويل هم الباطنية و أهــــل التنزيل هم أهل السنة »[3].

ثالثا : ظهور الحاجة إلى التأويل وأسباب القول به عند فقهاء الأمة وفلاسفتها

في حياة الرســــول ﷺ لم يحتر الناس في أمور دينهم إذ كان هو الإمام المفسر والمفتي لما يعرض من غوامض الدين ، لكن بوفاته وغيابه عن الدنيا احتاج الناس إلى من ينوب عنه في شرح دينهم .. لا سيما فيما طرأ من مستحدثات ومستجدات .. فانقسم الناس إلى أقسام فريق يأخذ بالنص (الظاهر منه) ويكتفي به ، وينهى عن الخوض والبحث فيما وراءه وهذا ما جسده بوضوح الاتجاه السلفي مع الأئمة مالك ، بن حنبل ، بن حزم وبن تيمية.. وفريق آخر تفقه في الدين وعمد إلى باطن النصوص لفهــــم مضامينها .

---

1 – ابن منظور ، لسان العرب ، فصل الفاء حرف الراء ص

2 – محمد الشريف الجرجاني ،كتاب التعريفات،ص 52

3 – عبد الرزاق قسوم ، سلطة التأويل في الخطاب الرشدي ، ضمن مجلة دراسات فلسفية ، ص 173، نقلا عن حسن سعيد الكرمي، قاموس الهادي إلى لغة العرب ص102

وادعى أصحاب التأويل أن له أساسا وأصلا في القرآن و السنة فبعض الآيات ورد فيها لفظ "التأويل" صريحا وثبت أن الله تعالى قد علم يوسف - عليه السلام- من تأويل الأحاديث والأحلام و يعتقد المفكر " حسين مروة " أنه « يمكن القول أن مسألة الظاهر والباطن ومسألة التأويل وجد لها أصل في القرآن نفسه» [1] .

و يستدل" حسين مروة " (**1908-1987**م) على رأيه بالآية القرآنية الكريمة ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ ﴾[2].

إذ يشير هذا الباحث إلى وجود نوعين من الدلالات للنصوص الشرعية، لقوله « ففي القرآن إذن نوعان من الآيات نوع الآيات المحكمة وهي ذوات الدلالات الظاهرة ونوع الآيات المتشابهات وهي التي تحمل دلالات غير ظاهرة من النص وإنما هي المعاني الباطنة التي لا تنكشف إلا بالتأويل » [3].

فحسب زعم عدد من الفلاسفة والمفكرين أن القرآن لا يؤخذ كله على ظاهره بل يتضمن معان خفية مستترة تحتاج إلى التأويل للكشف عنها، و من أبرز هؤلاء " بن رشد " الأندلسي لتأكيده على « أن الشرع لا يؤخذ كله على ظاهره بل على الخواص أن يؤولوه حتى يدركوا حقيقته التي تتناسب واستعداداتهم » [4].

هذا التفاوت والاختلاف مرده مدارك الناس وملكاتهم التي تؤهلهم للفهم، فليسوا كلهم في مستوى واحد من الفهم ، وهذا ما يتضح في قول ابن رشد « والسبب في ورود الشرع فيه الظاهر والباطن هو اختلاف فطر الناس وتباين قرائحهم في التصديق، والسبب في ورود الظواهر متعارضة هو تنبيه الراسخين في العلم على التأويل الجامع بينها وإلى هذا المعنى وردت الإشارة لقوله تعالى﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُن أُمُّ الْكِتَابِ..

1 - حسين مروة ، النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ،ج 2 ،دار الفارابي ، بيروت لبنان ،ط 7، 1985، ص 212

2 - سورة آل عمران آية 07

3 - حسين مروة ، المرجع نفسه ص 213

4 - الوليد بن رشد ، فصل المقال ص 36

....يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ﴾[1] «[2].

و بخصوص هذه الآية وتفسيرها .. يقول "بن خلدون" « وثبت في هذا القرآن الكريم حروفا من الهجاء مقطعة في أوائل بعض سوره ، لا سبيل لنا إلى فهم المراد بها و سمّى هذه الأنواع كلها من الكتاب متشابها و ذم على إتباعها « مستندا في موقفه على الآيـــة الكريمة السابقة ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنــزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْــهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ... ﴾.

و بهذا أشار "بن خلدون" إلى كون هذه الآية تبرز بوضوح ذلك الاختلاف القائم حول آيات الذكر الحكيم بين علماء الأمة لقوله « و حمل العلماء من سلف الصحابة والتابعين هذه الآية على المحكمـــات وهي المُبيَّنات الثابتة الأحكام ولـــذا قال الفقهاء في اصطلاحهم : المحكم المتَضح المعنى ، و أما المتشابهات فلهم فيها عبارات ، فقيل هي التي تفتقـــر إلى نظر وتفسير يُصحِحُ معناها لتعارضها مع آية أخرى ، أو مع العقل فتخفي دلالتها وتشتبه«[3] .

– لكن ما معنى التأويل عند الشيعة الباطنية ؟ و هل يمكن تجاوز الظاهر إلى الباطن دائما واعتماد التأويل الباطني للنصوص ؟ ما الذي أضافته الباطنية للمنهج التأويلي ؟..

المطلب الثاني : التأويل الباطني عند الشيعة الباطنية التعليمية

و إذا كنّا قد أشرنا من قبل إلى معنى التأويـــل في عمومه و أدركنا من خلال ذلك مدلوله يجدر بنا الآن أن ندرك حقـــيقة معناه لدى الباطنية التعليمية، التي عرفت باعتمادها على المنهج التأويلي لدعم مذهبها وعقيدتها وكذا لنشر دعوتها بين أنصارها وشيعتها كافه .

لاسيما أن هذه الفـــرقة الشيعية قد أصبغت على التأويل من عقيدتها ما يجعل له معنا خاصا لديها ، انفردت به و صار مما يميزها عن غيرهـــا من ســـائر الفرق و« إن كانت لتكون ممارسة تميز الشـــيعة فلن تكـــون غير الترجمة الرمزية هذا النوع من التفاهم ينطبق قبل كل شيء على القرآن الكـــريم لكـــن العلماء الشيعيين جعلوا منها منهجا وطريقا للوصول إلى الحـــقائق المتضمنة أسرار عالم الحقيـــقة«[4].

إذ اعتمـــدت الشيعـــة الباطنية على تأويـــل الآيات والنصوص لإبـــراز عقيدتها في الإمامة ولتبريرهـــا حتى كان منهجـــها التأويلي الباطـــني الذي اشـــتهرت به وسيلة لازمتها و دافعت من

1 – سورة آل عمران آية 07

2 – الوليد بن رشد ، المرجع نفسه ص 36

3 – عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 495

4 - Mohammed –Ali Amir -Moezzi.Qu ' est ce que le Shiisme? p139

خلالها عن أرائها و مواقفها الباطنية المتميزة .يرد على لسان أحد أعلامها ما يؤكد « إن كل من ينظـــر في هذه الآيات الموجـــودة في الآفاق والأنفس والـــدلالات الباطنة فيها ولا يطلب حقائقها وتـــأويلاتها من أرباب الدين وأصحاب اليقين فيكون من الألبسة والشـــياطين الذين استوجبوا غضب الله وخذلانه وحرمانه «[1].

إذن التـــأويل الباطني ارتبط بالشرائع المنزلـــة ونصوصها وألفاظها المقدسة فلابد من العودة إلى بواطنها وعدم الاكتفاء بالظاهر فقط إذا « أن للكتب النبوية تأويلات و تفسيرات غير ما يدل عليها ظاهر ألفاظها يعرفها العلماء و الراسخون في العلم «[2]. فالحقيقة لا تكون مكشوفة دائما للعيان بل يجب إظهـــارها من بين السطور بالاستناد إلى التأويل الباطني باعتبار أن النصوص الدينية ذات معان باطنة خفية مستورة و الأئمة وحدهم هم القائمون على تأويل الشـــرع و تفسيره لدعاتهم و أتباعهم ليتم تناقل تلك التأويلات بين شيعتهم .

و اتخذ التأويل معنى خاص عند الإسماعيلية التعليمية ارتكز على ضرورة العودة إلى مـــا وراء الظاهر لإدراك الأشياء على حقيقتها إذ « لابد لكل ظاهر من باطن وهو المقصود في الحقيقة وهو بمنزلة اللب والظاهر بمنزلة القشر «[3] . و تأويـــلات الباطنية كغيرها من فـــرق الشيعة الأخرى مستمدة من تأويـــلات الإمام جعفر الصادق أحد أهـــم أعلام الشيعة وإمامها السادس حسب الإسماعيلية « إذ يستند الإمـــام جعفر الصادق في تأويلاته على المنهج القائل بأن كتاب الله على أربعة أشياء :العبادة، والإشارة واللطائف والحقائـــق ، فـــالإشارة للخواص والعبادة للعـــوام واللطائف للأولياء والحـــقائق للأنبياء «[4].

ليتضح أن الـــتأويل حكر على الأئمة لا يتجرأ غيرهم على الخوض فيه و لا ينبغي قبول أي شرح أ تفسير للنصوص ما لم يثبت صدورها عن الإمام المعلم المعصـــوم.

و هنا تأكيد علـــى أن الإشارة و هي الظاهر ينبغي استغـــلالها و تأويلها و حسن توظيفها من قبل الخواص وهم كما سبق الذكر أهل الباطـــن والراسخون في العلـــم . وهذا التصور « مؤسس على قـــول علي بن أبي طالب : ما من آية إلا ولهـــا أربعة معان ، ظاهر وباطن وحد ومطلع فالظاهر التـــلاوة والبـــاطن الفهـــم والحـــد هو أحكام الحـــلال والحـــرام، والمطلـــع هو مراد الله

---

1 – عبدان قرمط ، شجرة اليقين ، ص 10

2 – حنا الفاخوري، وخليل الجر، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص250

3 – محمد بن الحسن الديلمي ، المرجع السابق ، ص39

4 – كامل مصطفى الشيبي ، الصلة بين التصوف والتشيع، ص191

تعـــالي من العبـــد بها « [1] هكذا يسوقنا الحديث دائما إلى نفس الفكرة الباطنية التي تمثل جوهر العقيـــدة الباطنية الإسماعيلية الشعبية آلا وهي فكرة « الظاهر والباطن «.

أولا :الظاهر و الباطن

تنقسم العقيدة الإسماعيلية إلى قسمين، الظاهر وهو كل ما يتعلق بالسلوك الخارجي والعلاقات بين البشر، والباطن ومعناه أن للآيات المترلة والعقائد معنى باطنا لا يعرفه إلا الإمام والمقربون إليه وقد تمسكت الإسماعيلية بالمبدأ للقائل لا ظاهر بدون باطن يقابله كما أنه لا باطن بدون ظاهر يقابله وهذا من جعل الإسماعيلية تعرف باسم الباطنية [2].لذلك أوّل الباطنية النصوص الشرعية وأكدوا أن الحقيقة في الباطن فقط . ويذكر الإمام "البغدادي" في " الفرق بين الفرق" أنهم « تأولوا آيات القرآن و سنن النبي عليه السلام على موافقة أسسهم « [3].

وقد وظف بعض علماء الشيعة من أمثال المفكر الشيعي "عبدان قرمط" بعض الأدلـــة النقلية ليؤكد من خلالها ضرورة العودة إلى باطـــن النص لفهم حقيقته منها قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ﴾ يعني ظاهـــرها ﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ يعني باطنها ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ [4] ليوظفه دلالة على ضرورة العودة إلى بواطن النصوص« فـــهذا القول موجه إلى من وقف على ظاهر القرآن أو غيره من كتب الله تعالى المترلة على رسله و لم يقف على تأويله فهو كالحمار يحمل أسفارا دون أن يعـــرف ما فيها «[5].

فـــلابد من العودة لباطن النص و العمـــل به ،لأن الحقيقة تكمـــن فيه أما الظاهر فهو مجرد ستار تحتجب وراءه المعـــرفة الحقة لسائر أركـــان الشريعة و العبادات . و من هـــنا « زعموا أن من عرف معنى العبـــادة سقط عنـــه فرضها «[6] و تأولوا في ذلك الزعـــم قول الله تعالى﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [7] واعتبروا اليقين حاصـــل بالتأويل وبمعرفة الباطـــن معتبرين « أن الظواهر عذاب وباطنها فيه الرحمة« [8] تماشـــيا مع قـــول الله تعالى ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَـابٌ

---

1 – المرجع السابق ، ص190

2 – حنا االفاخوري ، وخليل الجر، المرجع السابق ، ص 210

3 – عبد القاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص 253

4 – سورة الجمعة أية 05

5 – عبدان قرمط ، المصدر نفسه ص 32

6 – عبد القاهر البغدادي ، المرجع نفسه ، ص 262

7 – سورة الحجر آية 99

8 – عبد القاهر البغدادي ، المرجع نفسه ، ص 266

بَاطِنُـهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِـرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [1] الذي استنـدوا إليه في دعواهـم .

وبناءا عـلى ذلك اعتبر الباطنية أن حـقائق الأمور مدركة بإعمال التأويل الباطني لا غير لكنهـم تمادوا في تأويـلاتهم حتى وصل بهم الأمر أن ادعـى بعضهم بأن القرآن الكريم محرف فقد « ألف أحـد أعلامهم " حسين بـن محمد تقي النوري الطبرسي النجفي" (وفاته **1320**م) ألف في **1292**م كتابا سماه " فصل الخطـاب في إثبات تحريف كتاب رب الأربـاب" جمع فيه مئات النصوص عن علماء الشيـعة ، و مجتهديهم في مختلف العصور بأن القـرآن قد زيد فيه ونقص مـنه» [2]. و إخوان الصفاء يقولون بأن القـرآن زيد فيه ، و قد سبقت الإشارة إلى ذلك الأمر من قبل في تعاليم الشيعة الباطنـية .

بعض تعريفات الباطنيين للتأويل

ويمكـن أن نقف على معنى التأويل لدى الباطنية من خلال الاستشهاد بتعريفات للتأويل وردت في مؤلفات بعض أعلامها من الإسماعيليـة الباطنية المعروفة بالتعليمة من أمثال " إخوان الصفا" إذ يرد في إحدى رسائلهم « واعلم أن للكتب الإلهية تنزيلات ظاهرة وهي الألفاظ المقروءة ولها تأويلات خفية باطنة وهي المعاني المفهومة المعقولة ، وهكذا لواضعي الشريعة موضوعات عليها وضعوا الشريعة ولها أحـكام ظاهرة جلية ، وأسرار باطنة خفية وفي استعمال أحكامها الظاهرة صلاح المستعملين في دنياهم ، وفي معرفة أسرارها الخفية صلاح لهم في أمر معادهم وآخرهم» [3].

فالتأويل تحتمه ضرورة شرعية حسب الإسماعيلية الباطنية توجب وجوده واستعماله ألا وهي الأسرار الخفية و الأحـكام الباطنة المستورة التي تحتويهـا النصوص المنزلة من الله عبر أنبيائه ومرسليه، والتي ينبغي الكشف عنهـا حتى يتضح المقصود من هذا التنزيل.

يرد تأكيد هذا المـوقف على لسان " أبو يعقوب السجستاني" أحد أعلام الشيعة البارزين إذ يقـول « قد اتفق جميع العلماء على أن الله سبحانه وتعالى أنزل فرائضه في الشرائع مجملة وغير مفسـرة ومقسمة ففسرها وقسمها الرسول ﷺ ظاهريا ، ووضـع كـل شيء منها في موضعه ثم عهـد بتقسيمها وتفصيلها باطنيا إلى صامت يعرض عليه من التأليف ما يكون له القوة الفاعلية ولا يكمل الـدور إلا باثنين صامـت وناطق » [4].

1 – سورة الحديد آية **13**

2 – محب الدين الخطيب ، الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الإثني عشرية ، ص **09**

3 – إخوان الصفاء، رسائل إخوان الصفاء ، ج**4** ، ص **552**

4 – أبو يعقوب السجستاني ، إثبات النبوات ، ص **192**

فالله تعـــالى أنزل الوحي على النبي ليكون مبلغه للناس فهو ناطق بالشريعة أما القائم بتأويل الشريعة فهو الإمام الصامت لا الناطق . إذ يرى "السجستاني" أنه » لما كان الناطق يأتي لنسخ شريعة ما قبله بإظـــهار شريعة جديدة كـــذلك يكون الصامت فيأتي لنسخ التأويل الذي قبله «[1]. فدلّ قوله على ارتباط تأويل النصوص بالإمام باعتباره خص به وحـــكر عليه.

ونـــود أن تورد تعريفا أخر للتأويل الباطني استفدناه من " الكـــــرماني " وهو من أعلام الشيعة لنقف على بعض مدلـــولاته و خصائصه عند هذه الفرق و لفهم أساليبها في التلاعب بظواهر الآيات لبلوغ بواطنها. فبالنسبة "للكرماني" يعتبر التأويل » العبادة الباطنة «[2] أما في المجال الديني فإن الكرماني يجعل التأويل مقابلا للتتريل. أي » أن التأويل هو المعنى الباطن للتتريل . إن هذه الازدواجية: تأويـــل تتريل هي نفسها الظاهر والباطن وهي أيضا الشريعة والحقيقة وهـــي العلم والعمل والمثل والممثول «[3] .

و في مـــوضع آخر يعرف " الكرماني" التأويل بشكل يجعله دالا على بلوغ منتهى الحقيقة ودرجة الكمال فبالمنهج التأويل يرد كل شيء إلى حقيقته و أصله فيكون التأويل » هو معرفة ما يؤدي إلى توحيد الله وحدود دينه و الإحاطة بمنازلهم ومراتبهم علما وإعطائهم حقهم كما أمر الله تعالي وهي تعطي النفس شرف النفس للكمال وتلحقها بذوي النهي والجلال والبهاء فلفظ تأويل من خلال هذا التعريف ينصرف إلى فكرة الانبعاث الذي يفيد الرجوع إلى الأصل «[4] و لا ينال شرف تأويل ظواهر الشريعة والظواهر الجلية إلا أئمة الشيعة الطاهرين.

وحسب هذا التعريف يعتبر التأويل أداة فعـــالة في الكشف عن الحقيقة الكامنة وراء الظاهر ومن خلاله نبلغ الكمال وهـــذا الكمال مقصور على إدراك الباطن لا الظاهر من الأحكام عليه »يظهر أن التأويل * الديوديسيماني مسكون بانشغـــالات تعديل النظام ما بين الوجه الظاهر للآيات القرآنية و المعنى المخفي المستخـــرج من الإمام «[5].

---

1 – أبو يعقوب السجستاني ، إثبات النبؤات ، ص 191

2 – عبد الجليل بن عبد الكريم سالم ، التأويل عند الغزالي ، المطبعة العصرية ، تونس ، ط1 ، 2000، ص 36

3 – المرجع نفسه ص 37

4 – المرجع نفسه ص36

*** ديـــوديسيمانية: أو الإمامـــيون ، فهم من فرق الشـــيعة ، يجهرون بالأمر الموالي : كان هناك اثنتا عشـــر إمام علي الحســـن الحسين و تسعة أئـــمة آخـــرون من سلالتـــهم و الثـــاني عشر هو محمد الذي اختـــفي بطريقـــة غامـــضة في آخـــر القرن التاســـع و لا بد أن يظهـــر في شخص المهدي كي يؤسس العـــصر الذهبي ..نقـــلا عـــــــــــن L'orient :**

–Lannois Philippe désoriente. P 41

5- Mohammed –Ali Amir - Moezzi. Qu'est que le Shiisme p145

و الحقيقة تكـمن في الباطن أي في التأويلات التي قام بها الإمـــام ليكشف من خلالها عن رموز و أسرار النصوص المقدسة » إن كان المعنى المخفي للآيات يحطم المعنى الظاهر ، إن كانت الحقيقة تبطل الشريعة أو دين العبادة ، يتبع عنه أن الدين الداخلي أصبح دينا خارجيا وتمرينا لسلطة مؤقتة فتنعكس الحقيقة إلى شريعة جديدة و حكمية « [1].

ثانيا : التأويل حكر على الإمام

لطالمـــا ارتـــبط التأويل عند الإسماعيليـــة الباطنية بإيضاح النصوص الـــشرعية من قبل الأئمة فهم المـــعلمون والمـــؤولون وكذا المفسرون لهذه النصـــوص لأتباعهم و مؤيدهم. وهذا يجعلنا نحيط بحقيقة هامة لدى الباطنية تتعلق بكون التأويل ليس متاحـــا وممكنا للجميع بل هو حكر على فئة خاصة من الناس آلا وهي فئة الأئمة « فقد ذهب الإسماعيلية إلى أن لكل شيء ظاهـــر محسوس تأويلا باطنا، لا يعرفه إلا الراسخون في العلم وهم الأئمة يودعون هذا العلم الباطني لكبار الدعاة بقدر مخصـــوص « [2].

وهذا التـــأويل حكر على الأئمة فهم الراسخون في الدين والعارفون بأسراره و خاصة القائم ، و قد جاء في شجرة اليقيـــن لعبدان قرمط « وأما القائم- سلام الله عليه- فهو صاحب التأويل الذي يجمع به جميع شرائع النطـــقاء وأعمالهم وهو صاحب يوم الكشف الذي ذكره الله تعالى في كتابه ﴿ هَلْ يَنــظُرُونَ إلاَّ تَأْوِيلَــهُ ﴾[3] « [4]

و لم يكتف الإسماعيلية بهذا القدر في التأكيد على أهمية التأويـــل بل « قالوا بأن التأويل الباطن من عند الله خص به على بن أبي طالب فكما أن رسوله الله خُصَّ بالتنزيل فكذلك على ابن أبي طالب خُصَّ بالتأويل «[5] لكـــن يضيف "محمد كامل حسين" أحد أهم المولعين بالفكر الإسماعيلي الباطـــني ولـــه في ذلك عدة مؤلفات أن « التأويل خُصَّ به علي ابن أبي طالب والأئمة من نـــسله«[6] يؤكد ذلك ما يـــروى عن التأويلات الباطنية المحفوظة منذ عهد الأئمة الأوائـــل في كتب مستورة لا يطلع عليها إلا أقرب المقربين للإمام من دعاته المخلصين .

---

1 - Mohammed –Ali Amir - Moezzi. Qu'est que le Shiisme p145

2- محمد جلال شرف ، دراسات في التصوف الإسلامي ، ص 360

3- سورة الأعراف أية 53

4- عبدان قرمط ، شجرة اليقين ، ص 12

5- محمد جلال شرف ، المرجع نفسه ، ص 360

6- محمد كامل حسين ، طائفة الإسماعيلية ، ص 163

فإذا كـــانت الإمامة متوارثة في نسل "علـــي" فإن التأويـــلات أيضا متوارثة فيهم يتناقلـــونها فيما بينهـــم لذا تقـــول الشيعة الباطنيـــة « بوجوب التأويل الباطـــن وضرورته واستدلوا بقصه موسى و الخضـــر، وقد أورث عـــلي بن أبي طالب التأويل الباطـــن الأئمـــة من أعقابه بأمـــر مـــن اللـــه »[1].

ثالثا : أسباب اعتماد الباطنية للتأويل

و يمكن إدراك أسباب اعتماد الباطنيـــة للتأويل بالنظر إلى المراحل التي مرّت بها في تطورها متنقلة بين الستر والظهور إذ بدأ التأويل الباطني يتخذ منحـــى خاص حين دخل في دور الستر مع الأئمـــة المستورين ثم تطور بعد دور الستر، فكان الفكر الإسمـــاعيلي في دوره الأول أي الدور الباطني المخيف يعتمد على التأويلات الخفية للظواهر الجلية خوفا من افتضاح أمرهم أمام أعدائهم الأمويـــين و من بعدهم العباسين و يشهد التاريخ الإسلامي على ذلك الأذى العظيـــم المحزن الذي أَلَمّ بآل البيت و بشيعتهم جراء سعيهـــم وراء الخلافة لذا عمدوا إلى التأويل الباطني والتقية والستر لنشر أفكارهم في البداية.

و هذا مـــا يذكره عنهم كثير من الباحثين المهتمين بدراسة تـــاريخهم مثل الأستاذ "علي سامي النشار" في كتـــابه " نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام" الذي أبرز فيه بوضوح اعتمادهم الدائـــم علـــى المنهج التأويلي فيقول « لقد استند المذهب (الباطني) في دور الستر-كما استند في دور الظهور- على التأويل الباطني للقرآن وأعلنت الإسمـــاعيلية أن للقرآن ظاهرا وباطنا و أن الأخذ بالظاهـــر فقط دون الباطني خروج على روح الإســـلام وبهذا استطاعوا تفسير القرآن وتأويله طبقا لمـــا يريدون... »[2].

فباشروا بتأويـــل العبادات والأركان الإسلامية مستخدمين براعتهم في العلوم خاصـــة الحساب و الفلك والسحر و التنجيم. . و رأت الإسماعيلية « أنَ الفرائض والسنن التي أتى بها محمد ﷺ لها ظاهر وباطن وأنَ جميع ما إستعبد الله به العباد في الظاهر من الكتاب والسنة هي أمثال مضروبة وتحتها معان هي بطونها » ولن نبلغ هذه المعاني الباطنة إلا بتأويل تلك الأمثال وفهم معانيها الخفية ذلك « أن هذه البطـــون هي التي عليها العمل وفيها النجاة و أما الظواهر ففي استعمـــالها الهلاك و الشقاء و هي جزء من العقاب الأدنى عذب اله به قوما إذا لم يعرفوا الحق و لم يقولـــوا به »[3] فالناجي من عمل بالتأويل و الهالك من وقف عند الظاهر.

1- محمد جلال شرف ، دراسات في التصوف الإسلامي ، ص 361

2- علي سامي النشار، نشأة الفكرة الفلسفي في الإسلام ، ص 406

3- المرجع نفسه ص 389

و طبقت الإسماعيليـــة الباطنية تأويلاتها في نشر عقيدتها مقنعة كل من استجاب لدعوتها أن الشريعة دنست و حرفت و وحده الإمـــام القادر على فهم المراد منها و تأويل ظواهر الآيات بل قام دعـــاتها « يخبرون من يدعونه أن جميع مـــا عليه الناس أمثال مضروبة لمثولات محجـــوبة «[1] ونفهم من ذلك أنهم أي الإسماعيلية الباطنية قد أغرقوا في التأويل إلى درجة ساد فيها الاعتقاد بأن لكل ظاهر باطن وهذا الباطن لا يدرك إلا بالتأويل مستشهدين بقوله تعالى ﴿ وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ [2] وأيضا قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾[3] .

رابعا : مراتب و درجات التأويل الباطني

إن للتأويل مكانة هامة في الفكر الإسماعيلي الباطني إذ يقرنه الشيعة الباطنية بمسألة الإمامة و يستخدمونه كوسيلة للدفاع عن أحقية البيت العلوي في الخـــــلافة دون غيرهم و لهم في هذا المنهج مآرب أخر لا يحيط بها إلا شيعتهم وأنصارهم. لذا راع الإسمـــاعيلية الباطنية في تأويلاتهم الحرص علـــى مخاطبة الناس بما يفهمون و تدرجوا في ذلك وحرصوا على كتمان أسرارهم فلا يجاهرون إلا بمـــا يسمح لهم من بلوغ أهدافهم المنظمة والمخطط لها بدهاء شديد .فكـــان للتأويل الباطني مراحل و مراتب ودرجات « باعتبار أن المعرفة تنطوي على مراحل ثلاث:الظـــاهر والباطن ، و باطن الباطن، أو تنزيل ، و تأويل ، و حقيقة «[4] .

و لم يكـــن هذا التقسيم للتأويل عبثا بل راع فيه الباطنية درجات المعرفة، ومراحلها ودلل على هذا التقسيـــم السابق لمراتب و درجات التأويل بأدلة شرعية منها الحديث النبوي « طوبي لمن رآني، أو رأى من رآني، أو رأى من رأى من رآني «[5] . و هذا الحديث فسر من قبل الشيعة الباطنية تفسيـــرا يتلاءم مع طبيعة مذهبها أظهروا من خلاله درجات و مراتب للتأويل فهو يحمل « إشارة إلى هذه الدرجات الثلاث : الظاهر والباطن وباطـــن الباطـــن«[6].

1– المرجع السابق ، ص **433**

2– سورة الأنعام آية **120**

3– سورة الأعراف آية **33**

4– عبد الجليل بن عبد الكريم سالم ، التأويل عند الغزالي ، ص**40**

5 – حديث حسن

6– عبد الجليل بن عبد الكريم سالم ، المرجع نفسه ص**41**

لـــم تكتف فرقة الباطنية بتحديد مراتب التـــأويل و درجاته على هذا المنوال بل ذَكرت وسائل وأدوات لحـــصول المعرفة في كل مرتبة إذ « لا تحـــصل هذه المعارف ولا تتحقق إلا بأدوات مترتبة ومتدرجة وهـــي ثلاث فالظاهر يحصل بالسمع، والباطن هو المعرفة الفكرية الواقعة ، بين الظاهر الحقيقة ويحصـــل بالبصر النافد إلى الأشياء والحقيقة تحصـــل بالقلب»[1].

خامسا : تعارض و اختلاف التأويلات باختلاف الأئمة و دعاتهم

فالتأويـــل من عند الإمام و هو يوكل دعاته بنشر تأويلاتـــــه وتفسيراته لشيعته و للناس حتى ساد اعتقاد بأن الـــتأويل من خصائص حجة الإمام أو دعاته لكـــون الأتباع لم يروا إمامهم بل سمعوا عنه و بلغتهم تأويلاتهم من دعاته عبر الجزائر المتعددة .

لذلك كـــان كبار الدعاة مختلفين في هذه التأويلات لأسباب منها ما ذكـــره الدكتور"محمد كامل حسين" حيث قـــال « اختلف التأويل الباطني عندهم باختلاف شخصية الـــداعي الذي إليه التأويل، و باختلاف مواطن الداعي وزمن وجوده » [2].

وعن هـــذا الاختلاف في تأويل الباطنية للنصوص الشرعية من قبل دعاته و أئمتها لا يجعلنا نتصور تناقصـــها بقدر ما يدل على ثرائها يظهـــر ذلك بوضوح في أراء "الكرماني" الذي يفسر سبب تعارض بعض التأويـــلات واختلافها إن « التأويل الباطني حسب الكرماني يكـــون بحسب ما يستمعن المتمعن الكلمة أو يحتمـــل تصريفها على وجه واحد كان أو على وجـــوه » [3].

يضيف " الكرماني" ان الدعاة قد يقدمون عدة تأويلات مختلفة للنص الواحد بل « يمكن أن يختلف الدعاة في تأويل كلمة واحدة ». مما يؤكد على أن المرجع الوحيد في التأويل عند الباطنية هو الإمام الشيعي المعصوم الذي نشر دعاته في أقطاب الأرض للدعوة له و إظهار تأويلاته الباطنية للشريعة لكل أتباعه و الموالين له .

- وقد يحدث أن تتعارض التأويلات ، فهل هذا التعارض و الاختلاف يدل على بطلانها ؟

الإجـــابة في هذه الحـــالة هي لا « فقد يكون تأويلان متعارضان ومـــع ذلك فهما صحيحان» [4] فالمعنى الباطـــن مرهون بما أدركه كـــل داع من ذلك الظاهر ومرتبط أيضـــا بالفئة التي يقدم لها التأويـــل . إذ يـــراعي الإمام أو الـــداعي طبيعة مـــن يؤول لهم إن كانوا من العوام أو

1- عبد الجليل بن عبد الكريم سالم ، التأويل عند الغزالي ، 42

2 - المرجع نفسه ص 164

3 - المرجع نفسه ص 38

4 - المرجع نفسه ص 40

العلماء أومن ديانات مختلفة . فكان لابد على الداعي أن يخاطب كلا بما يفهم، و هذا من أهم أسباب الاختلاف والتعارض في التأويل بين الدعاة.

لذلك اختص بالتأويل الباطني فئـــة محددة من هذه الفرقة يسمون بأصحـــاب التأويل يذكرهم "إخـــوان الصفاء" في رسائلهم ويضعونهم في المرتبة الثامنة في تقسيمهم للطبقـــات إذ يقولون عنهم « والصنف الـــثامن هم علماء تأويل (أي الناموس) تتريله والراسخون في العلوم الإلهة والمعارف الربانية العارفـــون خفيات أسرار الناموس،الذين هم الأئـــمة المهديون والخلفاء الراشدون الذين يقضون بالعقل و به يحكمون»[1].

لـــطالما ارتبط التأويل الباطني بالإمام المخلص الكاشف عن أسرار النصوص الإلهية، مؤول الرموز مفسر القـــرآن وهذه الترجمة الرمزية « ليست مجرد تقنية لحل رموز الكتابة ستترك مستعملها سليم و حيادي على العكس، يتعلق الأمر للشيعي المخلص فهم المعنى المخفي للقـــرآن للخلق من أجل تعديـــل ذاته و الاهتـــداء وتصفية وجوده بهدف الموافقة على النموذج المثالي للإمام » . و عليه نلاحظ أن هذه « الترجمة الرمزية تنشط باطن الشيعة التي لا تفارق فكرة الرجل المثالي رجل الإله الذي تظهر عليه جميع الصفـــات الربانية »[2].

المطلب الثالث : الاستدلال بالأعداد و الحروف و النظام الكوني في تأويل الظواهر الجلية لتدعيم عقيدة الإمامة

لم يكتف الإسماعيلية من الباطنية التعليمية بتأويـــل أركان الشريعة بل استدلوا على تأويلاتهم بالأعـــداد والحـــروف بل أكثر من ذلك جعلوا من الأعداد و الحروف ما هو مقدس أو خاص بهم و رمزوا للأئمة بمفردات اصطلحوها و اتفقوا عليها. .

أولا : الاستدلال بالأعداد

سخر الباطنية الأعداد لتفيد معان باطنه لا تؤخذ إلا عن الإمام إذ « ترى الإسماعيلية الباطنية أن معرفة أسرار الأعداد وما ترمز إليه من شريعة أصبحت علما تعليميا أي يؤخذ من الإمام »[3]. وبهذا تسنى لهم التلاعب بالحروف و الأعداد واحتكارها لخدمة مذهبهم.

ومن الأعـــداد المعروف بها الإسماعيلية الباطنية نجد السبعة و الإثنا عشر اللذان يمثـــلان الكثير في الفكر الشيعي ففي العدد سبعـــــة الذي أحاطوه بهالة من التقديس « قالـــوا إن الثقب على

1- إخوان الصفاء، رسائل إخوان الصفاء ، ج1، ص 440، 441

2) Mohammed –Ali Amir- Moezzi .Qu'est que le Shiisme.p140

3 – علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص 421

رأس الآدمـــي سبعة و السماوات سبعة والأرضون سبع و النجوم سبعة أعني السيارة و أيـــام الأسبوع سبعة وهذا يدل على أن دور الأئمة يتم بسبعة«[1].

و يسوق "الشهرستاني" في "الملل والنحـــل" حديثا عن العدد سبعة وعلاقة بترتيب الأئمة الإسماعيليين يقول فيه « إنهم قالوا إنما الأئمة تدور أحكامهم على سبعة كأيام الأسبوع والسموات السبع و الكـــواكب السبعة «[2]. و لعلى اهتمـــام الإسماعيلية بالعدد سبعة في مذهبها هـــو سر تلقيبها بالسبعية فالمعـــروف عن السبعية أنها تقول بفكرة السباعات و الأدوار السبع ..

إذ جعلت المرسلين والأئمة سبعة كذلك « أولوا العزم عند هذه الطائفة سبعة: نوح وإبراهيم ومـــوسى وعيسى ومحمد ﷺ و علي- عليه السلام — و محمد بن إسماعيـــل وحتى فترات وأدوار النبوة « [3]. فكان بذلك العدد سبعة من الأعداد الشيعية الإسماعيلية المقدسة اتخذته « رمزا إلى السباعات التي تتحكم في العقيدة «[4].

و الإمامة عند الإسماعيلية ارتبطت بهذا العدد بمعنى « أن هناك سبعة فترات من فترات الأنبياء والمرسلين وكل واحد من هؤلاء السبعة أعقبه سبعة من الأئمة « فإضافة إلى اعتقادهم أن السموات والأرضين سبع يقولون « بأن الإنسان سبع: بدنه ويداه ورجلاه وظهـــره وبطنه وقلبه، وأن رأسه سبـــع: عينان، وأذنان ومنخـــران وفمه وفيه لسانه كفـــمه و فيه قلبه و الأئمـــة كذلك وقلبهم محمد بن إسماعيل « [5].

و اعتبار العدد سبعة من الأعـــداد الشيعية المقدسة راجـــع إلى اقتران ذلك بظواهر كثيرة منها « إن بدن الإنسان مركب علـــى سبع مراتب هي اليد اليمنى واليد اليسرى والظهر والبطن والرجل اليمنى والرجل اليسرى ثم الرأس سيّدهم وذلك مقابل الأقاليم السبعة وعلى اثني عشر قطعة وهي :الرأس والعنق واليدان والظهر والبطن والفخذان والساقان والقدمان مقابل الجزائر الإثني عشر فمما يلي الظهر خراب ومما يلي البطن عمران كذلك الدنيا نصفها خراب ونصفها عمران ثم إن في جسد الإنسان اثني عشرة مخرجـــا هم : العينين والأدنين والمنخرين والفم والثديين والسبيلان و الصرة مقابل البروج الإثني عشر « [6].

---

1 – أبو حامد الغزالي، فضائح الباطنية ، ص 66 ، 67

2 – أبو الفتح الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1، ص 197

3 – كامل مصطفي الشيبي ، الصلة بين التصوف والتشيع ، ص 197

4 – المرجع نفسه ص 200

5 – المرجع نفسه ص197

6 – عبدان قرمط ، شجرة اليقين ، ص 66

ممـــا سبق يتضح أن العدد سبعة لم يكن هو وحــــده المقدس لدى الشيعة الإسماعيلية من الباطنية بل كــــانت هناك أرقام أُخرُ صنفوا وفقها عدد الدعاة والحجج. و أبرزها بعد السبعة العدد اثنا عشرة و علـــي أساسه « زعموا أن البروج اثنا عشر، فتدل علـــى الحجج الإثني عشرة »[1] كما تلقب فرقة الإثني عشرية بها اللقب تيمنا بالإمام الثاني عشرة المنتظر.

وينقل "الديلمي" عن الباطنية تقسيمهم لبعض الآيات و الصور بشكــــل عددي يتماشى وأعداد الأئمة مثل فعلهم بالشهادتين إذ أولوها تأويلات باطنية راعوا فيها ظهور العدد سبعة واثنا عشرة فهـــم « يقولون تتكون الشهادة من سبعة فصول: (لا إ له إ لا ا له) دليل على الأئمـــة السبعة وهي اثنا عشر حرفا دليل على الحجج الإثني عشرة »[2].

وبذلك احتل الرقم اثنا عشرة مكانه هامة في الفكر الإسمـــاعيلي ، كما كانت له أهمية عند الإثني عشرية وهي فرقة أخرى من فرق الشيعة تنسب إلى موسى الكاظـــم ابن جعفر الصادق وجعلت « الدنيا اثنتا عشرة جزيـــرة في كل جزيرة حجه وأن الحجج اثنا عشر، ولكـــل حجة داعية، ولكل داعية يد، واليد هو رجل له دلائل وبراهين يقيمها »[3].

لقد أكد الباحثون من خـــلال مقارنات لهم بين الفكر الإســـلامي واليوناني خاصة وجود تأثيرات عديدة على المستوى الفـــكري الثقافي والحضاري فقد لعب المسلمـــون دورا بارزا في ترجمة الفكـــر الفلسفي اليوناني والاقتباس منه ومحاكاة كثير من نماذجـــه. ويكاد يجمع أغلب الدارسين للفـــكر الشيعي خاصة مع الفارابي والكندي والشيرازي .. تأثر الفكـــر الشيعي بنظريات كبار فلاسفـــة اليونان كالقـــول بنظرية الفيض والعقول وعـــالم المعقولات والمعـــرفة الباطنيـــة وتأثيرات الأفـــلاك..

وكان تأثر الباطنية بفلسفتهم في الأعداد كبيرا،وهذا ما أثبته الأستاذ مصطفي كامل الشيبي حين استشهد برأي" لبراون " في كتابه الصلة بين التصوف والتشيع بقوله « مذهبهم في جملته فلسفي باطني قد استمد كثيرا من أسسه من المذاهب الإيرانية والسامية القديمة،كما تطرقت إليه بعض تعاليم الأفلاطونية الحديثة والفيثاغورثي الحديثة وهو مبنى في كل تفاصيله على العدد الخفي سبعة »[4].

---

1 – أبو حامد الغزالي، فضائح الباطنية ، ص 67

2 – محمد بن الحسن الديلمي ، المرجع السابق ، ص 43

3 – على سامي النشار، نشأه الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص388

4 –كامل مصطفي الشيبي ، الصلة بين التصوف والشيع ، ص 201

هذا التصور كـــونه عنهم أغلب الـــباحثين المتتبعين لتطور مذهبهم و سيرهم ، ومنهم الدكتور "محمـــد كامل حسين" في دراسته لطائفة الإسماعيلية حيث يرى تأثرا جليا لهذه الفرقة بفلسفة الأعـــداد الفيثاغورية « والحقيقة أن الإسماعيلية اخذوا ما قاله الفلاسفة الفيثاغوريو ن القدماء الذين جعلوا كل الأعـــداد أصولا لعقيدتهم وصبغوا أراء الفيثاغوريين بالصبغة الإسلامية على حسب العقيدة الإسمـــاعيلية ومـــن ثمة ظهرت عندهم عقائدهـــم في الأعداد مـــا يقابلها من أصول دينية دون أن يقفـــوا على عدد بعينه ».

ومن استعمالاتهم للأعداد ما جاء في تأويلهم « فالواحد هو العقل الكلي أو القلم ، والاثنان هما العقل الكلي والنفس الكلية أي القلم والروح، والثلاثة هم محمد وعلي وفاطمة والخمسة هم القلم واللوح و ميكائيل وإسرافيل وجبريل وهم محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين وهم الإمام والحجة والداعي والمأذون والمكاسر» [1] ورغم تأثرهم بالأفلاطونية المحدثة في فلسفة الفيض إلا أن فلسفتهم في الأعداد هي تحت تأثير الفيثاغورية .

ثانيا : الاستدلال بالحروف

كما سقت الإشارة من قبل تطرق الباطنية إلى الإستدلال بالحروف والرموز في مذهبهم إذ نجدهم قد وظفوا الحروف ورمزوا إلى مرموزات غريبة لخدمة عقيدتهم ، ويرجع حجة الإسلام الغزالي عملهم هذا في الحروف إلى استدلالهم بحديث النبي « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصمـــوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها » قيل ومـــاحقها ؟ قال ﷺ : معرفه حدودها، وزعموا أن حدودها معرفة أسرار حروفها» [2].

و من أمثلة تأويلاتهم للحروف قولهم « أن الآدمي على شكل حروف "محمد" فإن رأسه مثل ميم و يداه مبسوطتان كالحاء وعجزه كالميم و رجلاه كالدال » [3] هكذا كان دأبهم في تأويل حروف الآيات والسور وحتى الشهادتين .

* تأويـــل حروف الشهـــادة

يذكر " الغزالي" في فضائح الباطنية كيفية تأويلهم للشهادة ،حيث قالوا « لا إله إلا الله » أربعة كلمات وسبعة فصول وهي قطع « لا إله إلا الله » (لا) حرف و(إله إلا الله) ثلاثة جواهر، والجملة اثنا عشر حرفا.

---

1 – محمد كامل حسين ، طائفة الإسماعيلية ، ص 174

2 – أبو حامد الغزالي، فضائح الباطنية ، ص 68

3 – المصدر نفسه ص 67

وزعم الباطنية أن الكلمات الأربعة دلالة على المدبرين العلويين « السابق والتالي "والمدبرين السلفيين « الناطق والأساس «[1] ومن المفكرين من اعتبر تأويلهم للشهادة هذا مبعثا على الكفر والإلحاد وتلاعبا بالشريعة كما ورد على لسان "الديلمي" « لقد تأولوا الشهادة على وجه يشهد بأن غرضهم الإلحاد والكفر برب العباد «.

ويضيف " الديلمي" مستدلا على مصدر هذه التأويلات الباطنية للشهادتين أن « منها ما ذكره صاحب كـــتاب تأويل الشريعة الملقب بالمعز لدين الله أي المذل – قال :(لا إلـــه إلا الله) مركبة من ثلاثة أحرف الآم و الألـــف والهاء لا يدل عليها نقطة و لا يشير إليهـــا علامة فهي تدل بنفسها علـــى نفسها « .[2]

كما يرد هذا التقسيم للشهادتين بحسب ما نقله عنهم الدارسون كما يلي « والشهادتان قسمان نفي وإثبات (لا إله نفـــي)، (إلا الله إثبات)، وأربعة أقســـام بعدها (لا) (إله) (إلا)(الله) وسبعة أقسام بعدها (لا) (إ) (له) (إ) (لا) (أ) (لله) واثنا عشر بعدها (ل ا إ ل ه إ ل ا ا ل ل ه) « قـــد سبق و قلنا أن اعتماد الباطنية للتأويل كان لخدمة مذهبها و تدعيم تصورها للإمامة وها هو الديـــلمي يوضح ذلك الاقتران بين التأويل و الإمـــامة و « لا إله إلا الله « مجملة تعني «لا إمـــام إلا إمام العصر«[3] .

ثالثا : اعتماد النظام الكوني ودوراته في التأويل لتحديد أدوار الإمامة ومراتب الدعاة

برع الإسماعيلية الباطنية في علم الفلك والسحر والتنجيم، و اهتموا بذلك كثيرا.و ذلك ما يظهر في رسائل إخوان الصفا و هم من الإسماعيلية ، إذ كانت رسائلـــهم بمثابة موسوعة علمية و معرفيـــة، فيها من المعارف الكثير حل حركة الكواكب و تأثيراتها .. و الملاحظ أيضا أن الإسماعيلية راعت في تقسيمها للأئمة و الدعاة و الحجج و الأتباع ، ذلك النظام الكوني و الفلكي. و كان نظام الدعاية عندهم هو نفس نظام دورة الفلك « فقد جعلوا العالم الذي كان معروفا في عصرهم مثل السنة الزمنية ، فالســـنة الزمنية مقسمة إلى اثني عشرة شهرا ، و إذن فيجب أن يقسم العالم إلى اثني عشـــر قسما ، و سمـــوا كل قسم جزيرة «[4] .

1– أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص **68**

2 – محمد بن الحسن الديلمي ، مرجع سابق، ص**40**

3 – المرجع نفسه ص **41**

4 – محمد جلال شرف، دراسات في التصوف الإسلامي ص **359**

و كـــان من أشهر هذه الجزر كما عرضت في تقسيم الشيعة الإسماعيلية « جزيرة مصر و تشمل بلاد الشام ومصر و المغرب وجزيرة العراق و بلوخستان وجزيرة فارس وكرمان من إيران » وما تزال بعض من تلك المناطق مرا كزا لتواجد الشيعة و نشاطها.

و استندوا إلى الحساب الزمني السائد في الكون و ما يجري من تعاقب لليل و النهار والفصول والأشهر في تقسيم دعاتهم و طبقاتهم مثلا « الشهر ثلاثون يوما و لذلك كان لكل داعي جزيرة ثلاثون داعيا نقيبا لمساعدته في نشر دعوته[...] واليوم مقسم إلى أربع وعشرون ساعة اثنتي عشرة ساعة بالليل و اثنتي عشر ساعة بالنهار فجعل الإسماعيلية لكل " داع نقيب" أربع وعشرون داعيا منهم أثنا عشرة ظاهرا بظهور الشمس بالنهار. وكانوا يعرفون بالمكاسرين أو المكالبين ، و اثنا عشرة داعيا محجوبامستترا استتار الشمس بالليل » [1].

و لم يكتف الباطنية بهذا بل أنكروا الفناء والمعـــاد « و قد اتفقوا عن آخرهم على إنكار القيامة [...] وأولوا القيامة وقالوا إنها رمز إلى خروج الإمام وقيام قائم الزمان » وهو السابع الناسخ للشريعة .كما قال هؤلاء في نظام الفلك « إن للفلك أدوار كلية تتبدل أحوال العالم تبدلا كليا بطوفان عام أو سبب من الأسباب بمعني القيامة انقضاء دورنا الذي نحن فيه».

و منهم من أول الميعاد إلى ما يخالف حقيقته فأصبح « مـــعنى المعاد عود كل شيء إلى أصله، والإنـــسان متركب من العالم الروحاني والجسماني أما الجسماني منه وهو جسده فمتركب من الأخلاط الأربعة الصفراء و السوداء والبلغم و الدم فينحـــل الجسد و يعود كل خلط إلى الطبيعة العالـــية » 2 وبهذا خـــاض الشيعة الباطنية في أمور غيبية روحـــانية مزجوها بوجود الإنسان و ما عليه حـــاله و جسمه و أمزجته..

و يلجأ "الغزالي" إلى وصف العالم الروحاني الذي تبلغ فيه النفس كمالها بحسب ما تراه الشيعة فيقول عنه « أما الروحاني وهو النفس المدركة العاقلة من الإنسان فإنها إذا صفيت بالمواظبة على العبادات وزكيت بمجانبة الهوى والشهوات وعذبت بعذاب العلوم والمعارف المتلقاة من الأئمة الهداة، اتحدت عند مفارقة الجسم بالعالم الروحاني الذي منه انفصالها وتسعد بالعود إلى وطنها الأصلي ولذلك سمي رجوعا فقيل ﴿ارْجِعِـــي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [3].

1- محمد جلال شرف، دراسات في التصوف الإسلامي ، ص 359، 360

2- أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 44

3- سورة الفجر آية 28

و عـــن النفوس العـــاصية يقول « فأما النفوس المنكـــوسة المغمورة في عالم الطبيعة المعرضة عن رشدها مـــن الأئمة المعصومين فإنها تبقـــي أبدا الدهر في النار، على معنى أنهـــا تبقي في العالم الجسماني تناسخهـــا الأبدان فلا تزال تتعرض للألم و الأسقـــام فلا نفـــارق جسدا إلا ويتلقاها أخر و لـــذلك قال الله تعـــالى ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُـــودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُـــوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَـــذَابَ ﴾[1] «[2].

والملاحظ لتلك الأفكار و التصورات الشيعية الباطنية سيدرك مدى تأثر أتباعها و مفكريها بما ساد لدى الفلاسفة اليونانيين من تقسيم للعقول و تحديد لمراتب النفس « فالإمام الإسماعيلي إذن هو ممثل العقل الكلي فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد«[3] .

ومن اعتقـــاداتهم أيضا في النفس الكلية وزعمهم بانبثاق سبعة عقول قائمة بالفعل عنه وقال الباطنية بالأدوار السبعة للكون و أسقطوا ذلك على تقسيمهم للأئمـــة و الدعاة فهم يزعمون أن هذا العالم له دورات متعاقبة تقوم على مبدأ الرقم سبعة وكل دور له نطقـــاء أو أنبياء سبعة وأسس أو أوصيـــاء سبعة و أئمة سبعة .

فإذا انتهى أو تم دور العقل السابع و الأخير أتى من بعده دور جديد متمثل بناطق أو نبي جديد يدعو إلى شريعة جديدة ، ينسخ بها شريعـــة النبي الذي كان قبله لهذا كـــان الشيعة الباطنية الإسماعيلية « يزعمون أن محمد بن إسماعيل مؤسس فرقتهم هو الناطق الجديد الذي افتتح دورا جديدا في دورات هـــذا العـــالم هو دور القيـــامة بعد أن انتهى الـــدور السابق و الذي بدأ به محمد ﷺ و أساسه علـــي بن أبي طالب و تم به إسماعيـــل بن جعفر وسينتهي الدور الجدي د بظهور قائم القيـــامة «[4] .كما رتبوا الـــدعاة على أساس مراتب العقول و ربطـــوها بحرك ة الأفلاك والكواكب و ما يطرأ على الكون من تغيرات.

المطلب الرابع : التأويل الباطني لأركان الإسلام و للعبادات

إذا كـــانت الإسماعيلية الباطنية قد اعتمدت لنشر دعوتها وتثبيت دعائـــم عقيدتها ذلك المنهج التأويلـــي الباطني للشريعة و للقرآن الكريم ، بهدف دعم مسألة الإمـــامة التي تمحـــور حولها الفكر الشيعـــي ككل خاصة الفكر الشيـــعي الإسمـــاعيلي الباطني علـــى وجه الخصوص . فإنها قد عممت هذا المنهج في مختلف مجالات نشاطها، حتى أنها قامت بتأويل العبادات وأركان الإسلام لخدمة

1 – سورة النساء أية 56

2 – أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 45 ، 46

3 – محمد أحمد الخطيب ، الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ، ص88

4 – المرجع نفسه ص 92

مصالحها ، مستندة إلى تعاليم الأئمة متخذة منهم ذريعة تشرع و تسن بها مبادئ و تعاليم كان لها شأن عظيم في تطوير و استمرار هذه الحركة .

و ظل نظـــرية التأويل التي اعتمدتها الحركة الباطنية الإسماعيلية انحرفت معاني العبادات ورمز للأركـــان الإسلامية بمرموزات غير معانيهـــا و غاياتها و أحلت محلها أخرى من تأويل ووضع أئمة الحركة و دعـــاتها.

هذا ما يشير إليه كل من "حنا الفاخوري و خليل الجر" في كتاب "تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام" بقولهما « إن أركان الشريعة السبعة قد أخذت معاني معينة ،فالشهادة معناها الاعتراف بالله ، والطهارة معناها التحرر من الطقوس الدينية القديمة، والصلاة معناها التبشير بمعرفة الله و الصيام معناه الانقطاع عن أهل الكفر بالتقية ، والزكاة معناه أن يقتسم الإنسان مع غيره ما أنعم الله عليه به ، و الحج معناه أن يعرض الإنسان عن الإقامة الزائلة و سعي إلى إقامة لا تزول ، و الجهاد معناه أن يفني الإنسان نفسه في ذاته الله» [1].

و "للبغدادي" في كتابه "أصول الدين" تعليق آخر على تأويلات الباطنيين للعبادات ولأركان الشريعة «إذ قالوا في تأويل الصلاة أنها الثناء على الإمام والزكاة دفع الخمس إليه والصوم الإمساك عن إفشاء أسرارهم عند مخالفيهم والزنا إفشاء أسرارهم بغير عهد» [2] .

كما يضيف "البغدادي" إيضاحا عن تأويلهم للعبادات يظهر من خلاله تماديهم في ذلك حتى أنهم « أسقطوا العبادات (والحدود) و أباحـــوا الخمر ونكاح ذوات المحارم و هذا هو التمجس بعينه ». و وصفوا أنفسهم بأهل الحق لاعتقادهم بأنهم أهل الباطن و التأويل أما أهل الظاهر وهم مخالفوهم فاعتبروهـــم من الشياطين إذ « تأولـــوا الشياطين على مخالفيهم وزعموا أن علماء مخالفيهم هم الأبالســـة » [3].

هكذا تأول الباطنية لكـــل ركن من أركان الشريعة معنى يخرجه عن حقيقته يخـــدم به أغراض هذه العقيدة الإسماعيـــلية الباطنية في الإمامة لما شاع بينهم الاعتقاد بأن لكل عبادة أو ركن من أركان الإســـلام جانبا ظـــاهرا جليا وآخر باطنـــا خفيا و « زعمـــوا أن من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها» [4].

1– حنا الفاخوري، خليل الجر، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص220

2– عبد القاهر البغدادي ، أصول الدين ، ص330

3 – المرجع نفسه ص330

4 – على سامي النشار ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص463

فعمدوا إلى تأويل هذه العبادات تأويلا يتماشى مع عقيدتهم ومذهبهم خاصة أن هذه التأويلات تصب كلها في قالب الإمامة وتنساق لخدمتها. ويقول لذا أقدم هؤلاء القوم من الباطنة على التوسع في التأويلات حتى طالت الشهادتان والعبادات والمحرمات الشرعية ، زد على ذلك تأويلهم الأحاديث النبوية والآيات ويمكن الإطلاع هذه التـــأويلات الباطنية للعبادات بالرجوع إلى ما ذكره "أبو حامد الغزالي" عنهم في كتـــابه فضائح الباطنية .

كما انتقدهم أيضا " الديلمي" في كتابة " بيان بطلان مذهب الباطنية" هذا الأخير اعتمد في بيان بطلان مذهبهم على كتبهم خاصة كتاب تأويل الشريعة لصاحبه المعز لدين الله الفاطمي ومن هذه التأويلات التي يوردها عنهم مثلا « دلالة المسجد في الباطـــن على الإمـــام موحد على الحجـــة وعلى الداعي ومثل الكعبـــة على الرسول، والمسجد الحرام على الوصي، والآذان خمس عشرة كلمة تدل على الأساس وستة متمين وسبعة خلفاء والخامس عشر دليل على القائم. و بسم الله الرحمن الرحيم سبعة عشر حرفا دليل على سبعة أئمة واثني عشر حجة أربعة فصول دليل على الحدود الأربعة السابق والتالي والناطق والأساس...الخ » [1].

و لم يكتف دعاة الباطنية بذلك التأويل للأعداد و الحروف وللشهادة بل زادوا عليه من لسانهم ما طال باقـــي أركان الإســـلام والعبادات منها ما قالوه أن « آداب الوضوء المسواك دليل على أن الداعي يبين الحدود للمستجيبين بيت الخلاء مثل الظاهر الخالي من الحقيقة والباطن والحكمة. والغائط مثل نجاسة أهـــل الظاهر بالجهل، والماء مثل العلم الحقيقي الباطن الذي به طهـــارة كل جاهل من نجاسة الجـــهل »[2].

المطلب الخامس : الأصول الفلسفية للتأويل الباطني

إن الـــتأويل بالمعنى الباطني أي كما تمـــارسه فرقة الباطنية التعليميـــة نجده في كثير مـــن جوانبه ذا صبغة فلسفية « فالتأويل الإسماعيلي يمكن أن يـــدرج فيه الكثير من قضايـــا التأويل عند الغزالي و ابن سينا لاشتراكهمـــا جميعا في التأويل الغنوصي البـــاطني " [3] أي كثيـــر من التأويلات التي قدمتهـــا "الباطنية" تحتوى علـــى أصول فلسفية ، إمـــا نجدها مستوحاة من الديانـــات الشرقية

1- محمد بن الحسن الديلمي ، المرجع السابق ، ص 43

2- المرجع نفسه ص 33، 44

3- عبد الجليل بن عبد الكريم سالم ، التأويل عند الغزالي ، ص36

القديمــــة كفكرة النــــور و الظلام و السابق واللاحق والعلوي و السفلي و خـــاصة الــــزرادشتيـــــــة المجوسية. و أحيانا أخرى من الفلاســـفة الأفلاطونيين كفكرة الفيض والعقول والعقـــل الكلي.

مما يثبت أن أصل التأويل الباطني و مصدره هو امتزاج الأفكار الدينية الإسلامية بغيرها من الديانات الشرقية و حتى المسيحية و اليهودية « فنظرية التأويل الباطني نظرية دينية فلسفية تتلخص في أن الله سبحانه وتعالى جعل كل معاني الدين في المخلوقات التي تحيط بالإنسان فيجب إذن أن يستدل بما في الطبيعة وبما على وجه الأرض على فهم حقيقة الدين«[1].

فالتأويل الباطني في الغالب مستمد من تأثيرات الفلسفة فهاهو "دي بور" يؤكد أن إخوان الصفا الذين ينتمون إلى الشيعة الإسماعيلية و بهدف بلوغ أهدافها السياسية « صار أعضائها يؤولون القرآن لخاصتهم تأويلا مجازيا نعم لقد كانوا يردون هذه الحكمة السرية إلى أنبياء ممن وردت أسماؤهم في التوراة أو في القرآن و لكن وراء الحقيقة أشخاص الفلاسفة الوثنيين« [2].

حتى أن هذه التأويلات الباطنية كانت لفئة من الناس دون أخرى، أي لا يحيط بها إلا من له فكر متّقد فالمعروف عن الباطنية و إخوان الصفا خاصة مخاطبتهم للناس بحسب ما يفهمون فالإخوان يرون « أن ظاهر الشريعة إنما يصلح للعامة فهو دواء النفوس المريضة الضعيفة أما العقول القوية فغذاؤها الحكمة العميقة المستمدة من الفلسفة «[3] و هذا التأويل مصدره الإمام قائم القيامة و على الدعاة تبليغه للناس..

– مما سبق نستنتج أن حركة التشيع التي شهد العالم الإسلامي انتشارا واسعا لها ، لا حدود له، في عهد من العهود لم تكن في أساسها إلا صدى وانعكاس لتلك السياسات المغتصبة–في نظر الشيعة الباطنية– فهي مجرد احتجاج واستنكار لتلك الممارسات السياسية من قبل الخلافات المغتصبة للسلطة الشرعية من أهلها الحقيقيين الممثلين في "عليّ " وذريته.

و ما عاناه الشيعة من الظلم يشهد عليه التاريـــخ « و قد كان الشيعة على مر التاريخ أثقل المسلمين عناءا وأجهدهـــم بلاءا خلال العصـــور المظلمة إذ أن الخلفـــاء الأمويين و العباسيين كانوا ينظرون إليهـــم على أنهم حزب سياسي لا يعـــترف بحكوماتهم القائمة على أساس الملك والوراثة ولـــيست علـــى أساس الشورى والانتخـــاب ولهذا كانوا يتربصون بهم الدوائر ويتحينون

1– محمد كامل حسين ، طائفة الإسماعيلية ، ص 163

2– دي بور ، تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ص 156

3– إخوان الصفاء ، رسائل إخوان الصفاء ،ج4، 436

الفرص لإبادهـم والقضاء عليهم ويلتمسون أثرهم للفتك بهم حتى ادخلوا عليهم الرعب والفزع من كل جانب »[1] .

ومأساة الشيعة عموما والعلوية خصوصا معروفة مدونة أحداثها، تنفطر القلوب لذكرها الأمر الذي دفع بعض فرقها كفرقة الإسماعيلية الباطنية للتستر و التخفي، واحتجب أئمتها عن عيون الناس و حتى عن المقربين « والتاريخ يشهد كم لقي أهل البيت وشيعتهم من المحن والمصائب والخطوب والنوائب ما تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًا سَامَهم إياها أئمة الجور والفساد وآلوا الكبر والعناد من قتل وتعذيب و نفي وتشريد فألجؤوهم إلى المفاوز السحيقة و اضطروهم إلى الفجاج العميقة هربا من البطش و التنكيل وفرارا من سياسة التعسف والإرهاب »[2].

هذا الأذى و الضرر العظيمين الذين لحقا بالشيعة دفعهم إلى انتهاج سياسة التقية بمعنى اعتماد التخفي والتستر لتجنب البلاء وحماية مذهبهم . فيأمن بذلك الشيعي على نفسه أهله وماله فلا تتعرقل دعوته.. و استدلت الباطنية على وجوب اعتمادها مبدأ التقية بأحاديث وأخبار منقولة عن أئمتهم . كالحديث المروي عن الإمام أبي عبد الله الصادق – عليه السلام– أنه قال : التقية ديني ودين آبائي »[3] أيضا قوله في حديث آخر « من لا تقية له لا دين له »[4] وهي أحاديث مؤكدة في المذهب الجعفري وأغلب رواة أحاديثه من الشيعة.

وحتى لا يتشتت الأشياع بسبب اختفاء الإمام و تستره نتيجة اعتماده لمبدأ التقية ،قال الشيعة الباطنية بفكرة المهدي المنتظر و أحكمت تعاليمها السرية و نظمت قيادتها في انتظار ظهوره « وقد سمي المهدي لأنه يأتي بالهدى ودين الحق وشرع النبي الأكرم محمد ﷺ ليظهر على الدين كله وسمي المنتظر لأنه أهل الحق المستضعفين مازالوا ينتظرون خروجه حتى يجتمعوا على قيادته و ينضووا تحت لوائه و سمي القائم لأنه يقوم بالمهمة الكبرى التي أوكلها الله إليه وهي سيادة الحق وإزهاق الباطل وسمي الحجة لأنه يسود الإسلام وترتفع رايته وتعلوا كلمته ويكون الدين كله لله وتظهر حجته على عباده »[5] .

---

1 – عاطف سلام ، الوحدة العقائدية ، ص 276

2 – المرجع نفسه ص 277

3 – المرجع نفسه ص 271 ، نقلا عن الكافي ، باب التقية ، ج2، ص 219،أيضا محب الدين الخطيب ، الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية ص 55

4 – المرجع نفسه ص 271 ، أيضا محب الدين الخطيب ص 55

5 – المرجع نفسه ص 312

إذن ليصبر الأتباع ما دام النصر حتما قريب، بظهور الإمام ورجعته بعد غيبته ليملأ الأرض عدلا بعدما ملئت جورا وينصر شيعته المستضعفين فتزول شدتهم و يذهب عسرهم . وحينها فقط يتمكنون من الإفصاح عن آرائهم و تصوراتهم المختلفة دونما خوف أو تردد لا سيما نظرياتهم السياسية وموقفهم من عقيدة الإمامة .

إذ كان للشيعة الإسماعيلية الباطنية و هي إحدى أهم الفرق الشيعية على الساحة السياسية تصور مختلف لمسألة الإمامة، فقد أصبغت عليها صفة التقديس ومنحت للإمام سلطة مطلقة وهالة من التقديس ، فما دام لابد لكل عصر من إمام يدبر شؤون الأمة « واختيار هذا الإمام لا يوكل إلى الأفراد وإنما إلى ترتيب العناية الإلهية واصطفاء الله سبحانه وتعالى ، فالله لا يحرم عصرا من إمام يتولى قيادته وتوجيهه و إرشاده ، لأن الغاية من الهداية الإلهية و التشريع السماوي لا يتحقق دون إمام مختار و بطريقة إلهية » [1].

فسلطة الإمام إذن مطلقة ، وعليه كانت سلطة الإمام الحاكم لا محدودة عند هذه الفرقة باعتباره منصوصا عليه لا مختارا م ن الشعب، استحق منصب الإمامة عن جدارة واستحقاق لنسبه الشريف المقدس وصلته الوثيقة بالأنبياء والمرسلين. فهو معصوم و مطاع لا مجال لمخالفته أو خلعه أو حتى التمرد عليه فهو حاكم بأمر الله لذلك جعلت الإمامة ركنا من الأركان يضاف إلى الأركان الخمسة للإسلام .

هذا التصور الشيعي الباطني للإمام هو ما جعل الدراسات العديدة التي تناولت التشيع من زوايا مختلفة تؤكد على استناده على فلسفات غيبية ميتافيزيقية إضافة إلى حضور جانب كبير من الأسطورة فيه بسبب انضواء العنصر الفارسي و الهنود بدياناتهم و خرافاتهم تحته . يقول "جولد تسيهر" (**1850-1921**م) واصفا حال التشيع « أما التشيع فقد ذهب إلى الطرف المقابل و جعل مفهوم الإمامة يرتكز على عناصر سماوية مسبغا عليه من المعاني الماورائية ما يجعله وثيق الارتباط بمصير الأمة في الآخرة » [2].

من خلال عرضنا لحقيقة الإمامة الباطنية ،لا يسعنا إلا الاعتراف بقوة هذه العقيدة والدعوة الشيعية الباطنية التي كان لها صداها و تأثيرها على الفكر السياسي و الاجتماعي منذ ظهورها ونشأتها الأولى خاصة تلك الفروع و الفرق التي جسدت دعوتها .

1- محمد سعيد العشماوي ، جوهر الإسلام ، ص 65

2- أجناس جولد تسهير ، العقيدة والشريعة في الإسلام ، ص 210

حيث دافعت الفرق الإسماعيلية الباطنية عن تعاليمها و آرائها بقوة القلم و السلاح ونعني هنا بالحديث موقفها السياسي و الإمامة كركن أساسي تدور حوله كافة عقائدها و نظرياتها فما بذله أتباعها من أجل إعلاء و نشر تعاليم الأئمة الشيعيين سرا و جهرا خلال مراحل تطور التشيع الباطني و ما صاحب ذلك من جدالات مذهبية وفكرية وحروب وصراعات دموية و تصفيات جسدية للعلماء و المفكرين و خاصة للأئمة العلويين .

كل هذا كان له صدى عميق و واسع على انجازات الحركة الباطنية و إبداعاتها الفكرية التي امتد تأثرها في الفكر الإسلامي لعهود و « مما لا شك فيه أن الشيعة كانوا من أكبر المساهمين في انطلاق الحضارات بشتى صورها وألوانها و في جميع ميادين العلم و الفكر في طول الأحقاب »[1] فالشدة تولد الهمة و قد تدفع بصاحبها إلى الإبداع و التغيير.

و الدليل على ذلك ما خلفه المفكرون والشعراء المنسوبون إلى الشيعة أتباعا كانوا أو مجرد متعاطفين ، من كتب ومؤلفات غزيرة عدت تعبيرا خالدا عن مأساة آل البيت و انشغالاتهم وآمالهم و غزارة معارفهم وتنوعها باعتبارهم – ورثة علوم الأنبياء كما يدعون- و أشهر هذه المؤلفات رسائل "إخوان الصفاء" التي اعتبرت موسوعات معرفية عامة و شاملة، رسائل "الكرماني" و مؤلفات " نصر الدين الطوسي" وكتب ورسائل " الفارابي" وغيرهم كثيرون... رغم قلة ظهور تلك المؤلفات و غموض محتواها..بسبب الحذر الذي انتهجته الشيعة الباطنية في مسيرتها من السرية و طابع التقية و الكتمان ، و أساليب التأويل و اعتماد الرموز.

فلــم يسهل الأمر على الباحثين في الــفرق الإطلاع عن كتب عن طبيعة هذه الفرق الشيعية إلا في الــقرون الأخيرة حيث بدأت تظهر بعض المؤلفات الإسماعيلية المستورة و المختفية بين بلاد الهند و الفـــرس.. وكانت هذه المؤلفات متنوعـــة المضامين تذكر الأئمة و تأويلاتهم للشريعة ودور الأنبياء و علومهم ، مستخدمة الأعداد و الحـــروف مستدلة بالأفلاك و أدوار الكواكب والنجوم .. و يصف المفكر "عبد الله نعمة " في كتابه " فلاسفة الشيعة" غزارة التآليف الشيعية في مجال الإمامة قائــلا « أما موضوع الإمـــامة فقد كثرت فيه مؤلفاتهم كثرة هـــائلة منذ عصور الإسلام الأولى حتى عصـــرنا هذا »[2].

لكـــن رغم هذا الثراء الفكـــري و الفلسفي الذي خلّفـــه الشيعة الباطنية علـــى مر الأزمان والـــذي مازالت تكافح لنشره حتى هذا القـــرن و إلى اليوم .. إلا أنه لنا عليهـــم مآخذ كثيـــرة فلا

---

1 – عبد الله نعمة ، فلاسفة الشيعة ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت لبنان ، [د ط] ، 1930، ص 30

2 – المرجع نفسه ص 53

نكاد نطلع على فكرة أو عقيدة من عقائدهم إلا و انتابنا شك و خوف عظيمان على الإسلام ووحدته وما ذلك إلا لكون الفكـــر الشيعي في كثير من جوانبه امتزج بفكر دخيل عن ديننا الإسلامي الحنيف و تعاليمه السامية .

فالفكـــر الشرقي و الديانات الـــقديمة التي طالما انتشرت في آسيا .. اصطبغ بها الفكـــر الشيعي و نافست العقيدة الإسلاميـــة في قلب المؤمنين و المعتنقين .. هذا ما يفسر الانتشار الواسع للتيار الشيعي في هذه الأوساط و كثرة الموالين لآل البيت و المتعاطفين معهم من الفرس.

الفرقة الإسماعيلية الباطنية خير مثال يبرز لنا بجلاء دخول عدد كبير من الفرس في أتباع الحركة بل احتل هؤلاء الفرس الصدارة في تمثيل الحركة و التصدي للأعداء و لا ننسى ما اشتهروا به من غزارة العلم و المعرفة و الاشتغال بالفلسفة اليونانية ووضع الكتب التي تحاكيهـــا إلى الحد الذي أرجع فيه بعض الـــباحثون الفلسفة الإسلامية إلى أصول فارسية أكثر منها عربية إذ « ما لبثت الإسماعيلية أن خاضت الفلسفة الغنوصية كاملة فيها من فيثاغورية محدثة وأفلاطونية محدثة مختلطة بغنوص المذاهب الفارسية أخذة من كل مصدر«[1].

و أخـــذ هذا الفكر الشيعي الباطني يمزج التعاليـــم الإسلامية بغيرها ،تارة يحرف ، و تارة يؤول و أخرى يبدع .. حتى بلغ الأمر حد تشويه الشريعة وذلك كله تسترا و احتجاجا بنصرة أهل بيت رسول الله من ذرية علي وفاطمة و « نرى حركات الفرس و الشيعة ومحاولاتهم احتمت بآل البيت لهدم الإسلام من الداخل وذلك عن طريق تقويض عقيدته الدينية «[2] هذا الأمر بارز في تعاليم الشيعة و تأويلاتهم المغرقة في الإلحاد و الزندقة .

فبان لفقهاء الأمة الإسلامية تعاظم خطر الفرق الشيعية لا سيما الفرق الباطنية التي تظهر عكس ما تبطن و تتستر لتحقيق أهدافها و غاياتها دون تعرضها للخطر و قد حكى الفقيه بن حزم حيلهم و مكرهم هذا في قوله « رأوا أن الكيد للمسلمين على الحيلة أنجح فأظهر قوم منهم الإسلام و استمالوا أهل التشيع بإظهار محبة آل بيت الرسول ﷺ مع استبشاع ظلم علي ابن أبي طالب و سلكوا بهم مسالك مختلفة حتى أخرجوهم عن الإسلام «[3] .

والـــملاحـــظ أن الباطنيـــة عمـــدت إلى التأويـــل فحرفت معـــاني الآيات و استبدلت فيها مـــا استبدلت « حـــكى بعض العلمـــاء أن عبيد الله الشيعـــي المسمى بالمهـــدي حين ملك إفريقية

---

1 – علي سامي النشار ، المرجع السابق ، ص 384

2 – محمد أمين بدوي ، الشيعة و نشاطهم السياسي ، ص 23

3 – المرجع نفسه ، ص 22، 23، نقلا عن :ابن حزم ، الفصل في الملل و النحل ، ص 91

واستـــولى عليه كـــان له صاحبان من كتامـــة ينتصر بهما على أمـــره و كان أحدهما يسمى بنصر الله و الأخـــر بالفتح ، فكان يقول لهما أنتما اللذان ذكركما الله في كتابه

فقال ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ [1] قالوا و قد كان عمل ذلك في آيات من كتاب الله تعـــالى فبدل قوله ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2] بقـــوله «كتامة خير أمة أخرجت للناس» ومن كان في عقله لا يقول مثل هـــذا لأن المتسميين بنصر الله و الفتح المذكورين إنمـــا وجدا بعد مئين من السنيين من وفاة الرسول ﷺ » [3].

فالباطنية الإسماعيلية هي أشهر الفرق الشيعية التي حاولت تحريف القرآن و تقويض تعاليمه لتُحل محله عبادة النار كونها تقول بإلهين النور والظلمة .. بشكل خفي مما جعلها عرضه لانتقادات أهل السنـــة والجماعة الدين ثاروا على عقائدها . إذ رأى كثير من علماء الأمة أن الباطنية تسترت بالإسلام وبمحبة آل بيت رسول الله وهي تخفي كرهًا و عداءا لهم لغاية خططت لها بدقة و عناية أو كما يقال " لحاجة في نفس يعقوب " .

و بسبب آراء الباطنية الغريبة عن الإسلام استنكرهم جمهور الأمة الإسلامية و فقهائها ورأوا فيها خطرا متعاظما يهدد الإسلام والمسلمين ويكيد لهم العداء .فصنف فيهم "الغزالي" كتابا يكشف به بطلان آرائهم وكذا بن تيمية وقبلهما فقهاء كثر وبعدهم مفكرون شتى .

وهاهو "البغدادي" يحاول فضح حقيقتهم البشعة المخفية عن الخلق في قوله « اعلموا أسعدكم الله أن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود و النصارى والمجـــوس عليهم.بل أعظـــم من مضرة الدهـــرية و سائر أصناف الكفرة عليهم بل أعظـــم من ضرر الدجال الذي يظهر في آخر الزمان » [4] و لما علـــم المسلمون من حقيقة حالهم ما تخوفوا به على دينهم عادوهم و وصفوهـــم على « أنهم دهريه زنادقة يقولـــون بقدم العالم و ينكـــرون الـــرسل والشرائع كلها لميلهم إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع» [5].

فإضافـــة إلى بدعهـــم و مـــا جاؤوا به من خزعبلات و إنكار للمعاد .. فقد بلغ بهم الحد أن تأولـــوا على الملائكـــة تأويـــلات لإنكـــار وجودها « و ينكرون نزول الملائكة من السماء بالوحي

---

1 – سورة النصر آية 01

2 – سورة آل عمران آية 110

3 – الشاطبي ، الموافقات في أصول الأحكام ،المجلد الثاني ،ج3، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع [د ط] ، [د ت] ص234

4 – عبد القاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص 250

5 – المرجع نفسه ص 260

و الأمر و النهي بل ينكرون أن يكون في السماء ملك و إنما يتأولون الملائكة على دعاهم إلى بدعتهم و يتأولون الشياطين على مخالفيهم والأبالسة على مخالفيهم « هذه بعض من معتقداهم التي أثارت سخط مفكـــري الإسلام فانهالت انتقاداتهم عليها بدافع الحرص على ما جـــاء به الإسلام من شريعة خيف أن تدنسها أباطـــيل الباطنية .

وما يزيد الأمر سوءا هو التأويلات الباطنية لأركان الشريعة و العبث بأحكامها فهي سر من أسرارهم وجزء من خفايا مذهبهم عمدوا من وراء تأويلاهم التي أقحموها في أذهان العوام لغرض الإتباع إلى تحريف الشريعة مدعين أنها دنست بالجهالات وبدلت أحكامها من طرف الملوك المغتصبين للخلافة و أوجبوا العمل بالباطن لبلوغ الحقيقة وترك الظاهر لأنه زيف « فمن صار إلى تأويله الباطن فهو من الملائكة البررة ومن عمل بالظاهر فهو من الشياطين الكفرة«[1].

فظهر لكل من اطلع على تأويلات الباطنية أنها وسيلة للفتك بقيم الدين السامية من خلال رفع العبادات عن الأشياع وتأويل النصوص لإباحة المحرمات .. و غيرها من الأباطيل التي انجر عنها التأويل الباطني و التي أساءت للدين و أحكامه التي أدخلها مبتدعة تحت تأثير نزعاهم وديانتهم القديمة المتسترة بالإسلام « ثم إن الباطنية لما تأولت أصول الدين على الشرك احتالت أيضا لتأويل أحكام الشريعة على وجوه تؤدي إلى رفع الشريعة أو إلى مثل أحكام المجوس والذي يدل على أن هذا مرادهم بتأويل الشريعة أنهم قد أباحوا لأتباعهم نكاح البنات والأخوات و أباحوا شرب الخمر و جميع اللذات «[2].

فكان هنالك انتقادات كثيرة للشيعة عموما و الباطنية التعليمية خصوصا ، سواء من قبل حجة الإسلام الغزالي أو من قبل غيره السابقين له أو اللاحقين به و ارتكزت جل انتقاداهم على دعواهم في النص على الإمامة و حكمها و توارثها.

علـــى سبيل الذكر لا الحصر انتقد رائد المعتزلة "عبد الجـــبار المعتزلي" مسألـــة النص على الإمـــامة كما أنه يبطل وجوبـــها العقلي لقوله « ثم إن العلـــم بالحاجة إلى الإمـــام لا يجوز أن يكون عقليا بل إنمـــا نعلمه شرعا «[3] . و عليه يبطل رأي "الإماميـــة" و فرقها ويهدم دعواهـــم

1– عبد القاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ص261

2 – المرجع نفسه ص 253 ، 254

3 – عبد الجبار المعتزلي ، شرح الأصول الخمسة ،ج2، ص 387

القائلة بالوجوب العقلي للإمامة « و الذي يدل على فساد مقالاتهم هو أنه لو كان العلم بوجوب وجود الإمام عقليا لكان لابد من ان يكون الحاجة إلى الإمام في العقليات ومعلوم أن الإمام إنما يحتاج إليه لتنفيذ الأحكام الشرعية فكيف يصح أن تعلم الحاجة إليه عقلا »[1].

فظهر أن المعتزلة تنفي النص عـــلى الإمامـــة و تثبت كسائر علماء الأمـــة قيام الإمامة بالاختيار و بطـــلان النص و هذا تبريرها لذلك الأمر يرد على لسان المعتـــزلي « قالوا: طريق الإمامة بالاتفاق إما العقد والاختيار أو النص و قد بطل النص فلم يبقى إلا العقد والاختيار»[2] و بناءا على هذا يبطل ما تدعيه الإمامية في مسألة النص على الإمامة وهذا تماشيا مع رأي فرقت المعتزلة التي يمثلها إذ « قالوا الذي يدل على أنه لا نص هو أنه لو كان كذلك لكان لا يخلو إما أن يكون نصا جليا أو خفـــيا »[3] لكن لم يرد حسب المعتزلي لا هذا و لا ذاك فهذا الأمر غير قائم و لا دليل عليـــه .

فالإمامة لم تكن بالنص بل هي اختيار وتعاقد واتفاق بين أفراد الأمة على من يصلح للقيام بأمور دينهم ودنـــياهم ويؤكـــد الباجي ذلك أيضا حين يذكرنا بإمامة أبي بكر وبيعته « ذلك أنهم أجمعوا على إمامة أبي بكر بالرأي لقيام الدليـــل على بطلان القول بالنص على رجل بعينه وإنما ورد النص على أنها في قريش ولذلك قال" أبو بكر" للأنصار: بايعوا أحد هذين الرجلين إما عمر بن الخطاب أو أبو بكـــر و لو كان منصوص عليه لم يقل ذلك »[4].

فكل ما قام به الشيعة الباطنية لتأكيد إمامة حكامهم من العلويين أمر لا يؤكده واقع و لا يقبله منطق لأن المعروف لدى سائر الخلق أن الرسول ﷺ لم يوصي بخليفة بعينه و لم يرد عنه نص بذلك و المسلمون عقب وفاته اجتمعوا حول اسم أبي بكر ليكون إماما لنيابة عنه واختاروه لأنه أقرب الصحابة للنبي و هو من قريش التي اشترط النبي أن يكون الأئمة منها .

لكن الشيعة الباطنية أنكـــرت فضل " أبي بكر" و كثير من الصحابة لأنهم لم يبايعوا "علي" وأساءت إليهم ، حتى سمي بعض الشيعة روا فض ا لرفضهم إمامة الصحابة الكرام أبا بكر وعمر وعثمـــان . حيث عدّوهم مغتصبين لحق علي وآل بيته في خـــلافة قريبهم رسول الله ﷺوهم أحق بإرثه وفي سبيل ذلك وضعوا الأحاديث الملفقة المروية عن كبار أئمتهـــم وعلماء شيعتهم في مدح "علي " وآله وذم غيره من الخلفاء .

---

1 – عبد الجبار المعتزلي ، شرح الأصول الخمسة ،ج2 ، ص 388
2 – المرجع نفسه ص 390
3 – المرجع نفسه ص 391
4 – عبد المجيد تركي ، مناظرات في أصول الشريعة الإسلامية بين بن حزم و الباجي ، ص 284

رغم أن السنة حافلة بأخبار وأحاديث تبشر هؤلاء الجمع من الصحابة بالجنة ، و تشيد بأعمالهم وخصالهم كما ورد في الحديث المشهور عن الرسول ﷺ والذي يرويه انس ابن مالك عن النبي ﷺ حين صعد جبل أُحد ومعه كل من أبو بكر وعمر وعثمان فرجف الجبل وحينها قال ﷺ : « أسكن أًحد – أظنه ضربه برجله- فليس عليك إلا نبي وصدّيق وشهيدان »[1] و هذا الحديث هو من أبرز ما قيل للدلالة على فضل أولئك الصحابة الكرام .

كــما ورد في أبي بكر الكثير من الإطراء والمدح فهو من أوائل من صدقه وحمــاه وهاجر معه فعن أبي سعد الخذري – رضي الله عنه- ان الرسول ﷺ قال : « إن من أمنِّ الناس عليــَا في صحبته وماله أبا بــكر ، ولو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الإسلام ومــودته لا يبقينَّ في المسجد باب إلا سدَّ ، إلا باب أبي بكر »[2] . و في رواية أخرى عن ابن عباس – رضــي الله عنه- أن النبي ﷺ قال : « لــو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر ولكن أخي وصــاحبي »[3]

و الملاحظ أن الشيعة الباطنية أقدمت على تزييف الأحاديث لنصرة مذهبها و قام بعض دعاها بتأليف أحاديث ينسبونها إما إلى النبي الكريم أو إلى كبار أئمتهم كالإمام "علي" أو "الصادق " ليثبت بها آراءهم ، و هذا ما عرف في الشرع بالوضع في الحديث .

*** الوضع في الحديث لنصرة آل البيت وإثبات الإمامة لعلي وذريته**

إن المغالاة في نصرة آل البيت النبوي وتفضيل علي وآله عن غيره، تسببت في مشكلة كبيرة في الفقه والحديث زعزعت الثقة بكثير من جوانب السنة وهذه المشكلة هي مشكلة الوضع في الحديث بمعنى الكذب علــى النبي ﷺ ونسب أحاديث وأخبار إليه تفيدهم في مسألة الإمامة، ونصــرة عترهم من آل البيت ، إذ يرجع أغلب الباحثين والعلماء ظهور هذه المشكلة -أي الوضع في الحديث- إلى الشيعة وأباطيلهم .

و من أشهــر الأحاديث التي وضعوها واشتهــروا بها ما يورده " محمــد محدة " في كتابه "مختصــر علــم أصول الفقه الإسلامي " من أحاديث باطلــة منسوبة إلى النبي منهــا " أن رسول الله ﷺ قال « خلقت أنا و عــلي من نور ، وكنا عن يمين العــرش قبل أن يخلــق آدم بألفي عام ثم خلــق الله آدم فانقلبنا في أصــلاب الــرجال ثم جعلنا في صلب عبد المطلب ثم شق إسمــانا من

---

1 – البخاري ، صحيح البخاري ، ج3، حديث رقم 3699 ، ص 16

2 – المرجع نفسه ، حديث رقم 3654 ، ص 5

3 – المرجع نفسه ، حديث رقم 3656 ، ص 5

اسمه ، فالله محمـــود، وأنا محمد والله الأعلى وعليُ علي [1]« كما وضعوا حديثا أخر في مدح "علي " و بيان مترلته مروي عن النـــبي أنه قال « صلى عليَّ الملائكة وعلى"علي بن أبي طالب" سبع سنين و لم يصعد أول م ترفع شهـــادة أن لا إله إلا الله من الأرض إلى السماء إلا مني و من علي بن أبي طالب «[2] ليظهر هذا الحديث فضل"علي" على غيره من الصحـــابة.

و حتى حديـــث " غدير خم " زيد فيه و هناك أحاديث أخر .. لا تحـــصى و أغلبها محرف من قبـــل متآمرين على الإسلام و وحدته أغلبها من وضع الروافض « و فرقـــة الرافضة كانت أســـرع الفرق إلى الوضع وأكثرها حتى أنهم ركبوا الصعب و الذلول كما قال بن عباس من أجل تحقيق ما يريدون «[3] .

و الأسبـــاب كثيرة هي تلك التي قادت إلى مثل هذه الظاهرة- الوضع في الحديث —منها نصرة مذهب دون أخر و تغليب رأي أو تهديم غيره .. بدافع التعصب و المغـــالاة . من ناحية أخرى كان الطمـــع في الجاه أو المال أو السلطة وحتى التقرب من الحكام إرضاءا لشهوتهـــم في الملك .. باعثا للوضع في الحديث . فبيعت ضمائـــر كثير من العلمـــاء و رواة الحديث في سبيل حفنة من المال و قليل من الدنيا .

و تمكنت الباطنية بطريقة ما أو بأخرى من وضع أحاديث تنصر بها رأيها في الإمامة و ترفع بها شأن أل البيت العلويين كأحاديث النص على الإمامة وتوارثها و العصمة ....الأمر الذي زاد من سخط فقهاء الأمة السنيين و تحاملهم عليها.

و ها هو شيخ الإسلام "بن تيمية" يضرب بدعـــواهم في النص على الإمام المعصوم عرض الحائط خاصة ما تدعيه الإمـــامية من قيام النص الصريح من النبي ﷺ على الإمام على - كرم الله وجه - لذا يقول بن تيمية في منهاج السنة « و النبي ﷺ قد أخبر أمته بما سيكون و ما يقـــع بعده من التفرق فإذا نص لأمته على إمامـــة شخص يعلم أنهم لا يولـــونه بل يعـــدلون عنه ويولون غيره ، ويحصـــل لهم بولايته مقاصد الولاية و انه إذا أفضت النوبة إلى المنصوص حصل من سفك دماء الأمة ما لم يحصل قبل ذلك ، و لم يحصـــل من مقاصد الولاية ما حصل لغير المنصوص كان الواجب العـــدول عن المنصوص «[4] .

---

1 – لا أثر له ، موضوع

2 – موضوع ، ذكره :محمد محدة ، مختصر علم أصول الفـــقه الإسلامي ، ص67 ، نقلا عن ابن الجوزي، الموضوعـــات ، ج1 ، ص 340 ، 341

3 – المرجع نفسه ، ص 72 ، نقلا عن جواد مغنية ، معالم الفلسفة الإسلامية ، ص 161

4 – أحمد بن تيمية ، منهاج السنة ، ج1 ، ص 384

و بالرغم من انتقادات أهـــل السنة للشيعة الباطنية ، نجد أن للقول بالباطن ، أي وجود باطن وراء الظاهر، أثره العظيم عند عدة فـــرق و طوائف أخرى من غير الشيعة ، مثل المتصوفة يقول "هنري كوربان" « و لقد أعطت الفكرة الباطنية التي هي أساس التشيع و أصل بنيانه أعطت أكلها وأثمرت لدى الفلاسفة فالتبطن الصوفي يترع إلى عيش السر الأساسي لنطق القـــرآن و هذا العيش ليس بدعة من بدع الصوفية »[1].

رغم الهجوم الشديد و العنيف الذي يشنه مفكروا و علماء السنة على الشيعة منذ شرع أتباعها في التطرف والغلو إلا أنهم يميزون بين ما هو مغال منها و بين معتدل، و الغالب « أن الشيعة المعتدلين أو على حد قول أصحاب "التشيع المتوسط" الذي مضمونه تفضيل علي وتقديمه ، هم في تقديره خير من الغلاة كالإسماعيلية بكثير لأنهم مع فرط جهلهم و ضلالهـــم فهم خلق مسلمون باطنا و ظاهرا ليسوا زنادقة منافقين »[2] .

فآراء الزيدية في الإمامة والصحابة تجعلها قريبة من أهل السنة في بعض تصوراتها « إن الزيدية من الشيعة خير منهم واقرب إلى الصدق و العدل و العلم »[3].أما الطرف المغالي الذي يخرج عن دائرة الإسلام وتنهال عليه انتقادات السنيين و خاصة "الغزالي" هو فـــرقة الإسماعيلية الغلاة المتطرفة .

فكان "أبو حام د الغزالي" أشهر متصدّ للباطنية كاشفا لتلبيساتهم ،مدافعا عن الإسلام حاميا للعقيدة . لأنه انتقدهم في عقيدتهم ضاربا بتأويلاتهم عرض الحائط ، و أظهر عداءه لها في مؤلفاته العديدة التي ردّ فيها على تزيفاتهم و بدعهم ، أبرزها المستظهري المعروف ب: فضائح الباطنية،والقسطاس المستقيم والمنقذ من الضلال، و أوضح رأيه في مسألة الإمامة من خلال مؤلفه الاقتصاد في الاعتقاد،إضافة إلى ملفات أخرى غيرها..

و لم يكن " الغزالي" أول من رد على الشيعة و انتقدهم بل سبقه إلى ذلك كثير من الأشاعرة قبله كالقاضي أبو بكـــر الباقلاني (**338-403هـ**) الذي رد علـــى الإمامية الإثني عشرية و ثم توالت الانتقادات وكـــان جلها منصبا على توارث الإمـــامة و وجوبها بالنص لكـــن رد حجة الإسلام على هذه الفـــرقة الباطنية الإسماعيلي ة كان له صدى كبير لأنه كان مدعما من الخلافة العباسية القائمة واتخذ أبعاد هـــامة على صعيد العقيدة و الفكر انطلق من أساس التشيع الباطني ليهـــدم بنيانه و يدك أسس عقائـــده .

---

1 – هنري كوربان ، المرجع السابق ، ص 59

2 – عبد الفتاح أحمد فؤاد ، الفرق الإسلامية و أصولها الإيمانية ، ص 12

3 – أحمد بن تيمية ، منهاج السنة ، ج2 ، ص 287 ، 360

الفصــل الثالث

الإمامــة و تداعياتهــا العقــدية عنــد الغــزالي

المبحث الأول : الظروف التي دفعت الغزالي للخوض في مسألة الإمامة و الاهتمام بالسياسة

المبحث الثاني : تصور الغزالي السني الأشعري لمسألة الإمامة

المبحث الثالث: الإمامة و علاقتها بالنبوة عند الغزالي

المبحث الرابع : المنهج الشكّي النقدي و اعتماده لإبطال التأويل الباطني

يعد الإمـــام الفقيه " أبو حامد الغزالي" أحد أبرز فقهاء الأمة الإسلاميـــة السنيين الذين انضووا للدفاع عن العـــقيدة الإسلامية السمحاء و القيم الشرعية التي تضمنتها حفاظ منه على الدين الكريم و وحـــدة الأمة الإسلامية .لذلك اشتهـــر بانتقاداتـــه اللاذعة و ردوده الصـــاخبة على كل من سوّلت له نفسه المساس بالشريعة و أحكامهـــا ، داعيا إلى ضرورة الحفاظ على إيمان العوام من خـــلال العودة إلى سنة النبي الأكرم .فكـــان له من الآراء والمواقف ما خلّده له تاريخ الفكر، راسما بها معـــالم مذهبه، شاقا من خلالها طريق المجد و الشهـــرة بخوضه المستمر في دروب العلم و المعرفة لإدراك الحقيقـــة و تحديد طـــرق بلوغهـــا.

ومـــن بين الفئات التي انتقدهـــا " أبو حامد الغزالي " و تخوف من خطرها المتعاظم على الشريعـــة " فرقة الباطنية التعليمية " فهـــو كغيره من علماء الأمـــة و فقهائها رأى في آرائها السياسة و لا سيما تصورها لمسألة الإمامة كعقيدة أساسية مرتبطـــة أشدّ الارتباط بالإيمان .. ضربا من الفساد والإخـــلال بما شرّعه الله و سنّه الرسول .. فردّ " الغـــزالي" على هذه الفرقة الباطنية الإسماعيلية في عـــدة مؤلفات أحصى فيها ألقابها و أرائها ثم عمد إلى إبطال مزاعمهـــا بالحجة القاطعة و البرهان الساطـــع .

و من خلال ردّ " الغزالي" علـــى "الباطنية" تبلورت آراؤه السياسيـــة و تحدد تصوره للمسألة الإمـــامة . فكـــأن موقفه من الآراء السياسية للباطنية التعليميـــة المغالية هو ما دفعه إلى الخوض في مجال السياسة ، و ساقه إلى تحديد موقفه من الإمامة و الممارسات السياسية لها. فظهـــر تصوره لمفهوم الإمـــامة و حكمها و شروطها و ما تبعها من غايات و مقاصد من خلال كتبه التي أفردها للـــرد على "الباطنيـــة " .

و إذا كنا قد أحطنا فيمـــا سبق بآراء فرقة " الباطنية" و موقفها من الإمامة فيجدر بنا في هذا المقام التطرق إلى الرأي المقابل لها الماثل في حجة الإسلام "الغزالي" لنكشف عن أهم نقاط الخلاف بينهما مبرزين في الوقت ذاته رأيه في مسألة الإمامة و حقيقة موقفه من "الباطنية".

- فما هو موقف الغزالي من الباطنية و لماذا ثار على آرائها السياسية في الإمامة ؟
- كيف كان تصور " أبي حامد الغزالي " للإمامة و حكمها ؟ وما الغاية من نصب الإمام ؟ - ترى ما هي الشروط التي بموجبها كان المتقدم للإمامة مستحقا نيل هذا المنصب ؟
- ما هو المنهج الذي اتبعه الغزالي لإثبات أرائه و دحض موقفه خصومه من الباطنية ؟
- ما الدافع الحقيقي الذي قاد الغزالي للخوض في مجال الممارسات السياسية و الرد على الباطنية ؟ و هل لموقفه السياسي من مسألة الإمامة و تداعياتها ما يبرره ؟

المبحث الأول : الظروف التي دفعت الغزالي للخوض في مسألة الإمامة و الاهتمام بالسياسة

المطلب الأول : الجو السياسي والفكري لعصر الغزالي

عاش الإمام " أبو حامد الغزالي" عصر تدهور سياسي و صراع مذهبي اتسمت به بيئته وانعكس على فكره و آرائه حيث « كان العالم الإسلامي تتقاسمه عدة دول مختلفة المذاهب فالدولة الفاطمية في مصر والشام والحسن ابن الصباح في فارس وقلعة آلموت في بلاد الديلم يثير الرعب بحركات الاغتيال التي عرفت بالحشاشين وكانت دولة المرابطين في شمال إفريقيا على وشك الانهيار و قد تداعت على المسلمين الأمـم الأجنبية، إذ استولى النصارى على طليطلة عام (**478هـ**) واستولى الصليبيون علـى القدس عام (**492 هـ**) » [1] .

و طال الانقسـام والصـراع السياسي بغداد وبلاد فارس موطن "الغزالي"فالخلاف على السلطة و مراكز الحكم كان ميزة انطبع بها ذلك العصر . فلم تكن دوله تقوم برهة من الزمن إلا و ترصد بها الخصوم المنازعون لها على الملك سواء من داخلها أو خارجها.

و قد حكمت دولة السلاجقة في عصر "الغزالي" وكانت موالية للخلافـة العباسية وهي تنصر المـذهب السني و تعمـل بمقتضاه بعد أن تغلبت علـى دولة " بني بويه" الشيعية التي دخلت معها في صراع وحروب من أجل الحكـم « كـان السلاجقة قد دخلوا بغداد عام (**447 هـ**) وأزالـوا دولة بني " بـويه" ولكـن " ألب أرسلان " قتل عـام (**465 هـ**) و خلفه ملكشاة (**465 – 485 هـ**) » [2].

و إلى جانب الانقسامـات الجغرافية للحضارة الإسلامية في عهـد بني العباس ظهرت تلك الحركـات المتمردة الهادفة إلى الإطـاحة والفتك بالدولة ونظام الحكم القائم فيها .. و يصف الفيومي ذلك الانقسـام و الاضطـراب قائلا « لقد قامت حركـات سياسية تبغي في صميمها أن توجه الضربات المتوالية في صميـم دولة الإسـلام ممـا يؤذن باستيـاء عام ، لأن مثـل تلك

---

1 - أحمد محمود صبحي ، في علم الكلام ، الأشاعرة ، ج2، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت لبنان ، ط5، 1985 ص 165

2 -المرجع نفسه ص 165

الضربات وجهت و الخلافة تعـــاني مرضا يهددها بالانقـــراض لأن أمـــر الخلافـــة غدا رمزا تقليديا وليس لهـــا من اسم إلا فوق المنابر كالسيف الخشبي الـــذي بيد الخطيب ، و ليس له من صفة السيوف إلا الرســـم » [1] .

وفي ظل هـــذا الصراع والجو السياسي المشحون نشأ وترعرع " الغزالي" علـــى أيدي مفكري وفقهـــاء عصره البارزين الذيـــن نهل عنهم العلم و المعرفة « وقد واكب هذا التدهور السياسي صراع فكـــري بين المذاهب و لكن أشدها استفحالا كـــانت طائفة الإسماعيلية » حيث كان صراع " الغزالي" مع هذه الطائفـــة وما اعتقدته من آراء ومذاهب شديدة مثل بشكل أو بآخر صورة من صراع السنيين مع الشيعة .

هكذا اتسعت دائرة الصراع بين المسلمين و اشتدت فمن الخلاف السياسي على الخلافة وإمامة المسلمين إلى الخلاف المذهبي والفكري العقائدي ليصبح لكل طرف متنازع مؤيدوه وأنصاره من العلماء و الفقهاء و حتى رواة الحديث الذين عصفت بهم فتنة الصراع وكان هذا شأن "الغزالي" « و انعكس الخلاف السياسي والصراع الفكري علـــى نفسية الغزالي فتمثلت في ذاته أزمة العصر ، وكـــان قد قرأ واستوعب تيارات عصره جميعا ملتمسا الحقيقة الدينية فيها » [2] فلم يكن يصعب معرفة ما يدور من خلافات في تلك الفترة و إدراك أسبابها.

و نتيجة لكـــل هذه الظروف تداعت وحدة الأمـــة الإسلامية و بدأت في التفكك تدريجيا بسبب الصراع الداخلـــي والخارجـــي و الضربات الموجهـــة من الداخل : الصراع على السلطة من فئات مختلفة و الضربات الموجهـــة من خارج الأمـــة المتمثلة في الغزو الصليبي « هذه الضربات التي تـــوالت علـــى العالم الإسلامي كفيلة بأن توقظ السياســـة والعلمـــاء فضلا عن أنها مقوية للنزاعـــات الدينيـــة » [3] .

هذه كـــانت أهم سمات العصر الذي نشأ و ترعرع فيه حجة الإسلام "الغزالي" الذي تأثر ببيئته و بدوامة الصراع بين التيارات و المذاهب المختلفة، فحاول من خلال كتبه نقدها و الرد على المغالين في الدين منها ، و قد أحصى فئات و طوائف شتى مما ساد في عصره ،ثم أبطل مزاعمها لاسيما فرقة الإسماعيلية الباطنية من الشيعة التي كانت آراؤها الخطيرة متفشية بين العوام و تحضى بترحيبهم..فكيف كان موقفه منها ؟ وما هي دوافعه و مبرراته للرد عليهم؟

1– محمد إبراهيم الفيومي ، الإمام الغزالي وعلاقة اليقين بالعقل ، دار الفكر العربي ، القاهرة مصر ، [د ط] ، [د ت] ص 94

2 - أحمد محمود صبحي ، علم الكلام ، ج2 ، الأشاعرة ، ص 165

3 - محمد إبراهيم الفيومي ، المرجع نفسه ، ص 95

المطلب الثاني : مغالاة الباطنية في تصورها للإمامة وموقف فقهاء الأمة وأهل السنة من عقيدتها وأرائها السيـــــاسيـــة

عمدت الإسماعيلية إلى القول بأفكار فارسية الأصل كالقول بالرجعة والمهدية وتقديس الملوك (الأئمة) فقد شابتها مسحة الديانة الشرقية لا سيما المجوسية « وإن لم تكن أقوال الإسماعيلية هي نفس أقوال المجوس أو الثنوية لكنها لم تخل من تأثيرها الواضح »[1].

و ما يذكره عنهم الدارسون يؤكـــد تأثرهم الواضح بالمجوس و الفرس و الديانات الشرقيـــة القديمة . و يظهـــر أن كثير من علمـــاء الأمة الإسلاميـــة حتى قبل "الغزالي" و بعده ، قد تفطنوا إلى ذلك الأمر و أدركـــوا خطر العقيدة الباطنية على الإسلام و المسلمين. يقول "البغدادي" «أنا لا نجد على ظهر الأرض مجوسيا إلا وهو مواد لهم منتظر لظهورهم على الديار يظنون أن الملك يعود إليهم بذلك وربما استدل أغمـــارهم علـــى ذلك بما يرويه المجوس عن "زرادشت " أنه قال "لكشتاسف " : إن الملك يزول عن الفرس إلى الروم واليونانية ثم يعود إلى الفرس ثم يزول عن الفرس إلى العرب ثم يعود إلى الفـــرس »[2].

فظهر من ذلك ميلهم إلى دين المجوس و عبادة النار، و إن أظهروا للناس عكس ذلك وذلك أيضا بسبب إيمانهم كما سبق الذكـــر بمبدأ التوارث الذي ساد عند الفـــرس حتى أن العلماء اختلفوا حول هـــذه الفـــرقة « فذهب أكثرهم إلى أن غرض الباطنية الدعوة إلى دين المجوس بالتأويلات التي يتأولـــون عليها القـــرآن والسنة »[3].

فلما كـــانت هذه هي حالهم قال عنهم « و الذي يصح عندي من دين الباطنية أنهم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم و ينـــكرون الرسل و الشرائع كلهـــا ، لميلها إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع »[4]. و في معنى كلامهم إشارة إلى تسترهم وراء حب على وآل بيته وإظهار لحقيقة ذلك المكر والخداع والتلبيس الذي احتالوا به على الناس .

فظهر خطرهم المتعاظم على العقيدة الإسلامية مما أثار سخ ط علماء الأمة عليهم واندفعوا إلى نقدهم و الرد على أباطيلهم ، إلى الحد الذي اعتبرهم فيه بعض علماء الأمة من الكفرة الملحدين بينما رأى علماء آخرون أنهم شر و بلاء عظيم ابتليت به الأمة.

---

1 - علي عبد الفتاح المغربي ، الفكر الديني الشرقي القديم ، ص 86

2 – عبد القاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص 254

3 - المرجع نفسه ص 259

4 - المرجع نفسه ص 260

و لم يكن " الغزالي" سوى واحد من هؤلاء الفقهـــاء الحريصين على حماية الشريعة ، الذين ثاروا على معتقدات الشيعة الباطنية . و سبقه إلى ذلك كثيرون قبله « فقد كان مذهب التعليم أو الباطنية أكثر المذاهب الذين شن الغـــزالي هجومه عليهم رغـــم استباق عدد من المفكرين الغزالي في نقد هؤلاء أمثال أبو عبد الله بن محمد بن عثمان الغساني القيرواني والباقلاني (403هـ) في كشف الأسرار وهتك الأستار وبن سعيد الأصطخري المعتزلي الذي رد على الباطنيـــة في كتاب أهداه إلى الخليفة القـــادر وغيرهم » [1].

مما يظهر بوضوح أن معتقدات الفرقة الباطنية و آرائها تعرضت للنقد من قبل "الغزالي" وغيره من المفكـــرين لكـــونها لا تتماشى مع ما هو متعارف عليه منذ حياة النبي الكريم واحتوت مغالاة ظاهرة و خاضت في مسائل لم يعتدها المسلمون كالنبوة و الإمامة و صفات الله والميعاد.. لهذا السبب وغيره ثارت ثائرة علماء الإسلام من أهل السنة عليهم و على بدعهم .

و يعد شيخ الإسلام " أحمد بن تيمية" أحد هؤلاء الذين اعتبروا الباطنية من مدعي النبوة والتأليه والتقديس.. ووصفهم بالكذب لأنهم يظهرون غير ما يبطنون حيث جاء في حديث له عن مدعي النبوة أن « من أظهر موافقة الأنبياء و هو في الباطن من المنافقين كالملا حد ة الباطنية الذين يظهـــرون الإسلام والتشيع ابتداءا ، ثم إنهم يستحلون الشرك والفواحش والظلـــم ويسقطون الصلاة والصيام وغير ذلك مما جاءت به الشريعـــة » فوصفهم بالمنافقين وذلك دال على اعتناقهم الإسلام تظاهرا لضربه وتفكيك وحدته « فمن أظهر خلاف ما أبطن وكان مطاعا في الناس فلا بد أن يظهر من باطنه ما يناقض ما أظهره » [2].

شيء آخر يتفق فيه جل العلماء مع الإمام " الغزالي" بخصوص الباطنية هو ما تدعيه من تفاضل بين الخلفاء الراشدين و أصحاب النبي ﷺ الأمر الذي أدى إلى وصفها بالكفر والزندقة فالشيعة ككل ترى في "علي" أفضل الصحابة و أقربهـــم للنبي و يقوم أتباعهـــا بسب وشتم كل من أبي بكر وعمر – رضي الله عنهم جميعا – « و الذين يسبون أبا بكر وعمر – رضي الله عنهما – فيهم تزندق كالإسماعيلية والنصيرتي فهؤلاء يستحقون القتل بالاتفاق » [3] .

---

1 - عبد الله محمد الفلاحي ، نقد العقل بين الغزالي و كانط ، المؤسسة الجامعية للدراسات و الطباعة و النشر، ط1 2003 ، ص 121

2 – أحمد بن تيمية ، النبوات ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، [د ط] ، 2005 ، ص 124

3 – المرجع نفسه ، ص 143

و الملاحظ أن أتباع الإسماعيلية الباطنية قد تأثروا كثيرا بما ساد في بيئتهم الفارسية من تعدد للديانات و احتكاك بالفلسفة اليونانية . حتى أنهم مزجوا بين الإسلام و الديانات الشرقية القديمة ، بل إن « الإسماعيلية قد أخذت مادتها من الفلسفة اليونانية وأفلاطون وأرسطو وعناصر مسيحية ويهودية ومجوسية »[1] لذا أجمع أغلب علماء الأمة على تكفيرهم و زندقتهم فهم ملا حد ة بالدين الإسلامي و أرادوا تغليب دياناتهم القديمة عليه .

المطلب الثالث : رد الغزالي على الباطنية التعليمية و إبطال مزاعمهم في الإمامة

"الغزالي" كمفكر أشعري سني المذهب حاول جاهدا الدفاع عن عقيدة أهل السنة والجماعة ضد المبتدعة والمتطرفين عنها، وكان يرى في ظهور الإسماعيلية و عقيدتها المغالي ة من تقديس للإمام و إفراط في تأويل الشريعة والكذب على النبي ﷺ بما وضعته من الأحاديث.. كل ذلك كان يرى فيه خطرا متعاظما على الإسلام والعقيدة ، اشتدت معه مخاوفه منها على وحدة الأمة لا سيما وخطر الإسماعيلية الباطنية يتربص بالخلافة التي هي ظل الله في أرضه.

فاتخذ منها موقفا نقديا عدائيا و سانده " الخليفة المستظهري " و كثير من علماء عصره مما زاد في قوة عزيمته و اتجه للرد عليهم و إبطال تلبيساتهم و يمكن أن نحصي الأسباب والدوافع التي قادت "حجة الإسلام" إلى الرد على فرقة الباطنية فيما يلي .

أولا : أسباب و دوافع الرد على الباطنية

تعددت هي الدوافع و الأسباب التي جعلت "الغزالي" ينتقد آراء الباطنية و يرد عليها ونميز فيها بين دوافع هامة :

- أولها : كان ذاتيا تمثل في كرهه لما تدعيه هذه الفرقة الإسماعيلية من الشيعة الباطنية من آراء ومعتقدات خاف منها على إيمان العوام وعلى وحدة الإسلام خاصة وأنه « شاع بين الناس تحدث هذه الطائفة بمعرفة الأمور من جهة الإمام المعصوم »[2] و كونه أشعريا سنيا يدافع عن عقيدة الجماعة ضد الباطنية التعليمية الفرقة المغالية وهذا بعد ديني أيضا.

- و الثـــاني : كان دافع سياسيا « يظهـــر لنا أن الغزالي لم يكـــن مدفوعا إلى الرد على مذهب التعليـــم من تلقاء نفسه فقد كـــان هناك دافع سياسي»[3] تمثل في ذلك التكليف الوارد عليه مـــن

---

1 – علي سامي النشار ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ص 299

2 – المصدر نفسه ص 48

3– لطفي جمعة ، تاريخ فلاسفة الإسلام ،[د ط] ، [د ت] ، ص 77

الخـــليفة العباسي " المستظهر بالله "(توفي512هــ) الذي ألح عليه كــي يؤلف كتابا في الرد عليهم يبرز للخلق أجمعين تلبيساتهم وحيلهم .. يظهر ذلك مما يحكي عن نفسه في "المنقذ من الضلال" لقوله « ثم اتفـــق أن ورد علي أمر جازم من حضرة الخلافة بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهـــم فلم يسعني مدافعته وصار ذلك مستحثا من خارج ضميمة للباعث الأصلي من الباطن » [1] . فـــرد " الغزالي " على فرقة الإسماعيلية الباطنية كان مؤيدا من الخلافة العباسية القائمة التي رأت في انتشـــار مذهب الباطنية و تعاليمهـــم عدوا يحاول زعزعة كيان حكومتهم والإطاحة بخلافتهـــم السنية القائمة .

فقد كان خطر الباطنية على الصعيد الفكري والسياسي متزايدا مما جعل منها حركة إرهابية هدامة في عهد الخلافة العباسية ، بالنظر لما قام به أفرادها من قتل واختطاف للساسة والعلماء . فلما تفطنت الخلافة السلجوقية بزعامة الوزير "نظام الملك" لخطر الإسماعيلية الباطنية حاولت مواجهتها بسلاح القلم و الفكر إضافة إلى قوة السلاح والسياسة من خلال إنشاء المعاهد وتشجيع العلماء للرد عليهم و إبطال بدعهم و عقائدهم الشاذة .

و من أهـــم تلك المعاهد و دور العلم التي ظهرت على يد الخلافـــة السلجوقية هي نظامية بغداد « وكـــانت المدرسة النظامية في بغداد التي أنشأها نظام الملك وسميت باسمه والمدارس المشابهة مراكز لدراسة المذهب السني الذي يعتمد على الرواية والحديث . وكانت الدراسة تهدف إلى الرد على بدع الإسماعيلية و الحركـــات الثورية » [2] و اتجه إلى هذه النظامية العلمـــاء و طلبة العلم من شتى البقـــاع بغية التزود بالعلم و التعرف على العلوم الشرعية كما نقلت عن النبي و اتفق عليهـــا جمهـــور الصحـــابة.

فكـــان " الغزالي" واحد من هؤلاء الذين ضمتهم النظامية و عمل بها مدرسا لفترة من الزمن ناشرا للمذهب السني و مدافعا عن رأي الجماعة . فأتاح له ذلك فرصة التصدي لبدع الإسماعيلية الباطنية ضمن علماء النظامية لا سيمـــا بعدما شرعت هذه الفرقة في إغواء العوام والعلماء لإتباع عقيدتها ، و ما صاحب ذلك من قتل لكل معارض لها بدءا من رجال الدين والعلماء حتى طال ذلك الحكام والساسة مما عرض الدولة للانقسامات و أضعف كاهلها.

و سبب ثالث : أثر في نفسية " الـــغزالي" و زاد من تحمسه للرد على هؤلاء المبتدعة تمثل في سخطه عليهم بسبب قتلهم العلماء و المفكـــرين الذين اقتدى بهم . و لا سيما قتلهم للوزير "نظـــام

---

1 – أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، [د ط] ، 1997 ص 48

2 – عبد المحسن عاطف سلام ، حيوات العرب ، ص 586

الملك" *السلجوقـــي الذي يكِنُّ له "الغزالي" الحب والتقدير الكبيرين . و حسب "بروكلمان " هذا الدافـــع العاطفي هـــو القطرة التي أفاضت الكأس لّما قال « حتى إذا قتل وليه ونصيـــره نظام الملك بخنجر أحد الإسماعيلية المتعصبين ، عكف على دراسة العقائد الإسماعيلية ليكتب بعدها عددا من المباحث الجدلية في نقدها و تفنيدها » [1].

فلـــم ينس " الغزالي" فضل هذا الصديق الذي عاش في كنفه ورعاه وجعله قائما على التدريس بنظاميته في بغداد التي تشهد على مناقبه إذ « في ظل نظام الملك نعمت فارس والعراق من جديد بفترة من الرخاء إلى حد ما و إن يكن الوزير أو الأتابك – كما يدعى بوصفه وصيا على السلطان (ملكشاه) – مدينا بشهـــرته في المحل الأول لما أسبغه من عطف على الفقهاء والعلماء وما ضمنه لهم من موارد بإنشاء المدارس في جميع المدن الرئيسية في الإمبراطورية » [2]. إذ عكف "نظام الملك" السلجوقي علـــى نشر العلم وتشجيع العلماء وإقامة مجالس يتنافس فيها المتنافسون من طلبة العلم مما جعله محبوبا لـــدى رعيتـــه.

فهذا الوزير أيد مذهب"الغزالي" الأشعري بمعنى ناصر تيا ر السنة وعارض من خلاله التيار الشيعي المغالي و سخر في سبيل ذلك ثلة من العلماء من أبرزهم صديقه " الغزالي" . فسخط عليه هؤلاء القوم من الشيعة الباطنية وقتلوه هو ثم ابنه من بعده ، كان هذا مصيره ومصير غيره أيضا ممن عارض مذهبهم حيث « اغتال الإسماعليون عددا من السياسيين المسلمين وعددا من كبار القواد منهم نظام الملك (**1092**م) و أشاعوا الرعب في بقاع كثيرة » [3].

و إذا كـــانت أسباب و مبررات "الغزالي" للرد على الباطنـــية قد تعددت و اختلفت بين الذاتي و السياسي .. فإن أسلوبه في دحض دعواهم كان واحدا بل منظما و محكما حرص فيه على إظهار مدى فساد عقيدة الباطنية ليقرر من بعد ذلك ضرورة إبطالها و تركها.

ثانيا : أسلوبه و طريقته في الرد على الآراء السياسية للباطنية

أمـــام هذه المخاوف السياسية من تفـــاقم خطر اللإسماعيلية الباطنية من قتل وتقتيل وتحريف لم يجـــد " الغزالي" بدا من الـــرد عليهم والكشف عن نواياهـــم السيئة اتجاه العالم الإسلامي محفوفا

* السلاجقة :بنو سلجوق سلالة تركية حكمت في أفغانستان وإيران والأناضول وسوريا والعراق والجزيرة العربية..ما بين (**1038-1157**م)

1 – كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص **275**

2 – المرجع نفسه ص **274**

3 – عبد المحسن عاطف سلام ، حيوات العرب ، ص **586**

بتأييد الخليفة العباسي ونصرة الحكومـــة السلجوقية المناوئة للشيعة متأثرا بموت صديقه و نصيره الوزير" نظـــام الملك" « فألف في الرد عليهم التآليف أهمها كتابه المستظهري الذي حمل عنوان الخليفة العباسي الذي كلفه بالرد عليهم وتأييد إمامته للمسلمين ونصرة خلافته كذلك حجة الحق ومفصل الخلاف وكتاب الدرج المرقوم بالجداول والقسطاس المستقيم »[1] وفي هـــذه الكتب انتقد " الغزالي" الإسماعيلية الباطنية وأبرز كثيرا من تلبيساهم و تلفيقاته م وحاول إبطال وإفساد ما يعتقدونه من القول بالإمام المعصوم ووجوب التعلم عنه والتأويل.

فكانت آراؤهم شائعة بين الناس مما سهل على الإمام "الغزالي" الإطلاع عليها وجمع مقالاهم و« أخذ يدرس مبادئ الطائفة التعليمية فابتدأ بطلب كتبهم كما فعل في كتب الفلسفة وترتيب كلامهم ورتبه ترتيبا محكما مقارنا للتحقيق واستوفى الجواب عنه حتى أنكر بعض أهل زمانه من العلماء عليه مبالغته في تقرير حججهم » ومقالات الشيعة الباطنية كانت منتشرة بين الناس فلم يصعب على "الغزالي" الحصول عليها والإطلاع على محتوياها .

وحين انتهى منها لم يجد في تعاليمهم ما يشفي غليله بل أغلبها متأثرين فيها بمعتقدات شرقية قديمة وبالفلسفة « إذ الظاهر من مذهب التعليمية أنه مزيج من السياسة والشريعة والسياسة فيه أظهر وقليل من الفلسفة اتخذه أربابه ترويجا لمذهبهم ليصبغوه بصبغة الحكمة فاقتدوا ببعض أقوال فيثاغورث فلم يكن هذا البحث يخلوا من رائحة الفلسفة»[2].

أكثر من ذلك كله وجد أهم يرددون نفس الكلام عن إمامهم المعصوم الغائب الواجب الطاعة فما يقولون به لا برهان عليه سوى ما وضعوه من الأحاديث المروية عن أئمتهم . حتى ضاق بهم علماء الدين و ببدعهم ، و نشبت معارك نقاشيـــة بين الفريقين . ومما يزيد من تحامل "الغزالي" على "الباطنية" هو إضافة إلى قولهم بالنص على الإمامة فقد عمدوا إلى تأويل النصوص الدينية لجلب الأتباع وتأكـــيد أباطيلهـــم.

رغم أن رد الفيلسوف "الغزالي" على فرقة الباطنية لم يكن الأول و لا الوحيد إلا أنه كان الأشهر والأكثر ذيوعا بالنظر إلى غيره من فقهاء الأمة نظرا للطريقة العبقرية التي عمـــد إليها في ذلك النقد و الإبطال . ويتصف رد " الغزالي" على الباطنية بصفتين هما :

- أولا : جمع مصنفاهم ومقالاهم وتقديم حججهم بشكل أفضل منهم حتى أنه اهم بأنه يقرر شبهة خصومه إلى أبعد حد وهو نفسه حكى ذلك عن نفسه في المنقذ .

---

1 – أحمد توفيق عياد ، التصوف الإسلامي ، ص 124

2 – لطفي جمعة ، تاريخ فلاسفة الإسلام ، ص76، 77

- أما الثاني فهو الانقياد والطاعة لأمر الخليفة العباسي "المستظهر بالله" الذي رغب "الغزالي" في نصرته على خصومه ، باعتباره الأحق و الأجدر لتولي منصب الإمامة. هكذا إذن «يظهر أن موقف الغزالي من الباطنية كان سياسيا و دينيا، فقد أراد أن ينتصر للخليفة العباسي ويثبت أنه الإمام الحق الأولي بالإتباع و أن غيره من الباطنية ليسوا على حق » [1].

و هذا ما يتضح من إطلاقه على " فضائح الباطنية " اسم " المستظهري " الذي استعرض فيه رأي الباطنية وحججهم و قام بالرد عليها لإبطال دعواهم في مسألة الإمامة و تداعياتها العقدية خاصة زعمهم في وجوب نصب الإمام المعصـــوم ، مبرزا في الوقت ذاتـــه تصوره لحقيقة الإمامة فاصلا في ما نشأ حولـــها من خلاف .

المطلب الرابع : الغاية من البحث في الإمامة و مكانتها في فلسفة الغزالي

أولا : مركزية ومكانة السياسة في فلسفة الغزالي

لم يكن خوض الإمـــام " أبو حامد الغزالي" في غمار النظريات و الآراء السياسيـــة ضربا من ضروب الشهـــرة أو طلبا للسلطة بل وضعا أوجدته ظروف عصره ، و عكسه ذلك الصـــراع السياسي بين الشيعة والسنة حول المناصب السياسيـــة و طرق بلوغ منصب الخلافة و ما ترتب عن ذلك من تداعـــيات و لـــواحق .

بل كان اهتمامه بالسياسة وليد ظروف عصره من تنافس و صراع على السلطة، إضافة لما تحتله هذه السياسة من مكانة و أهمية في حياة الإفراد و المجتمعات حتى أنه يقول عنها «أشرف أصول الصناعات : السياسة ، إذ لا قوام للعالم إلا بها ». و يحدد أصنافها وأنواعها قائلا «هي أربع أضرب : الأول سياسة الأنبياء والثاني الخلفاء والولاة والسلاطين وحكمهم على العامة والخاصة...والثالث العلماء والحكماء..والرابع الوعاظ الفقهاء.. » [2].

وأكثر هذه الأضرب تداولا و شيوعا بين الناس هي سياسة الخلفاء .. لأن هؤلاء معرفتهم أيسر من غيرهم و مهامهم مجلبة للأنظار ، لذلك وجد الغزالي في السياسة مجلبة للقواعد على الناس ومراعاة لنفعهم لذا قال « فاعلم أن مراعاة مصالح العباد من جملة العبادة بل هي أفضل العبادات لقوله ﷺ :الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله انفعهم لعياله » [3].

---

1 – محمد علي أبو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ، ط2، [د ت] ص349

2 – أبو حامد الغزالي ، ميزان العمل ، دار المعارف بمصر ، ط1 ، 1964، ص 329

3 – المصدر نفسه 383

وما كـــان اهتمام " الغزالي" بالسياســة و الخوض في غـــمارها إلا لجعـــلها في خـــدمة الصالح العـــام شيء و أن تكـــون محور اهتمامنا و وجودنا شيء آخر . فإذا كـــانت « الإمـــامة أو الخلافـــة » لها فوائد فلا يجب أن نجعل منها سبيلا يتجادل فيه المتجادلون وتقع فيه القلاقل والحـــروب .. يقول حجة الإسلام « النظر في الإمـــامة ليس بحثا مهمـــا لا غنى عنه بل إنه مثار للتعصب وأن المعرض عن الخوض فيه أسلم من الخائـــض »[1]. حتى أنه قال في كتابه "الإحيـــاء" أنه « ممـــا يجب الهرب منه الولاية و الجـــــــاه و كثرة العـــلائق »[2] ففي الانشغال بها تشويش للقلب والديـــن.

فالرسول ﷺ حين بعث على أمته لم تكن الإمامة هي أول ما دعا إليه أو شرح كيفية حصولهـــا بل كان مبشرا بدين جديـــد عمل من خلاله على إقرار السلام بنطق الشـــهادة التي هي إعلان رسمي عن دخول ذلك الديـــن الجديـــد.

هكـــذا نرى أن " الغزالي" لا يخرج عن سنة أهل عصره من فقهاء السنة خاصة الأشاعرة في موقفه السيـــاسي و معالجته لمسألة الإمامة التي يراها بحثا فقهيا صرفا و ذلك ما أكده في مؤلفه الاقتصاد في الاعتقـــاد حيث قال« النظر في الإمامة ليس من المهمات وليس أيضا من فن المعقولات ، و لكن إذا جرى الرسم باختتام المعتقدات به أردنا أن نسلك المنهج المعتاد فإن القلوب عن المنهج المخـــالف شديدة النفـــار»[3] .

و لا نفهم من ذلك إنكاره لأهمية الإمامة بل العكس هو الصحيح ، بمعنى قيامها أفضل في الأمة فهـــي نعمة من نعم الله على عباده ، و قد سلك الغزالي في بحثه لهذه المســـألة طريق مذهب الأشاعرة إذ « سلم الغزالي بضرورة وجود إمام للمسلمين كافة، وحدد شروطا لصحة الإمامة و قال بأنها متحققة في الإمام المستظهر بالله»[4].

فلـــم يكن اهتمام "الغزالي" بالأمـــور السياسية غاية في حد ذاتها ، لكنه ما خاض في مجالها إلا ليكشف عن كيفية تسيير المجتمعـــات ، مطالبا بضرورة احترام الديـــن و متعهدا بذلك ، و هـــذا ما مثل زبدة آرائه السياسية . إذ « تحتـــل السياسة عنده مكـــانة مرموقة على المســـتوى النظري

---

1 – أبو حامد الغزالي ، الاقتصاد في الاعتقاد ،دار الأمانة، مطبعة دار الكتب بيروت لبنان ، ط1 ، 1969 ص 47

2 – أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1، ص 694

3 – أبو حامد الغزالي ، الاقتصاد في الاعتقاد ، ص 105

4 – أحمد عبد المهيمن ، إشكالية التأويل بين كل من الغزالي و ابن رشد ، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر،الإسكندرية مصر ، ط1 ، 2001 ، ص 193

والتطبيقي» وهو يعتبر أن « المقصود بالسياسة عنده هو التعليم و التهذيب و الإرشاد والتعاون في أداء الأعمال التي لا بد من إنمائها لكفالة قيام المجتمع واستمراره » [1] .

و ما غاية السياسة إلا حفظ مصالح العباد و دفــع المظالم و لن يتم ذلك إلا إذا كـــانت سياسة أخلاقية « فالسياســة عند الغزالي قائمة على الأخلاق و لا بد مـــن وازع شرعي ومن هنا يرى أن وجوب نصب الإمـــام ليس مأخوذا من العقـــل بل هو واجب شرعا » [2] أكد على ضرورة الوازع و الشـــوكة للإمـــام الحـــاكم التي تـــضمن أمن واستقرار حكمـــه و ضمان التسيير الجيد والمحكـــم للبـــلاد.

و هذا ما يتضح في مؤلفـــه " الاقتصاد في الاعتقـــاد" حين يتحدث عن الإمامة ويؤكد على ضرورة وجود سلطان مطاع يجمع شمل الأمة و يوحدها علـــى كلمة الحق كما تكلم حجة الإسلام "الغزالي" عن الإمامة و تداعيـــاتها في كتاب" التبر المسبوك في نصيحة الملوك وفضائح الباطنية " إذ «بالرغـــم من أن الغـــزالي كان كارها للخوض في هذه المســـألة نظرا لحساسيتها إلا أنه أعطاها حقهـــا من الدراسة والشـــرح » [3].

وقد تناول في دراسته وخوضه في مسألة الإمامة حكمها ، أي حكم وجوبها ليؤكد على شرعيتها ودورها في حفظ الدين و مصالح الرعية، مُنبّها إلى من هو أجدر و أحق و أولى بهـــا من الناس و هو " المستظهر بالله العباسي". داحضا بذلك فكرة التوارث و الوصية والعصمة التي نادى بها الشيعة الباطنيـــة لأئمتهـــم .

و حسب ما ألفـــه " الغـــزالي" في السياسة وشؤون الحكـــم يمكن أن نكشف عـــن الغاية من تأسيس الـــدول و ممارسة السياســـة عنده فهو يؤكد على وجود تطـــور مستمر في حياة الإنسان « و أن هذا التطـــور فرض على الإنسان أن يخلق لنفسه دولا تنظم شؤونه و تحقق سعادته لأنها هي الغاية التي يسعى الفـــرد والجماعة إلى تحقيقها » بل حسبه أن يؤكد على « أن الهدف الأسمى لا يمكـــن تحقيقه إلا بواسطـــة السياسة » [4] .

---

1 – نور الدين حاروش ، تاريخ الفكر السياسي ، دار الأمة للطباعة و النشر و التوزيع ، برج الكيفان الجزائر ، ط1 2004 ، ص 216

2 – محفوظ سماتي ، الفقهاء و السياسة ،ضمن أعمال الملتقى الدولي التفاهم بين المذاهب ، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى ، الجزائر، 2002 ، ص 256

3 – نور الدين حاروش ، المرجع نفسه ، ص 203

4 – إسماعيل زروخي ، الدولة في الفكر العربي الحديث ، ص 64

ثانيا : ربط السياسة بالأخلاق

حـــرص " الغزالي" في خوضه لمجال السياسة على التربية السياسية و اهتم بالجانب الأخلاقي للممارسات السياسية « فوظيفة التربية السياسية هي كوظيفة تالية لعمل النبـــوة » لأنها تعمل على تنظيم حياة الأفـــراد و علاقاتهم الاجتماعية باعتبـــار « أن المجتمع السياسي لابـــد أن يرتبط بعلاقـــات تحدد وظيفة كل عضو في المجتمع ولا يتأتى له ذلك إلا بالتربية السياسية »[1] فالأخلاق عماد السياســـة و متممها.

لذلك نلمـــح هنا أن السياسة عند " الغزالي" ارتبطت بالأخلاق و التربية والتعليـــم لتحقق الغاية المنشودة منهـــا ، كونها تعمل على توجيه الفرد والجماعة إلى تحقيق أهدافهم وغاياتهم وسد حاجاتهـــم في الدنيا و الآخرة و « بهـــذه السياسة يتم إقامـــة نظـــام الدنيا كما يتم عنهـــا كذلك إقامـــة نظام الآخرة »[2] .

فكأن الدولة التي دعا إليها " الغزالي " تجمع بين المصالح الدينية و الدنيوية « ويؤكد الغزالي على أن سياسة الدولة لا جدوى لها إذا لم تجمع بين الدين والدنيا »[3] لما يرد عنه من تأكيد للربط بينهما، في الكثير من الكتب و الرسائل التي ألفها حجة الإسلام ناصحا من ورائها حكماء الأمة و خلفاءها بضرورة مراعاة القيم و المبادئ الأخلاقية الفاضلة في سياسة الدولة ورعاية شؤون الخلق أجمعين .

وما دام الهدف المنشود من تأسيس الحكومات و تنصيب الأئمة هو تحقيق أكبر قدر من السعادة للأفراد في ظل طاعة الله- عز و جل- و الانقياد لأوامره فإن ذلك كله مرتبط بوجود سياسة حكيمة تراع فيها مصالح الدنيا و الدين و تحتكم إلى معايير أخلاقية سامية.

يقـــول الإمام " أبو حامد الغزالي " في هذا الصدد « إن مقاصد الخلـــق مجموعة في الديـــن والدنيـــا ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا ، فإنها مزرعة الآخرة ، و هـــي الآلة الموصلة إلى الله تعـــالى لمن اتخذهـــا آلة و ممرا و لم يتخذها وطنا و مستقرا و ليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الأدمـــين .. ولابد لها من سياسة وأعني بالسياســـة استصلاح الخلق بإرشـــادهم إلى الطريق المستقيم المنجي في الدنيا والآخرة »[4].

---

1 – إسماعيل زروخي ، الدولة في الفكر العربي الحديث ، ص64

2 – المرجع نفسه ، ص 64 ، نقلا عن فاضل زكي محمد ، الفكر السياسي العربي الإسلامي ص 287

3 – محفوظ سماتي ، الفقهاء و السياسة ، ص 256

4 – المرجع نفسه ص 256 ، نقلا عن الغزالي ، فاتحة العلوم، القاهرة ، 1924 ، ص 4

ممـــا سلف تظهر أهمية السياسة في فكر الفيلسوف " الغزالي " و دورهـــا في تنظيم حياة الأفراد و ربطهـــم بخالقهم ، فمن خلالها تحقق مصالحهم الدينية و الدنيوية . و الواضح أن "الغزالي" في نظريته السياسية و تصوره للعلاقات بين الأفــراد قد « ربط الأخلاق بالسياسة وعلا من شأن وظيفة التربية السياسية » [1] .

وعليه ينبغي أن تراعى في ممارسة السياسة الأخلاق والضوابط الأخلاقية حتى لا تكون الإمامة غاية الخلق في الحياة بل وسيلة يعتمد عليها في تحصيل الخيرات لذا لا بد من مراعاتها وحفظها فهي أمانة ينبغي أن تؤدى على أكـــمل وجه حتى تتحقق الغاية المنشودة من نصبها وعقدها و لن يتأتى ذلك إلا احتكم الأئمة وولاة أمور المسلمين إلى الضوابط الأخلاقية.

و لن تقوم إمامة أو تدوم سياسة الملوك إذا لم تهدف إلى تحقيق سعادة الإنسان و اعتباره غاية نصبت الخلافة لأجلها فكانت « الولاية نعمة من الله – عز وجل – من قام بحقها نال من السعادة مالا نهاية له ، ولا سعـــادة بعده ومن قصر عن النهوض بحقها حصل في شقاوة لا شقاوة بعدها إلا الكفر بالله تعـــالى » [2] .

و في مؤلفـــاته العديد يذهب الإمام " الغـــزالي" إلى تأكيد أهميـــة الإمامة في نظام الدين وسياسة الدنيا . مبرزا فضلهـــا قيام في الأمـــة لحاجة في الشرع قبل العقـــل من حفظ الدين و إقامة الحدود .. و الإمامة تكليف أكثر منها تشريف.

و بالنظر إلى ما خلفه " للغزالي" من آراء فيما يتعلق بالولاية و إمامة المسلمين ندرك أنه لم تكن له نظريات سياسية بارزة ومنفردة ، لكنه ما خاض في هذا المجال إلا ليوضح ما كان سائدا من سياسات في عصره ، و يصحح بعض المعتقدات السياسية الشائعة . لذلك ثار الإمام " أبو حامد " على النظريات السياسة المبتدعة و المنحرفة.

و حـــاول في كل ذلك الاحتكام إلى الشـــرع والأخلاق حتى قال بعض المفكرين أن « ليس للغزالي رأي خاص في الحكومـــة ولا نظرية معينة في السلطان . ولكنه قد وضع آدابا بسيطة ونص على جملة من الشرائط تكـــاد في جوهرها تميل إلى الديمقراطية » [3].

---

1 – نور الدين حاروش ، تاريخ الفكر السياسي ، ص 216

2 –زكي محمود عدل الدين سالم ، الإنسان في فلسفة الغزالي و تصوفه ، دار الفكر العربي ، القاهرة مصر ، [د ط] ، [د ت] ص149، نقلا عن أبي حامد الغزالي التبر المسبوك في نصيحة الملوك ، ص 18، 19

3 – المرجع نفسه ، ص 154

– و نتيجة لتلك الظروف التي اتسم بها عصر " الغزالي" لاسيما مغالاة بعض الفرق في شرح كيفية نصب الإمام وتحديد شروطه وجد نفسه وجها لوجه مع التيار الشيعي المتجسد في فرقة الباطنية التعليمية من الإسماعيلية فبالنظر إلى آرائهـــا المغالية المرتكزة على مسألة الإمامة فلم يجد حجة الإسلام بدا من الرد عليهم لإبطال مزاعمهم. فكـــانت آراؤه السياسية مخالفة لتلك التي سادت لدى الشيعة الباطنية الذين طالبوا بإمامة متوارثة في الأعقاب ووصاية لا تنقطع وهدف منها إلى إقامة أراء جديدة – نوعا ما– عما كان سائدا قبله من غلو وتزمت مستفيدا مما حققه سلفه من أهل السنة والجماعة في المجال السياسي .

فالإمـــام الفقيه لم ينفرد برأي خاص أو نظرية سياسية مميزة ، بل إنه لم يخرج عن نطاق مذهبه السني الأشعـــري ، حين دعا إلى وجوب نصب الإمامة في الأمة و ربطها بالأخلاق وحرص على التربية لتنظيـــم شؤون الرعية و سياسة أمورهم وخاض في الفكر السياسي لضبط حقيقة مسألة الإمامة و تحديد شروطها حتى لا يختلط أمرها على الخلق بسبب كثرة الآراء فيها و مغالاة الفرق لا سيما الباطنية في تصورها لها.

لذا نلمح في دراستنا لموقفه من الإمامة شقان أحدهما يرد به على الباطنية في الإمامة والثاني يؤسس به موقفه من هذه الإمامة أيضا.فموقفه كان نقديا تأسيسيا . وسنعرض فيما يأتي خلاصة آرائه السياسية حول مسألة الإمامة وتداعياتها بالتفصيل متناولين بذلك موقفه من الباطنية فيما ذهبت إليه من المعتقدات المتمحورة حول الإمامة، كاشفين عن جوهر عقيدته فيها باعتباره ممثل التـــيار السني الـــذي يقف وجها لوجـــه للتيار الشيعي المتمثل في فرقة الإسماعيلية الباطنية أو كما يطلق عليه " الغزالي " التعليمية أو مذهب التعليم .

المبحث الثاني : تصور الغزالي السني الأشعري لمسألة الإمامة

المطلب الأول : تصور الغزالي لمفهــوم الإمــامة

أولا : وجوب نصب الإمامة

يوافق حكم " الغزالي" على الإمامة رأي غيره من فقهاء الأمة الذين رأوا أن وجوبها لا يكون إلا بمقتضى الشرع لأن الإمامة تكليف شرعي لحماية مصالح العباد اعتبر أبو حامد الغزالي الإمارة « من أفضل من العبادات إذا كان ذلك مع العدل والإخلاص» [1].

و ما دام للإمامة كل هذه الأهمية فمن الضروري قيامها في الأمة بل أوجبها "الغزالي" كما أوجبها سابقوه لتلك المبررات و لغيرها « و إذا نظرت ســر الله في الخلافة لم تعد هذا لأنه سبحانه إنما جعل الخليفة نائبا عنه في القيام بأمور عباده ليحملهــم على مصالحهم ويردهم عن مضارهم وهــو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالأمر إلا من له القدرة عليه» [2].

و يكاد يتفق رأي " الغزالي" في وجوب نصب الإمامة و ضرورتها مع رأي غالبية مفكري الأمة الإسلامية .إذ أجمع أهل السنة على ذلك الوجوب بناء على ما قام به الصحابة عند وفاة النبي ﷺ حين عجلوا بنصب " أبي بكر" كخلف له .مما يدل على « إن الإمامة فرض واجب على الأمة لإقامة الإمام ينصب القضاة والأمناء ويضبط ثغورهم ويغزي جيوشهم ويقسم الفيء بينهم وينتصف للمظلومين من ظالمهم » [3].

و بغض النظــر عن المخالفين لجمهــور الأمة في وجوب نصب الإمامــة ، فإن حكم الغزالي عليها كــان واضحا و محددا من خلال ما خلف لنا من مؤلفــات تتعلق بالإمام الحاكم ووظائفــه الشرعية. و هذا الحــكم بوجوب نصب الإمــامة متفــق عليه لدى غالبية فقهاء الأمة الإسلاميــة و علمائهــا .كشيخ الإسلام " أحمــد بن تيمية " الذي جعل الإمامة أمر أساس في الديــن لقــوله « فيجب أن يعرف أن ولايــة أمــر الناس مــن أعظم واجبات الدين بــل لا قيام

1– أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1 ، ص 401

2– عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 209

3 – عبد القاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص 308

للـــدين إلا بهـــا » [1]. و يـــرد على لسانه تأكيد آخـــر لمكانة و أهمية نصب الإمـــامة في مؤلفه " منهاج السنة " إذ رأى أنه « لا بد للناس من إمارة برّة كانت أو فاجرة» [2].

فالغزالي متفق مع فرقة " الباطنية" وسائر أصناف المسلمين والفقهاء في مسألة وجوب الإمامة باعتبـــار أن هذا الأمر ضروري لحفظ الإسلام و حماية الأمة ماعدا بعض المخالفين لذلك الأمر" كعبد الرحمان بن كيسان والأصم" .كما رفض القول بإمامين لنفس الأمـــة « و برهانا على ذلك أنه إذا كـــان إمامان فلابد أن يكون أحدهما كاذبا والآخر صادق ومن شروط الإمامة صحة العقيدة وسلامـــة الديـــن » [3].

أما ما تدّعيه " الإسماعيلية الباطنية" من معتقـــدات في وجوب نصب الإمـــام من الطائفة الشيعية ، لكونه معصومـــا و يتوارث منصب الولاية بالنص .. فهي إدّعـــاءات باطلة من أساسهـــا و عليهم العودة إلى مبايعة إمام الزمان "المستظهر بالله" العباسي ، ينطبق هذا الأمر عليهم هم و حتى على غيرهم من المخالفين المطالبين بمنصب الإمامة « فالإمام من انعقدت له البيعة من أكثر الخلق ، و المخالف للأكثر باغ يجب رده إلى الانقياد إلى الحق » [4]. هذه ما البيعة قد تحققت للخليفة القائم " المستظهر بالله العباسي" و لا يجوز التشكيك فيها لخلعه.

و قد لجأ حجة الإسلام " الغزالي" إلى بيان فساد العقيدة الباطنية ليؤكد على عدم صحة إمامة خليفة سواه ممن تدّعيهم الباطنية ،مطالبا بوجوب طاعته، مُركّزا على مصلحة الأمة حريصا على صيانة الدين وحمايته لذا « إن الأهم عند الغزالي هو وجود إمام مطاع وهذا الإمـــام واجب لأن الدين واجب و لا يحصل نظام الـــدين إلا بنظام الدنيا الذي يتكفل ببقاء الحياة وسلامة الحاجات الضرورية وتـــوفرها » [5].

و لا ينبغـــي أن يتبـــادر إلى ذهننا عند ذكر الكلام السالف عـــدم أهمية الإمامة في نظر "الغزالي" بل على العكس مـــن ذلك إن المراد بما سبق أنه لم يجعلها أصلا مـــن أصول الدين كما ادعت الإسماعيلية الباطنية، حتى لا يصبح الاقتتـــال حولها حقا و واجب مبررا . فعلى الرغم من أن

---

1 – أحمد بن تيمية ، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ، دار الجيل ، بيروت لبنان ، ط1 ، 1993 ص 191

2 – أحمد بن تيمية ، منهاج السنة ، ج1، ص 146

3 –حنا الفاخوري وخليل الجر، مرجع سابق ص 659

4 – أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1، ص136

5 – نور الدين حاروش ، تاريخ الفكر السياسي 203

" الغزالي" لم يفرض لها بحثا خاصا إلا انه يوجبها لحماية الأمة وتسيير وتنظيم شؤونها وهو نفس الرأي الذي اجمع عليه سائر فقهاء الأمة عدا فئة قليلة منهم (الخوارج والأصم) .

هكـــذا إذن أكد حجة الإسلام على أهمية الإمامـــة في حياة الأمم و ارتباط تحقيقها بسعادة الأفراد لقـــوله « فبان أن السلطان ضروري في نظام الدين وضروري في الفوز بسعادة الآخرة وهو مقصود الأشياء قطعـــا » [1] . و دليل هذا الوجوب والضرورة هو الشرع لا العقـــل فحسب ما يراه " أبو حامد الغزالي " « كان وجوبا نصب الإمـــام من ضروريات الشرع الذي لا سبيل لـــه إلى تركـــه فاعلـــم ذلك » [2].

فلـــم يختلف حجة الإسلام عن غيره من فقهاء الأمـــة الإسلامية حين أقر بوجوب نصب الإمام للأمة فهو يرى أن ذلك ضروري لحفظ الدين والعباد. لكن هـــذا الوجوب يقتضيه الشرع لا العقل لأن غـــرضه حفظ أمن واستقرار الأمـــة وتوحيدها لتعم الألفـــة والمحبـــة بين أفرادها، فبدونها ينعدم كـــل ذلك .

فلو لم ترتبط الإمارة بالقيم و المبادئ الأخلاقية الفاضلة لما حققت الغاية المنشودة من نصبها وقيامها في الأمة « و معلوم أن السلطنة و الإمارة لو تعطلت لبطل الدين و الدنيا جميعا و ثار القتال بين الخلق وزال الأمن وخربت البلاد وتعطلت المعايش» [3] .

بل يذهب الإمـــام " الغزالي" إلى أكثر من هـــذا الحد فيقرّ بوجوب طاعـــة الأئمة و الملوك و إن كانوا ظالمين ، لأن إمامتهم صحيحة و واجبة الطاعة و يوضح ذلك في قواعد العقائد قائلا « ونحن نقضي بنفوذ قضاء أهل البغي لبلادهم لمسيس حاجتهم فكيف لا نقضي بصحة الإمامة عند الحاجة والضرورة » [4] فكما لا يُتوقع خلو البلاد من القضاة لا يُتوقع أيضا خلوها مما هو اكبر وهم الأئمة الذين يأتمر بهم القضاة ...

فكان نصب الإمام واجبا بعد خلو هذا المنصب كما حدث بعد وفاة رسول الله ﷺ لما يمكن أن يلحق بالدين وبالعباد جراء خلو هذا المنصب لأن « الدولة أساسها الدين وهو المبرر لوجودها ومن ثمة فإن عليها حراسته والحفاظ عليه » [5] .

---

1 – أبو حامد الغزالي ، الاقتصاد في الاعتقاد ، ص 105 ، 106

2 – محفوظ سماتي ، الفقهاء و السياسة ، ص 256

3 – أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1، ص 404

4 – أبو حامد الغزالي ، قواعد العقائد ، ص 98

5 – راشد لبراوي ، قادة الفكر الإسلامي في ضوء الفكر الحديث ، مكتبة النهضة المصرية للطباعة والنشر ، القاهرة مصر ، ط1، 1969 ، ص 240

فالدولة (أو الإمارة) لا تقوم لها قائمة ولا أمر مطاع إلا إذا عملت على نشر الدين وإقامة أركانه فهما متكامـــلان ولا يتصور قيام ملك بلا نزعة أو اعتقاد ديني . يظهر هذا الارتباط بين الملك والديـــن فيما أورده الغزالي من حديثا عن ذلك في ميزان العمـــل جاء نصه كالتالي « قيل الدين والسلطـــان توأمان وقيل الديـــن أس والسلطان حـــارس ، وما لا أس له فمهدوم وما لا حـــارس له فضائع »[1].

لكن الإمام " الغزالي" يربط وجوبها بالدين حرصا على وحدة الأمة والتزاما بما أنزل الله تعالى من شرائع وأحكام تحتاج إلى من يقيم حدود الله في الخلق و ينوب عن نبيه في سياسة المؤمنين لأن « السلطان ظل الله في أرضه فينبغي أن يعلم أن من أعطاه الله درجة الملوك وجعله ظله في الأرض فإنه يجب على الخلق محبته و يلزمهم متابعته و طاعته » [2].

و من هنا كانت فكرة « السلطان خليفة الله » تؤكد الاعتقاد الجازم في أن « الحاكم هو الخليفة أو السلطان أو الملك أو الأمير إنما يحكـــم بتفويض من الله » [3] . فالدولة الإسلامية أساسها نظـــرية التفويض والحق الإلهي التي لا يجوز مخالفة الإمـــام فيها خوفا على الدين والدولة وعلى الشؤون الدنيوية « فالمراعي للدين والدنيا كما يجب و على ما يجب جامعا بينهما خليفة الله في أرضه فهو السابق عند قـــوم »[4].

فكـــان بذلك نصب الإمام عند " الغزالي" واجبا وجوبا شرعيا بمعنى أقره الشرع و حتمه وليس وجوبه عقلـــيا كمـــا تعتقد " الباطنية ". و نفس هذا الرأي ذهب إليه "بن خلدون" وأقره في " مقـــدمته" اتفاقا مع رأي أهل السنة و نقلا عنهم.

حيث أطهر استقراؤه لتاريخ الحكومات في البلاد الإسلامية و طرق تولي الخلافة ونصب الإمامة « إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين لأن أصحاب رسول الله ﷺ عند وفاته بادروا إلى بيعه أبي بكر- رضي الله عنه- وتسليم النظر إليه في أمورهم وكذا في كل عصر من بعد ذلك و لم يترك الناس فوضى في عصر من الأعصار واستقر ذلك إجماعا دالا على وجوب نصب الإمام » [5].

---

1 – أبو حامد الغزالي ، ميزان العمل ، ص 297 ، 298

2 – راشد لبراوي ، قادة الفكر الإسلامي في ضوء الفكر الحديث ، ص340 ، نقلا عن الغزالي ، التبر المسبوك

3 – المرجع نفسه ص 341

4 – أبو حامد الغزالي ، ميزان العمل ، ص 383

5 – عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 205

ثانيا : تقسيم المجتمع (و طبقات الدولة) و ترتيب أجزائه

كان المجتمع الإسلامي في نظر الغزالي ذا تنظيم خاص ، منقسم إلى طبقات وفئات يكمل بعضهما بعضا كترتيب أعضاء البدن و تكامل وظائفه . و قد ورد رأيه هذا في ميزان العمل إذ يقول الإمام الغزالي « والعدل في السياسة أن ترتب أجزاء المدينة الترتيب المشاكل لترتيب أجزاء النفس حتى تكون أجزاء المدينة في ائتلافها وتناسب أجزائها ، وتعاون أركانها على الغرض المطلوب من الاجتماع كالشخص الواحد فيوضع كل شيء في موضعه » .

وحسب تصور " الغزالي" لهذا المجتمع و فئاته رأى أنه « ينقسم سكانه إلى مخدوم لا يخدم وإلى خــادم ليس بمخدوم وإلى طبقة يخدمون من وجه ويخدمون مــن وجه آخر » [1]. وهذا التقسيم كـــان على أساس العمل والوظيفة ، لكنه يتخذ صورة أوضح في كتابه " الإحياء" والذي يقول فيه « إن الناس ينقسمـــون إلى خواص و عـــوام » [2] هؤلاء الخواص هم أهل العلم و المعرفة والراسخون في العلم أما العامة فهم باقي فئات المجتمع .

كان المفكر الأشعري الفذ " أبو حامد الغزالي" يراعي في تقسيمه لطبقات وفئات الدولة ترتيب أعضـــاء البدن لحكمة بالغة . حتى انه يبرر ذلك التشابه بين تـــرتيب فئات الدولة على منوال ترتيب عناصر البدن في كتابه " إحياء علوم الدين " قائلا « اعلم أن البدن كالمدينة والعـــقل- أي من المـــدرك من الإنســـان- كملك مدبر لها وقواه المدركة من الحـــواس الظاهرة و الباطنة كجنوده و أعـــوانه ، و أعضاءه كرعيته والنفس الأمارة بالسوء التي هي الشهوة والغضب كعدو ينازعه في مملكته و يسعى في إهلاك رعيته ، فصار بدنه كرباط و ثغر و نفسه كمقيم فيه مرابط » [3].

نستنتج من ذلك أن المجتمـــع الذي تصوره "الغزالي" ونظر له « هو مجتمع طبقي فيه المخـــدوم الـــذي لا يخـــدم و الخـــادم الذي يخدم ومن ثمة ففيه العديـــد من المصـــالح الملتبسة بل والمتـــناقضة » هنا تظهـــر فكـــرة الـــلامساواة بين الناس على أساس هذه الطبقية والفـــوارق «و واضح أن الغزالي لا يؤمن بالمساواة المطلقة بين الناس لا من حيث الحظـــوظ المادية ولا من ناحية الملكـــات العقلية أو الصفات الأخلاقية » [4] فالـــدولة التي دعـــا إليها متفاوتة الطبقات متمـــايزة الأدوار و المهـــام .

---

1 – أبو حامد الغزالي ، ميزان العمل ، ص 273

2 – أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1، ص 294

3 – المصدر نفسه ص 862

4 – راشد لبراوي ، قادة الفكر الإسلامي في ضوء الفكر الحديث ، ص 338

ونعتقد أن إقرار " الغزالي " بمبدأ التفاوت في تقسيم طبقات الدولة لم يكن جزافا بل مرده نظرته الواقعية لمجتمعه و ظروف عصره « لأنه واقعي يرى الانقسامات في المجتمع حقيقة واقعة لا سبيل لإنكارها أو حتى تجاهلها » فلم يكن تصوره للدولة تصورا مثاليا بل واقعيا .

لكن لا ينبغي أن نفهم من ذاك التصور لتقسيم المجتمع أن الإمام " الغزالي" يشجع الفوارق والطبقية و اللامساواة ، إنما على العكس من ذلك كان ينادي بالعدل « و قد عمل على استنكار الفوارق الصارخة ومن ثم فهو يدعو إلى التقريب من الطبقات أو إلى العدل الاجتماعي بمعنى آخر » [1] .

المطلب الثاني : شروط انعقاد الإمامة

اتفق جمهور فقهاء الأمة الإسلامية وعلمائها على جملة من الشروط بها يتم عقد الإمامة منها ما يتعلق بعقد البيعة الذي يتم من خلاله نصب الإمامة ، ومنها ما يتعلق بالإمام وخصاله وقد سبق الحديث في الفصل الأول عن الشرط الأول أي شرط البيعة وأولي العزم القائمين بها.

ولا يختلف فيها رأي الإمام " الغزالي" عن غيره من أهل السنة حيث يذهب إلى تأكيد مبدأ الاختيار و التشاور لمبايعة الخليفة و نصب الإمامة ، مخالفا فكرة النص و التوارث التي جاء بها الشيعة " الباطنية ".وسنقدم فيما يلي تفصيلا لرأيه في شروط الإمامة .

أولا : إبطال النص على الإمامة و إثبات قيامها بالبيعة و الاختيار

1* إبطال النص على الإمامة

لاقت فكرة النص على الإمام تذمر من قبل جمهور الأمة وفقهائها من أهل السنة والجماعة فقد رفض الجمهور مسألة النص للتدليل على وجوب الإمامة، من كل آفاك مفتر يتجرأ على الإسلام و تعاليمه . و عمد " أبو حامد الغزالي" بدوره إبطال ذلك الأمر لمّا ثار على الباطنية وبدعها التي ابتدعتها في سياق الإمامة. وكان القول بالنص أشهرها ذيوعا وانتشارا فهو أحد مزاعمهم التي احتجوا بها للتدليل على صحة إمامة من يدّعون من آل البيت العلوي من ذرّية إسماعيل الإمام السابع ، و تأكيدا لقداستهم و ضمان لطاعة مطلقة لهم .

وكما قلنا أراد " أبو حامد الغزالي" تفنيد زعم الباطنية السابق و إبطاله حفاظا على العقيدة و إيمان العوام فلم تكن دعوى تلك الفرقة الشيعية مما ورد إلزام شرعي به ، وإذا افترضنا صدق زعم الباطنية في أن الإمامة هي أهم مسائل الدين ، لكان من الجدير أن يوضحها الكتاب، و لا

---

1 – راشد لبراوي ، قادة الفكر الإسلامي في ضوء الفكر الحديث ، ص 338

أظهـــرها النبي ﷺ . فإن القـــرآن يتضمن مواضيع عدة تتناول ذكـــر الخالق تعالى وصفاته وملائكته و مختلف مسائل العبادات و الطاعات و حتّى المعاملات .. لكن « لم يحدث أن ذكر الرسول ﷺ مسألة الإمامة حين كان يدعوا الناس للإسلام وإن ما دعا إلى الشهادة فحسب كما لم يظهر حاجة المسلمين حال حياتيه لأنه صلوات الله عليه كان إماما للمسلمين » [1].

و هو نفس ما استدل به غالبية فقهاء الأمة السنيين لدحض فكرة النص من الله و رسوله على وجوب الإمـــامة « و دليل الجمهـــور أن النص على الإمام لو كان واجبا على الرسول ﷺ لبينه على وجه تعلمه الأمة علما ظاهرا لا يختلفون فيه . لأن فرض الإمامة يعم الكافة معرفته كمعرفة القبلة و أعداد الركعات ولو وجد النص منه هكذا لنقلته الأمة بالتواتر و لعلموا صحته بالضرورة كما اضطروا إلى سائر ما تواتر الخبر فيه » [2].

جاء تأكيد " الغزالي " لما سبق في كتابه " الإحياء " الذي ورد فيه موقفه واضحا جليا مبطلا من خـــلاله مســـألة النص ، مصرا على البيعة و الاختيار كمـــا هو رأي جل علماء السنة . يقول "الغزالي" « أن الإمام الحق بعد رسول الله ﷺ أبـــو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي —رضي الله عنهم- و لم يكن نص رسول الله ﷺ على إمام أصلا ، إذ لو كان لكان أولى بالظهور من نصبه آحاد الولاة و الأمراء على الجنود في البلاد ، و لم يخف ذلك فكيف خفي هذا ؟ و إن ظهر فكيف اندس حتى لم ينقل إلينا ؟ ».

و لاحظ " الغزالي" أن الخلفاء الراشدين تولوا إمامة المسلمين عندما اختارهم جمهور الأمة فبطلت بذلك دعوة النص « فلم يكن أبو بكر إماما بالاختيـــار و البيعة، أما تقدير النص على غيره فهو نسبة للصحابة كلهم إلى مخالفة رسول الله ﷺ و خرق الإجمـــاع و ذلك مما لا يستجري علي اختراعه إلا الـــروافض » [3].فالبيعة أســـاس نصب الإمامة و هو أمر تعـــارف عليه المسلمون منذ عهودهم الأولى و طبقـــوه في اختيار خليـــفة رسول الله ﷺ بدأ من الخليفـــة الأول "أبو بكر الصديق" وتعاقبت الحكومات فيما بعد على هذا المنـــوال عاملة بمبدأ الاختيار أما فكرة النص فـــلم يقل بها غير أئمة الشيـــعة وخلفائها .

1- مصطفى حلمي، نظام الخلافة ، ص 237

2- عبد القاهر البغدادي، أصول الدين ، ص 280

3 - أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ،ج1، ص 135

2* بطلان التوارث

حين أنكر " أبو حامـــد الغزالي" فكرة التنصيص في مجال سياسة الدولة الإسلامية ، لزم عن ذلك البرهان على عدم جدوى التوارث أيضا إذ لا مبرر للقـــول به . و لو كانت الإمامة مما تورث لكـــان أحـــق بها أبناء الأنبيـــاء و الرسل السابقين و لامتازوا بها على الناس لكن الملاحظ هو خلاف ذلك كله .

فلتنظر مثلا إلى ابني آدم -عليهما السلام- ماذا كان حالهما ووالدهما أب الخلق كله وكيف حكى الله عنهما قائلا ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [1].

و نفس الشـــيء حدث مع ابن نوح-عليه السلام- فلم يرثه ولـــده في حكمه بل عصاه وكان من الضالين . و في القـــرآن الكريم ذكر لهذه الواقعة قال الله تعالى يواسي نبيه ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [2] .

فلم يرث أبناء الأنبياء الحكم عن أبائهم وذويهم .وما ذلك إلا لأنهم كغيرهم من سائر البشر عرضة للخطأ والمعصية وحتى الرسول ﷺ أكد أن التمايز بين البشر يكون على أساس ما كسبه كل واحد من حسنات جراء عمله الصالح وليس على أساس ما يرثه عن أهله ..

و لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة لأنه أكد في سنته أن الأنبياء لا يرثهم أهلهم و ابنته فاطمة لم تعط شيئا من ميراث والدها و هو الرسول الكريم حتى أنه ﷺ كان يقول لها و هو يعظها « يا فاطمة اعملي فلن أغني عنك من الله شيئا » [3].

هكذا صار لا أساس للقول بالتوارث في الخلافة كتوارث النبوة « فدعوى أن الإمامة إرث وأن الإمـــام معصوم، وأن الإيمان بالإمـــام يجنب المعاصي قلب لنظام الإسلام وهدم لأهـــم مبادئه»[4] لأن النظام الإسلامي أقر مبدأ التشاور في حياة المسلمين مراعاة لمصالحهم .

والواضح أن الاعتقاد بالتقديس و القول بالتوارث في الإمامة ما هو إلا طريقة من طرق التمويه لإخضاع الناس للإمـــام والخليفة خضوعا مطلقا ، لا يجرؤون فيه علـــى نقده أو معارضته باعتباره السلطة الأولى و اللامحدودة..

---

1 – سورة المائدة آية 27

2 – سورة هود آية 46

3 – أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ص 222

4 – المرجع نفسه ص 222

يتفق رأي كـــل من "بن تيمية" و "بن حزم" مع رأي الإمام " الغزالي" فيما ذهب إليه من نفي للنص و إبطـــال لبدعة التوارث ، يقول "بن حزم" « و لا خلاف بين أحد من المسلمين في انه لا يجوز التوارث فيها (أي الإمامة) ولا في أنها لا تجوز لمن لم يبلغ حاشا الروافض فإنهـــم أجازوا كلا الأمـــرين »[1] إذ رأى غالبية علماء السنة أن دعوة الغلاة باطلة و شاذة عن المعهود.

فوحدهم هم الشيعة المغالية من الباطنية من أجازوا النص و التوارث خلافا لما أجمع عليه المسلمون وهو« أن الإمامة لا تكون بالوارثة بل هي خلافة نبوية كل من استوفى شروطها هو أهـــل لها »[2]. و ليس في الشروط ما يؤكد انحدار الإمام من ذرية " علي".

فبان للعيان أن دعوى النص و التوارث اللتان ادّعتهما الشيعة الباطنية كانتا تهدفان من خلالهما إلى تبرير أعمال أئمتها وضمان لعدم رفع راية العصيان عليهم، وهذا "الحكم التيوقراطي" يشبه ما ساد لاحقا في أوروبا حلال العصور الوسطى حين دعت الكنيسة إلى طاعة الحكام و الأباطرة مستخدمة نظرية الحق الإلهي.

يؤكد الدكتور "علي سامي النشار" من خلال دراسته لتاريخ التشيع لا سيما التشيع الإسماعيلي الباطني أن أهم النتائج التي انجرت عن دعوتي النص و التوارث التي قال بها الشيعة كانت رفع التكاليف و الأحكام و إباحة المحرمات فقد « ذهبت مجموعة من الإسماعيلية إلى أنهم لا يخضعون للتكاليف الشرعية فإذا ارتكب واحد منهم معصية فلا ضرر ولا ضرار ولا جناح عليهم فيما فعلوا »[3]. فهم معصومون و ما يظهر لنا على أنه فاحشة و ساء سبيلا لا ينطبق عليهم ، فالأئمة الوارثون لحق الإمامة هم فوق أحكام الشريعة و تكاليفها .

وبناءا على ما سبق صار لا أساس للاعتقاد بفكرة توارث الخلافة كتوارث النبوة وبالعودة إلى الحياة السياسية كما سادت في حياة الخلفاء الراشدين نتأكد من أن نصيب الخليفة كان عن طريق التشاور مع أهل العزم و ذوي العلم من فضلاء الأمة . فلا ينال هذا الشرف في ولاية أمر المسلمين و تسيير شؤونهم إلا من استحقه عن جدارة .

فليس هو إرث من أب صالح إلى ذريـــة فاسدة بعيدة عن الإسلام و إقامة الحدود والإقبال على الخيرات.. وبهـــذا الموقف خالف حجة الإسلام فرقة الباطنية في تصورها للإمامة و ما تبعها من معتقدات شيعية مزعومة كالنص و دعوى التوارث ..

---

1 – محمد أبو زهرة ، الإمام بن حزم ، ص 237 ، نقلا عن :بن حزم ، الفصل في الملل و النحل ، ص 16

2 – المرجع نفسه ص 237

3 – علي سامي النشار ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص526

فإمامتهم بهذا المعنى الذي تصوروه ما هي إلا تقديس وتأليه لشخص غائب عن الأبصار تناصره أقليـــات ممتهنة للفلسفـــة متأثرة بالديانات الشرقية القديمة .. لا تعبر عن مبدأ الشورى ولا عن رأي الجماعة .. زاعمة للتوارث و التنصيص.. لتلك الأسباب نفر منهم كثير من الفقهاء و العلماء السنيين و ثاروا للرد على أباطيلهم كما هو حال حجة الإسلام " الغزالي" ولما اشتد سخط أهل السنة عليهم اعتبروهـــم ملاحدة و مبتدعة ينبغي ردهم عن بغيهم ومغالاتهم حتى لا تنتشر مقالاتهم بين الناس و تفسد إيمانهم .

3* البيعة و الاختيار أساس انعقاد الإمامة

الملاحظ أن أغلب فقهاء الأمة السنيين أجمعوا على وجوب الإمامة بالاختيار و الاتفاق لا بالنص أو التوارث كما ادّعت فرقة الباطنية . إذ ينكر أهل السنة ورود أي نص من النبي ﷺ على إمام بعينه سواء كان "عليا" أو غيره . و"الباقلاني" أحد هؤلاء المفكرين الذين سبقوا "الغزالي" إلى ذلك الأمر العظيم الخطر« فهو يبطل أن تكون الإمامة بالنص و يثبت أنها تصح بالاختيار للأمة إذا لو نص النبي ﷺ على إمام بعينه وفرض طاعته على الأمة دون غيره وقال لهم هذا خليفتي والإمـــام من بعدي فاسمعوا وأطيعوا لكان لا يخلو أن يكون قال ذلك وفرضـــه بمحضر من الصحابة أو الجمهـــور منهم أو بحضره الواحد أو الاثنين »[1].

لأن كل ما نصّ عليه الله تعـــالى و الرسول قد وصل إلينا ، و هـــو ما نقل إلينا حتما متواترا عبر الصحابة وكان محل إجماع واتفاق لدى الجمهـــور. و ينطبق ذلك على القول بالنص من النبي ﷺ « فإن كان قد أعلن ذلك وأظهره وقاله قولا ذائعا فيهم وجب أن ينتقل ذلك مما شاع وذاع من العبـــادات التي لا اختلاف بين الأمة أنها مشروعة مفروضة إذا النص من النبي ﷺ أمر عظيم لا ينكتم ولا يستتر عن الناس علمـــه» [2].

لكن نحن لم يصلنا نص من النبي يؤكد انه استخلف من بعده أحد لا صحابيا و لا قريبا له لذلك « إن الأخبار التي تدعيها الشيعة في النص على "علي بن أبي طالب" قد عارضها إجماع المسلمين في الصدر الأول عـــلى إبطالها وتركها لأن الأمة كلها انقادت لأبي بكر وعمر- رضي الله عنهما- ودانت بوجوب طاعتهما والسكون تحت رايتهما وفيهم علي والعباس وعمـــار بن ياسر والمقداد وأبو ذر» [3] و أما ما أوردوه من أدلة ونصوص فأغلبها زائف ملفق.

---

1 – عبد الفتاح أحمد فؤاد ، الفرق الإسلامية وأصولها الإيمانية ، ص 114

2 – المرجع نفسه ص 115

3 – أبو حامد الغزالي، سر العالمين وكشف ما بين الدارين، دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان،[د ط]،[د ت] ص 10

وما يتضح لنا أنه كبديل عن القول بالنص على الإمام الذي ادعته الشيعة "الإسماعيلية الباطنية " يقول " الغزالي " بمبدأ الاختيار والشورى في نصب الإمام ، بحيث تنعقد إمامته بالبيعة وحدها ،كما هي سنة الخلفاء الأولين فإمامتهم شرعية لم تقم لها قائمة إلا بالبيعة التي جعلها فقهاء الأمة الإسلامية شرطا لانعقاد الإمامة و كما سبق و قلنا « فلم يكن أبو بكر إماما إلا بالاختيار والبيعة » [1].

فلا تصح الإمامة للمطالب بها إلا بالاختيار من الكافة (من أفراد الأمة) وإجماعهم على مبايعته ليتولى الحكم وخلافة النبي ﷺ في أمته و عليه يكون « الإمام من انعقدت له البيعة من أكثر الخلق و المخالف للأكثر باغ يجب رده إلى الانقياد إلى الحق» [2].

و في اعتقـــاد " الغزالي" تنطبق هذه الشروط بيعة الإمـــام المستظهري كما سبق إن تـــوافرت في بيعة الخلفـــاء الراشديـــن لأن هذا الخليفة العباســـي انعقدت بيعته من أغلب أقطار الأمة الإسلامية المترامـــية الأطراف فهـــو الأحـــق بالإمامة وبالإتباع لأن إمامته كـــانت عن شورى واختيار مـــن أولي العزم .

فلا أساس لفكرة النص على الإمامة التي قالت بها الباطنية، و عارضها إجماع غالبية فقهاء الأمة السنيين ما زعمته هذه الفرقة المغالية إذ « كان يعارض هذا الرأي رأي آخر كان يرى أن النبي ﷺ لم ينص على من يخلفه، وترك الأمر للناس يرون ما يصلح لهم ومن يصلح بهم فكل ما يتطلبه النبي أن يحافظ علي الدين و ترعى تعاليمه و مبادئه » [3] .

بل أكثر مـــن ذلك لا تقع الإمامـــة إلا بالبيعة و الاختيار و الرسول ﷺ تـــرك شأن اختيار خليفته شـــورى بين الصحابة « ليختـــر الناس بعده من يرون أنه أقـــدر على حمل هذا العبء والقيـــام بتكاليفـــه »[4].

يذهب الإمـــام " الغزالي" مذهب سابقيه من أهل السنة و الجمـــاعة ، في إبطال دعوى النـــص على الإمامـــة و إثبات قيامها بالاختيار و التشاور فقط كمـــا هو معمـــول به منذ وفاة النبي ﷺ لأن أهـــل السنـــة « قالوا أن طريق عقد الإمامـــة للإمام في هـــذه الأمـــة الاختيار بالاجتهاد وقالوا : ليس مـــن النبي ﷺ نص على إمامـــة واحد بعينه على خلاف قول مـــن زعم من الرافضة

---

1 – أبو حامد الغزالي، سر العالمين وكشف ما بين الدارين ، ص **96**

2 – أبو حامد الغزالي ، قواعد العقائد ، ص **97**

3 – أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ص**208**

4 – المرجع نفسه ص**208**

أنه نص على إمامة " علي" - رضي الله عنه — نصا مقطوعا بصحته و لو كان كما قالوه لنقل ذلك نقل ثلة» [1] . و الظاهر من الفكرة السابقة أن ما أتت به فرقة " الباطنية " من دعاوي لا أساس لها من الصحة ، فجلها متهافت يستنكره إجماع أهل السنة .

إضافة إلى تأييد "الغزالي" للفكرة السابقة الرافضة و المنكرة لقيام الإمامة بالنص فقد تصدى لها من خلال مؤلـــفاته العديـــدة التي تناولت جوانب من الحياة السياسية خاصة "المستظهري" و"الاقتصاد في الاعتقاد" مبرزا أن أساس كل إمامة هو الاختيار. فمن خلاله تتم مبايعة الخليفة من قبل أولي الفضل في الأمة ،كما سبق و أن أشرنا إلى ذلك في الفصل الأول .

فلو كان هناك نص على الإمامة لكان أكد ذلك أصدق خلق الله محمد ﷺ ولسارت الأمة على نهجه هذا وسنته لكـــــن البيعة هي أساس الإمامة و هذا لا يحدث إلا بوجود شوكة للمتصدي للإمامة . و قد سارت الأمة الإسلامية على مبدأ "البيعة " منذ أول عهودها وذلك باجتماع نفر من فضلاء الأمة وفقهائها للتشاور حول من يخلف النبي ﷺ ثم أبو بكر وهكذا تعاقبت الخلافات بيعة بعد بيعة بهذا الشكل تنفيذا لأمره تعالى الذي ألزم به النبي ﷺ في قوله ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [2] أيضا قوله تعالى ﴿ وَأَمْرُهُـــــمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ [3].

ثانيا : شروط الإمام و خصاله

يقصد بها مجموعة الخصال التي إذا توافرت في طالب الإمامة و الراغب فيها استحقها بموجبها وفي مجملها لا تخرج عما ذكره "محمد السيد رضا" عن عمدة المتكلمين [*]السعد التفتازاني (توفي: **791 هـ**) « أنه لا بد للأمة من إمام يحي الدين ويقيم السنة وينتصف للمظلومين ويستوفي الحقوق ويضعها مواضيعها ويشترط أن يكون مكلفا، مسلما عدلا، حرا، ذكرا، مجتهدا، شجاعا ذا رأي وكفاية، سميعا بصيرا، ناطقا قريشيا.. » [4] هذا ما يتفق عليه غالبية جمهور فقهاء الأمة مع الإشارة إلى أن هذا الاتفاق تشوبه شوائب و تعرض له حالات من التعارض ، أي كان هناك من خالف بعض هذه الشروط أو استغنى عنها.

---

1 – عبد القاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص 308

2 – سورة آل عمران آية 159

3 – سورة الشورى آية 38

*** السعد التفتازاني: هو سعد الدين التفتازاني توفي 791 هـ عمدة علماء الكلام من العرب والأتراك وغيرهم**

4 – محمد السيد رضا ، الخلافة ، ص 25

ذهب " أبو حامد الغزالي" في تحديده لشروط الإمامة مذهب الجمـــاعة والجمهور فقد حددها في كتبـــه المختلفة التي تناولت مجـــال السياسة و شؤون الحكم ، دون الخـــروج عن كونه سنّي أشعري المذهب، فقد جاء في كتاب "إحياء علوم الدين" ذكر لصفات الإمام و شروطـــه مجملة يقول حجة الإســـلام « إن شرائط الإمـــامة بعد الإسلام و التكليف خمسة : الذكـــورة والورع و العلـــم و الكفاية و نسبة قريش » [1].

لكن تفصيل تلك الشروط و أدلتها موجود في كتابـــه الذي خصصه للرد على"الباطنية" وإمامتهم المزعومـــة بما يتفق مع ما سار عليه السلف الصالح و أجمع عليه رأي الجماعة واجتهادهم . فيصر" الغزالي" شـــروط الإمامة كما يلـــي « إن الذي عـــده علماء الإسلام من صفـــات الأئمة و شروط الإمامة تحصرها عشر صفات : ست منها خلقيـــة لا تكتسب، و أربع منها تكتسب أو يفيد الاكتساب فيهـــا مزيدا » [2] .

إن صفات الإمام المذكورة في " فضائح الباطنية " هي ما اتفق عليه غالبية علماء الأمة وفقهائها و إن شذّ عمهم بعض المبتدعـــة.. بل و الأكثر قبولا عندهم و إن كان " للغزالي" فيهـــا مقالات و تفصيلات و حتى إضافات ميزته عن غيره من أتباع المذهب السني كونه ميز بين ما يكون منها خلقيا و ما يكون مكتسبا.

أ * الصفات الخلقية :

لابد من توفرها لمن يتقدم لمنصب الخلافة إذ هي أساسية و لا غنى عنها لأنها لا تكتسب وقد حصرها "الغزالي" في ست لقوله « فأما الست الخلقية فلا شك في حضورها ولا نتصور المجاهدة في وجودها: الأولى البلوغ فلا تنعقد الإمامة لصبي لم يبلغ الثانية العقل فلا تنعقد لمجنون فإن التكليف ملاك الأمر وعصامه، ولا تكليف على صبي ومجنون.. »[3].

فشروط الإمامة هذه هي شروط التكليف الشرعي الذي تستوجبه العبادات والتي تتطلب من الفرد أن يميز بين الخطأ والصواب، وتستدعي منه إدراكا ونميز الأسباب والعواقب فلا يصلح الحكم إلا بها لقوله ﷺ « رفع القلم عن ثلاث عن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يعقل وعن الصبي حتى يحتلم» [4] و هذا الحديث معروف و معمول به في شتى الأحكـــام.

---

1 – أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ،ج1، 136

2 – أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 180

3 – المصدر نفسه ص 180

4 – صحيح أبو داوود

كما لا تجب الإمامة لعبد مسترّق أو للمكره .. فهي تشريف عظيم إضافة إلى كونها تكليفا وعليه اشترط فيها الحرية فكانت الصفة « الثالثة: الحرية فلا تنعقد الإمامة لرقيق، فإن منصب الإمامة يستدعي استغراق الأوقات في مهمات الخلق فكيف ينتدب لها من هو كالمفقود في حق نفسه الموجود لمالك يتصرف تحت تدبيره وتسخيره » وقد جعلت الحرية حكرا علـــى عبادات معينة كالزكـــاة فالعبد لا يقدم زكـــاة لأنه هو وما يملكـــه ملك لسيده.. فكيف جاز لهـــذا العبد إمامة أمة، أسيحكمها بأمره أم بأمر سيده..

وشـــرط أخر للإمامة هو محل اشتراك بينها وبين إمامة الصلاة ألا وهو شرط الذكورة التي يشرحها " الغزالي" و يفصلها بقوله « أما الصفة الرابعة: الذكورية فلا تنعقد الإمامة لامرأة وإن اتصفت بجميع خلال الكمال وصفات الاستقلال وكيف تترشح امرأة لمنصب الإمامة وليس لها منصب القضـــاء ولا منصب الشهادة في أكثر الحكومات »[1]. و قد ورد هذا الموقف مؤيدا لقوله ﷺ « لعن الله قوما تقودهـــم امرأة » [2].

والصفة الأخرى التي أكد عليها "الغزالي" فهي نسب قريش ، "فالغزالي" كغيره من فقهاء الأمة السنيّين يجعل صفة القرشية من أهم صفات الإمام لما فيها من فضل عظيم يتأكد لنا من حديث الرسول ﷺ « الأئمة من قريش » [3].و قد تحدث " أبو بكر"- رضي الله عنه- عن فضل قريش وامتيازها عن غيرها « و أشار إلى ضرورة سياسية تجعل من وضع الإمارة في قريش عامل توحيد للعرب أكثر مما لو وضعت الإمارة في غير قريش ».

حتى أن " أبا بكر الصديق" احتجّ بنسب قريش ليحل مشكلة الخلافة بين المهاجرين والأنصار كمـــا هو معروف في التاريخ الإسلامي مستدلة بحديث النبي ﷺ السابق . ويرد في "موسوعة الأديان " قول للصحابي الجليل " أبي بكر الصدّيق " يفسر من خلاله فضل قريش ونسبهم وأولويتهم على غيرهـــم في خلافة النبي ﷺ « قـــال : لأننا نحن أوسط العرب أنسابا ليست قبيلة من قبائل العرب إلا و لقـــريش فيهـــا ولادة » [4].

---

1 – أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 180

2 – لا أثر له ، موضوع

3 – صحيح ، رواية متواترة عن أنس بن مالك

4 – مجموعة من الباحثين ، موسوعة الأديان في العالم، ج4 ، ص 08

و أغلب فقهاء الأمة و مفكري السياسة متفقون عل هذا ضرورة توفر هذا الشرط في المتقدم لتولي منصب الإمامة . فحسب "بن حزم" « لا تنعقد الإمامة إلا إذا تحققت أن يكون الإمام قريشيا لأن الأنصار لما اختلفوا مع المهاجرين احتجّ أبو بكر عليهم بالقريشية فاقتنعوا إذ قـــال: لا تدين العرب إلاّ لهذا الحي مـــن قريش » [1].

حتى أن " أحمد أمين" ذكر ذلك في ضحى الإسلام حين أشار إلى أن الناس ترك لهم الأمر لاختيار الخليفة بعد وفاة الرسول ﷺ لما ورد عنه ﷺ في حياته من الحث على ترك الحرية للناس كي يختاروا من يرعى شؤونهم . بناءا على تلك الحرية و مبدأ التشاور و ما ذلك إلاّ ليختار الناس بعد وفاته من يرونه أقدر على حمل عبء الخلافة و بتكاليفها.

لكن لا ينبغي أن يخرج اختيار الناس عن القريشيين لما رأى فيه الرسول من حفاوة وجســـــارة و قدرة على أداء متطلبات الإمامة، إضافة إلى ما تتميز به قريش عن سائر قبائل العرب من عصبية جعلت الناس ينساقون إلى إمرتهم و اختيار الخلفاء منهم لأن « من هؤلاء من رأوا أن تكون دائرة الاختيار محصورة في قريش لأن العرب أطوع للقريشيين ولأن الخليفة ينبغي أن يكون ذا عصبية تشد أزره وتحمي ظهره ولا قبيلة في العرب أعز من قريش» [2].

و في تحديد شروط الإمامـــة وضع مفكـــروا الإسلام على اختلاف مذاهبهم النسب القريشي في الحسبان . و يذكـــر" المـــاوردي" في الأحكام السلطانية فضل قريش و أحقيتهم بالخلافة معتبرا بالأحـــاديث المتواترة عن الرسول ﷺ كقـــوله « الأئمـــة من قريش »... و أيضـــا قـــوله ﷺ « قدّمـــوا قـــريش ولا تـــقدّموها » [3] و من المُسَلّـــم به أن تلك الأحاديث خير برهان على ضرورة نصب الأئمة من قريـــش دون سواهم « وليس مع هذا النص المسلم شبهة لمنازع فيه ولا قـــول لمخـــالف له» [4] .

ومن أهـــم الأسباب الدافعة لاشتراط صفة القريشية في الإمـــــام ، هو ما يتعلق بضمان استمـــرار الحكم و استقرار الدولة ، هذه الأشياء لا يتيحها إلا الانتمـــاء لقريش، بعصبيتها وشوكـــتها ، التي تساعد الخليفة على أن يكـــون قاهـــرا غالبا في رأيه مطاع . فالغلبة وغيرهـــا

---

1 – محمد أبو زهرة ،الإمام بن حزم ، ص 235 ، نقلا عن بن حزم ،الفصل في الملل والنحل ، ص 89

2 – أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ص 208 ، 209

3 – صحيح ، متفق عليه

4 – الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص 33

من طــرق الدفاع توفرها قريش لكل من انتمى إليــها . يتأكد اعتــقادنا هذا من موقف العلامــة "بن خلدون " الــذي يقول في هــذا الشأن مبرزا الحكمة من حصر الإمــامة في النسب القريشي « ونحن إذا بحثنا عن الحكمة في اشتراط النسب القريشي ومقصد الشارع منه لم يقتصر فيه علــى التبرك بوصله النبي ﷺ » [1].

من ناحية أخرى كان لقريش شرف ومكانة هامة بين العرب وقبائلهم فإذا أقدمت على حرب تهافت عليها الأنصار من كل حدب و ندب « و ذلك أن قريشا كانوا عصبة مضرَ وأصل الغلب منهم وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف، فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك و يستكينون لغلبهم » .

معنى ذلك أن لهــا من ينجدهــا و ينحاز إلى جانبهــا في الحرب و التجارة و الحكم .. فتكون لقريش الغلبة ربما لذاك السبب جعلت الإمامــة فيهم ، و اشترطت صفة القريشية في خليفة رسول الله ﷺ ، بل « لو جعل الأمر في سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم» [2].

و قد أخذ الإمام "الغزالي" يطعن بهذه الصفة في أولئك المعتدين المطالبين بالإمامة من الشيعة الفاطميين ومن والاهم من بعد في بلاد فارس ، الذين انتسبوا إلى قريش على غير عهد بهم و ما ذلك إلا ليحل لهم المطالبة بالإمامة و حكم القوم . وقد حكى الإمام "الغزالي" في كتابه " المستظهري " الفاضح لبدعهم إقدامهم على الانتساب إلى قريش فقال « لّما همّ الُمخالفون بمصر لطلب هذا الأمر(الإمامة) ادعوا أولا لأنفسهم الإعتزاء إلى هذا النسب علما منهم بأن الخلق متطابقون على اعتقادهم لانحصار الإمامة فيهم » [3].

و ما ذلك التلفيق و التزييــف إلاّ لبلــوغ هدفــهم الدنيء المتمحور حول " الإمامة " علما منهــم بأحقية القريشيين فقط في ذلك. « ولذلك لم يتصدى لطلب الإمامة غير قريشي في عصر من الأعصــار مع شغف الناس بالإستلاء و الاستعلاء وبذلهم غاية الجهــد والطاقة في الترقي إلى منصب الــعلا » [4].

---

1 – عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 208

2– المرجع نفسه ص 208 ، 209

3– أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص181

4– المصدر نفسه ص 180 ، 181

و من الأدلة الأخـــرى المؤكدة لفضل قريش ، وشرف الانتساب إليهم أن الخليفة "معاوية" -رضي الله عنه- غضب لما بلغه حديث " لعمرو بن العاص" من أنه سيكون ملك من قحطان فكان من جملة ما قاله « فإنه بلغني أن رجالا منكم يحدثون أحاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله وأولئك جهالكم فإياكم والأماني التي تضل أهلها فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله في النار علـــى وجهه ما أقاموا الدين » [1] فالقريشيون كانوا و لازالوا الأحق بتولي منصب الخلافة.

نختم كلامنا في شرط القريشيـــة بتأكيد ضرورة توفرها في الخليفة لما روي عن النبي ﷺ أنه قال« لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان » [2]. فكـــان النسب القريشي دافع للاعتزاز والفخر من ناحية ومن ناحية أخرى دافع وحام وصائن للإمامة من كل معتد ، فهي تضمن دوام الخلافـــة و استقـــرار حكـــ الحاكم.

إضافة إلى ما سبق من الصفات الخلقية يؤكد " أبو حامد الغزالي" كسائر العلماء على سلامة الأعضاء البدنية فلا يعتلي عرش الملك من هو غير مكتمل الأعضاء، بمعنى من شروط الإمامة والملك سلام الأعضاء خاصة السمع والبصر « إذ لا يتمكن الأعمى و الأصم من تدبير نفسه، فكيف يتقلد عهدة العالم ! ولذلك لم يستصلحا لمنصب القضاء » [3].

فإن كان الإمام سليما وقعت إمامته وإن طرأ أثناء إمامته عطب فيهما استحق العزل لما ثبت عند مفكري السياسة من اتفاق حول أهمية سلامة تلك الأعضاء لمن يتولى منصب الإمامة و إلا اختلت و بطلت إمامته « وأما ذهاب البصر فيمنع من عقد الإمامة واستدامتها فإذا طرأ بطلب من الإمامة لأنه أبطل ولاية القضاء ومنع من جواز الشهادة فأولى أن يمنع من صحة الإمامة » [4].و يقاس ما قيل عن البصر على غيره من سائر الأعضاء التي ذكرها "الغزالي" في شرائط الإمامة و اتفق فيها مع غيره من علماء الأمة .

فبرز بوضوح انتفاء عقد الإمامة وبطلان البيعة لمن لا يرى وحتى لا يميز بين الأشياء ولا يدركها.وحتى الصمم والخرس هما من معوقات الإمامة و قيامها إذ « الصم و الخرس فيمنعان من ابتداء عقد الإمامة لأن كمال الأوصاف بوجودهما مفقود »[5].

---

1 - البخاري ، صحيح البخاري ، ج4 ، حديث رقم 7139 ، ص 382

2- المرجع نفسه ،حديث رقم 7140 ، ص 383

3- أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 181

4- الماوردي ، الأحكام السلطانية ص 55 ، 56

5- المرجع نفسه ص 56

في حين يبقى الخرس صفة محل اختلاف بين منظري السياسة ، لأنه يمكن فهم مقصود الإمام بطريقة أخرى غير النطق كالإشارة والكتابة و غيرهما من سبل التعبير.

ممـــا سبق يتبين أن هذه الصفـــات الخلقية كانت في غالبيتها محل إجماع بين أئمة الأمة وفقهائهـــا و تبقى الصفـــات البدنية متفاوتـــة عند البعض دون أن ننسى تأكيد "الغـــزالي" على توفرهـــا عند وليه المستظهري لقوله في هذا الشأن « أن هـــذه الصفات الستة غزيرة لا يمكن اكتسابهـــا وهي: بجملتها حاضرة حاصلة فلا تثور منها شبهة المعاندة »[1] أي حاصلة لنصيره الخليفة العباسي القائـــم بالحق .

ولا يكتفي حجة الإسلام بهذه الصفات الخلقية الستة التي يرى وجـــوبها ضروري لانعقاد الإمامة بل إنه يضيف أخرى تتعلق بالاكتساب ، إذ هي تمثل المزايا التي لأجلها يتم التفضيل بين المتقدمين الطالبين للإمـــامة، « وأما الصفات الأربعة المكتسبة وهي النجدة والكفاية والعلـــم والـــورع »[2] وما هدف " الغزالي" من إيرادهـــا على هذا الترتيب إلا لإثبات توافرها بالقدر الكافي لدى الإمـــام العباسي القائم بالحق "المستظهر بالله العباسي " ثم يأتي الغزالي على تفضلها الواحدة تلـــوى الأخـــرى...

ب* الصفات المكتسبة

ليست خلقية بل منوطة بالاكتساب، و حددها "أبو حامد" في فضائح الباطنية و رتبها وهي:

1* النجدة:

لابد أن يتصف المتصدّي للإمامة بهـــذه الصفة حتى يكون أهلا لها و « مراد الأئمة بالنجدة ظهـــور الشوكة ، وموفور العدة ، والاستظـــهار بالجنود وعقد الألوية(الولاية) والبنود والإستمكان- بتضافر الأشياء والأتباع- من قمع البغاة والطغاة ومجاهدة الكفرة والعتاة وتطفئة نائرة الفتن وحسم مواد المـــحن قبل أن يستظهر شررها وينتشر ضررهـــا »[3] يمكننا شرح و تبسيـــط مضمـــون صفة النجدة فنقول أن معناها وجود شوكة للحاكم إذ بها يأمر و بها يطاع. وقد أدركنا مـــن قبل دور الشوكـــة في انعقاد البيعة.

---

1 – أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 181

2 – المصدر نفسه ص 181

3 – أبو حامد الغزالي ، ميزان العمل ، ص 182

و لو عدنا إلى إمـــامة " المستظهر بالله " لوجدناها مستوفية لهذا الشرط يقـــول " الغزالي" أنـــها« حاصلة لهذه الجهة المقدسة » موضحا ذلك كمـــا يلي «فالشوكة في عصرنا هذا من أصناف الخلائق للترك وقد أسعدهم الله تعالى بموالاته ومحبته حتى إنهم يتقربون من الله بنصرته وقمع أعـــداء دولته ، ويتدينون باعتقاد خلافته وإمـــامته ووجوب طاعته كما يتدينون بوجوب أوامر الله وبتصديق رسله في رســـالته» .

ورأى " الغزالي" عظم نجدة إمام الأمة العباسي التي أنكرها أعداؤه وأعداء الإسلام من الشيعة الباطنية فقال« فهذه نجدة لم يثبت مثلها لغيره فكيف يتمارى في نجدته »[1]. رغم أن الباطنية لا تعترف بنجدته وإمامته في ظل وجود مخالفين له و متمردين عليه من الترك والفرس، محاربين له من أقطار الأمة بمصر وغيرها وكل مطالب بالإمـــامة له.

مع أن وجود المخالفين للإمام القائم لا يضر بإمامته شيئا ولا يبطل أحقيته بها، ويذكّرنا " الغـــزالي" هنا بحكاية ما جرى لعلـــي-رضي الله عنه-حين عقدت له الإمـــامة في جو من الصراع و اضطراب للأحوال بسبب مقتل عثمان و خروج معاوية زيادة على ذلك « تخلف أشياعه عنه في القتال ومخالفتهم لاستصوابه في أكثر الأقوال والأفعال »[2].

ليبرهن الإمام " الغزالي" من خلال تلك الواقعة أن المخالفين للحكم هم موجودون في كل مكان وكل زمان في عهد "علي" وأيضا "المستظهر بالله" و حتى يومنا هذا لكننا صرنا نطلق عليهم مصطلح "المعارضة" أو اليساريين.. و غيره من الألقاب التي أظهرها التنافس والصراع السياسي على الملك.

و الباطنية طائفة من المناوئين لخـــلافة الإمام العباسي " المستظهـــر بالله "و لا تؤخذ القلة المخالفة بالكثـــرة الموالية « فإذا كانت تقوم شوكته بإتباع الأكثر من أتباعه من انتصاب من انتصب لمخالفته فكيف لا تقـــوم الشوكـــة في زماننا هـــذا » لذلك لـــم يبطل تمرد شرذمة الباطنية صحة إمامة الخليفة العباسي لأنه كما جاء على لسان "الغزالي" « لـــم يشترط في صحة الإمامة أن تصفوا الدنيا عن مدى المخالفة »[3] بل المخالفة تظهر دائما ، و على الحاكم إخمادها بعون من شوكته أو عصبيته التي تآزره . فلا رادع لكل مخالفة و لا حافظ للإمـــامة منها إلا النجدة و وجود شوكـــة للإمام.

1- أبو حامد الغزالي ، ميزان العمل ، ص 182

2 - المصدر نفسه ص 183

3- المصدر نفسه ص 184

الشوكة:

ملم تنعقد به الإمامة عند البيعة قيام الشوكة و معنى الشوكة القوم الذي ينصرون ويشايعون الإمام أو الشخص، و يتردد هذا المصطلح كثيرا في مقدمة "بن خلدون" تأكيدا منه على أهميته لدى مفكري السياسة في التنظير للحكم الإسلامي، فقد تكون الشوكة هي السبب في استمرار الحضارات والدول وفي الوقت ذاته قد تكون سببا في انحطاطها تدهورها.

وجعل " الغزالي" من الشوكة شرطا ضروريا لانعقاد الإمامة فبها تتحقق نجدة الخليفة وهي التي تنصره و تنتصر له « فإن شرط ابتداء الانعقاد قيام الشوكة وانصراف القلوب إلى المشايعة و مطابقة البواطن والظواهر على المبايعة »[1] و بهذه الشوكة يكون الإمام مطاعا لأنها تضمن نجدته و تقف معه في وجه البغاة و المنشقين عنه لأن معنى الشوكة شدّة البأس.

و بالنظر إلى ما حدث في حياة الرسول ﷺ حين بدأ بتأسيس بنيان الدولة الإسلامية يتضح ارتباط الشوكة بعقد البيعة يؤكد " الغزالي" ذلك الارتباط بقوله « فإن الإمامة عندنا (رأي الغزالي و أهل السنة) تنعقد بالشوكة و الشوكة تقوم بالمبايعة و المبايعة لا تحصل إلا بصرف الله تعالى القلوب قهرا إلى الطاعة و الموالاة » [2].فالخليفـــة هو من كان له أنصار وعصبية شديدة تأخذ بيده و يتغلب بها على غيره ، فيبلغ بفضل اتفاقها منصب الخلافة .

وكان في إجماع الأمة على اختيار الخليفة القائم بشؤونها الساهر على تطبيق الأحكام الشرعية تقديرا و اختيارا إلهيا لقوله ﷺ « لا تجتمع أمتي لا ضلالـــة » [3]. فلو ظهر أنه اختيار بشري ، إلا أنه في الحقيقة عناية إلهية و لطف رباني « فكأن في الظاهر رددنا تعيين الإمامة إلى اختيار شخص واحد وفي الحقيقة رددناها إلى اختيار الله تعـــالى و نصبه» [4].

و يشدد " الغزالي" على ضرورة وجود الشوكة للقائم المتصدي للإمامة لتعينه على ولاية أمر المسلمين « بل الولايـــة الآن لا تتسع إلا لصاحب الشوكة فمن بايعه صاحب الشوكة فهـــو الخليفة و من استبعد الشوكة وهـــو مطيع للخليفة في أصل الخطبة و السكة ، فهو نافذ الحكم والقضاء في أقطار الأرض ولاية نافذة الأحـــكام » [5].

1 – أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص177

2– المصدر نفسه ص 179

3 – ضعيف بهذا اللفظ

4 – المصدر نفسه ص 178

5 – أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1 ، ص 581

و للاشتـــراط وجود "الشوكة" ضمن شرائط انعقاد الإمامة ما يبرره فهي كما سبقت الإشارة من قبل تُؤمّن للحـــاكم الأمن و تجنبه التمرد أو الثورة عليه، لأنهـــا تمثل قوته في الأتباع والأنصار. و بما أن لكل شرط غايته و حكمـــة من اشتراطه في المتقدم لمنصب الخليفـــة فكذلك هو شأن الشوكة ، يقول حجة الإسلام « إنما الغرض قيام شوكة الإمام بالأتباع و الأشيـــاع وذلك يحصل بكـــل مستول مطاع »[1].

فالشوكة تنصر الإمـــام كما ينصر الأتباع بعضهم بعضا وعليه تقاس قوة الحاكم بقوة شوكته « و لا تقوم الشوكة إلا بموافقـــة الأكثرين من معتبري كل زمان» [2]. إذن الإمامة تصبح واجبة وتثبت لصاحبهـــا إذا أجمعت عليه الأمة وهنا وردت بلفظ الغزالي " الشوكة " .

هذه هي نفسها الفكرة التي جاءت فيما بعد عند "بن خلدون" و بنا عليها جل دراساته لتاريخ الأمـــم و الحضارات في تطورها ثم انحطاطها . فكثير من المفكـــرين يعولون على "الشوكة" في نصب الخليـــفة و يربطونها كما حـــال "بن خلدون" بمصطلـــح " العصبية " و ما اختيار الخليفة إلا بيد أنصـــاره و أشيـــاعه .

حتى أن " الغزالي" يظهر أهمية الشوكة و تأثيرها على استمرار الحكم من خلال هذا المثال الذي يورده في " الإحياء" إذ يقول « السلطان الظالم الجاهل إذا ساعدته الشوكة وعسر خلعه وكان في الاستبدال به فتنة ثائرة لا تطاق و وجب تركه و وجبت الطاعة له » [3].

و يسوقنا الحديث عن الشوكة إلى الصفة الثانية التي يضعها " الغزالي" كشرط ضروري لنصب الإمامة لكل طالب لها ألا و هي صفة الكفاية .

2* الكفاية:

من شـــروط الإمـــامة الكفاية، و هي أن يكون للحاكم من ينصره ليتغلب علـــى أعدائه فيخافه كل من تسول له نفسه التربص بخلافته ، فله من الأنصار ما يكفي لتدعيم إمامته، أي أن تكون له عصبية تكفيه إذا « الكفاية فهو أن يكون جريئا على إقامة الحدود واقتحام الحروب ، بصيرا بها كفيلا ليحمل الناس عليها عارفا بالعصبية و أحوال الدهاء قويا على معاناة السياسة ليصح له بذلك ما جعل إليه من حماية الدين و جهاد العدو و إقامة الأحكام وتدبير المصالح » [4] لذا عدّ شرط الكفاية من أبرز شروط الإمامة .

---

1 – أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 177

2 – المصدر نفسه ص 177

3 – أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ،ج1، ص570

4 – عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 207

و يؤكد العلامة "بن خلدون" على ارتباط دوام الحكم بشرط الكفاية و لن يتم ذلك إلا بوجود عصبية لقوله « إن الرئاسة لا تكون إلا بالغلب و الغلب إنما يكون بالعصبية » يضيف قائلا « فلا بد في الرئاسة على القوم أن تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم ، واحدة واحدة لأن كل عصبية منهم إذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم أقر بالإذعان والإتباع»[1] .

– لكن لماذا شرط الكفاية ؟ وكيف تتأتى مثل هذه العصبية ؟

يمكننا إدراك جواب شافي على السؤال السالف لو عدنا إلى شرط " القريشية " و ما قلناه عن قوة عصبية قريش وشوكتها . فما اشتراط الرسول ﷺ لها في قوله « الأئمة من قريش » إلا برهان قاطع يؤكد ويبرز دور العصبية و الشوكة في الدفاع عن الأهل والأعراض ، إذ أن نسب قريش وعصبيتهم كفيلان بتحقيق شرط الكفاية.

و يوضح الإمام " الغزالي" معنى الكفاية بقوله « ومعناها التصدّي لحق المصالح في معضلات الأمور والإطلاع على المسلك المقتصد عند تعارض الشرور كالعقل الذي يميز الخير عن الشر» [2] فهي تتيح معرفة الأمر المناسب وتهدي إلى حسن الاختيار.

و هذا يستوجب وجود تدبر و تفكــر منظم للوصول إلى الـــرأي السديد فإن «مقصودها إقامة تنظم الأمور الدينية والدنيوية » [3] و يرى الإمام " الغزالي" أن الكفاية تعرف بحسن التدبير و التفكير لقوله « و هل يستدل علـــى كفاية الملوك بشيء سوى انتظام التدبير و حسن الرأي في اختيار المشـــير والـــوزير » [4] لذلك عـــدّت صفة مكتسبة بالجد والمواظبة على الإطلاع لتحصيل خبرة كافية يسترشد بها الخليفة.

فلا يبلغ شـــرط الكفاية بالعصبية و لا الشوكة و لا حتى بقربى قريش ، لذلك احتيج فيها إلى شيئين هما ركيزتيـــن للإمامـــة « أحدهما الفكـــر و التدبير و شروطه الفطنة والذكـــاء » [5]فلا بد من عقـــل وهاج ثاقب ، و حنكة و سرعة بداهة للخروج من أي مأزق أو طارئ يطرأ علـــى الخليفـــة إن تولى منصبه . فـــاقتضى ذلك منه اعتماده على ذاته و استنفاذ قدراتـــه لبلوغ هدفـــه «وهـــذه خصلـــة تميز فيها المنصـــور إمامتـــه و المفروض طاعته عن النظراء بمزيد النـــفاذ و المضاء

---

1 – عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 146

2 – أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 185

3 – المصدر نفسه ، ص 186

4 – المصدر نفسه ، ص 187

5 – المصدر نفسه ، ص 185

حتى صـــار أكابر العقلاء يتعجبون في معضلات الوقائع مـــع رأيه الصائب وعقله الثاقب وبفطنة للدقائق » [1] لينتقل إلى الركيزة الثانية المكتسبة للكفاية و هي « الاستضاءة بخاطر ذوي البصائر واستطلاع رأي أولي التجارب على طريق المشاورة » [2] .

و عليه يدعو " الغزالي" إمام الأمة و حاكم زمام أمورها إلى استشارة ذوي العلم والراسخين في الدين ، عملا بقوله تعالى ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [3] فيتخذ من العلماء منارة يسترشد بضيائها إلى طريق الحق .

كما يمكن أن يكون المستشار " وزيرا " على قدر كبير من العلم والحنكة ، لما للوزير من حسن التدبير و التأثير على الخليفة ، فلا ينفرد الخليفة برأيه وحده . و هذا الشرط حاصل في خلافة "المستظهر" إذ « قد وفق الله الإمام بتفويض مقاليد أمره إلى وزيره الذي لم يقطع ثوب الوزارة إلا على قده حتى استظهر بآرائه السديدة في نوائب الزمان ومعضلات الحدثان ومراعاة مصالح الخلق في حفظ نظام الدين والملك» .

مما سلف يتبين أن وجـــود الكفاية من ضروريات الحكـــم ، و هي تحصل للإمام إما بغزارة عقله أو بعون مستشـــاريه ، و يلزم عن ذلك القول بأهمية وجود " المشير" للحاكـــم ، لأنه يساعده على تدبير شؤون الأمـــة بما يملكه من خبرة و عـــلم إذ « هو الجامع للصفات التي شرطها الشرع والعقـــل في المدبـــر والمشـــير» [4] .

3* الورع :

هـــو الصفة الثالثة من صفـــات الإمام و التي يوردها " الغزالي" في "فضائح الباطنية" حيث يقول في وصفهـــا « أما الورع فـــهو وسط بين الرياء و الهتكة وهو تزيين النفس بالأعمال الصالحة الفاضلة طلبا لكمـــال النفس و تقربا إلى الله دون الرياء و السمعة »[5]. فكانت هذه الصفة مما هو ضروري للإمـــام الحاكم المستخلف في الأمة فلا يكون شديد البخل والإفراط ولا يكون خلاف ذلك بمعنى لا يقبل على الدنيا إقبالا شديدا ينهمك خلاله في إرضاء شهواته وتحقيق لذاته لأنها مفسدة للدين و طلب للدنيا .

---

1 – أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 185

2 – المصدر نفسه ص 185

3 – سورة آل عمران آية 153

4 – المصدر نفسه ، ص 186

5 – أبو حامد الغزالي ، ميزان العمل ، ص 283

فارتبط معنى الـــورع بالزهد و التعفف عن مغريات حيـــاة الدنيا و ترك كـــل ما من شأنه أن يوقـــع الحاكـــم في المعاصي و الفتن ، لذا ينصح " الغزالي" إمام الأمة بأن يكون ورعـــا في قولـــه « اعـــلم أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وأن الدنيا مزرعة للآخرة ففيها الخير النافع وفيها السم الناقـــع ومثالها مثل حية » [1].

و قد بلغنا الكثير من الأخبار في ذم الدنيا و ملذاتها من القرآن والسنة جسدها الرسول الأكرم ﷺ وسار على نهجه الخلفاء الراشدون مـــن بعده، ولنا في الإمام علي-رضي الله عنه- أوضح دليل على سيرة الخلفاء ، حيث يستشهد حجة الإسلام بما قاله في ذم الدنيا « أوصيك بتقوى الله والترك للدنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تحبون تركها، المبلية أجسامكم وانتم تريدون تجديـــدها » ويضيف قائلا« ولا تفرحوا بمتاعها ونعمائها فإنه إلى زوال عجبت لطالب الدنيا و الموت يطلبه وغافل ليس بمغفول عنه» [2] ليثبت "الغزالي"من وراء تلك المواعظ تنزه الإمام العباسي القائم بالحق عن شهوات الدنيا و اقتداءه بالخلفاء الراشدين في الحكم .

ومع ذلك لا يكُـــف " الغزالي" عن نصح أمامـــه و توجيهه كما هو واجب العلماء اتجاه ملوكهم . فيعضه بما وعظ به سابقوه من علماء الدين خلفاءهم ، من نهي عن الإقبال على الدنيا ودعوة إلى العدل و الإحسان مقتديا في ذلك بما فعله الإمـــام البصري إذ « كتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيـــز أما بعد ، إن الدنيا دار ظعن ليست بـــدار إقامة وإنما أنزل آدم – عليه السلام – من الجنة إليها عقوبة فاحذروها يا أمير المؤمنين ، فـــإن الزاد منها تركها والغنى منها فقرها ، لها من كل حين قتيل تذل من أعزها وتفقر من جمعها هـــي كالسم يأكله من لا يعرفه ، وفيه حتفه فكن فيها المداوي جراحه يحتمي قليلا، مخافة ما يكـــن به طويلا ويصبر على شدة الدواء ، مخافة طول الـــداء ، فاحذر هـــذه الـــدار الغدارة الختالة والخداعـــة التي تزينت بخدعها و فتنت بغرورها و حلت بآمالها .. فاحذروها يا أمير المؤمنين وكن أسرَ ما تكون فيه ، أحذر ما يكون فيها أحذر ما يكون لها ، فإنَ صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه الضار في أهلها غار والنافع فيها غـــدار ضـــار »[3].

---

1 – أبو حامد الغزالي ، ميزان العمل ، ص 372

2 – أبو حامد الغزالي ، مكاشفة القلوب ، المكتبة العصرية ، صيدا بيروت ، [د ط] ،2005، ص 115

3 – المصدر نفسه ص 112

و الـــورع أفضل صفة من صفات الإمـــام لقيمتها في حد ذاتها إذ هـــي خصلة لا تكتسب بالغير أو بعونهـــم بقدر ما تكون ذاتية وأساس كل تقـــوى و « هي أعز الصفات وأجلها وأولاها بالرعـــايات وأجدرهـــا » حـــتى بلغت من الأهمية عند " الغزالي" حدا اعتبر فيه « الورع هو الأســـاس و الأصل و عليه يدور الأمر كله و لا يغني عنه ورع العسر وهو رأس المـــال ومصدر جمـــلة الخصال » [1] .

إن افتقاد الحاكم لصفة الورع يعيب إمامته، إذ يترتب عن غيابها إخـــلال بالأمانات وتقصير في الوجبات والحقوق و ينعكس ذلك سلبا على الإمـــامة حيث يرى حجة الإســـلام أنه لو « اختل هذا – والعياذ بالله- لم يبق معتصـــم في تحقيق الإمامة » [2].

فلا بد من اتصاف الإمـــام بهذه الصفة من البر و التقـــوى و الإحسان إلى ذوي الحاجة وتجنب الملـــذات والشهوات المفرطة والمعاصي، وأن يعمل على نشر الخير ورعايته بالقول والفعل فيكون قـــدوة للأمـــة وشعبه. و هذه الخصلة ملازمة للإمـــام العباسي "المستظهر بالله" حيث يظهر ذلك من مدح " الغزالي" في قوله « فالحمـــد لله الذي زين أحـــوال الإمـــام الحق المنصور إمامته بالـــورع والتقوى حتى أوفى فيه علـــى الغاية القصوى فتميز بمثانة الدين و صفـــاء العقـــل واليقين في جمـــاهير الخلفـــاء »[3].

لكن " الغزالي" لم يكتف بوصف خليفة رسول الله – أي المستظهر بالله- بصفة الورع بل بيّنها في فعله وعمله الصالح و انجازاته فذكر بعضها مثل « إفاضة الخيرات والعطف على الرعايا وذوي الحاجات وقطع العمارات التي كانت العادة جارية بالمواظبة عليها- كل ذلك إضرابا عن عمارة الدنيا و إنكبابا على ما ظهر من عمارة الدين » إضافة إلى ما عرف عنه من زهد وتقية و كثرة عبادات و« هذا مع ما ظهـــر من سيرته خاصة حـــالته من لبس الخشنة واجتناب الترفه والدعة والمواظبة على العبادات ومهاجرة الشهوات واللذات استحقارا لزخارف الدنيا وتوقيا من ورطات الهوى والتفاتا إلى حسن المآب في العقبى» [4].

و الـــورع غير العصمـــة فهو يختلف في معناه عنـــها ، لذا ينكـــر حجة الإســـلام ما يشترطه "شرذمـــة الباطنـــية "من إدعـــاء العصمة كشرط لقيام الإمامة لأن العصمة من صفات الأنبياء التي

---

1 – أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص187

2 – المصدر نفسه ص 187

3 – المصدر السابق ص 187

4 – المصدر نفسه ص 188

ما تزال مثار جدل بين الفقهاء ، فكيف سيتفقون حولها في مجال الإمامة ما داموا لم يجمعوا عليها في مسألة النبوة وهنا يقول " الغزالي" « لا يظنن ظان أنّا نشترط في الإمامة العصمة فإن العلماء اختلفوا في حصولها للأنبياء والأكثرون على لأنهم لم يعصموا من الصغائر و لو اعتبرت العصمة من كل زلة لتعذرت الولايات و انعزلت القضاة و بطلت الإمامة» [1].

فإذا كـــان الأنبياء أنفسهم عرضة للوقوع في الخطأ فما بالك بالأئـــمة و هم بشر من هذه الأمـــة « إذ لا عصمة للصحـــابة فضلا عمن دونهم ، والأنبياء – عليهـــم السلام- قد اُختلف في عصمتهـــم عن الخطايا والقرآن العـــزيز دال على نسبة آدم عليه السلام إلى المعصيـــة ، و كذا جماعة من الأنبياء » [2].

والمشهور أن نبي الله محمد ﷺ كان يستغفر لذنوبه و هو المختار من الله البشير المصطفى الطاهر حيث قال ﷺ « إني لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة » مع أنه ﷺ غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر وله حديث آخر كما قال النبي ﷺ « إنه ليغان على قلبي حتى إني لأستغفر الله تعالى في كل يوم مائة مرة» [3] .

كان هذا حال النبي ﷺ و منزلته أعلى منزلة من الإمام ومن كل إنسان آخر، و قد أجمع العلماء على أن العصمة له في أشياء هي الكبائر دون أخرى و هي الصغائر في حين « الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم و لا هـــو مهبط الوحـــي و لا من حقه الاستئثار بتفسير الكتـــاب والسنة » [4]. لكـــن يبدو هذا الكلام نقيضا لما سبق و قلناه عن الشيعة فالإمام عندها معصوم يتولى تفسير و تأويل الشريعة و بالتالي لا يخضع للتكاليف و هو فوق أحكام الشرع..

الأمر الذي استفز " الغزالي" و استنكره و دفعه لإبطاله ، مؤكدا أنه لم يرد نص ولا حتى تأكيد لهذه العصمة إلا لدى الشيعة " الباطنية" لما ثبت عنه من القول « أما دعوى عصمـــة الأئمـــة فلم تقم حجة تدعمها إلا ما يراه الشيعة من ضـــرورة عدم خلو العـــالم من أئمة معصومين وهـــم علة اللطف والمصلحـــة » [5] و ذاك مناف لما أجمع عليه سابقا سلف الأمة وفقهاؤها الراسخون في العلم في كل عصر من العصـــور.

---

1 – أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 19

2 – أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين، ج1، ص 766

3 – المصدر نفسه ص 356، أحاديث صحيحة أوردها بن ماجة و أبو داوود

4 – السيد رشيد رضا، الخلافة ، ص 140

5 – مصطفى حلمي ، نظام الخلافة ، ص 240

فالرســـول المعصـــوم واجب الطاعة بعد الله تعالى لقـــوله تعالى ﴿ وَمَن يُطِـــعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـــئِكَ مَـــعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِـــم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِيـــنَ وَالشُّهَـــدَاء وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولَـــئِكَ رَفِيقـــاً ﴾ .[1]

وما ادعاء الشيعة لعصمة الأئمة إلا للإلزام الخلق بطاعتهم « فخطأ المذهب الشيعي ناجم عن مساواة هذا الإمام من حيث الطاعة بالرسول ﷺ مع وجود هذا الفارق الجوهري فإن الرسول ﷺ له أقواله وأفعـــاله المعلومة المنقولة للمسلمين كافـــة وطاعته هي مدار السعادة، بينما الإمام المختفي مجهـــول الأقـــوال والأفعال إلاّ في مخيلة الشيعـــة المروجين لما ليس له أســـاس من الأسانيد الصحيحة » [2] فبان بطلان دعوى الباطنية و تهافت آرائهم ليظهر الحق في إمامة "المستظهر" الورع المتقي المجد في إحقاق الحق و المجتهد في طلب العلم و صحبة العلماء.

و ترتب عن الشـــروط و الصفات التي حددها " الغزالي" في الإمـــامة من ورع و تقوى وكفاية.. اتصاف الإمام بصفات أخرى طالما لازمت خلفاء الإســـلام و حـــاولوا تطبيقها في رئاسة الناس و سياسة الدولة أهم تلك الخصال "العدل" كفضيلـــة أخلاقية سامية و "العلم" كمطلب إنســـاني هـــام وضروري.

4* عدل الإمام

شدد الإمـــام " الغزالي" على عدالـــة الحـــاكم فحسب ما حكـــى في "التبر المسبوك" أن جلّ « الأماكـــن تخرب إذا استـــولى عليها الظالمون ويتفوق أهل الولايات ويهربون في ولايات غيرها ويقع النقـــص في الملك و يقل في البلاد الدخل وتخلـــو الخزائن من الأمـــوال و ينكدر عيش الرعايا » [3] فحيثما حلّ العدل يحلّ السلام ويتبعه الأمن و الاستقرار .

فكان العدل مطلبا يسعى وراءه الحكام و رغبة يتمناها المحكومين من الرعية ، وتشيد كتب التاريخ بالأمراء و الملوك العادلين و تخلد ذكرهم . ولقد اعتبر عدل الحاكم من أسباب العمران و من عوامل التقدم ، ما اتصف به الحكام « أما ترى انه إذا وصف بعض البلاد بالعمارة وان أهله في أمان و راعة ودعة وغبطة فإن ذلك دليل على عدل الملك وعقله وسداده وحسن نيته في رعيته»[4] .

---

1 – سورة النساء آية 69

2 – أحمد بن تيمية ، منهاج السنة، ج1، ص 150

3 – راشد لبراوي ، قادة الفكر الإسلامي في ضوء الفكر الحديث ، ص 346 ، نقلا عن الغزالي ، التبر المسبوك ، ص 58 ، 59

4 – المرجع نفسه ص346

وكـــان من مستلزمات العدل أن يتصف الحاكم بالهيبة والرهبة ليتمكن من تطبيقه على الكافـــة « والهيبة من مستلزمات الحاكم وضعفه يؤدي إلى اختلال الأمور وفي هذا يقول يجب أن تكـــون هيبته (أي السلطان) بحيث إذا رأته الرعية خافوا ولو كان بعيدا .. وإذا كان السلطان ضعيفا أو غير ذي سياسة أو هيبة فلا شك أن ذلك يكـــون سبب خراب البلاد »[1] فلـــم يكن يوما معنى العـــدل دالا علـــى الضعف بـــقدر ما هو مرتبط بقـــدرة و استطاعـــة لإنفاذ أمر الحاكم و ورهبة تدفع للامتثال له .

يقـــدم " الغزالي" في كتابه" التبر المسبوك " بيانا بما يدعوه الأصـــول العشرة للعدل والإنصاف و هي أشبه بوصايا ينصح الحاكم بإتباعها لصلاح حكمه ومن أبرزها « أن يعرف قدر الولاية ويعلم خطرها فإنها نعمة من نعم الله من قام بحقها نال من السعادة ما لا نهاية له ولا سعاد ة بعده ، ومن قصر عن النهوض بحقها فضل في شقاوة لا شقاوة بعدها إلا الكفر بالله »[2] فالعدل في الحكم فضيلة و تكليف لمن تولى أمـــر المسلمين بل تكاد تكون الغاية المنشودة من نصب الإمامة هي تطبيق العدل و دفع الظلم لتعم السعادة بين الناس .

والـــدليل على عظم قدر صفة العدل و فضلهـــا ما يقدمه " الغزالي " في كتبه لا سيما " التبر المسبوك" من أحـــاديث مروية عن الرسول ﷺ يحث فيهـــا علـــى إتيانه و العمل به فقد قال ﷺ «عدل السلطـــان يوما واحـــدا أحب إلى الله من عبادة سبعين سنة » وأيضا قول النبي في موضع آخـــر « أحب الناس إلى الله تعـــالى وأقربهم إليه السَلطـــان العادل و أبغضهم إليه وأبعـــدهم منه السلطـــان الجـــائر »[3].

فلا بد إذن من الالتزام بإقـــامة العـــدل وتجنب الجور و هذا لـــدوام الحكـــم ، واستقرار أحـــوال الرعيـــة فعدل الحاكم يجلب حب الناس فيقبلون علـــى طاعته وتذلل له الصعـــوبات ويعـــده "الغـــزالي" العدل من أهـــم الفضائل التي ينبغي للحاكم الاتصاف بهـــا يتحدث عن ذلك في كتـــاب "ميزان العمل" حاكيا عن قيمـــة العدل فيقول « أما العدل .. فليس هو من الفضائل بل هو عبارة عن جملة الفضائل ، فإنه مهما كان بين الملك وجنده ورعيته ترتيب محمود يكون الملك

1 – راشد لبراوي ، قادة الفكر الإسلامي في ضوء الفكر الحديث ، ص **346**

2 – المرجع نفسه **350** ، نقلا عن التبر المسبوك ، ص **16**، **17**

3 – راشد لبراوي ، قادة الفكر الإسلامي في ضوء الفكر الحديث ص **350** ، نقلا عن التبر المسبوك ، ص **16**، **17** (أحاديث ضعيفة)

بصيـــرا قاهرا وكون الجند ذوي قوة وطاعـــة وكون الـــرعية ضعفاء سلسي الانقياد، قيل إن العـــدل قائـــم في البلد » [1].

حتى أن حجة الإسلام " الغزالي " يربط بين ذلك العـــدل في الحكـــم و العدل في ترتيب البدن و وظائفه لقوله « و العدل في السياسة : أن ترتب أجزاء المدينة الترتيب المشاكل لترتيب أجزاء النفس » [2] و هي ميزة دأب عليها مفكروا الإسلام بالنظر إلى ما كان يوصي به النبي من أن المجتمع الإسلامي كل نتكامل يشبه أعضاء البدن في وحدته و بنيته.

هكذا جعل المفكر الأشعري من العدل إحدى الفضـــائل اللازمة لمن يتولى منصب الإمامة تماما كمن يتولى منصب القضاء عملا بقول الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [3] حيث أمر الحكام بذلك لما فيه من الخير الكثير للرعية ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ ﴾[4] وهذا أهم دور من الأدوار الموكلة إلى الإمام حين يتولى منصبه.

5* العلــم:

ورد الحث على طلب العلم في القرآن و السنة النبوية الشريفة للخلق أجمعين و أولي الأمر على وجه التحديد لما له من فضل عظيم في حياة الأفراد والمجتمعات يقول الله تعالى في شأن العلم ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [5].

و أيضا قال تعالى في مترلة العلماء ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [6] كما قال المـــولى -عز وجل- مادحا العلماء باعتبارهم أكثر الناس دراية بأمور الدين وأشدهم خشية لله تعالى﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء ﴾ [7].

---

1 – أبو حامد الغزالي ، ميزان العمل ص 272

2– المصدر نفسه ، ص 273

3– سورة النحل آية 90

4– سورة النساء أية 58

5 – سورة المجادلة الآية11

6– سورة الزمر الآية 09

7– سورة فاطر الآية 28

و يؤكد حجة الإسلام " الغزالي " على أهمية العلـــم و فضله فبه تشيّد الحضـــارات و تتطور فهو عمـــاد الدولة و العلماء أساسها لأن « بالعلماء حراســة الدين و بالأجناد حراسة الدنيا والدين و الملك توأمان فلا يستغني أحدهما عن الآخر »[1] فكان بذلك طلب العلم فريضة على كل مسلم و مسلمة. و قد ورد « في الصحيحين من حديث معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : من يرد الله به خيرا يفقه في الدين »[2] .

و قد فضل الرسول الكريم ﷺ العبد العالم على العبد العابد لما للأول من نفع عام ، فعن أبي أمامه – رضي الله عنه – قال ذكر رسول الله رجلان أحدهما عابد و الأخر عالم فقال: رسول الله ﷺ« فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»[3].

و في حديث أخر قال النبي ﷺ « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب و أن العلماء ورثة الأنبياء و أن الأنبياء لم يرثوا دينارا واحدا و لا درهما و إنما ورثوا العـــلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر »[4]. و المغزى من تلك الأحاديث أن دور العلماء في شرح الشريعة و استنباط أحكامها .. لا غنى عنه إذ هم متممي عمل النبيﷺ .

و قد أدرك الإمام " الغزالي" فضل العلم و ضرورة ملازمته للخلافة وحصوله للحاكم فجعل من شروط الإمام أن يكون شخصا مشجعا للعلم طالب له، ساعي لتحصيله ، لما في ذلك من فائدة للأمة و لدوام الحكم .فإن لم يكن العلم شرطا من شروط الإمامة لازما عند الغزالي — للمتصدي لها- فهو على الأقل مطلب ضروري يصاحبها.

فإن لـــم يكن الإمام مالك علم في ذاته ، وجب عليه أن يصاحب العلمـــاء لينتفع بهم وينفع بهم دولـــته « قال معـــاذ بن جبل – رضي الله عنه- تعلموا العلـــم فإن تعلمه لله خشية، و طلبه عبادة و مدارسته تسبيـــح ، و البحث عليـــه جهاد و تعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، و بذله لأهله قربة ، وهو الأنس في الوحـــدة والصاحب في الخلـــوة »[5] . ومن الجلي أن " الغزالي" لم يبـــطل

1- أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ،ج**1**، ص**570**

2- صحيح متفق عليه لدى البخاري و مسلم و رواه الترمذي أيضا

3 -الترمذي

4 – أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج **1**، ص**14**، **15** (رواه أبو داود و الترمذي و بن ماجه)

5 – ابن قدامه المقدسي ، مختصر منهج القاصدين ، الشركة الجزائرية اللبنانية ، ط**1**، **2006** ، ص **13**، و أبو حامد الغزالي ، الإحياء ، ج**1**، ص **21**

إمامة من لم يكن عالما في ذاته ومتفقها في الدين ما دام يمكنه بلوغ تلك الخصلة بعون غيره من العلماء و الراسخين في الدين عن طريق مشاورتهم و العودة إلى اجتهاداتهم .

فلا يقصر العالم في نصـــح خليفة الأمـــة و لا يتوانى عن خـــدمته و بذل الجهد في سبيل وعظه و تقـــويمه فإن تخاذل العلمـــاء عن أداء واجبهم اتجاه حكـــامهم يعود بالبلاء على الأمة فتفوت مصلحة الانتفـــاع منهم . و قد روي عن الرسول ﷺأنه قال: « أشدّ النـــاس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه علـــمه» [1] .

لكـــن العلم المستحب المرغّب فيه للأئمـــة هو ذلك الذين يقصدون من ورائه إصلاح الأحوال و تطبيق العـــدل و إرساء قواعد الشرع و ليس بغرض المباهاة و لا التفاخـــر. فعن النبي ﷺ أنه قال « من تعلم علما يبتغي به وجه الله -عز و جل- لا يتعلمه إلا ليصيب به عرض من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » و قال ﷺ أيضا « من تعلم العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه فهو في النار» [2].

ومع ذلك يحذر " الغزالي" العلماء من الإكثار من طرق أبواب الأمراء إن كانوا ظلمة حتى لا يؤثر ذلك على إيمانهم أو تغريهم أموالهم.. فيلينون لهم و ينصروهم على الظلم و في حديث دار بين النبي وأحد الصحابة حول تزايد الفتن و حال الناس معها أنه ﷺ« قال لحذيفة- رضي الله عنه- إياكم و مواقف الفتن، قيل: و ما هي؟ قال أبواب الأمراء يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه »

و قد تسبب التقرب إلى الملوك في ظهور نوع من العلماء كان خطرهم على الأمة أشدّ من نفعهم .حيث اتصف ثلة من العلماء المتملقين للسلطة وطلبا للشهرة و الجاه بصفات رذيلة أحدثت فتن و قلاقل و سولت لهم أنفسهم بإصدار أحكام و فتاوى تماشيا مع أهواء السلطة فلم يقم هؤلاء العلماء بواجبهم من النصح و التوجيه في حين « من صفات علماء الآخرة أن يكونوا منقبضين على السلاطين محترزين من مخالطتهـــم »[3].

---

1 – ابن قدامه المقدسي ، مختصر منهج القاصدين ، ص 21

2 – المرجع نفسه ص 26 (أوردها الدرامي)

3 -أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج 1 ، ص 572 ، 573

وكان تخويف " الغزالي" للعلماء من قرب باب الملوك رغم حاجتهم الملحة إلى المشورة والنصح بسبب ما شهده عصره من تنافس على مخالطتهم و تزييف للأحكام على أهوائهم حتى صارت بدعة الحاكم مبررة و سلطته مطلقة .. كحال أئمة الشيعة الباطنية وغيرهم.

وفي مثل تلك الأحـــوال و الظروف نصح الـــغزالي العلمـــاء بعدم مخالطة الملوك الظلمة والفجرة كي لا يؤثر ذلك على دينهـــم ، كما حكـــى بعض السلف « أنك لا تصيب من دنياهم شيئا إلا أصـــابوا من دينك أفضل منه » و السبب في ذلك « أن الداخـــل على السلطان متعـــرض لأن يعصي الله تعـــالى إما بفعلـــه أو بسكوته و إما بقوله و إما باعتقاده فلا ينفك عن أحـــد هـــذه الأمور» [1].

فبعض العلمـــاء كانوا بلاء على الحكـــام و الأمة ، لذا يربط " الـــغزالي" صلاح البلاد بصلاحهم و خرابها بفسادهـــم يقول مؤكدا هذا الأمـــر في " الإحياء" « و بالجملة إنما فسدت الرعية بفساد المـــلوك فساد الملوك بفساد العلماء فلولا القضاة السوء و العلمـــاء السوء لقل فساد الملـــوك خوفا من إنكـــارهم » وبذلك قـــال ﷺ « لا تزال هذه الأمة تحت يد الله و كنفه مـــا لم يمالئ قراؤهـــا أمراؤهـــا » [2].

فإذا كانت مهمة العالم نصح الحاكم و إرشاده إلى طريق الحق، و في حالة عجزه عن أداء وظيفته مع الملوك الظلمة ، فيستحسن أن يكون بعيدا عن مجالسهم التي تفوح بالضلال والمعصية من أن يكون معينا لهم على ظلمهم سواء بسكوته أو بكلامه .

و لتفادي كل ذلك و غيره رأى " الغـــزالي" أن يجعل من العلم صفة هامة يتطلبه منصب الولاية ، سواء تحققت للخليفة في ذاته أو بمشورة العلماء . معنى ذلك أن " الغزالي" لا يشترط في الحاكم و إمام الأمة العلم الوفير، و لكن على الأقل أن يكون طالبا له ساعيا وراءه حريصا على إقامة حدود الله بما تأتى له من علم . فينصح حجة الإسلام الحكـــام بمصاحبة العلماء بغرض مصلحة الخاصة والعامة « فالديـــن النصيحة » [3] لكن في المعروف و الخير..

الملاحظ أن الفيلسوف "الـــغزالي" في هذه الصفة غير جـــازم ولا حازم في أمرهـــا، ولا نفـــهم من ذلك رفضـــه لها أو نكرانها كشرط لازم لقيام الإمامة، بل بالعكس من ذلك يراها مهمة

---

1 – **أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج 1 ، ص 572 ، 573**

2 – **المصدر نفسه ، ص 518**

3 – **أورده مسلم**

كغيره من علمـــاء الأمة، لكن تردده كان في مسألة توفرها للإمـــام الحاكـــم في ذاته أو إمكان حصولها له من مستشاريه و غيرهـــم .

لكننا نلاحظ " الغزالي" في مسألة العلـــم مترددا حازم غير جازم .فـــهو من ناحية يرى أن العلـــم من ضروريات الإمامـــة حيث « اتفق رأي العلماء على أن الإمامـــة لا تنعقد إلا لمن نال رتبة الاجتهاد والفتوى في علوم الشرع »[1]. لذلك نراه يرغب في العلـــم ويحث على طلبه كما فرض ذلك رســـول الله ﷺ مبرزا فضل العلـــم والتعلم في كتاب " الإحياء" من خلال نصوص شرعية عديدة منهـــا قوله تعالى ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِيـنَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِيـنَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[2] وغيرهـــا من الآيات و الأحـــاديث المشهورة في الحث على طلب العلم و السعي في سبيل تحصيله وإبراز فضل العلمـــاء ومكـــانتهم .

و من ناحية أخرى يتردد في أمـــر توفرهـــا في ذات الحاكم و شخصه . فرغم أهمية العلـــم وجعله من مقتضيـــات الحياة السياسية إلا أن الغـــزالي لا يجعلـــه صفة وشرطا لازما لشخص الإمام، فلو تعذر حصولـــه له جـــاز الاستعانة بغيره من ذوي العلـــم والرأي.. تماما كالشروط الأخرى السابقة (الكفايـــة و النجدة..) . ربما يجســـد هذا مبدأ التشاور مع أولي الرأي و أهل الحكمـــة لدفع التباغض و الأنانية والاستبداد بالـــرأي « فإن الاستبداد بالرأي و إن كان من ذوي البصائر مـــذموم ومحـــذور»[3].

و قد حث " أبو حـــامد الغزالي" على ضرورة مصاحبة الحكام للعلمـــاء و العودة إليهم في كل أمـــر جليل أو هين ، إذ يتعين على الحاكـــم أن يقرّب إليه العلمـــاء في الدين ليعلموه أحكام الشرع و يوضحوا له مسالك تطبيق طريـــق العدل . و من هنا يوجه حجة الإسلام دعوة الحاكم ينصحه فيهـــا برفقة العلماء الراسخين في الدين و اتخاذهـــم بمثابة مشيرين و معينين له على تدبير شؤون الرعية، فيقول له « و ليكن لك جماعـــة من أرباب العلـــم و العقل و التجـــارب في الرأي و المشـــورة و وزراء خير لا فسقـــة »[4] .

فالعلـــم و الاجتهـــاد لدى الحاكم ليس مما تنعقد به الإمـــامة « و ليست رتبة الاجتهاد مما لابد منه في الإمامـــة ضرورة بل الورع الداعي إلى مراجعة أهل العلم فيه كاف ، فإذا كان المقصود

---

1 – أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 191

2 – سورة المجادلة ، آية 11

3 – أبو حامد الغزالي ، المصدر نفسه ، ص 186

4 – أبو حامد الغزالي ، سر العالمين و كشف ما بين الدارين ، ص 08

ترتيب الإمـــامة على وفق الشرع ، فأي فرق بين أن يعـــرف حكم الشرع بنظره أو يعرفه بإتباع أفضل أهـــل زمـــانه » [1] فالغاية من اشتراط العلـــم بلوغ الأحكام الصحيحة و هـــذا مقدور عليه إذا ما رجع الخليفـــة إلى رأي جمـــاعة علمـــاء الأمـــة وتشاور معهـــم ﴿ و أَمـــرُهُمْ شُـــورَى بَيْنَهُـــمْ ﴾ [2] .

ولا يجوز خلـــع الإمام أو عزله لنقص هذه الخصلة في ذاته و عـــدم تحققها في شخصه، ما دام يكمّل نقصها بمشاورة غيره من أهل العلم والرأي لسببين : أولهما الخوف من قيام الفتن والثـــاني أن العلم ليس من الشروط الضرورية لانعقاد الإمامـــة . و في هذه الحـــالة « لم يجز خلعه و الاستبدال به بل تجب عليهم الطاعـــة له و الحكم بنفوذ ولايته وصحة إمامته».

و في اعتقاد الإمـــام " الغزالي" تفسير ذلك بسيط و فيه حكمـــة بالغة « لأنا نعلـــم بأن العلـــم مزية روعيت في الإمـــامة تحسينا للأمـــر وتحصيلا لمزيد المصلحة في الاستقلال بالنظر والاستغنـــاء عن التقليـــد » [3].

وحتى الـــورع نقصانه مع العلم لا يضران بالإمـــامة حسب نص " للغزالي" ورد عنه في قواعد العقائـــد قال فيه « إنه لو تعذر وجـــود الورع و العلـــم فيمن يتصدى للإمامـــة وكان في صرفه إثـــارة فتنة لا تطاق حكمنا بانعقاد إمامته، لأنا بين أن نحرك فتنة بالاستبدال فما يلقى المسلمـــون فيه من الضرر يزيد على ما يفوتهم من نقصان هذه الشروط التي أثبتت لمزيـــد المصلحة فلا يهدم أصل المصلـــحة شغفا بمزاياها » [4] . لذا أكد على ضرورة صحبة العلماء حيث جاء في "الإحيـــاء" الذي نصح فيه الحاكم بالإقتداء بالعلماء العادلين « عليك بالأئمة الأعلام المرشدين. وقـــال من هم ؟ قال العلماء » [5].

فالعلـــم مطلوب للكافة لما فيه من فضائل ولحجة الإسلام " الغزالي" في هذا الموقف تقدير لفضله و بيان لدوره ، حتى أنه يقول فيه كلاما خالدا وحكما مأثورة منها « لأن العلم حياة القلوب من العمـــى، ونور الأبصار من الظلم، وقوة الأبدان من الضعف يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى والتفكير فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام ».

---

1 – أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 191

2 – سورة الشورى أية 38

3 – المصدر نفسه ، ص 193

4 – أبو حامد الغزالي ، قواعد العقائد ، ص 97 ، 98 (أيضا في الإحياء ص 136)

5 – أبو حامد الغزالي ،إحياء علوم الدين ،ج1 ، ص 812

فلـــم يتوان مشجعوا العلم من أمثال " الغزالي" لحظة عن الإشادة بفضل العلم و تقدير العلماء حتى اعتبره البعض إرثـــا نبويا وسبيلا موصلا إلى نيل رضا الخالق إذ « به يطاع الله -عز وجل- و به يعبد و به يوعد و به يوجد و به يمجـــد و به يتورع و به يوصل الأرحام و به يعرف الحلال والحـــرام وهو إمام والعمـــل تابعه » [1].

فعلى الحاكم طلب العلم وتشجيعه فهو عماد مملكته، ولا يشترط أن يكون عالما مجتهدا فإن تعذر ذلك فيه استعان بمن هو حاصل على هذه الصفة في حكمه من العلماء في تعليمه وإعانته على التدبير والتنظيم لقوله ﷺ « خيار الأمـــراء الذين يأتون العلماء » [2] « فإن العلم إذا كان أفضل الأمور كان تعلمه طلبا للأفضل فكان تعليمه إفـــادة للأفضل»[3].

وهناك مبررات و أسباب علل بها مفكروا الإسلام اشتراط العلم للمتقدم للإمامة كالتي يذكرها العلامـــة " بن خلدون" حيث يقول « فأما اشتراط العلـــم فظاهر لأنه إنما يكون منفذ الأحكام تعـــالى ، إذا كان عالما بها و ما لم يعلمها لا يصح تقديمه لها ولا يكتفي العلم إلا أن يكون مجتهدا لأن التقليد تقص و الإمامة تستدعي الكمـــال في الأوصاف و الأحوال »[4].

و هـــؤلاء العلماء هم الناصحون في أمـــور الدنيا والدين المتبعون لطريق الحق..لا تغريهم شهـــوات الدنيا ولا ملذاتها، كما استشهد " الغزالي" لتأكيد فضلهـــم بهذا الحديث المنقول عن أحد ذرية الإمـــام "علي" – رضي الله عنـــه- « قـــال محمد بن الحسين : لما علـــم أهل الفضل والعلم والمعـــرفة والأدب ، أن الله- عز وجل – قد أهان الدنيا وأنه لم يرضـــها لأوليائـــه و أنها عنده حقيرة ذليلة و أن رسول الله زهـــد فيها وحذَر أصحـــابها من فتنتها أكلوا منها قصدوا وقدموا فضلا وأخذوا منهـــا ما يكفي وتركوا ما يلهي ولبسوا من الثياب ما يستر العورة و أكلوا من الطعـــام أدناه ، مما سدّ الجوعة ونظروا إلى الدنيا بعين أنهـــا فانية و إلى الآخـــرة أنها باقية فتزودوا من الدنيا كـــزاد الراكب ، فخربوا الدنيا و عمـــروا الآخرة » [5].

1 – أبو حامد الغزالي ،إحياء علوم الدين ،ج1 ص 21

2 – المصدر نفسه ، ص 84

3 – المصدر نفسه 22

4 – عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 206

5 – أبو حامد الغزالي ، مكاشفة القلوب ، ص 115

ممـــا سبق يتبين أن "الغزالي" كان يعتمد في نظريته السياسية على جمـــلة من الشروط الهامة من شأنها أن تحفظ دولة الإســـلام و سدد خطى الحاكم اتفق رأيه فيها مع رأي غيره مـــن علماء الإســـلام السنيين و أغلب تلك الصفات محـــددة في كتابه "فضائـــح الباطنية" و سبق أن تطرقنا إليهـــا بالتفصيل و التحليل مـــن قبل .

و الملاحظ أن " الغزالي " كان يدعو إلى تأسيس دولة قوامهـــا التقوى و الورع ويشارك في تسيير شؤونها العلماء والراسخون في الدين « فمست الحاجة إلى سلطـــان يسوسهم و احتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به ، فالفقيه هو العالم بقانون السياسة و طريق التوســـط بين الخلق [...] فكان الفقيه معلم السلطان و مرشده إلى طريق سياسة الخلق » [1] .

لذا ينبغي لعلماء الدين ألاّ يمتـــنعوا عن نصح الولاة فهؤلاء الأقوياء الراسخون في الدين هم العلماء و « إن العالم هو وارث النـــبي ﷺ و إنما ورث العلم ليتجمل بعمله ويحل فيه كمحل» [2] .

ومـــع ذلك القدر كله من النصح بالعودة إلى رأي العلماء لا يهمـــل " الغزالي" ضرورة وجود العلم للحاكم ذاته إذ عليه تحصيله لذاته حتى يبلغ درجة الكمال ويغلق الباب في وجه المتربصين به وخلا فيه، إذ عليه « أن يسعى لتحصيل العلم وحيازة رتبة الاستقلال بعلوم الشرع فإن الإمامة وإن كانت صحيحة منعقدة في الحال فخطاب الله تعالى قائم بإيجاب العلم وافتراض تحصيله وإذا ساعدت القدرة عليه لم يكن للتواني فيه » [3].

وهنا نقف على حقيقة هذه الدولة التي دعا إلى تأسيسها حجة الإسلام ونبرز طابعها الديني فهي دولة يسودها الدين وتسيير بأحكامه ، ويختار فيها الحاكم بإرادة وعناية إلهية وما هو إلا حاكم بإذن الله واختياره..لذا ستكون سلطته مطلقة والدولة أيضا سلطتها مطلقة وعليه لا مبرر لعصيانه أو الثورة عليه ما دام حكمه وإمامته بهداية من الله ، ويسخر الله العلماء لخدمـــة هذه الإمارة عن طريق التشاور وأخذ الرأي وعدم الإستبداد برأي واحد.

---

1 – أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1 ، ص 27

2 – المصدر نفسه ، ج2 ، ص 1986

3 – أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 194

فيظهـــر اختلاف " الغزالي" عن غيره من حيث طابع الدولة التي دعا إليها « وإذا كـــان الفلاسفة يدعون إلى دولة علمانية ويحكمها أو يشارك في حكمها الفلاسفة أو الحكمـــاء فإن الغزالي يدعوا إلى دولة تيوقراطية يحكمها أو يشارك في حكمها العلماء الأقوياء في الدين »[1].

وقد أثبت " أبو حامـــد الغزالي" في نهاية المطاف صفات الإمـــامة وشرائطها وأوضح أن الإمام " المستظهر بالله" هو إمام العصر المجمع على خلافته من أولي العزم في الأمة، المستجمع لشتى صفات و شروط الإمامة . أما ما يشاع عنه من المخالفين و المبتدعة كالباطنيـــة الشيعة الفاطمية فما هو إلا مكـــر و دسائس تحاك للإطاحة به و خلعه و لإثارة الفتن في الدولة الإسلامية الزاهرة فليس لهم منا إلا التبديع و التحقير والرد بالفضح والتشهير.

وفي الختام انتهى "الغزالي" إلى إقرار صحة إمامة "المستظهر بالله" داعيا له بوجوب الطاعة واستمرار البيعة والعهد له « و أنه يجب على كل مفت من علماء الدهر أن يفتي على القطع بوجوب طاعته على الخلق ونفوذ أقضيته بالحق وبصحة توليته للولاة وتقليده للقضاء» [2].

المطلب الثالث : وظائف الإمام العلمية و العملية التي بالمواظبة عليها يدوم استحقاقه للإمامة

يؤكـــد حجة الإسلام "الغزالي" علـــى نصب الإمام في الأمة إذا كان مستوفيا لشروطها وعقدت له البيعة من الكافة ، و يترتب عن ذلك الوضع تحمل مسؤولية الحكـــم و كافة أعبائه باعتبار أن الإمامة تكليف أكثر منها تشريفا . لذا كان على متوليها أداء وظائف و مهام تكتمل بها إمامته « وهذه الوظائف بعضها علمية و بعضها عملية فتقدم العلمية على العملية فإن العلـــم هو الأصيل و العمل فرع له » و تفصيل هذه الوظائف كما يلي:

أولا : الوظائف العلمية

أولها: التي يدرك فيهـــا أن حياته فانية لا محالة و أن يسعـــى لكسب الخيرات و التقوى لذا لابد « أن يعـــرف أن الإنسان في هذا العـــالم لما خلق و إلى أي مقصد وجـــه و لأي مطلب رشح و ليس يخفى على ذي بصيرة أن هذه الدار ليست دار مقر و إنما هي دار ممر و الناس فيها على صورة المسافرين » [3] فكان على الإمام التزود بالتقوى إذا كان يرجو لقاء ربه.

---

1 – راشد لبراوي ، مرجع سابق ، ص 240

2 – أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص 181، 182

3 – أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 195

ثانيها: أن يجتهد في إصلاح جوارحه وقلبه من شهوات الدنيا و الإقبال على ملذاتها وتطهير نفسه من الذنوب والخطايا و ذاك « أنه مهما عرف أن زاد السفر إلى الآخرة التقوى محلها و منبعها القلب لقوله ﷺ : التقوى ها هنا و أشار إلى صدره [1] » [2] و ترتبط هذه الوظيفة بصفة الورع ، فعلى الإمام السعي إلى تجسيدها بتقوى الله تعالى في أقواله و أفعاله بدءا بقلبه و ذلك باستحقار الدنيا و مغرياتها « و ما لم يظهر للإنسان حقارة الدنيا لا يتصور منه أن يسعى للدارة الأخرى » [3].

و أما الوظيفة **الثالثة:** فهي ترتبط بإصلاح الخليفة لذاته حتى يكون قدوة للرعية فما يحبه لنفسه يحبه لهم ، فيسهل عليه فيما بعد العمل على سياستهم وتقويمهم. ويعتقد "الغزالي" « أن معنى خلافة الله على الخلق إصلاح الخلق و لن يقدر على إصلاح أهل الدنيا من لا يقدر على إصلاح أهل بلده، و لن يقدر على إصلاح أهل البلد من لا يقدر على إصلاح أهل مترله ، ولا يقدر على إصلاح أهل مترله من لا يقدر على إصلاح نفسه ، و من لا يقدر على إصلاح نفسه فينبغي أن تقع البداية بإصلاح القلب و سياسة النفس و من لم يصلح نفسه وطمع في إصلاح غيره كان مغرورا »[4] .

وقد استنكر الله تعالى مثل تلك الأفعال في قوله- عز و جل- ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [5] و نتذكر في هذا الموضع قول الشاعر:

أتنهى عن خلق و تأتي بمثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

فكان على الخليفة القائم على سياسة الأمة و تنظيم أمر الرعية أن يبدأ بنصح و إصلاح نفسه قبل نصح غيره ، فإن صلح حاله صلح حال رعيته ، ولا يكون ذلك إلا بالعبادة للنجاة من الهلاك و الغرور.

و من الوظائف العلمية الأخرى الموكلة للإمام ما يتعلق بوجوب سعيه إلى السمو عن مرتبة الحيوانية من إتباع للغرائز و لهث وراء الشهوات إلى بلوغ مرتبة الكمال و الشرف حيث التعفف و الفضائل من علم و عدل .. و هي صفات الأنبياء و الملائكة الذين ينبغي للناس

1 –متفق عليه أورده مسلم و أحمد و الترمذي

2 – أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 196 ، 197

3 – المصدر نفسه ص 198

4 – المصدر نفسه ص 198 ، 199

5 – سورة البقرة الآية 44

كـــافة الإقتداء بهم و إتباع سبلهـــم ، يصف الإمام " أبو حامد الغزالي " عن حـــال تلك الوظيفة فيقـــول« **الوظيفة الرابــعة** : أن يعرف أن الإنسان مركب من صفـــات ملكية وصفات بهيمـــية»[1] .بمعنى هذه الصفـــات تجعله مشابه للملك وأخرى للحيوانات و الأنعـــام « فمشابهته للملك بالعلـــم و العبادة والعفة و العدالة و الصفات المحمـــودة، و مشابهته للبهائم بالشهوة والغضب والحقـــد والصفات المذمومة » .

و على خليفة الله علـــى أرضه أن يسعى لتحصيل صفات الملائكـــة و بذل الجهـــد للاتصاف بها لأن « من صرف همته إلى العلـــم و العمل والعبادة فخليق أن يلحـــق بالملائكة فيسمـــى ملكا وربانيا كـــما قال تعالى ﴿ إِنْ هَـــذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَ ـــرِيمٌ ﴾ [2] أما من أفرط في الصفات الشهوانية وإرضاء ملذاته الدنيوية فينطبق عليه قول الغزالي « و من صرف همته إلى إتباع الشهوات واللذات البدنية يأكل كما تأكل البهائم فخليق أن يلحـــق بالبهائم » [3].

فإذا كانت الوظائف السابقة الذكر علمية يجد الحاكم في طلبها و السهر على تحققها فإن الأخذ بها واجب في كل إمارة لما لها من الإيجابيات فهي أدوار ينبغي للقائم على الخلافة أداؤها متى تولى منصبه و استحق الطاعة .

ثانيا : الوظائف العملية

إن الوظائف العملية هـــي الأخرى لا تقل أهمية عن الوظـــائف العلمية و « أولها أن كـــل من تولى عمـــلا على المسلمين فينبغي أن يحكم نفسه في كـــل قضية يبرمها فما لا يرتضيه لنفسه لا يرتضيه لغيره » .بمعنى أن يحب لأخيه كما يحب لنفسه فلا يظلمه ولا يأخذ حقه ويراعي العدل في معاملته و سياسته « و منها أن يكون والي الأمر متعطشا إلى نصيحة العلماء ومتبجحا بها إذا سمعها و شاكرا عليها »[4] و قد سبقت الإشارة من قبل إلى أهمية العلم و دور العلماء في تسديد حكم الخليفة عن طريق التشاور معهم و العـــودة إلى اجتهاداتهم .

و هناك وظيفة أخرى جعلت الإمـــام أقرب إلى رعيتـــه و أكثر احترامـــا و طاعة من قبلهم ترتكـــز أساسا علـــى حسن المعاملة ، و مفادهـــا « ألاّ يستحقر الوالي انتظار أربـــاب الحاجات

---

1 – أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 200 ،201

2 – سورة يوسف الآية 31

3 – المصدر نفسه ، ص 201

4 – المصدر نفسه ، ص 202

ووقوفهم بالباب في لحظة واحـــدة ، فإن الاهتمام بأمر المسلمين أهم له وأعـــود عليه مما هو متشاغل به من نوافل العبادات فضـــلا على إتباع الشهوات» [1].

ومن مهـــام الخليفة العملية أيضا مـــا يتعلق بعـــدم المبالغة في الترف و البذخ حتى لا يتلف ذلك الإمـــارة ، فإذ انشغل الحاكـــم بالدنيا دون التقـــوى ، و زين له الشيطـــان حبها لن يعبأ بحـــال رعيته فـــهالك هـــو و من ولي أمـــرهم . و عليه يتجـــه " الغزالي" إلى الحـــاكم ناصحا إياه في قـــوله « أن يترك الـــوالي للأمـــر الترف و التلـــذذ بالشهـــوات في المأكـــولات و الملبوســـات » [2]. و في هذا الـــدور إقـــتداء بالخلفـــاء الراشدين وخاصة عمر بن الخطاب و الإمام علـــي -رضي الله عنهمـــا- .

و هـــذه الوظيفة تشير إلى شرط الورع و التـــقوى الذي لا نكف نصادفـــه في أغلب وظائف الإمـــام ، بل إن فكـــر " الغزالي" الصوفي كله قائـــم علـــى مبدأ الورع و الزهد و تحـــاشي زينة الحياة الدنيا و متاع الغرور ، لبلـــوغ رضا الخالق المعبود .مما يبرز بوضوح بداية تأثير النزعة الصوفية على معتقدات " الغزالي" و أرائه .

إضافة إلى ما سبق تحديده من وظائف و أدوار إمامة هنالك وظيفة أخرى تدعم حكم الحاكم و لها فضل في استقـــراره و من ثمة استمراره ودوامه ، إذ من خلالها يمكن الحكم على إمامته الخليفة و مصداقيتها .و نقصد من وراء كلامنا صفة العدل .

فالعدل أهم وظائف الإمام ، لأنه إذا ما اتصف بالعدل تمكن من العمل على تجسيده بين الرعية فتتحقق الغاية من الخلافة الإلهية . أما إذا ما قصّر في القيام بها لم تستقر أحوال الأمة وعمّ الظلم والفساد . فقد ذكر " الغزالي" في مؤلفاته تلك الأوضاع المزرية التي يعيشها الرعية في كنف الملوك الظلمة وظلم الساسة وجورهم و دعا الخلق إلى اعتزالهم خوفا على عقيدهم.

لذلك اتجاه " الغزالي" في عدد من مؤلفاته الهامة كالإحياء والتبر المسبوك وغيرهما .. إلى نصح الملـــوك بالعدل و الاعتدال إلى درجة تخويف الناس من الاقتراب إلى هؤلاء الحكـــام خوفا على دينهم وإيمانهم لما ورد عنه من النهي في "التبر المسبوك" و "الإحياء " من التحذير من ذلك الأمـــر لا سيما إذا كـــان الملوك ظلمة و عليه دعا إلى عدم مخالطة الأمـــراء و السلاطين بل نهى عن رؤيتهم و مجالستهم و الدخول عليهم ..

---

1 – أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 203

2 – المصدر نفسه ص 203

و في نظـــر الإمام " الغزالي" لا ينبغي للخلـــق لا سيما العلماء أ، يستحسنوا ظلم الحاكم أو يزينوه له خوف على أنفسهم بل على العكس من ذلك يجب عليهم ردّهم عن ظلمهم وتذكيرهم بدورهم الموكل إليهم و هو تحقيق العدل و نشره بين الرعية ، و إن حدث خلاف ذلك اختلت الموازين و أحل الباطل محل الحـــق .

و المـــلاحظ أن "الغزالي" يحدد للإمام أدوارا و وظائف من شأنها أن تقوّم إمامته و تحقق في الدولة الأمن و الاستقرار. لكن فقيه الأمة السني لا يكف في أغلب أرائه عن التنويه بدور العلماء و عظم تأثيرهم على أمر السياسة ، إذ يجعل " الغزالي" صلاح الإمام و الأمة متوقف على مدى صلاح العلماء « فالعلماء أمناء الرسل على عباد الله » [1] و التخويف من هذه المخالطة سببها التحذير من موافقتهم على ظلمهم ، و الطمع في مالهم دون نصيحة الحق الواجبة لأن « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه » [2] .

المطلب الرابع : وجوب طاعة الإمام القائم بالحق"المستظهري" و عدم الخروج عليه

أولا : طاعة الإمام

بمـــا أن وجوب نصب الإمـــام من الضروريات ، لذا كانت طاعة ولاة الأمور واجبة ومستحثة فقد وجبت طاعتهم حتى لا يقع الشقاق وتعم الفتن لقوله تعالى ﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[3] . لذا أمرنا الله-عز وجل- بطاعة من يرعى شؤون الرعية في قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [4].

وجـــاء في السنة أن الرسول ﷺ أمـــر بطاعة ولاة أمـــور المؤمنين في السراء ، والضراء ، في العـــدل و الظلم ما لم يعصوا الله ، فعـــن ابن عباس عن النبي ﷺ قـــال « من كـــره من أميره شيئا فليصبر فـــإنه من خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية » [5] . و في حديث أخر قال النبي – صلوات الله وسلامه عليه– فيما أوصى به عباد الله الصالحين « إنكـــم سترون بعدي أثرة

1 – أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج 1، ص 572

2– المصدر نفسه ، 574

3– سورة الأنفال آية 25

4– سورة النساء آية 59

5– متفق عليه ، أورده البخاري و مسلم

وأمـــورا تنكروها » قالوا « يا رسول الله كيف تأمـــر من أدرك منا ذلك ؟ قـــال «تؤدّون الحق الذي لديكم وتسألون الله الذي لكم » [1].

وكـــان مما أوصى به النبي ﷺ في مـــرض موته حين أتاه القوم .. فدعاهم إلى البيعة وكان من ضمن ما بايعه به القوم وذكره " حنادة بني أمية " فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكـــرهنا وعسرنا ويسرنا وأثـــره علينا وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بوّاحا عندكم من الله فيه برهـــان » [2].

لذا يؤكـــد " الغزالي " على ضرورة طـــاعة الخليفة و عدم التمرد عليه أو خلعه مستدلا بأدلة شرعية ونصوص متواتـــرة تثبت صحة موقفـــه السياسي و تدعمه منها حديث النبي ﷺ مع حذيفة بن اليمان حين اخبره عـــن ما سيحدث بعده من الفتن فسأله حذيفـــة « ماذا تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قـــال النبي ﷺ : تلزم جماعة المسلمين وإمامهـــم . قلت-أي حذيفـــة- فإن لم يكن جماعة ولا إمـــام ؟ قال النبي ﷺ " فاعتزل تلك الفـــرق كلها و لو أن تعضّ بأصل شجرة حتى يدركك الموت و أنت علـــى ذلك» [3].

وربما بسبب هذه الأحاديث النبوية الناهية عن الفتن لم يشارك عدد من الصحابة في حرب "علي" و"معاوية" وفضلوا المكوث في بيوتهم حتى يدركهم الموت و يحـــل بهم قضاء الله.

إذا بلغت طـــاعة الحكام و الخلفاء من الأهمية حـــدا شبهها فيهـــا الرسول الكريم بطاعته هو بل أكثر مـــن ذلك احتوت مصلحـــة عظيمة اعتبرت فيهـــا طاعـــة لله تعالى، لما نقله الشيخ الجليل أبو هـــريرة – رضي الله عنه- عـــن النبي ﷺ أنه قال في هذا الصدد « من أطاعني فقد أطـــاع الله ومن عصاني فقد عصـــى الله و من أطـــاع أميري فقد أطـــاعني ومن عصى أميري فقد عصاني »[4] وروى مـــالك ابن أنس عـــن النبي ﷺ أنه قـــال « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كان رأسه زبيبه » [5].

---

1 – صحيح ،متفق عليه ،رواه البخاري في كتاب الفتن و مسلم في كتاب الإمارة و الترمذي في كتاب الفتن و أحمد..

2 – البخاري ، صحيح البخاري ، ج4، حديث رقم 7053 ، 7052 ، 7056 ، ص 364

3 – المرجع نفسه ، ص 370

4 – المرجع نفسه ، حديث رقم 7137 ، ص 382

5 – متفق عليه لدى البخاري في كتاب الأحكام وبن ماجة في كتاب الجهاد و في مسند أحمد

بناء على ذلك الأمـــر كان الخضوع لحكـــم الأمراء و طاعتهم من واجبات الـــرعية لما في ذلك من المصلحة لقـــول النبي ﷺ « السمع والطاعـــة على المرء المسلم فيمـــا أحب وكره ما لم يؤمـــر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمـــع و لا طاعة [1]» و قال أيضا نبي الله محمـــد ﷺ محددا مجال الطاعـــة «إنما الطاعة في المعروف » [2].

لكن لا ينبغي أن يتبادر إلى أذهاننا أن واجب الطاعة والخضوع الذي يؤديه الرعية في حق ملوكهم و أحكامهم لا يقابله نيل للحقوق والكرامات ، بل علـــى الحاكم أن يقابل تلك الطاعة بأن يكون عادلا مع الرعية قائما ساهرا على أمورهم حريصا على مصالحهم راعيا للدين مطبقا للأحكام الشرعية ناصحا لهم آخذا بالنصيحة مستشيرا مواظبا على مشورة ذوي الرأي والعلم لقوله ﷺ « ما من عبد استرعـــاه الله رعية فلم يحطها بنصيحة لم يجد رائحة الجنة» [3] و في حديث آخر منقول عن النبي ﷺ أنه قال في زجر ولاة أمور المسلمين « ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت و هو غاش لهم إلا حرّم الله عليه الجنة » [4].

و لـــولا هذا الحث الشديـــد على طاعة الأمراء و الخضوع لسلطتهم ، لكان حال الناس أسوا و أسوأ ، فالأمر بالطاعة إذا من باب اللطف بهـــم ، فأن يخضع الناس لشخص واحد يأتمرون به خير من أن تكـــون حياتهم فوضى لا راعي لهم ولا سائس لها إلى درجة شبهت فيها طاعـــة الأمير بطاعة الله تعـــالى ورسوله ﷺ.

لذلك اعتبر" الغزالي" طاعة الأئـــمة القائمين على شؤون الأمـــة من أوجب الواجبات عملا بمـــا نصّ عليه القرآن الكريم والسنة المحمدية الشريفـــة و اقتداءا بما سار عليه خلفاء الأمة ووافقه إجماع أهل السنة و الجماعـــة .

لأن أهـــل السنة والجمـــاعة لا يبيح أغلبهم الثورة على الخلافة القائمـــة مادامت تستوفي شروطهـــا وتحرص على أداء واجباتهـــا لما في المخالفة من ضرر عظيم على الإمامـــة و الرعية معا . لذا « قد رفض علماء السلف الخروج عن الإمـــام ولو كان جائرا، فلا بد من طاعته لما يترتب على الثورة على الحكام من فتن ومحن و اضطراب و فساد »[5].

---

1 – متفق عليه و أورده البخاري و غيره

2 – البخاري ، صحيح البخاري ، ج 4 ، حديث رقم 7142، 7144 ، 7145 ، ص 383

3 – مسلم و الدرامي

4 – البخاري ، صحيح البخاري ، ج 4 ، حديث رقم 7150 ، ص 385

5 – عبد الفتاح أحمد فؤاد ، الفرق الإسلامية و أصولها الإيمانية ، ص 317

فتعالت صيحات العلمـــاء السنيين الرافضة لكل تمرد على السلطة الحاكمة خوفا على ضياع الأمـــانات و هدر الحقوق مثل ما فعل " أبو حامد الغزالي" و غيره من الفقهاء السنيين مع شرذمة الباطنيـــة المناوئة للخلافة العباسية الرافضة لإمامة بني العباس المطالبة بخلعهم معلنة عن عصيانها للخلافـــات القائمة ، و كـــان القول بالطاعة و استنكار الثورة أهم وسيلة لتفادي دعوات الفرق لباطنيـــة و تثبيت إمامة العباسيين .

فبدلا مـــن الثورة على الحكم ينبغي الصبر عليه والدعاء له بصلاح الأحوال و نصحه ، فعن ابن عباس- رضـــي الله عنه – عن الرسول ﷺ انه قال « من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر فإنه ليس أحد يفـــارق الجماعة شبرا فيموت إلا ميتة جاهلية » [1] .

و " الغزالي" يكره كغيره من فقهاء السنة وقوع فتن بين المسلمين حول الخلافة لذا ينصح الرعية بتجنب كل مـــا من شأنه إحداث شقاق في صفوف المسلمين سواء بالقول أو الفعل ما دام هذا الإمام أو الحاكم يقيم حدود الله فلا يجوز الثورة عليه لأن هذه الثورة ليس لها ما يبرره ا . و ينهى حجة الإسلام عن كل ما من شأنه أن يحدثها فحال الرعية مع السلطان أشد كحالة من يحترس في معاملة الولد فليس لها معه إلا التعريف بالنصح و الموعظة.

فإذا كـــانت درجات الأمر بالمعـــروف مرتبة ترتيبا شرعيا تـــراع فيها أولويات حددها الرسول الكـــريم ﷺ « أن أوله التعريف و ثانيه الوعـــظ ، و ثالثه التخشين في القول و رابعه المنع بالقهـــر بالضرب و العقوبة و الجائز من جملة ذلك مع السلاطين الرتبتان الأوليـــان التعريف والوعظ وأما المنع بالقهر فليس ذلك لآحاد الرعية مـــع السلطان ، فإن ذلك يحرك الفتنة ويهـــيج الشر..» [2] فالثورة والتمرد على الخليفة لا أساس لهما " عند الغزالي" و لا مبرر لاعتمادهما معه ما دام يمكن توجيهه الحكـــام بسلك سبل أخرى.

و هنا نقف على بعض من ملامح النظرية السياسية " للغزالي" التي تتأسس على ضرورة وجود الإمام و الحاجة إلى قيام الدول لسياسة للمجتمع و حفظ الدين و من زاوية أخرى تكفل استمرارها بتقديم الطاعة للحاكم و موالاته و النصح له ، بدلا من التفكير في خلعه فلا يجوز بأي حال مخالفة الإمام أو معارضته تحاشيا للفتنة.

---

1 – البخاري ، مرجع سابق ،حديث رقم 7054، ص364

2– أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1، ص 800 ، 801

فالطاعة للإمام واجبة مادام لم يتورط في الفتن أو الحروب الأهلية فهو ظل الله في أرضه وهو المطبق للناموس والعامل بالشريعة الإلهية ... كل هذا يحتم طاعته من قبل الخلق أجمعين فكيف يتصور الثورة على نائب وخليفة رسول الله .

و من هذا المنطلق أيضا يجعل " الغـــزالي" مبدأ الثورة والتمرد على الحاكم أو أي محاولة لخلعه تـــقوم بها الرعية بعضهم أو كلهم غير مشروعة باعتبار أن ظلمه وجـــوره أقل شرا من الفتنة وانهيار المجتمع ولذلك كان نصبه واجب شرعا لا عقلا ..لكـــن الطاعة التي تكون في حق الأئمة ليس مطلقة بل مقيدة بالشرع و أحكامه ، فلا بد من طاعة الحكام ما لم يأمـــروا بمعصيته لقوله تعالى ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْــرُوفٍ ﴾[1] .

و لأن الرسول ﷺ حث على طاعة ولاة أمور المسلمين ما لم يأمروا بمعصية تخالف شرع الله تعالى يقول النبي – صلوات الله وسلامه عليه– « لا طاعة في معصية الله إنما الطاعة في المعروف» [2] كما روي عنه أيضا انه قال « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » [3].

و من مستلزمـــات الطاعة عد إهانة الحـــاكم لما ينجر عن ذلك مـــن ذهاب هيبته بين الناس وقـــد نهى نبي الله عن القـــذف و السب عموما و قـــال ﷺ فيمن تطاول على السلطان « من أهان السلطان أهانه الله » [4] .

ومن ناحية أخـــرى كان للحكام على الـــرعية واجب النصح بعبارة أوضح استلزمت طاعة الملـــوك نصحهم إن أخطئوا فالـــدين يستوجب ذلك ، لقول الرسول ﷺ« الـــدين النصيحة قلنا لمن ؟ قال : لله ولكتبه ولرسله ولأئمة المسلمين وعامتهم » [5]. و حتى الجهاد مع أئمـــة المسلمين والخروج معـــهم هو من أبواب الطاعة ، و الدعاء لهـــم و الصلاة خلفهم من أهـــم مظاهر الطاعة. و في حديث للرسول ﷺ أوجب فيه طاعة الأمراء لقوله ﷺ لمن يسأله عن طاعة أمراء السوء « اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حُمِّلَوا وعليكم ما حمِّلتُم» [6] .

---

1 – سورة الممتحنة آية 12

2 – متفق عليه أورده البخاري و مسلم و أبو داوود و النسائي وأحمد

3 – صحيح و قد أورده البخاري

4 – الترمذي

5 – مسلم ،كتاب الإمارة

6 – مسلم ، كتاب الإمارة ، و الترمذي كتاب الفتن ، و اعتمده :أبو بكر جابر الجزائري ، منهاج المسلم ، ص 57

فالإسلام ديـــن تسامح و سلام أتى لخير البشرية و لم يدعو إلى الثورة و الجهاد في أول أمر بل تبع طرق الدعـــوة السلمية ، و راع حرمات الناس . و ما تضمنه ديننا من أحكام وقيم يؤكد لنا أنه « يرى حرمة الخروج عليهـــم أو إعلان معصيتهم لما في ذلك مـــن شق عصا الطاعة على سلطان المسلـــمين »[1] لما يجلبه ذلك من البلاء على الواحد و الكل معا.

لكن ليس المراد بالكلام السابق الخضوع والسكوت على الظلم وإن كان فاعله خليفة البلاد ، بل ينبغي مقابلته بالنصح و الوعظ بالتي هي أحسن، والأمر بالمعـــروف والنهي عن المنكر لقوله ﷺ عندما سئل من أفضل الجهاد فقال : « كلمة حق عند سلطان جائر» [2].

لذلك كان " الغزالي" ينصح إمام الأمة دائما و يعين أهل السلطة و يوجههم نحو الصواب كما فعل سلفه من العلماء مع خلفائهم. ففي مشاورة الحكام العلماء و صحبتهم تقليل لشرهم و ظلمهم في الأمة إذ يرد في الخبر أن « خير الأمراء الذين يأتون العلماء » [3].

و كعادته ينصح حجة الإسلام الحاكم بصحبة العلماء و أخذ العلم عمهم و يصرح بذلك الموقف في "الإحياء" مستعينا بعدد من الآيات و الأحاديث و مستدلا بما نصح به علماء السلف خلفاءهم مثل القول التالي « عليك بالأئمة الأعلام المرشدين، وقـــال: من هم ؟ قال: العلماء » [4]. و في ذلك كله تأكيد من "الغزالي" على أهمية العلم وحيازته في نصب الإمامة فالعلم من شروط وصفات الشخص المتقدم للإمـــامة، إما في نفسه فإن انتفى ففي أتباعه وصحبه من العلماء وقد ذكرنا ذلك من قبل في شروط الإمام.

ثانيا : عدم خلع الإمام والخروج عليه:

إن من مستلزمات طاعة الإمام عند " الغزالي" عدم الخروج عليه أو معارضته أو حتى المشاركة في خلعه. و ليس في تبني " الغزالي" لهذا الموقف أي تأييد للظلم أو مطاوعة لاستبداد الحكام-إن كانوا ظلمة مستبدين- وإنما شر الواحد أقل ضررا من شر المجموع. ولولا حرص الإمام " الغزالي" عـــلى أمته وخوفه من اشتداد الفتن والحروب لما قال بهذا الرأي.

1 – أبو بكر جابر الجزائري ، منهاج المسلم ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ، ط1، 2003 ، ص 57

2 – النسائي و أحمد ، و أورده أبو بكر جابر الجزائري ، في : منهاج المسلم ، ص 50

3 – أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1، ص 573

4 – المصدر نفسه 449

حتى و إن جار الحاكـم وظلم تجب في حقه الطاعـة، لما ورد عن " الغزالي" في كتاب "إحياء علـوم الدين" « إن السلطان الظالم الجـاهل مهما ساعدته الشوكة و عسر خلعه وكان في الاستبدال به فتنة ثائـرة لا تطاق وجب تركه ووجبت الطاعة له»[1].

فطاعة الخليفة أشد رحمـة من معارضته أو خلعه لما يترتب عن تلك المعارضة من قلاقل وحروب وسفك للدمـاء... « كما تجب طاعة الأمـراء إذ ورد في الأمر بطاعـة الأمـراء والمنع عن سل اليد عن مساعدتهـم أوامر و زواجر» [2].

و يستشهد " أبو حامـد" في هذا السياق بما روي عن الرسول ﷺ من حديث عن الأمر بطاعـة الأمراء أخرجه البخاري من حديث أنس، جاء فيه « اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشي كـان رأسه زبيبة »[3].

و قـد ذهب الشيخ الفقيـه " بن تيمية " إلى نفس الـرأي في " منهاج السنة" حين أوجب الطاعـة لمن انعقدت له البيعة مستدلا لقـوله ﷺ المروي في الصـحيحين و الذي نصه « من أطـاعني فقد أطـاع الله و من عصاني فقـد عصى الله و مـن أطاع أميري فقـد أطاعني ومن عصى أميري فقـد عصاني» [4] .

و عليه كـان خلع الإمـام الخليفة من أصعب الأمـور ففيه من الشر و البلاء الذي يلحق بالأمـة الكثير و هذا محل اتفـاق لدى علماء الأمـة الذين يتفقون مع " الغـزالي" في رفض مسـألة الخروج على الإمـام لخلعه . فمثلا قرر شيخ الإسـلام " بن تيمية " « أنه ينبغي طاعة الأئمة في جميع الأحـوال اللهـم إلا إذا أمـروا بمعصية الله لأن الـرسول ﷺ قـد أمرنا بذلك و نهـى عن رفـع راية العصيـان في وجوههـم أو مقالتهم إلا إذا امتنعـوا عن تأدية الصلاة و أمـروا بمعصيته» [5].

و ما قـول " الغزالي" بوجوب طـاعة الإمام القائم بالحق إلا لسببين هامين، أولهمـا: نصرة للحـق و إظهار لمـا يترتب عن القـول بخلعه من مفاسد تفتك بالأمـة و وحدتهـا، و في هذا تأييد لمـا ورد في الشريعة من نصوص مؤكـدة لوجوب التزام الجمـاعة لإمام الأمـة ، تداولها الرواة وسار عليهـا الناس .

---

1 – أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1 ، ص 570

2 – المصدر نفسه ، ص 570

3 – متفق عليه لدى البخاري في كتاب الأحكام وبن ماجة في كتاب الجهاد و في مسند أحمد .و أورده الغزالي في الإحياء ج1 ، ص 570

4 – البخاري ، أورده أحمد بن تيمية ،في : منهاج السنة ، ج1 ، ص 149

5 – أحمد بن تيمية ، المرجع نفسه ص 150

فالسبب في توجه " الغزالي" وأغلب مفكـــري السياسة الإسلامية في تلك العـــهود إلى رفض مبدأ الثورة على الخليفة لخلعه، يتمثل في الزواجر و النواهـــي الواردة من الله و رسوله الكريم في حق من يخرج عن طاعة الملك، منها قول الرسول ﷺ « من خلـــع يدا (ربما من طاعة إمام) لقي الله يوم القيامة ولا حجة له، ومن مات و ليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية »[1].

لذا فـــلا أحد يؤيد تطاول الأفراد على الجماعـــات، ولا تربص الشيعـــة بالخلافة العباسية. وما كـــان فقهاء الأمة بأشد حرصا على الأمـــة و على العقيدة مـــن أنبياء الله عز وجل ورسله الذين حثوا على الطاعـــات لأهلها...

أمـــا السبب الثاني الـــذي لأجله رفض الـــغزالي مسألـــة خلع الإمـــام وحث على طـــاعته في السراء و الضراء هـــو حفظ خلافـــة أمير المؤمنين "المستظهـــر بالله العباسي" فمـــادام هذا الإمـــام الحاكـــم قائمـــا بالحق مؤد لـــواجباته و وظائفه رافعـــا لـــراية الإســـلام مقيمـــا لحدوده ..توجبت طاعـــته.

فلا نتبع أولئك القلـــة من المبتدعة و هم الشيعة الباطنية التعليمـــية ، الذين أعلنوا العصيان وحـــق في حقهم التكفير و هم مرتدون عصاة و قد « نهـــى الرسول الكريم عن شق عصا الطاعة وتفريق شمل الأمة بمثل قوله: من أتاكم وأمركم على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلـــوه » [2].

فالإســـلام لم يحرض الناس على معارضة حكامهم والتربص بهم ، بل هـــو دين رحمة وسلام وهذا اقتضى أن تكـــون تعاليمه داعية للصبر علـــى الأذى و العفو عن الخطأ و الإساءة ومقابلة السيئة بالحسنة و المجادلـــة بالتي هي أحسن ... و الـــدعاء بالهداية.. و هذا يدخل فيما يسميه "الغـــزالي" « باب الأمر بالمعـــروف والنهي عن المنكر ». أما خلـــع الإمـــام و الثورة عليه فلم ترد قـــط في الشرع و لم يجمع حولها الفقهاء لقوله ﷺ « سيليكم بعدي ولاة فيليكم البر ببره ويليكم الفـــاجر بفجوره فاسمعـــوا لهم و أطيعوا في كل ما وافق الحق فإن أحســـنوا فلكم و لهم وإن أســـاؤا فلكم وعلـــيهم» [3] ..

و الناس على سنة رسول الله يهتدون بهديه و يكفّون عما نهاهم ، و إذا كان رسول الله قد نهى عن الخروج عن قائد الأمة و سائس شؤونها لما في ذلك من عظم المصلحة ،فإن من واجب الخلق لزوم أمره و حفظ سنته فهوﷺ أمرنا بطاعة الولاة كما أمره الله تعالى بذلك .

---

1 – مسلم ،كتاب الإمارة ، أورده أحمد بن تيمية ، منهاج السنة ص 149 ، وفي الخلافة و الملك ص18

2 – أحمد بن تيمية ، منهاج السنة ، ج1 ، ص 150

3 – رواه أحمد ، وذكره الماوردي ،في : الأحكام السلطانية ، ص 30، وقال الألباني في صحيح الجامع أنه : صحيح

فالأولى بالرعية نصح الحاكـــم والدعاء له وإرشاده إلى السبيل الأقوم ، و هـــذه المهمة يتولاها العلماء في الأمـــة ، لذا فالغزالي ما نهى عن التمرد والثورة على الإمـــام والخلافة إلا حرصا منه على الـــدين و الرعية حتى أنه يـــرى في حالة ظلم الحاكـــم أن يبادر إليه ذووا العلم و الـــرأي عملا بمبدأ « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لنصحه وتوجيهه.

ليحدد حجة الإسلام بعد ذلك درجات الأمر والنهي و ما يجوز اعتماده منها في معاملة السلاطين إذ يقول « قد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف: و أن أوله التعريف وثانيه الوعظ وثالثه التخشين في القول و رابعه المنع بالقهر في الحمل على الحق بالضرب والعقوبة» [1].

و بعدما يحدد " الغزالي" هذه المراتب يستثني السلطان في بعضها،خوفا من الفتنة وتطاول المتطاولين قائلا في ذلك « والجائز من جملة ذلك مع السلاطين الرتبتان الأوليان وهما التعريف والوعظ وأما المنع بالقهر فليس ذلك لآحاد الرعية مع السلطان فإن ذلك يحرك الفتنة و يهيج الشر ويكون من المحذور أكثر أما التخشين في القول كقوله يا ظالم يا من لا يخاف الله.. وما يجري مجراه فذلك إن كان يحرك فتنة يتعدى شرها إلى غيره لم يجز» [2].

فلا بد من الاحتراس في معاملة الخليفة خوفا من غضبه أو إثارة الناس عليه يقول "أبو حامد الغزالي" موضحا ما يجب من الرعية في معاملة الحاكم « أما الرعية مع السلطان فالأمر فيها أشد من الولد فليس لها منه إلا التعريف و النصح » [3] و ربما حرص "الغزالي" على سلامة الرعية و اعتقادهم و خوفه من أن تعم الفتن هو ما يبرر ذلك الموقف الذي أظهره و دعا إليه.

وهو موقف يؤكد على مبدأ هام من مبادئ الشريعة الإسلامية السمحاء ألا وهو « الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر » الذي ينبغي اعتماده مع الناس ككل لردع كل من أقدم منهم على ظلم أو معصية، ويعامل به الملوك أيضا والساسة لأن فيه صلاحهم و صلاح الأمة.

أهمية النظرية السياسية للغزالي

من خلال ما سبق ذكره يتبين أن النظرية السياسية التي قدمها " الغزالي" في مؤلفاته قصد منها جانبان: الأول هدم النظرية السياسية التي نادي بها الشيعة الباطنية خاصة القول بوجوب إمامة العلويين نصا، وبعصمة الأئمة وضرورة الإقتداء بهم والتعلم عنهم..

---

1 – أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين ، ج1 ، ص 800

2 – المصدر نفسه ص 800 ، 801

3 – المصدر نفسه ص 772

ومـــن جانب آخر تقديم البديل عن هذه النظرية المغاليـــة و المتمردة على الخلافة العباسية بالدعـــوة إلى ضـــرورة نصب الإمـــام شرعا لتوفر الصـــفات الضرورية فيه من ورع وعلم .. وغيرها مـــن الشروط التي تمنحه استحـــقاق الإمامة بالقدرة والاختيار و العمل، لا بالنص والتوارث و بهذا تتم مبايعة الإمـــام .

و يرى " الغزالي" إمكانية انعقـــاد إمامته حتى و إن لم يتوفر فيه الورع و العلم في ذاته مع ضرورة سعيه في تحصيلهما من غيره . و لا يكون ذلك مبررا لخلعـــه « فما يلقى المسلمون فيه من الضرر يزيد على ما يفوتهم من نقصان هذه الشروط التي أثبتت لمزية المصلحة فلا يهدم أصل المصلحة شغفا بمزاياها كالذي يبني قصرا و يهدم مصرا »[1].

و عليه أوجب " الغزالي " نصب الإمـــامة في الأمة ، وأفتى بصحة إمامة الخليفة المستظهري العباســـي القائم بالحـــق ورفض الثورة عليـــه لما في ذلك مـــن خطر على الأمـــة يقول في هذا الشأن «إن الخلق على اختلاف طبقاتهم وما هم عليه من تشتت الأهواء وتباين الآراء لو تركوا وشأنهم و لم يكن لهم رأي مطاع مجمع شتاتهم لهلكوا عن آخرهم ... » [2].

" فالـــغزالي " يؤكد على طاعة الإمـــام و عـــدم الثورة عليه حتى لا يسوء وضع الأمة ، بل إنه يوجب على الحـــاكم استخدام القوة والقهر لتحقيق أمن الـــدولة « فالقهـــر الذي يكفل الطاعة هو خاصية الدولـــة عند الغزالي و هـــو في ذلك يؤكد مثل المحدثين على السيادة كركـــن جوهري من أركـــان الـــدولة » [3].

و حتى الإمـــام " أحمد بن تيمية " يؤيد تلك المسألة ويؤكد على وجوب طاعة الإمام ولو كان جائرا وفي هذا تأكيد لصحة الموقف السياسي للغزالي وقد ظهر هذا في قوله « لأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة » [4].

معنى ذلك أن من أهم وظائف الإمامة و موجباتها و العمل على إحقاق الحق و إبطال الباطل لأن « إقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة و الإمارة » [5]. فكان من الضروري إذن نصب الإمام في الأمة ليسوس الناس ويمنع اعتداء على بعضهم البعض .

1 – أبو حامد الغزالي ،إحياء علوم الدين ، ج1 ،ص136

2 – أبو حامد الغزالي ، الاقتصاد في الاعتقاد ، ص105

3 – إسماعيل زروخي ، الدولة في الفكر العربي الحديث ، ص112

4 – أحمد بن تيمية ، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ، ص191

5 – المرجع نفسه ص192

و نتذكـــر في هذا الموضع ما استشهد به بعض فقهاء الإسلام لإبراز دور الإمـــامة و الحاجة الملحة إلى قيامهـــا في الأمـــة ، فهاهو مثلا شيخ الإسلام " أحمد بن تيمية " يؤكد على ضرورة نصب الإمامة مستدلا بما بتناقله العرب إذ « يقال: ستون سنة من إمـــام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان»[1]. و قد سبق و أشرنا فيمـــا سبق إلى أن غالبية المسلمين و علمـــائهم يتفقون على وجوب نصب الإمـــامة و إن شذّ عنهم القلة، رغم اختلافهم حول كيفيتها و حكمها بحسب اختلاف الفـــرق و المذاهب و تعددها.

وما نلاحظه من خلال تحليل تصور الإمام " الغزالي" لمسألة " الإمامة " أن موقفه منها تأسس بناءا على نقده للباطنية و رده عليها . فلم يكـــن له رأي خاص فيها بل تبين ملامح نظريته السياسية و تبلورت حين استنكر ما تدّعيه الفرق الشيعية الإسماعيلية الباطنية من أباطيل في تصورها لمسألة الإمامة من القول بالنص و التوارث و العصمة و الغيبة ...

الأمـــر الذي دفـــع حجة الإســـلام إلى إنكار ما تزعمه هذه الفـــرق و إبطاله مقدما البديل عنه ممـــا سنه الله و رســـوله و تعارف عليه السلف و كـــان محـــل إجماع و اتفاق أهل السنة. فأنكـــر النص و التوارث في الحكـــم (الإمارة) و ربط قيامه بمبايعة أهل الشوكـــة ، بعبارة أخرى جعل الحكم السياســـي في الدولة الإسلامية نابعا من إرادة الشعب و أفـــراد الأمـــة « و الغزالي هنا يرجع الشوكـــة إلى المبايعة أي الاختيار الشعبي الحر للحكـــم و هذا مبدأ هام في نظام الحكم الديمقراطـــي وإرادته سبحانه » [2] .

و حسب ما ذكر الأستاذ "زكي عدل الدين سالم" أحـــد الباحثين المعاصرين في دراسة له أجراهـــا عن فلسفة " الغزالي" اعتباره أن « الحكم رزق يؤتيه لمن يشاء » [3] و ذلك عملا بقوله تعالى ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء ﴾[4] .

فلا أساس إذن لـــدعوى الإرث المزعوم للإمـــامة كما تبنتها الفرق الباطنية ما دام الملك لله تعالى وحده و ما الإمام إلا عبد مستخلف على الأرض أتاه الله من فضله و رزقه ملكـــا عليه أن يحسن التصرف فيمـــا استأمنه الله عليه، فلا تشغله بشهـــوة الملك عن أداء ة واجباته اتجاه الله والرعية ، فالإمـــام خليفة للنبي ﷺ في أمته و هو متمم لعمله ومهامـــه، لذلك طالما ارتبطت الإمامة بالنبوة و اشتركت معها في عدة نواح .

---

1 – أحمد بن تيمية ، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ، ص 192

2 – زكي محمود عدل الدين سالم ، الإنسان في فلسفة الغزالي و تصوفه ، ص154

3 – المرجع نفسه ص154

4 – سورة آل عمران آية 26

المبحث الثالث : علاقة الإمامة بالنبوة عند الغزالي

إن الكثير من الناس يقعـــون في الخلط بين مفهومـــي نبي و رسول ، فأحيانا يستعملهما بعض الناس كمصـــطلحين مترادفين فيما يقع أحيانا أخرى الفصل و التمييز بينهما . و يجعل البعض الأخر من الناس من الإمام خليفة للنبي ، إلى الحد الذي غال فيه البعض منهم — ونقصد هنا الشيعة الباطنية — و جعل الإمامة مكملة للنبوة و الإمام وريث النبي ، وكانت النبوة في نظرهم عقيدة ملازمة لعقيدة الإمامـــة .

فإذا كـــان هذا هو التصور الشيعي الباطني للنبوة المرتبطة بالإمامة كما سبق وعرضناه من قبل فما هو مـــوقف الغزالي من النبوة ؟ و كيف تصور طبيعة العلاقة بين النبوة بالإمامـــة ؟ ومن هو النبي و مـــا الذي يميزه عن الرسول و الإمام ؟ أين تكمن أهمية النبوة ؟ و هل يرتقي الأئمـــة إلى درجة الأنبياء ؟ تـــرى هل يوافق الغزالي على الرأي الشيعي الباطني القائل أن الإمام معصوم مثل النبي و هـــو وريثه و وصيه .. ؟

المطلب الأول : معنى النبوة و ختمها مع محمد ﷺ

أولا : معنى النبوة

لو أردنا الإحاطة بمعنى ومدلول هذه الكلمة " نبوة" التي وردت في الذكر الحكيم مرارا لذكره تعالى أنبيائه و ما جرى معهم من حوادث وما حكاه عنهم من قصص لوجدناها تعني «الإخبار عن الحقائق الإلهية أي عن معرفة ذات الحق و أسمائه وصفاته و أحكامه » [1]. فالنبي هو المبلغ للحقائق الربانية عن المولى- عز وجل- لعباده .

و" الغزالي" يحدد تصوره للنبوة من خـــلال بعض مؤلفاته التي احتوت رأيه فيهـــا لا سيما كتاب " المنقذ من الضلال" الذي كان غنيا بنصوص عبرت عن موقفه من مشكلة النبوة الذي يظهر انتماءه للمذهب السني الأشعري .

يوضح الأستاذ " إبراهيم مذكور" رأي هذا المذهب في النبوة بقوله « أما الأشاعرة فقد أخذوا بما أخذ به أهل السنة من قبل ، وقرروا أن النبوة مجرد اصطفاء واختيار من الله تعالى يَمُنُّ بها على من يشاء من عباده فليست صفة راجعة إلى النبي ولا درجة يبلغ إليها أحد بعلمه وكسبه وإنما هي محض ابتداء ورحمـــة من الله تعالى» [2] .

---

1 – ممدوح الزوبي ، معجم الصوفية ، ص 402

2 – إبراهيم مذكور ، في الفلسفة الإسلامية ، ج1 ، مرجع سابق ، ص 106

و عليه كـــانت النبوة كما اتفق أهل السنة اختـــيارا من الله وهذا تعبير عن الإرادة و العناية الإلهية فمـــا الأنبياء إلا لطف من الخالق بعباده و إرشاد لهم إلى طريق الحق والصلاح فهي لا تكتسب و لا تباع أو تشترى .

و رأى الإمام " الغزالي" أن الله تعالى « بعث الرسل ولأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة فبلغوا أمره و نهيه ووعده ووعيده ، فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به »[1]. مما يجعل للنبي مميزاته الخاصة التي ينفرد بها عن غيره من سائر الخلق ذلك « أن جنس الأنبياء متميزون عن غيرهم بالآيات والدلائل الدالة على صدقهم التي يعلم العقلاء أنها لم توجد لغيرهم »[2].

فيتسلح النبي بالمعجزات التي منحها له الله ليستخدمها في إقناع الخلق بصدق نبوته ورسالته وتفيده في الحجاج و غيره .. بناءا على ذلك يتمكن النبي من إرشاد الخلق وهاديتهم إلى عبادة الله و إخبارهم بعجائب قدرته و علمه.. فكانت النبوة تحمل دائما معنى « الإخبار عن الحقائق الإلهية أي معرفة ذات الحق وأسمائه وصفاته وأحكامه »[3] .

فللنبوة دور هـــام في هداية الخلق إلى عبادة الله ، باعتبار العقل الإنساني عـــاجز لوحده عن بلوغ اليقين ودرك الحقيقة ، و هذا « خلافا للبراهمة حيث قالوا :لا فائدة في بعثهم إذ في العقل مندوحة عنهم »[4]. يعني أن العقل في نظر بعض منكـــري دور النبوة قادر على هداية صاحبه إلى سبيل الحق ، دون الحاجة إلى ظهور أنبياء .

في مقابل منكري أهمية النبوة نرى طائفة أخرى تقول باستمرار نزول الأنبياء بعد محمد ﷺ وهم مدّعي النبوة . لأن المعروف لدى الخلق أجمعين أن النبوة قد ختمت مع نبي الله محمد وهذا ما أكده المولى – غز وجل – في قوله ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾[5].

ثانيا : الفرق بين النبي والرسول

إن النـــبي من حيث الـــدور والمعنى يختلف عن الرســـول من وجهة نظر فقهـــاء الأمة فبينهما فروق عـــديدة ، و يشير الإمـــام " أبو حامـــد الغزالي" إلى آراء العلماء في مسألة الفرق ين النبي

1 – أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1، ص 109
2 – أحمد بن تيمية ، النبوات ، ص 122
3 – ممدوح الزوبي ، المرجع نفسه ، ص 402
4 – أبو حامد الغزالي ، المصدر نفسه ، ص 166
5 – سورة الأحزاب آية 40

و الرســـول فيقـــول « و قد ذكروا فـــروقا بـــين النبي والرسول أحسنها أن من نبأه الله بخبر السماء إن أمره أن يبلغ غيره فهو نبي رسول، وإن لم يأمــــره أن يبلّغ غيره فهو نبي وليس برسول فالرسول أخصّ من النبي فكــــل رسول نبي و ليس كل نبي رسول ولكن الرسالة أعم من جهة نفسهـــا فالنبوة جزءا من الرسالة إذ الرسالة تتناول النبوة و غيرها »[1]. و لا يمكن لأحد مهما بلغت جـــرأته أن يساوي بين النبوة و الرســـالة في المعنى رغم ما بينهما من الاشتراك و التقارب « فالنبوة أعم من الرسالة »[2].

و يتفق كثير من الفقهاء السنيين مع " الغزالي" في تمييزه بين النبي و الرسول ، مثل شيخ الإسلام " أحمد بن تيمية " الذي يشير في كتابه عن "النبوات" إلى هذا الفارق و الاختلاف القائم بين النبي و الرسول قائلا « فالنبي هو الذي ينبئ بما أنبأ الله به ، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله و لم يرسل هو أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول »[3].

لكن ما نصادفه من تفسير لقوله تعالى ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾[4] . يظهر بجلاء دلالة هذه الآية الكريمة على انتهاء دور النبوة حيث فسرها العالم الجليل " ابن كثير " بما جاء نصه « فهذه الآية نص في انه لا نبي بعده وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده ، بالطريق الأولى والأخرى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة فإن كل رسول نبي ولا ينعكس »[5]. علاوة على ما سبق يظهر التمييز بين النبوة و الرسالة من زاوية العموم و الشمولية والخصوصية فالنبوة أعم و أشمل من الرسالة.

و بذلك تغلـــق تلك الآية الكـــريمة الباب أمـــام مـــدعي النبوة بعد النبي محمد ﷺ فهي إيضاح من الله و لطف بعباده " فمحمد" خاتم الأنبياء معنى خـــاتم النبيين لغويا نجد « كلمة خاتم من الناحية اللغـــوية نـــرى أن (معناها) عاصما يقرؤوها يفتح التاء و الجمهور بكسر التاء والأول

1- عبد الفتاح أحمد فؤاد ، الفرق الإسلامية و أصولها الإيمانية ، ص 157 ، نقلا عن التو يجري ، الشرح والإبانة 465/1

2- محسن عبد الحميد ، حقيقة البابية و البهائية ، ص 86

3- أحمد بن تيمية ، النبوات ، ص 185

4- سورة الأحزاب آية 40

5- ابن كثير، تفسير القرآن ، ج3 ، ص 493

يعني انه كالحلقة المحيطـــة بهـــم (و الثاني)تدل على أنه أحرهم وكلتا القراءتان تكذبان دعوى إدعاء النبوة بعد رسول الله » [1].

ثالثا : الإمامة و النبوة

و إذا كـــان الشيعة الباطنيـــة قد ربطوا عقيدتهم في الإمـــامة بمفهومهـــم للنبوة مؤكدين مـــن وراء ذلك على كون الإمـــام هو وريث النبي و وصيه و متمم دوره ... فإن الفيلسوف "الـــغزالي" خالفهم في تلك المعتقدات التي أخرجوا بها الناس عن دين الحق ، رغم أنه لا ينكر الصلة الوثيقة القائمة بينهما .

فقد جعـــل " الغزالي " مرتبة الإمامة قريبة من مرتبة النبوة بـــل إنها مكملة لها ، وأعمال الإمـــام متممة لمهام و أعمـــال النبي إذ يحدثنا الغزالي في " التبر المسبـــوك" « أن الله سبحانه وتعـــالى اختار من بني آدم طائفتين ، و هـــم الأنبياء ليبينوا للعباد على عبادته الدليل ويوضحوا لهـــم إلى معرفته السبيـــل " أمـــا الملوك " لحفظ العبـــاد من اعتداء بعضهم على بعض وملكهم أزمـــة الإبرام و النقض » [2] .

و هناك صلة بين وجوب الإمـــامة ووجوب النبوة باعتبار العلاقة بينهمـــا وثيقة فكما أن النبوة وجبت لتنير طريـــق البشر وتهديهم السبل الأقـــوم لعبادة الخالق الواحد و تدلل على قدراته و معجزاته . كذلك وجبت الإمامة لحفظ الدين ومراعاة مصالح العباد و إكمال الرسائل النبوية في سياسة الأمة وشريعة الحق.

المطلب الثاني : أهمية النبوة عند الغزالي و مكانتها

أولا : مكانة النبوة و الحاجة إليها

إن "الغزالي" كغيره من فقهاء الأمة لا ينكر النبوة و لا يجحد بوجودها ، بل العكس من ذلك قاده اتجاهه الأشعري السني إلى الدفاع عن نبوة محمـــد ﷺ ، و إثباتها بالبرهان القاطع و الدليل الساطع و ذلك لإبراز أن الإيمان بها ركن من أركان الدين و بيان لدورها وأهميتها و من ناحية أخرى لإسقاط كل ما تعلق بها من شوائب وزيف افتعله بعض المتطرفين أو حرّض عليه أعداء الإسلام والحاقدين على وحدته و تماسك بنيانه.

---

1 – محسن عبد الحميد ، حقيقة البابية و البهائية ، ص 86

2 – راشد لبراوي ، قادة الفكر الإسلامي في ضوء الفكر الحديث ،ص 339، نقلا عن أبي حامد الغزالي ، التبر المسبوك ص54

و رأى في نزول الأنبيـــاء ضرورة إنسانية ملحة ولدها الحاجة إلى معرفة الخالق و فهم رسائله في ظل وجود عقل قاصر عن إدراك كثير من الأحـــوال التي تعتري الوجود الإنساني وفي غياب الوسيلة المحققة لذلك . و عليه « كانت الحاجة إلى الوحي أو النبوة بنظر الغزالي ضرورة ملحة لأن وراء ما يتصوره العقلاء أمور ورد الشرع بها ولا يعلم حقائقها إلا الله تعالى ، و الأنبياء هم وسائط بين الله تعالى وعباده » [1].

فالنبوة مســـألة هامة ومن الضروري الإحاطة بفضائلـــها و الاعتقاد بضرورة وجودها لكن العقـــل في نظر " الغزالي" عاجز يعتريه النقص و التقصير ولا تدرك منه حقيقة النبوة « لأن العقل لا يهدي إلى الأفعال المنجية في الآخرة ، كما لا يهدى إلى الأدوية المفيدة للصحة فحاجة الخلق إلى الأنبـــياء كحاجتهم إلى الأطبـــاء و صدق الطبيب بالتجربة ، وصدق النبي بالمعجـــزة » [2] فهي – أي النبوة – اختيار و تكليف من الله يخص بها من يشاء من عبادة الصالحين ليحرص على تبليغ رسالاته كما ينبغي .

فكأن الإمام " الغزالي" كان يهدف من وراء خوضه في مسألة النبوة الردّ على كل مبتدع تسوّل له نفسه تشويه حقيقتها ، كما أراد إزالة كل ما علق بها من أفكار شيعية ساوت بينها وبين الإمامة أو ربطت النبوة بالولاية . مثلما فعل كثير من الفلاسفة "كالفارابي وبن سينا " اللذان اعتبراهما في مرتبة واحدة « وخلافا للفارابي وبن سيناء اللذان ساويا بين النبوة والفلسفة فإن الغزالي وضع كلا منهما في مرتبته على وفق ترتيب خلق الإنسان [...] فكانت الولاية طورا أعلى من طور العقل وكانت النبوة طورا أعلى من طور الولاية ، وبين العقل والكشف درجة مثلما بين النبوة والكشف درجة » [3].

ثانيا : عصمة الأنبياء و بطلان القول بعصمة الأئمة و تقديسهم

يُعلـــي حجة الإسلام من دور الأنبـــياء وقيمتهم فإضافة إلى تبليغهـــم الرسالات وإرشاد الأمـــة أكد أن « الأنبياء أطباء القلوب والعلماء بأسباب الحياة الأخـــروية » [4] و العصمة لهم من الكبائـــر فلا يتوقع منهـــم الخطأ و لا الخطيئة حتى « إن أهـــل السنة متفقون على عصمة الأنبياء في تبليغ الـــرسالات و كل ما يبلغونه عن الله تعالى من أمر و نهي فهم مصدقون .. ماعدا

---

1 – عبد الله محمد الفلاحي ، نقد العقل بين الغزالي و كانط ، ص 165

2 – أبو حامد الغزالي إحياء علوم الدين ، ج3 ، ص 166

3 – عبد الله الفلاحي ، المرجع نفسه ، ص 165 ، 166

4 – أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1، ، ص 42

طائفـــة من الخوارج التي اعتبرت العصمـــة للنبي قاصرة على ما يبلغه عن الله لا فيمـــا يأمر أو ينهـــي عنه» [1]. و بحسب ما اتفقت عليه تصورات بعض الفقهاء السنيين يكون « النبي قد علمه الله من الغيب الذي عصمه به نبيه عن الخطأ م ا لم يعلمه إلا نبي مثله » [2]. فيمكن ولو جزئيا قبول فكرة عصمة الأنبياء رغم ما فيها من اختلاف و جدل.

أما مسألة عصمة الأئمة فهي غير مؤكدة إلا عند الباطنية ، فهي تدّعيها وتسلم بها تسليما مطلقا لأئمتهم ، و ما ذلك إلا لتبرير تصرفاتهم الباطلـــة ودفـــع لكل تمرد، عنهم خاصة في عهد الفاطميين. و المعـــروف أن العصمة لم تثبت للأنبياء و لا الخلفـــاء « و قد كان عمر يخطئ وأبو بكر يخطئ ، ولو كان لعلي كل هذا الذي يدعونه للإمام من عصمة وعلم ببواطن الأمور و خفاياها و نتائجها لتغير وجه التاريخ و لما قبل التحكيم ولدبّر الحروب خيرا مما دبر » بمعنى توفر العصمة سيجعله يختار أفضل مما فعله فيجنب نفسه كل تلك المحن.

بينمـــا الحقيقـــة الواضحة هي أن الناس سواسية كأسنان المشط لا فرق بينهم إلا في التقوى والعمـــل الصالح . فحتى نبي الله محمد- صلى الله عليه وسلم – يخطئ لأنه هو ذاته لا يعلم الغيب ولا يحيط بخفـــايا الأمور« والنبي يقـــول عن نفسه: ولـــو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء » [3].

فإذا كان ذاك حال النبي و هو أكثر قربى منّا إلى الله تعالى فكيف جاز لهذه الفئة الباطنية أن تفترض عصمة الإمام المنتظر و تقدسه بل و توجب غيبته ورجعته و مع ذلك تجعل التعلم عنه أمرا لازما للأمة .. فهدا تناقض واضح لا يقبله عاقل لذا « يري الغزالي أن انتشار الجهل بين عوام الناس هو الذي جعل لأراء الباطنية قبولا عند الناس» [4].

فتقليد أفراد الباطنية الأعمى لإمامهم حسب "الغزالي" دون علم أو حجة واقتناع، يذكرنا بما قاله تعالى في أولئك القوم الذين على شاكلتهم﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [5].

1 – مصطفى حلمي ، نظام الخلافة ، ص 240

2 – أحمد بن تيمية ، النبوات ص 21

3 – أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ص 222 ، 223

4 – أحمد فروخ ، المنهاج الجديد ، الفلسفة العربية ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ، ط1 ، 1970، ص 229

5 – سورة البقرة آية ص 170

فهم شيعة تموج في الضلال بسبب إتباعهم إماما ينسبون له العصمة عن الخطأ و الخطيئة فإذا نصحتهم أو حاجيتهم فيما هم يعتقدونه احتجوا عليك بتعاليم إمامهم و معجزاته وتأويلاته، رغم أنه شخص لم تدركه أبصارهم بل كل ما نقل عنه مجرد أخباره .. فلا هم مقتنعون بغير ذلك من عجزه وجهله كغيره من سائر خلق الله ، فلا مجال إذن لمجادلتهم ما داموا لا يهتدون إلا بخطى غائب معصوم ،و هنا ينطبق عليهم قول الله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [1] فظهر بطلان رأي أولئك الباطنية على جميع الأصعدة.

ثالثا : ضرورة تقليد الأنبياء و التعلم عنهم و رفض التعلم من الإمام الشيعي

لذا وجبت طاعة الأنبياء و الإقتداء بهم « ففي القدوة بصاحب الشرع - صلوات الله عليه وسلامه- النجاة ، وفي إتباعه الفوز بحب الله » [2] . لأن سبب بعث الرسل و الأنبياء بيان شريعة الله لخلقه وتوحيدهم ، لهذا « أيدت الرسل بالمعجزات والأولياء والأنبياء بالكرامات لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » [3].

فواجب الأنبياء تبليغ رسالات ربهم كما عاهدوه على ذلك لقوله تعالى ﴿ وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [4] و أيضا قوله - عز وجل- ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [5] فالنبي مكلف من الله تعالى لإخبار الخلق برسائله فهو واسطة بين الخالق والخلق.

و للنبي دور هام في شرح العقيدة و نشرها فهو مكلف بتبيين أصول الدين وأحكام الشريعة للناس لأنه « من أعظم أصول الضلال الإعراض عن بيان الرسول للأدلة وللآيات والبراهين والحجج » [6] ولأجل هذه كلف النبي بإبلاغ رسائل ربه وبالنظر إلى غايات النبوة وأدوار الأنبياء احتلت النبوة مكانة ودرجة رفيعة وجعلت إحدى أركان الإيمان .

---

1 – سورة المائدة آية 104

2 – أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج2 ، ص 1986

3 – المصدر نفسه ص 1970

4 – سورة آل عمران آية 187

5 – سورة المائدة آية 67

6 – أحمد بن تيمية ، النبوات ، ص 47

فالنبوة من أركـــان العقيدة الإسلاميـــة التي يسأل عنها المرء يوم الحساب « والإيمان بالنبوة أصل النجاة والسعادة فمن لم يحقق هذا الباب اضطـــرب عليه باب الهدى و الظـــلام والإيمان والكفر و لم يميز بين الخطأ والصواب » [1] .

لذلك نلاحظ " الغـــزالي" في نقده لفرقة الباطنية يقر معهم بضرورة أخذ العلـــم عن إمام معصوم استفاد علمه عن الله تعالى لكن لا يصلح أي إمـــام كمعلم عدا النبي الكريم لعصمته وشرف معارفه . أمـــام هذه الحالة من التشتت التي خلقتها الباطنية بسبب دعوتهم الناس للتعلـــم من الإمام المعصـــوم – حسبهم– انتقدهم " الغزالي" نقدا شديدا مبطلا دعواهم هذه ، محاولا تقديم البديل عن هذا الوضع المشتت للأذهـــان .

مستفيدا مما تدّعيـــه الباطنية من أراء و كـــان رده عليها متمحورا في شقين أحدهم أوردته الباطنية والآخر زيفته فأمـــا الشق الأول فهـــو اعتراف الإمـــام " الغزالي" بضرورة وجود معلم معصوم للمسلمين يأخذون عنه أساسيات دينهم كما ترى الباطنية .. أما الشق الثاني الذي غيرته الباطنية فهـــو من يكون هذا الإمام ؟

و هنا يرى "الغزالي" كما رأت فرقة الباطنية ضرورة وجـــود إمام للأمة « بل الصواب الاعتراف بالحاجة إلى المعلم و أنه لابد و أن يكون المعلم معصوما » [2] لكن البـــاطنيين أخطؤوا في تعيين الإمـــام المعصوم ، فليس هو الإمام الشيعي بل محمد ﷺ و عليه يثني عليه فقـــهاء زمانه الذين تفوق عليهـــم ، و حسبه أن النبـــي وحده هو ذلك الإمام المعصوم و المعـــلم الأجدر بالتعليـــم . يـــقول " أبو حامد الغزالي" موضحا رأيه في الإمـــامة « لست أدعو إلى إمام سوى محمد – عليه السلام– و إلى كتاب سوى القـــرآن منه استخرج جميع أسرار العلوم و برهاني على ذلك لســـاني وبيـــاني » [3] .

بذلك أكـــد " الغزالي" على أهمية الإقتداء بالأنبيـــاء مبطلا بذلك نظرية التعلم عن الإمام الشيعي، موجبا في الوقت عينـــه ضرورة اقتداء أئمـــة الأمـــة المستخلفين في الأرض بالنبي الكريم ﷺ فهو الإمام الأول للأمة الإسلامية و معلم الخلق و مرشدهم .

---

1 – أحمد بن تيمية ، النبوات ، ص 118

2 – أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ص 50

3 – أبو حامد الغزالي ، القسطاس المستقيم ، ص 93

فكـــان أثر أراء حجة الإسلام عظيما في علم الكـــلام ، لأنه جـــاء بعد خروج الفكر من نطاق الاعتزال إلى حقـــل الفلسفة ، فخرج هو بالأشعرية من حدود القضايا الكـــلامية إلى المسائل الفلسفية على اختلافهـــا و ناقش هذه المسائل على أساس العقل المتأدب بالشرع» [1] و بهذا الموقف أبطل" الغـــزالي" الفقيه الأشعري دعـــوة الباطنية الشيعية في عصمـــة الأئمة ، الموجبة لطاعتهم محددا في رده عليهـــم بعض مواقفه في الإمامـــة و النبوة لتتضح في هذه الأخيرة نزعته الصوفية . وفيما يلي تفصيل لـــذلك.

المطلب الثالث : تأثير النزعة الصوفية على تصور الغزالي لحقيقة النبوة

أولا : اختلاف النبوة عن الإمامة والملك

لا ننسى أبدا النزعة الصوفية لدى الغزالي في حديثنا عن مسألة النبـــوة خاصة و أن للمتصوفة فيها خوض كبير .. و ليكن تركيزنا هنا على معنى النبوة لتوضيح معنى ارتباطها بالإمامة والإمام "الغزالي" « يبطل أن تكـــون النبوة بمعنى الملك فإن الأنبياء بالغيب معنى آخر خلاف السياسة » [2] فالنبي غير الملك والخليفة كمراتب سياسية.

كذلك النبي يختلف عن الإمام من حيث العصمة فهي له وحدة حيث جاء في رسالة "روضة الطالبين" للغزالي إعلام بذلك جاء فيه « و اعلم أن الأمة مجتمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان وكفايته منه ، فلا يصل إلى ظاهره بشيء من أنواع الأذى ولا إلى باطنه بشيء من الوسواس وكـــذا عصمته عن الجهل بالله تعالـــى وصفاته ... » [3].

وفي نظر " الغـــزالي" انفرد النبي بميزة العصمة عن الإمـــام ، هو خلافا لما ادعته الشيعة الباطنية من اعتقاد بعصمة الأئمة الشيعيين وتتريههم من الكبائر ومن الخطأ والخطيئة . فالنبي كما أوضح حجـــة الإسلام له ما يميزه و يجعله مختلفا عن الإمـــام ، فالأول يتلقى الوحي من ربه فيكون من الضروري له تبليغـــه بصدق و أمانة ، لذا لا بد من عصمته من الكذب وخلف العهد منذ نبأه الله تعالى وغيرها من الكبائر و الصغائر المحرمات و المكروهات التي وردت بالتفصيل في هذه الرسالة مما كان النبي معصوما عنها .

---

1 – كمال اليازجي ، معالم الفكر العربي ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ،[د ط] ، [د ت] ، ص247

2 – أبو حامد الغزالي ، معراج السالكين ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط1، 1994، ص 99

3 – أبو حامد الغزالي ، روضة الطالبين و عمدة السالكين ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان [د ط] ، [د ت]ص57

ثانيا : خواص النبوة و تأثيرات الصوفية

يؤكـــد الفقيه " أبو حامد الغزالي" علـــى أن النبوة مدركة و مسلم بها و لا مجال لإنكارها رغم « أن بعض العقلاء أَبَوْا مُدركات النبوة واستبعدوها وذلك عين الجهل» [1] فزعموا أنها درجة لم يبلغهـــا الإنسان بسبب عجزه إذ هي لا تتوفر فيه في حين يبرهن الغزالي على وجودها وإمكانها من خلال استشهاده بما يحدث أثناء النوم فيقول « وقد قرب الله تعالى على خلقه بأن أعطاهم نموذجا من خاصية النبوة وهو النوم إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحا وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير » [2] .

وهكـــذا كانت النبوة من الأمور التي يمكـــن للإنسان إدراكها والتصديق بها لما فيها من خصائص قـــد يتوافر بعضهـــا لديه كما هو في مثال الغزالي السابق فمعرفة أحـــوال النبوة تساعد على معرفة من يكون النبي « فإن وقع لك شك في شخـــص معين انه نبي أم لا، فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحـــواله إما بالمشاهـــدة أو بالتواتر و التسامع » [3] أي للنبي صفـــات تخصه يعرف من خلالها و يتميز بها عن غيره.

فللنبي أدوار ومهـــام كلفه به الله — عز وجـــل — لذا نجده —تعالى— قد اصطفـــى لهذا المنصب أفضل خلقـــه خُلقا ، ليؤدوا أمانته ، وليقنعوا الناس بأحكـــامه. وكذا ليرشدوهم إلى طـــريق الحـــق والنجاة بما تميزوا به مـــن خـــواص وسمات « و على الجملة فالأنبياء عليهم الســـلام أطباء أمراض القلوب » [4].

و ما علينا نحن البشر العاديين سوى « تقليد الأنبيـــاء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة لا ببضاعة العقل » [5]. فوسيلة إدراك النبوة ليست الحـــواس و لا حتى العقل . فنحن نعلم ثوره الشك التي قادها الغزالي ضدهما فإنما تدرك بالذوق « فإن من بحث عنها علم بالضرورة أنها لا تدرك إلا بإلهام إلهي وتوفيق من جهة الله تعالى » [6] هذه هي الطريقة الصوفية طريقة الكشف الباطني كما نسميها الحدس والذوق .

---

1 – أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص **92**

2 – المصدر نفسه ، ص **93**

3– المصدر نفسه ، ص **94**

4– المصدر نفسه ص **99**

5– المصدر نفسه ص **99**

6– المصدر نفسه ص **93** ، **94**

فالأنبياء في اعتقـــاد " الغزالي" نمط متميز من الناس لهـــم مزاياهم وخواصهـــم التي ينفردون بها عن غيرهم « و إنا نجد هذا الصنف من البشر نعتريـــه حالة إلهية خـــارجة عن منازع البشر و أحوالهـــم . فتغلب الوجهة الربانية فيهـــم على البشرية في القـــوى الإدراكية و والتروعي ة من الشهوة و الغضب و ســـائر الأحوال البدنية فنجدهـــم متزهين عن الأحوال البدنية فنجدهم متزهين عن الأحـــوال الربانية من العبادة والذكر لله بما يقتضي معرفتهـــم به مخبرين عنه بما يوحي إليهـــم في تلك الحالة من هداية الأمـــة على طريقة واحدة وسنن معهودة منهم لا يتبدل فيهم كأنه جبلة فطرهـــم الله عليهـــا »[1].

و من صفات الأنبيـــاء أيضا التي لم تتح لبشر سواهم اطلاعهم على بعض الأمـــور الغيبية تلك التي تتجاوز حدود العقل البشري « فيرى النبي الله والمـــلائكة ويسمع كـــلام الله منه أو من الملائكة ، و يرى الجنة و النار و العرش و الكرسي ويخترق السموات السبع .. » [2].

ومن نـــال مترلة النبي انكشف له سر الملكوت و رفع عنه الحجـــاب فأدرك بفضل النبوة ما لم يحـــط به عقل ، و هذا ما يقوله " الغزالي" « فالأنبياء والأولياء انكشف لهـــم الأمر وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم و الدراسة و الكتابة للكتب ، بل بالزهد في الدنيا و التبري من علائقها و تفريغ القلب من شواغلها و الإقبال بكنه الهمة على الله تعالى» [3] .

من خـــلال ما سبق عرضه في مســـألة " النبوة" تتضح مـــواقف حجة الإسلام "الغزالي" منها ويظهر الفـــرق لديه بين النبي و الرســـول و الإمام ، إذ كـــانت نظريته في " النبوة" دليلا هامـــا على نـــزعته الصوفية التي تـــركت بصماتها على كثير مـــن أراء " الغـــزالي" . من ناحية أخـــرى أظهر لنا رأي " الغـــزالي " في " النبـــوة " موقفـــه من فـــرق الباطنية ، حيث يثور علـــى معتقداتهـــا فيما يتعلق بالإمـــامة و النبـــوة و يستنكر ما تدعيه من بدع شـــأنه شأن غيره من المفكـــرين السنيين .

المطلب الرابع : نقد الغزالي للنبوة بالمفهوم الشيعي الباطني

رغم أن "الغزالي" هدف من خلال معالجة مسألة النبوة إبطال مزاعم المدعين لها وبالأخص الرد على الفلاسفة المتناولين لها بمنظور فلسفي أكثر منه إسلامي عقائدي خاصة نظريات الشيعة فيها و ربطهم لها بعقيدتهم في الإمامة.

1 – عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 493

2– المرجع نفسه ، ص 500

3– أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1، ص 875

فوجد "الغزالي" أن حاصل رأيهم فيها يعود إلى نظرية النبوة الفارابية وبما انه تحامل على الفلاسفة كالفارابي و بن سينا في كثير من آرائهم ، فقد اعتبرت النبوة إحدى هذه المسائل الخلافية بين " الغزالي" وهؤلاء الفلاسفة ولاسيما "الفارابي".

حيث يؤكد الدكتور " إبراهيم مذكور" موقف "الغزالي" من نظرية "الفارابي" الممزوجة بتعاليم الفلاسفة قائلا « و لم يغفل الغزالي نظرية الفارابي في النبوة وتحامل عليها كما تحامل على الآراء الفلسفية الأخرى لكنه في تحامله لم يستطع أن يرد عليها ردا مقنعا أو ينقضها بشكل واضح على انه هو نفسه بالرغم من خصومته لها ،لم ينج من أثرها » [1] .

و نجده يصفها في مؤلفه تهافت الفلاسفة بشكل مختلف عن ما كتبه بعد ذلك في مؤلفه "المنقذ من الضلال" حين اعتنق النزعة الصوفية وانكشف له حال النبوة فيقول في " المنقذ" أن النبوة طور فوق طور العقل« ووراء العقل طور آخر تنفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل وأدوار أخرى العقل معزول عنها » [2].

ويضيف قولا أخـــر يوضح من ورائه كيفية إدراك أمـــر النبوة و عدم إنكارها لأن المنامات التي تحدث للمرء أثناء نومه تؤكد وجودها و حدوثها فيقول « قد قرب الله تعـــالى على خلقه بأن أعطاهـــم نموذجا من خاصية النبوة و هـــو النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب إما صريحا وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه.. لأنكره وأقام البرهـــان على استحـــالته » [3] .

و يعترف " الغزالي" بأن للعقل دورا فعـــالا في إدراك النبـــوة إذ يقول « فالأنبياء أطباء أمـــراض القلوب و إنمـــا فائدة العقل و تصـــرفه أن عرَفنا ذلك ، و يشهد للنبوة بالتصديق ولنفسه بالعجز عن درك ما يدرك بعين النبـــوة » [4] . و ليست النبوة إيمانا بوجود الخوارق والمعجزات لأن هذا جزء منها فقط «بل الإيمان بالنبوة أن يقر بإثبات طور وراء العقل تنفتح فيه عينٌ يدرك بها مدركات خاصة » [5] .

1- إبراهيم مذكور ، في الفلسفة الإسلامية ، ص 107

2- أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص 92

3- المصدر نفسه ص 93

4- المصدر نفسه ص 99 ، 100

5- المصدر نفسه ص 107

وردّ الإمــام " الغزالي" علــى الفلاسفة في مسالة النبــوة اعتمد علــى وجود خواص الأدوية والنجوم باعتبارهـــا من أصناف علم النبوة ، كما أضح ضرورة التصديق بها و الاعتقاد الجازم بأهميتهـــا لأنها مرتبة أعلى من مرتبة الإمامة .

مع أن الظاهـــر من تصوره لها لم يخل من تأثر بنظرية "الفـــارابي" و تصوراته حتى « أن اعتراضه على نظـــرية الفارابي في النبوة لم يكن شديدا ولا قاطعا ولهذا لم يتردد في أن يعتنقها في مكان آخر ، محاولا دعمها على أساس من الفيض و الإستشراق وهكذا كانت النبوة عنده حيث اطمأن لها بهذا المفهوم دون سواه »[1].و قد رأى نقّاده أن نقده للنبوة بالتصور "الفارابي" يظهر فيه تأثره بها و بما حوته من حديث عن الفيض و غيره ..

---

1 – إبراهيم مذكور ، المرجع سابق ، ص 108

المبحث الرابع : منهج الغزالي النقدي الشكّي و إبطاله للتأويل الباطني

المطلب الأول : المنهج النقدي الشكّي مفهومه قواعده و أسباب اعتماد الغزالي له

أولا : أسباب اعتماد الغزالي للمنهج الشكي و دوره في بلوغ العلم اليقيني

لقب "الغزالي" بحجة الإسلام لأنه اجتهد في الدفاع عن السنة و أصول العقائد ، فهو محي الدين . و اعتمد في ذلك على منهج عرف به و أشتهر فيه وكان من السبّاقين إلى اعتماده ألا وهو المنهج النقدي الشكي ، الهادف من ورائه إلى البحث عن الحقيقة . وكان للغزالي أسبابه التي ساقته إلى اعتماد المنهج الشكي منها:

1 * كثرة الفرق و تضارب أرائها:

فتلك الظروف القاسية التي اتسم بها عصره من تعدد للآراء وتكاثر للفرق والمذاهب المتضاربة الآراء الباعثة على الحيرة و التساؤل .دفعته إلى الإطلاع عليها و نقد ما ابتدعته من آراء و الرد عليها. حيث تاه الخلق عن بلوغ الحقيقة و تتبعها بسبب كثرة الآراء و انتشار التقليد و التلقين على غير اقتناع أو بحث أو تمحيص .فأراد "الغزالي" الكشف عن الفرقة المعتدلة الآراء ، تلك الفرقة الناجية ، التي ذكرها النبي في الحديث « ستفترق أمتي نيفا و سبعينا فرقة الناجية منها واحدة ، فقيل من هم ؟ فقال : أهل السنة و الجماعة . فقيل : و ما السنة والجماعة ؟ قال : ما أنا الآن عليه و أصحابي» [1] .

2* البحث عن العلم اليقيني :

شرع "الغزالي" في البحث عن العلم اليقيني بالإحاطة بآراء عصره و مذاهبه و ما ساد فيه من فرق حتى يتوضح له المسلك إلى هذا اليقين ، وهذه المسيرة الفكرية هي التي ألف لأجلها كتابه " المنقذ من الضلال" كسيرة ذاتية يحكي فيها اعتماده على منهج الشك و النقد للخلاص من الأوهام و الضلال وكيفية بلوغ الحقيقة « إن اختلاف الخلق في الأديان و الملل ثم اختلاف الأئمة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق بحر عميق غرق فيه الأكثرون وما نجا منهم إلا الأقلون وكل فريق يزعم أنه الناجي» [2] .

---

1 – ذكره الترمذي و أبو داوود

2 – أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص 78

فكـــأنه قصد من كلامه أن يظهر لنا ما عاشه في عصره من اضطراب سياسي و آخر فكري عقائدي مبرزا لنا تعدد الفرق و اختلاف دعواهـــا فكـــل طائفة تدعي أنها الناجية وواجبة الإتباع تماما كما ورد في قول الله تعالى ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[1].

فالحقيقة و الـــكشف عن الزيف و الأباطيل كان مطلب الإمـــام " الغزالي" لقوله « و قد كان التعطـــش إلى درك حقـــائق الأمور دأبي و ديدني من أول أمـــري و ريعان عمـــري، غريزة وفطرة من الله و ضعهـــا في جبلتي لا باختياري و حيلتي » [2].

كـــانت غاية " أبي حامد الغزالي" من اعتماد الشك و النقد ، تمييز الحـــق عن الباطل و إرشاد الناس إلى السبيل الأقـــوم، إذ لم يكن يثق في المعارف المحصل عليها من التقليد و إتباع العقائد الموروثة ، فثار عليها حتى بان له بطلان مسلك التقليد والتلقين لقوله « حتى انحلت عني رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة » [3]. ونفس الشيء قابل به " الغزالي" تلك المعـــارف المحصل عليها بالحواس و العقل بهدف بلوغ العلم اليقيني .

3* الشك في قيمة العقل و الحواس

و لم يكتف في مسيرته الشكلية بهذا الأمـــر، بل طال شكه طرق و وسائل المعرفة الأخرى كالعقل والحـــواس ، فنجده يثور على المعارف المحصلة بهذين السبيلين، يظهر ذلك مما يروي لنا في المنقذ عن عـــدم ثقته بالحواس وأيضا العقل لقوله « فأقبلت بجد بليغ أتأمل المحسوسات والضروريات وأنظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها ، فانتهى بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضا » [4]. فما يصلنا بها لا يكون دائما صوابا بل العيب في الحواس أنها تنقل لنا مظاهر الأجسام في غير صورتها الحقيقية .

أما بالنسبة للعقل فرغم كونه أفضل من الحواس عند " الغزالي" إلا أنه يراه قابلا للتكذيب إذا ما ظهر حـــاكم أخر يكذبه كما كذب هو – أي العقل – الحواس من قبل . لذلك يكشف في "المنقذ" عن النقصـــان و العجز الذي يعتري العقل قائلا « أن العقل ليس مستقـــلا بالإحاطة بجميع المطالب و لا كاشفا للغطاء عن جميع المعضلات فهذا » [5].

1- سورة الروم آية 32
2- أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص 25
3- المصدر نفسه ص 25
4- المصدر نفسه ص 27
5- المصدر نفسه ص 48

مؤكدا مما سلف أن العقل غير واف بجميع المعـــارف و لا كاف لدرك الحقـــائق . و مع ذلك كـــان سبيلا للمعرفة حتى يظهر ما يكذبها. إذ يقدم العقــل على النص في حالة التعارض أو التناقض بين المعقول والمنقول و يولي له أهمية بالغة مع الحذر و الحرص الشديدين.

4* التأكيد على سلك طريق الصوفية

و انتهـــى به طول الشك و النقد إلى أن أفضل مسلك لبلـــوغ العلم اليقيني هو طريق الزهاد العـــابدين من المتصوفـــة و لا يتأتى إلا بالحدس و الإلهـــام . و هـــو نوع من الكشف الباطني أو كما يقـــول عنه " الغزالي" « هو نـــور يقذفه الله تعـــالى في القلب » مستشهدا بما قاله نبي الله محمد ﷺ «إن الله تعالى خلق الخلـــق في ظله ثم رشّ عليهـــم من نوره » ليؤكـــد "الغزالي" بعدهـــا أن « من ذلك النور ينبغي أن يطلب الـــكشف » [1].

و هذا الطـــريق نحو الحقيقة لا يتأتى إلا بالتعبد لينكشف عن صـــاحبها الحجـــاب و يحب المعبود و يعشقـــه فيحسن عبـــادته. و بلغ تقدير " الغـــزالي" للمتصوفة و طريقتهم في إدراك الحقائق ، أن لم يتوان عن الإشـــادة بخصالهـــم و الحث على إتبـــاعهم فقال « إني علمت يقين أن الصوفية هم السالكـــون لطريق الله تعالى خاصة و أن سيرتهـــم أحسن السير و طريقهم أصوب الطريق وأخلاقهـــم أزكـــى الأخلاق » [2].

و يضيف " الغـــزالي " فكـــرة أخرى عن الصوفية رأى فيهـــا أنهم وحدهم ذوي البصيرة والـــرأي ظهرت لنا من خـــلال قوله « بل لو جمع عقـــل العقلاء وحكمة الحكماء و علم الـــواقفين على أسرار الشـــرع من العلمـــاء ليغيروا شيئا من سيرهم و أخلاقهـــم و يبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيـــلا » [3].

ويرتب الإمـــام " الغزالي" مرتبة التصوف في أعلـــى درجات المعرفة فهي طـــور وراء العقل لقـــوله « ووراء العقـــل طور أخر تنفتح فيه عين أخـــرى يبصر بها الغيب و ما سيكون في المستقبل و أمـــور أخرى العقـــل معزول عنهـــا » [4] و لا ينال هـــذه المترلة إلا من تطلع إلى معرفـــة الله تعـــالى و سعى لنيل رضاه بالـــورع و التعبد كأحـــوال الصوفية فينكشف لهم العلم والمعرفة بطـــريق الحدس و الكشف البـــاطني .

1– أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ص 29، 30

2– المصدر نفسه ، ص 62

3– المصدر نفسه ص 62

4– المصدر نفسه ص 66

و عن طريــق الــذوق و الإلــهام تحدث المعرفة الحق و تنكشف للمرء و لا يتــم ذلك إلا بعد جهــد جهيد في طلب العلــم و نهل المعرفــة ، و إقبال على الزهــد و التقوى و فرار من الدنيا وزينتهــا . و يخبرنا فقيه الإســلام و رائد الصوفية عن هذا المسلك فيقــول « وأما الذوق فهو كالمشــاهدة و الأخذ باليد و لا يوجــد إلا في طــريق الصوفية » [1] ليثبت بعد ذلك حقيقة النبــوة التي لا مجــال للشك فيهــا .

و لم يصــل " الغزالي" إلى حقيقة اعتمــاد الذوق و الحدس أو الكشف الباطني بمحض الصدفة بل حين طبق منهجــه النقدي بالتشكيك فيما حــوله من آراء ومذاهب بدءا من آراء المتكلمين فالفلاسفة ثم الباطنيــة حتى بلغ فرقة المتصوفة و « تقرر عنده أن وسائل المعرفة حس فتمييز فإدراك فحدس فكشف فنبوة » [2] .

لذلك انتهــى به الأمر بعد طول شكه إلى اعتبار طريــق الصوفية هو طريق من يرغب في النجــاة ، بعيدا عن زخرف الدنيا و خداع الحواس و قصور العقل لأنه يعتمد أساسا على الكشف و الذوق و المعــرفة الحدسية الباطنية من خلال ما يعرف بالوحي و الإلهــام والإشراق.

ويصف " هنري سيرويا " هذا الطريــق الأخير الذي اختاره الغــزالي بعد رحلة شكــه الطويلة انه حين « وصل إلى مرتبة الشك المطلــق في كل شيء ثم ترك مبدأ الشك هــذا و بدأ في البحث عن الحقيقــة بشوق و نهم بتعمقــه من جديد في مذاهب المتكلميــن و لم تلــق روحه بغيتها إلا في الحيــاة التأمليــة للصوفيين» [3].

ثانيا : قواعد المنهج الشكي

لقد أبدع " الغزالي" طــوال حياته و حاول إحياء علوم الدين و تجديد الإيمان حتى وصف بحجة الإسلام و محي الإيمان ، و إتنهج لأجل بلــوغ أهدافه طرقا و مناهج ساعــدته على تحقيق مسعاه و يمكن الكشف عنها من خلال كتاب " المنقذ " الذي يمثل سيرة ذاتية لما عرفه الإمام "الغزالي" في حياته و لطريقة تعامله مع مختلف الفرق و الإشكاليات التي اعترضته .

---

1 – أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص 70

2 – كمال اليازجي ، معالم الفكر العربي ، ص 244

3 – هنري سيرويا ، فلسفة الفكر الإسلامي ، ترجمة : محمد إبراهيم ، دار الثقافة العربية للطباعة و النشر ، القاهرة مصر [د ط] ، 1961 ، ص 96 ، 97

و تتضح قواعـــد منهجه من خلال كتاب " المنقذ من الضلال " الـــذي يعد نوعا من التأريخ الـــذاتي الذي يكشف بحق التطـــور العقلي و الـــروحي لحياة الغزالي الخصبة » [1] حيث اعتمد "أبو حـــامد الغزالي" على المنهج النقـــدي و الشكي « فبدأ الغـــزالي كما بدأ العقليون النقديون إذ رفض جميع المعلومـــات السابقة التي تلقاهـــا عن المجتمع و عن الوالدين و المعلمين و التي أرجعهـــا إلى التقليد » [2].

فقد أبطل " الغـــزالي" التقليد السائد بين العـــوام و أبرز سلبياته ومضاره وكشف عن مساوئه ثم جعل الفطرة الأصلية نقطة انطـــلاق في طلب المعرفة و التماس اليقين و الفطرة الأصلية هي حـــالة الإنسان مجردا عن العقـــائد والوراثة والتقليد ، لما يحكي عن نفسه في المنقذ « و قد كان التعطش إلى درك حقـــائق الأمـــور دأبي و ديدني من أول أمـــري و ريعان شبابي غريزة و فطرة من الله وضعتا في جبلتي لا باختياري و حيلتي حتى انحلت عني رابطـــة التقليد وانكسرت علي العقـــائد الموروثة » [3] و يستشهد " الغزالي" بقـــول الرسول الكريم ﷺ « كـــل مولود يولد على الفطـــرة .. » [4] و هذه الفطرة أصيلة في العبد.

- ومن الخطوات الهامة لمنهجه التي يكشف عنها في المنقذ من الضلال:

1 -رفض التقليد وإيثار طريق النظر العقلي (الاستدلال)

2 -الفطرة الأصلية نقطة الارتكاز الضرورية في منهجه

3 -أسلوبه النقدي في استعراضه للعقائد والمذاهب

4 -معيار اليقين والشك: التشكيك في المحسوسات والمقولات

الشك الفلسفي (الأزمة الشكية الأولى)

5 -الرجوع إلى اليقين: النور الإلهي سند المعرفة المباشرة ومضمونها.

6 -مناقشة مواقف الفرق طلبا للحق على ضوء موقف الصوفي الأول (النظري)

المطلب الثاني : الغزالي رائد الأشعرية والتوفيق بين العقل و النقل

لقد عمل الإمـــام " الغـــزالي" كغيره من علماء ومفكري أهل السنة على الدفاع عن الشريعة و السنة و إعـــلاء كلمة و عقيدة أهل الجماعة التي سبقه في الـــدفاع عنها الباقـــلاني و الجويني

---

1 – محمد علي أبو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص341

2 – المرجع نفسه ص 341

3 – أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص25

4 – متفق عليه و ذكره البخاري

و غيرهـــم كثيرون ضد المبتدعة و أهل التـــأويل أيضا . فكان منهجه وسطا بين العقل و النقل وهو الموقف الذي ظهر متجليا من خلال عدد من مؤلفاته التي يربط فيها بينهما ، مثل كتابه "الاقتصـــاد في الاعتقاد" بما نصه « تحققوا أن لا معـــاندة بين الشرع و المنقول و الحق والمعقول » كما يضيف قـــائلا « أن الواجب المحتوم في قواعد الاعتقاد ملازمة الاقتصاد والاعتماد على الطريق المستقيم » [1] و الطريق المستقيم مشروط بالربط بين الشرع و العقل .

نلاحظ أن " أبا حـــامد الغزالي" شك في مقدرة الحـــواس على المعرفة، وأيضا في قدرة العقل ليبرز مدى الحاجة الملحة للعودة إلى الشرع، باعتبار أن كلا من العقل والحواس وإن كانا يساعدان على بلوغ المعرفة إلا أنهمـــا لا يخلوان من القصور و العجز، حيث يرى حجة الإسلام أن العقل بالتحديد غي كاف لجعل الإنسان محيطا بجميع المعارف، فهو مثل الحـــواس يعتريه العجز و النقصان « أو لا يعلم أن العقل قاصر و أن مجاله ضيق منحصر».

إذا يتبين مما سبق أن قيمة العقل عند الغزالي نسبية وقدرته محدودة فلا ثقة به ولا بما يأتي عنه من معارف ما لم يساندها الشرع ، وتخضع لموازينه ، فالعقل الشرع متكاملان لقول "الغزالي" في الاقتصاد في الاعتقاد « اعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع » . و يضرب لنا هذا المثال يؤكد علاقة العقل بالقران بما ورد في قوله « فالمعرض عن العقل مكتفيا بنور القران مثاله المعترض لنور الشمس مغمضا للأجفان فلا فرق بينه وبين العميان والعقل مع الشرع نور على نور » [2] .

فكـــان حجة الإسلام يخاف على العـــوام من إفراط المفرطين و نهج المغالين ، فاعتدل في رأيه بين المنقـــول و المعقول لتأكيده ذلك في كثير من مؤلفاته « فالوقوف عند ظاهر النص طريق الحشوية المقلدين والاكتفـــاء بالعقل وحده سبيل المعتزلة و الفلاسفة » [3]. فنهى عن التأويل إلا لذوي العلـــم الراسخين في الدين حتى لا يكثر الجدل حول مسائل الدين و أكد على ضرورة الاحتكـــام إلى كتاب الله و سنة رسوله.

لكن في كثير من المســـائل يقع التعـــارض بين الأصلين العقل و النقل فما العمل في مثل هذه الحالة ؟ أيهمـــا نرجع إليه و أيهمـــا نرجح ؟ ترى كيف قام الإمام "الغزالي" بفـــك التباس هذه المعضلة ؟ هل عاد إلى النص أم فضّل سلطان العقل؟

---

1 – أبو حامد الغزالي ، الاقتصاد في الاعتقاد ، ص 69

2 – المصدر نفسه ص 70

3 – جلال محمد عبد الحميد موسى ، نشأة الأشعرية و تطورها ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت لبنان ، [د ط] ، 1982 ص 430

كإجابة عن تلك التساؤلات يمكننا القول بأن الفيلسوف "الغزالي" حاول تحديد مجال كل من العقل و النص مـــع إبراز دورهما في تحقيق الفهم مع إظهار الأولى بالرجوع إليه في حالة التعارض . فيرى ضرورة اعتبار « العقل و النص أصلا » فحسب اعتقاده « العقل له مجاله و حدوده وكذلك النص و لا تعارض بين الاثنين » [1] فحل الخلاف بين المسلمين يكون بالرجوع إليهما و لا يكون بمجرد تغليب طرف على آخر.

فلا تقاس الأمـــور إلا بالعودة إلى الشرع و العقل أمـــا في الآيات المتشابهات فإن تعارض النص مع مدلولات العقـــل ، فإننا نرجح العقل ، بمعنى إعمال التأويل لكن في موضعه و لذوي الاختصـــاص . فلا يفهم من هذا جعل العقـــل أصلا و أساسا وحده .. حتى لا يتطاول على الدين و نصوصه المبطلة و المشبهة من الفرق.

و الملاحـــظ أن " الغزالي " لا يعطي سلطة مطلقة للعقل بل يقيده بالشرع باعتباره رائدا من رواد المذهب الأشعري فيذهب مذهب الأشعـــرية في مناقشة مسائل العقيدة . و مع ذلك لا يمكننا الجزم باتفـــاق "الغزالي" مع شيخه الأشعري و غيره من رواد فرقته في مسألـــة تعارض النص العقل . حيث تظهر مواقفه الخاصة كمبدع مجدد في الدين حين يقدم العقـــل على الشرع في حـــالة تعارضهمـــا « إذ يرى أن العقل هو الحكـــم فيما يأتي به النقل و كان الأشعري يجعل النص المكان الأسمى الذي يحتم على العقل أن يتبعه في أمور الاتفاق والاختلاف » [2] .

ففـــرقة الأشعرية تقدم الشرع على العقل و تؤكـــد « أن سبيل معرفة الحسن والقبح هو الشرع وليس العقل» [3] . و ترى فيمن يقدمون العقـــل على الشرع ضربا من الفساد فليس هو مما يقدر على التمييز بين الحسن و القبح « يرد الأشاعرة على القول بأن في العقـــل غنى عن الرسالة بأن الموجب هو الله تعالى و ليس العقل ، فالعقل لا يوجب شيئا أو يحظره وأن أحكام الإيجاب الإباحية و الحظر طريقهـــا السمع لا العقل »[4] .

و ما سبب القول بمثل هـــذا الموقف إلا لكون العقـــل يعتريه العجز و يتردد في إصدار الأحكام خـــاصة حين تقع مـــواقف متعـــارضة لأنه « ليس بوسع العقـــل الحكم بالحسن و القبح لأنه يتردد في الأحكـــام فمـــا من معنى إلا و يعـــارضه معنى أخر يساويه في الدرجـــة أو يفضل عليـــه

---

1 – جلال محمد عبد الحميد موسى ، نشأة الأشعرية و تطورها ، 431

2 – المرجع نفسه ص 432

3 – عبد الفتاح المغربي ، الفكر الدين الشرقي القديم ، ص 191

4 – المرجع نفسه ص 175

في المرتبة فيتحيز العقل في الاختيار إلى أن يرد شرع يختار أحدهما . فحينئذ يجب على العـــاقل اعتباره و اختياره ، و العقل بذلك لا يوجب أمرا تكليفيا » [1] .

أما " الغـــزالي" فقد اعتبر الشرع و العقل متكاملان لتحقيق غرض الشارع و أظهر من ناحية أخرى أهمية نظر العقل و إعمال الرأي و الاجتهاد في حالة تعـــارضهما و اعتبر بذلك معتدلا في رأيه لا مغاليا و لا متحيزا .

و إعمـــال العقل في إزالة غموض النص و درأ ما تعـــارض من الشرع مع المعقول أفضل من الوقوف عن حدود النص . يتأكد لنا أن موقف " الغزالي" الأشعري لم يكـــن أمرا جزافيا أو تطاولا على الشرع و « إنما قال الغزالي هذا القول ردا على الباطنية الذين التزموا تعاليم الإمام الصادرة عن عقله هو و هجروا الكتاب و السنة من أجل تعاليم الإمام » [2] . و كعادته فضل حجة الإسلام الاعتدال وكره التأويل حتى لا يسمح تجويزه ، بإحداث القلاقل و أيضا لسد الطريق أمام كل من سولت له نفسه تغيير معنى النص وظاهره.

و بهـــذا الموقف ثار " الغزالي" على ما اتجهت إليه الفرق الباطنية الإسماعيليـــة من تغليب للتأويل و تلاعب بالنص دون مراعاة لمقاصد الشرع . فقد حرفت الفرق الباطنية الظاهر وأولته تأويلات باطنية بعيدة لتشويه الديـــن و تحريفه « فالإسماعيلية و الفرق الباطنية الهدامة الأخرى لم يكونوا يتظاهرون بتكذيب آيات القرآن المجيد وإنما اكتفوا بصرفها عن معانيها بتأويلات باطلة ليتوصلوا عن طريق ذلك إلى نبذ المعتقدات الإسلامية التي اجتمعت عليها الأمة على مدى الدهور » [3] . لذلك شكك "الغزالي" في قيمة الـــتأويل الباطني معتمدا على منهجه النقدي الذي اعتبر فيما بعد أداة فعالة لتقويم المعرفة مع "ديكارت و كانط".

المطلب الثالث : موقفه من التأويل الباطني

أولا : فساد تأويلات الباطنية

و كان للباطنية في التأويل ضروب من المبالغة و التزييف أخرجوا بها نصوص الشرع عن ظاهرها إلى ما هو أبعد عن حقيقتها حتى نالهم من العلماء و الفقهاء تعزيز شديد و نقد كثير.

---

1 – عبد الفتاح المغربي ، الفكر الدين الشرقي القديم ، ص 175

2 – جلال محمد عبد الحميد موسى ، نشأة الأشعرية و تطورها ص 433

3 – محسن عبد الحميد ، حقيقة البابية و البهائية ، ص146 ، نقلا عن برنارد لويس ، أصول الإسماعيلية ، ص 14 (المقدمة)

فكما سبق و أشرنا من قبل عند تعرضنا لمعتقدات الباطنية و منهجها التأويلي، أن اهتمام أتباعها بإثبات توارث الإمامة والنص عليها دفعهم إلى اعتماد المنهج التأويلي الباطني لتدعيمها مما أوقعهم في المغالاة من ناحية و إفساد معاني الشرع من ناحية أخرى .

و كان هناك أسباب كثيرة كافية لإدانة تأويلاتهم منـــها « المبالغة في التأويل المجازي الذي لا قرينة مطلقا عليه من القرآن في طلب ما زعموه من المعاني الخفية فيه حتى خرجوا به عن معانيه الحقة الواضحة التي لا ريب فيها» ضف إلى ذلك « إسناد هذا التأويل للإمام علي بلا دليل صحيح »[1] لأن المهـــم لديهم إرجاع الفضل كله في العلـــم و المعرفة و العصمة و سائر الأمور إلى الإمـــام علي و ذريته من بعده .

و من تأويلاتهـــم الفاسدة ما ذكره عنهم الأستاذ "علي سامي النشار" في تفسيرهم للآية الكريمة ﴿ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾[2] إذ «أعلنت هذه الطائفة الإسماعيلية أن الله جعل لمحمد بن إسماعيل جنة آدم ومعناها الإباحة للمحارم وجميع ما خلق في الدنيا »[3] . و هذا التأويل ليبرروا من خلاله إقبال بعض أئمتهـــم و أتباعهم على المحرمات والشهوات مما نهى الله عنه كشرب الخمر إذ عرف به الإمام إسماعيل و يبيحوا من ورائه المحرمات .

و بنفس الأسلوب – أي التأويل الباطني– منعوا غيرهم من آل البيت من غير الذرية العلوية الإسماعيلية من المطالبة بالإمامة حيث اتخذت شطر الآية نفسها ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هَـــذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ لتدل على أعدائهم « موسى بن جعفر وولده من بعده من ادعى منهم الإمامة »[4].

هذا يبرز مدى قدرتهم على التلاعب بالنصوص بحسب أغراضهم وغاياتهم حيث يجعلون التأويل من مهام الإمـــام فبيده علم كل شيء لذا زعم الإسماعيلية « أن محمد بن إسماعيل عنده أيضا علم المستورات و بواطن المعلومات التي لا يمكن أن توجد عند أحد غيره » كـــذلك زعم هؤلاء الشيعة من البـــاطنية و الإسماعيلية أن إمامـــهم « عنده سر الله تعالى في وجه تدبيره المكتوم وإتقان دلالته في كل أمـــر يسأل عنه في جميع المعلومات و تفسير المشكلات و بواطن الظاهر كله و التأويلات و تأويـــل التأويلات »[5] وهذا ممـــا لا يعقل..

1 – محمد يوسف موسى ، بين الدين والفلسفة في رأى بن رشد و فلاسفة العصر الوسيط ، العصر الحديث للنشر و التوزيع ، بيروت لبنان ، ط2 ، 1988 ، ص135

2 – سورة الأعراف آية 19

3 – علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص 388

4 – المرجع نفسه ص 388

5 – مصطفى كامل الشيبي ،الصلة بين التصوف و التشيع ، ص205 ، نقلا عن المقريزي ، الخطط ، ص 230

ثانيا : نقد الغزالي للتأويل الباطني

ركز الإمـــام " الغزالي" في نقده لآراء الباطنية في الإمـــامة على طبيعة منهجها، فإذا بطلت الطـــريقة المنتهجة أو كـــانت فاسدة صار بالضرورة المحصـــول عنه بها فاسدا لا دليل له . وكذلك هـــو وضع المنهج التـــأويلي الباطني في نظر "الغزالي" . فإذا بطل المنهـــج المعتمد تبعه بطلان الحجج والدعـــوى القائمة .

فالبـــاطنية كفـــرقة ضالة و مبتدعة – حسب الفقيـــه " لغزالي" وكثير من فقهاء الأمة السنيين- « لما عجزوا عن صرف الخلق عن القرآن والسنة صرفوهم عن المراد بهما إلى مخاري ق زخرفوها واستفادوا — بما انتزعوه من نفوسهم من مقتضى الألفاظ-إبطال معاني الشرع وبما زخرفوه من التأويلات تنفيذ انقيادهم للمبايعة والمولاة »[1].

و ممـــا يظهر سبب سخط " الغزالي" عليهم هو أن هذا المنهج التأويلي لم يكـــن شريف المقصد .بمعنى أن غرضه تهديم أركـــان الإسلام والعبث والتلاعب بألفاظ القـــرآن. فتتاح بذلك فرصة لكل عابث أن يشتغل بالنصوص الشرعية و تأويلها و تفسيرها ، مدعيا العلم و القدرة والمعرفة ... لذلك نراه – أي الغزالي- حـــاد اللهجة معهـــم ساخرا بتأويلاتهم ضاربا بها عرض الحائط ، وحاول إبطالها وإفسادها ليظهر تهافتها وخطرها المحدق بالإسلام .

أسلوبه وطريقته في الرد عليهم :

يظهـــر أسلوب الفيلسوف " الغزالي" في الرد عليهـــم فيما يصرح به الغزالي من القـــول كما يلي « ولسنا نسلك في الـــرد عليهم إلا بمسالك ثلاث: إبطال ومعارضة وتحقيق » [2] . وهذه الطريق التي سلكها " الغزالي" تنطلق من إبطال التأويلات من ناحية ومن ثمة معارضة الفاسد منها وإنكاره ثم التحقيق ويفصّل هذه المسالك الثلاث كالآتي :

– « أما الإبطـــال فهو أن يقال بما عرفتم أن المـــراد من هذه الألفاظ ما ذكرتم ؟ فإن أخذتموه من نظـــر العقل فهو عندكـــم باطل وإن سمعتمـــوه من لفظ الإمـــام المعصوم فلفظه ليس بأشد تصريحا من هذه الألفـــاظ التي أولتموها» [3].

فهـــو يبطل التأويل الباطني للآيات و ألفـــاظ القرآن فهو لا أساس له مـــادام لا يدعمه نظرا العقل باعتـــباره مرفوضا عند الباطنية كذلك حسب مـــا ورد في قول "الغزالي" الإمام المعصوم

1 – أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 55

2– المصدر نفسه ، ص 58

3 – المصدر نفسه ، ص 59

الذي تؤخذ عنه التأويلات غالبا ما تكون هذه الأخيرة أشد غموضا من النصوص والآيات وألفاظها هذا إن كانوا فعلا معصومين كما تدعي الباطنية.

فيورد " الغـــزالي" بعض هذه التأويـــلات التي قـــام بإبطالها في " فضـــائح الباطنية " كاشفا من ورائها تلبيساتهـــم مثل « تسبيح الجبال معناه تسبيح رجـــال شداد في الدين راسخين في اليقين » وكذلك« الجن الذي ملكهـــم سليمان بن داود باطنية ذلك الزمان والشياطين هم الظاهرية الذين أكلفوه بالأعمال الشاقة » [1].

وحتى العلـــم اتخذوا له رموزا باطنية ليجعلوه حكرا على ذويهـــم و أتباعهم ، و قامـــوا بتأويله بعض الآيات التي ذكـــر فيها كما يلي « أنهارا من لبن : أي معـــادن الدين : العلم الباطن يرتضع بها أهلها و يتغذى بها تغذيا تدوم به حياته اللطيفة » و عليه هنا « فغذاء الروح اللطيفة بإرتضاع العلم من المعلم كما أن حياة الجسم الكنف بإرتضاع اللبن من ثدي الأم » [2].

- لكن كيف تسنى "للغزالي" إبطالها وهي ترمز إلى مرموزات عليها الحجة عند الباطنية ؟

يقـــول " الغزالي" مبطلا بعضا من تأويـــلاتهم « فزعم أن المراد بالجبال الرجال فما المراد بالرجـــال ؟ لعلى المراد شيء آخر. و الـــمراد بالشياطين أهـــل الظاهر فما أهل الظاهر ؟ والمراد باللبن العلـــم فما معنى العلـــم ؟ » .

ثم يضيف الإمام "الغزالي" توضيحا لذلك التأويل يظهر فيه استهزاءه منه و من بتلك التأويلات الباطنية الغريبة المضمون فنجده يقول « فإن قلت العلم والرجال وأهل الظاهر صريحة في مقتضياتها بوضع اللغة إن كنت ناظرا بالعين العوراء إلى أحد الجانبين ».

وعليه فإن "الغزالي" يصف تارك ظاهر النص والمنشغل بباطنه بقوله « فأنت المراد إذا بالدجال فإنه أعور لأنك أبصرت بإحدى العينين فإن الرجال ظاهر ، وعميت بالعين الأخرى الناظرة إلى الجبال وإنها أيضا ظاهر» [3]. فكـــأنهم يلقون تأويلاتهم على غير هدى.

ليزيد " الغزالي" من حدّة سخريته بالباطنية و تأويلاتهم حين يستشهد بقوله تعالى ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [4] معنى ذلك اختلاف الرجال عن لفظ الجبال التي ربط بينهما الباطنية وأسقطوا كلا منهما على الآخر في حين أن لكل معنى منفرد .

---

1 – أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ص 57 ، 58

2 – المصدر نفسه ، ص 57

3 – المصدر نفسه ، ص 59

4 – سورة النور آية 37

– أما المسلك الثاني الذي يأتي بعد الإبطال فكـــان « معارضة الفاسد بالفاسد وهو أن يتناول جميع الأخبار على نقيض مذهبهـــم »[1] و يمكننا توضيح طريقته هذه في معارضة الفاسد من تأويلات الباطنيـــة و إبراز تهافته كما يلي :

إذ يعمد إلى توظيف بعض أحـــاديث النبي ﷺ ليتمكن من خلالها من التأكيد على أنه يمكنه تأويل النصوص و التلاعب بظواهر و إيرادها بمعان مختلفة عن ما أتت به الباطنية بل إنه سيفيد حتما في إبطـــال و إفساد تأويلاتهم ومن ثمة دعوتهم ككل مثلما فعل " أبو حامد الغزالي" بكثير من أحـــاديث النبي ﷺ التي خالف بها ما ذهبت إليه الباطنية من حيث تأويـــلاتها كقوله في الحديث النبوي « لا تدخـــل الملائكة بيتا فيه صورة » « أي لا يدخل العقـــل دماغا فيه التصديق بالمعصوم »[2]مبطلا من خلال تأويله لظاهر الحديث مسألـــة الإمـــام المعصوم الشيعية .

و كذا يقول في معنى حديث آخر منقول عن النبي ﷺ أنه قال« إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعا » فاتخذ عند "الغزالي" معنى يدل على دنس الباطنيين و سوء عقيدتهم فهم لا يصلحون للزواج بالمسلمات الطاهرات « أي إذا نكح الباطني بنت أحدكم فليغسلها عن درن الصحبة بماء العلم وصفاء العمل بعد أن يعفرها بتراب الإذلال » .

بل ذهب حجة الإســـلام إلى التأكيد على مكانة الخلفاء الراشديـــن مثنيا عليهم و على سيرتهم و حسن عقيدتهـــم خلافا لما قام به الشيعة من سب و قذف و حتى إنكار لأحقيتهم بالولاية فيتخذ من حديث الرسول الكريم « كل نكـــاح لا يحضره أربع فهو سفاح » تأكيدا على صحة خلافتهم و سلامة عقيدتهم فيقول أن « معناه أن كل اعتقاد لم يشهد له الخلفاء الأربعة فهو سفاح »[3]. و هناك العديد من نماذج تلك الأحاديث التي أقدم "الغزالي" من خلالها على إبطالها تأويلات فرقة الباطنية من خلال إفسادها و التلاعب بظواهرها..

و يعمـــد الفيلسوف " الغـــزالي" في مؤلفه فضائح الباطنيـــة إلى مثال « العقل والصورة » ليهـــدم من خلاله فكرة الإمام المعصـــوم التي نادى بها دعاة فرقة "الباطنية" و دعمتها بنصوص تأولتها على غير حقيقتها الظاهرة فيقول« فإنا نزلنا الصورة على الإمام لأن الصورة مثال لا روح فيه

---

1 – أبو حامد الغزالي، فضائح الباطنية ص 60

2 – المصدر نفسه ، ص 60

3 – المصدر نفسه ، ص 60

كما أن الإمام عندكم معصــــوم ولا معجزة له والدماغ مسكن العقل كما أن البيت مسكن العاقل» [1] فكانت دعوة عصمة الإمام باطلة لا أساس لها.

و "للغزالي" مزيد من التوضيح و التحليل لذلك الأمـــر فنراه يقول « والملك شيء روحـــاني كما أن العقـــل كذلك » أي علة الاقتران وإسقاط التشبيه بينهما هو اشتراكهمـــا في كونهما روحـــانيان اعتباريان ، فثبت أن المراد بقوله « لا تدخل الملائكـــة بيتا فيه صورة معناه لا يدخل دماغا فيه اعتقاد عصمة الإمـــام » [2].

هكذا إذن كـــان غرض "الغزالي" في المسلك الثاني إفساد تأويلاتهـــم بإعطاء مثيلات لها في المنهج مخالفات لها في المعنى والباطن ويتضح أن ما عمدوا إليه في التأويل بقدر عليه كل امرئ.

– أما « التحقيق : أن نقول : هذه البواطن والتأويلات التي ذكرتموها ، لو سامحناكم أنها صحيحة فما حكمها في الشرع ، أيجب إخفاؤها أم يجب إفشاءها » [3] .

نستنتج مما سبق أن الطـــريقة المتبعة من قبل فقيه الإســـلام "الغزالي" للردّ على بـــدع فرقة الباطنية ارتكـــزت أساسا على هـــدم منهجها التأويلي الذي مثل قاعـــدة هامة دعمت بها جل عقـــائدها ، فانطلق "الغزالي" من هدم الوسيلة لينتهي إلى إبطـــال الدعوة الباطنية ككل، متدرجا من الإبطـــال و الإفســـاد فالتحقيق ، مستهدفا من ورائهـــا إبطاله للتأويل البـــاطني بيان خطره على الشريعـــة و ذم الخائضين فيه .

و من ناحية التأكيد على أمـــر آخر مرتبط به أشد الارتبـــاط بهذا المنهج التأويلـــي ألا وهو مسألة الإمامـــة فلا مجال لقيامهـــا بالنص مهما كـــان نوعـــه وخاصة تلك النصوص المؤولة التي عمدت إليهـــا الباطنية .

– فهل يفهم من نقد الغزالي للتأويل الباطني الذي أقدمت عليه الباطنية ، رفض التام للتأويل ؟

ثالثا : شروط قبول التأويل و العمل به : التأويل للراسخين في العلم دون سواهم

إن مـــوقف " الغزالي" من التأويل الباطني لا يفهـــم منه رفضه التام للتأويـــل جملة وتفصيلا، بل إنه مـــا أقدم على التحـــذير من الخوض فيه ، و رفضه للتـــأويلات الباطنية تحديدا إلا ليؤكد على

1 – أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 61

2 – المصدر نفسه ص 61

3 – المصدر نفسه ص 62

فكرة جوهرية هامة تمثلت فيمن يجوز لهم التأويل ، شروطه والحالات الملحة التي يجوز فيها اعتماده .. بعبارة أخرى : هل يجوز التأويل لأي كان ؟ وهل يحق لهذا المؤول إفشاء تأويلاته لغيره وللعوام ؟ أم يجب كتمانها فهي حكر عليه هو فقط ؟

نجد حجة الإسلام صريحا في هذا الأمر البالغ الأهمية، حين رفض إفشاء التأويل في غير أهله وما ذلك إلا للحفـــاظ على الشريعة من علماء الكلام وتأويلاتهـــم وأيضا لحماية إيمان العوام فالتأويل لذوي العلـــم مع وجود الدليل اللازم مرغوب فيه . بمعنى يمكن الخروج عن المعنى الظاهر إلى المعنى الباطـــن إذ توفر الدليل.

و لكنه جعل للتأويل شروطا وقوانين حيث يقـــول "الغزالي" في ذلك « فأسمع الآن قانون التأويل »إذا يثبت أن جميع الفرق والمذاهب تقريبا « اتفقوا على أن جواز ذلك موقوف على قيام البرهان على استحالة الظاهر » إذ بدون البرهان والحجة التي تدفعنا إلى الخروج عن ظاهر النص إلى باطنه يصبح لا مجال للتأويل فهو بذلك باطل من أساسه لانتفاء الحاجة إليه. فهو هنا « بدعة أو يؤدي إلى البدع و محدثات الأمور » و بحسب ما هو معروف عند السلف « و البدعة عبارة عن إحداث مقالة غير مأثورة عن السلف » [1].

ولأجل ذلك نجد "الغزالي" يجعل للتأويل مقامين « أحدهما مقام عوام الخلق والحق فيه الإتباع والكف عن تغيير الظواهر رأسا والحذر من إبداع التصريح بتأويل لم يصرح به الصحابة وحسم باب السؤال» [2] فلا يجوز لهم التأويل أو إتباع ما يؤول من نصوص الشرع إلا ما نقل و تواتر عن السلف الصالح من ضرورة تمسك بكتاب الله و سنة رسوله الكريم .

يذكـــرنا " الغزالي" في هذا الموضوع بما « روي عـــن مالك رحمه الله أنه سئل عن الاستواء فقال : الاستواء معلـــوم والإيمان به واجب والكيفية مجهولة والسؤال عنه بدعـــة» [3] . لقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾[4] .

فالسؤال عـــن ما نهى الله و رسوله عنه يـــؤدي إلى الخـــوض فيه بإعمـــال التأويل و الحكم بما لم يرد فيه حكـــم.

1– أبو حامد الغزالي ، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، [د ط] ، [د ت]، ص85

2 – المصدر نفسه ص 85

3 – أبو حامد الغزالي ، قانون التأويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، [د ط] ، [د ت] ، ص128(يوجد الحديث في عدة مؤلفات أخرى للغزالي)

4 – سورة المائدة آية 101

أما المقام الثاني فجعله الإمـــام " الغزالي" لأهـــل العلم والنظر والمتمكنين في دينهم حيث يقول « المقـــام الثاني بين النظار الذين اضطربت عقـــائدهم المأثورة المروية فينبغي أن يكون بحثهم بقدر الضرورة وتركهم الظاهر بصورة البرهان القاطع » [1].

وهو نفس ما أكـــد عليه من قبل ، أي جواز التأويل شرط وجـــود السبب والحجة الكافية لفعل ذلك . رغـــم علمه بقيام الاختلاف في ذلك ما لم يحتكم أهل النظر إلى قانون التأويل حيث يقول « فإن ذلك ليس هينا سهل المدرك وليكن للبرهان بينهم قانون متفق عليه يعترف كلهم به فإنهم إذا لم يتفقوا في الميزان لم يمكنهم رفع الخلاف بالوزن » [2].

لذلك نلاحظ " أبا حـــامد الغزالي" يرفض التأويلات الباطنية الغريبة التي عمد إليها هؤلاء القوم منت الباطنية لنصرة عقيدتهـــم وتنصيب إمامهم الغائب المزعوم وما ذلك إلا بدعة لأنهم من أولئك الناس الذين وصفهـــم " الغزالي" بما جاء نصه « و من الناس من يبادر إلى التأويـــل بغلبان الظنون من غير برهان قاطـــع » [3].

وإذا كان رواد الباطنيـــة و أتباعها من هذا الصنف فقد نالوا واستحقـــوا ما نالوه من نقد وتنكيل من قبل "الغـــزالي" وغيره من فقهاء الأمة « فيجب تكفير من يغير الظاهـــر بغير برهان قاطع كالذي ينكر حشر الأجســـاد وينكر العقوبات الحسية في الآخرة بظنون وأوهام واستبعادات من غير برهان قاطع » [4] و هذا التكفير ليس في كل مسألة بل إذا خاض المرء في المسائل الإعتقادية وأصول العقـــائد فقط لما في ذلك من خطورة على الدين وحرمته .

فقد أفشوا التأويل في غير أهله وعملوا على نشر البلبلة..مدعين غموض الشرع و وجود مسكوت عنه فيه ، مهملين بذلك دور النبي في تفصيل الشرع بسنته . فما من آية في القرآن إلا و لها في السنة شرح سواء ورد ذلك في أحاديث النبيﷺ وفي أفعاله .

لذا أكـــد " الغزالي" على ضرورة الكف عن التأويـــل الباطني مبرزا خطـــورته على إيمان العوام في عـــدة مؤلفـــات منها ما جاء في الاقتصاد في الاعتقـــاد حيث حدد القواعد التي ينبغي على العامـــي مراعـــاتها وكان من بينها « التصديق وهـــو الإيمان بما قاله الرسول ، فالاعتراف بالعجز

---

1 – أبو حامد الغزالي ، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ، ص 85

2 – المصدر نفسه ، ص 85

3 – المصدر نفسه ، ص 86

4 – المصدر نفسه ، ص 87

في حالة عدم الفهم فالسكوت عن السؤال فالإمساك عن التـــأويل، فالكف عن التفكير بالمعاني الباطنية فالتسليم بمعرفة أهـــل الاختصاص » [1] فإن لم يكن الخائض في التأويل من العارفين وجب عليه الكف عن ذلك الفعل كما هي حال عوام الخلق .

بناءا على ما سبق ننتهي إلى الحكـــم الجازم المؤكد لموقف " الغـــزالي " من قضية التأويل عمومـــا و الباطني على وجه التحديد إذ يقـــول « فالتأويل حرام على العامي وحرام على العارف مع العامي وحلال للعـــارف شرط ألا يطلق أحكامـــا جازمة إلا عن نفسه وضميره فيقول : أنا أظن أنه كذا... » [2]. لأن العقـــل محدودة قدرته وهذا يجعل الوثوق به أمر نسبي ونجد هذا الشك في قدرة العقـــل على المعرفة وبلوغ اليقين مؤكـــدة في " المنقذ من الضلال" وغيره من مؤلفات الإمـــام " الغزالي" الغزيرة .

وما كـــان تقليل "أبي حامد" من شأن العقـــل ودوره إلا ليبطل قدرته على تأويل ظاهر النص وإدراك باطنه وبذلك يمنع إفشـــاءه بين العـــوام كما منعه من قبل خاتم الأنبياء -عليه السلام- ويورد " الغزالي" هذا الكـــلام من خلال حوار له مع أحد الإسماعليين جاء فيه عن التأويلات الباطنية ما يلي « فإن قلتم: يجب إفشاؤها إلى كل أحد قلنا فلما كتمها محمد ﷺ فلم يذكر شيئا من ذلك للصحابة ولعامة الخلق حتى درج ذلك العصر و لم يكن لأحد من هذا الجنس خبر. وكيف استجاز كتمان دين الله و إخفاء أوامره و أحكامه ؟».

ويستدل "الغزالي" في هذا الموضع بما قاله المولى – عزّ و جل- لنبيه الكريم ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ ﴾ [3] لأن الله قد أخذ ميثاق كل الأنبيـــاء ليبلغوا عنه ما أمرهم . و المعروف أن نبي الله "محمد" هو أعلـــم الناس بكتاب الله ، و المكلف بتبليغ رسالته بل هو المفسر و الشارح الأول للشريعة الإسلامية حتى يفهمها الخلق أجمعون « فالرسول أولى بالتأويل للناس من غيره باعتباره الأعلم من الخلق به وببواطنه ومع ذلك لم يقـــدم على تأويله كما فعلت الباطنية » ولم يفش أسرارا الربوبية أو يتطاول على الدين و يتجرأ على الخوض فيما لم يسمح له به.

أما إذا كـــان الجواب عكسيا بمعنى « و إن زعموا أنه يجب إخفـــاؤها ، فنقول : ما أوجب على الرسول ﷺ إخفـــاؤه من سر الدين ،كيف حل لكم إفشـــاؤه والجناية في السر بالإفشاء ممن اطلع عليه من أعظـــم الجنايات » [4].

1 – أبو حامد الغزالي ، إلجام العوام عن علم الكلام ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، [د ط] ، [د ت] ، ص18

2 – المصدر نفسه ص 31

3 – سورة آل عمران آية 187

4 – أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 61 ، 62

كما يستشهد "الغزالي" لإنكار ما قامت به فرق " الباطنية" من إقدام على تأويل ظاهر النصوص الشرعية و بثها بين الناس ، بما تناقله أهل العلم و المعرفة من دلالات بارزة على تستهجن ذلك الفعل المشين فقد « قال بعض العارفين : إفشاء سر الربوبية كفر، و معنى هذا أن في أســـرار الربوبية أشياء لا تتحملها أكثر الأفهام و لذلك لا يطيق المستمع ذلك الحق ويكون الحق في شأنه باطلا » [1].

فالعقل الإنساني محدود لا يمكننا بواسطته بلوغ اليقين ولا إدراك الخفايا و لا حتى الإحاطة بالأسرار الإلهية . و الله تعالى علم أشياء فأخفاها لحكمة عنده وحسن تقدير منه للأمور، إذ أن فهمها يتجاوز الأذهان أو قد يحصل بغير العقل .لذلك يقول المولى – عز وجل– ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [2] ليظهر من ذلك محدودية العقل الإنساني و قصوره عن بلوغ اليقين ،لولا فضل الله و رحمته التي تجلت في بعث الأنبياء المبلغين لرسائله.

و لأن في الدين مسائل تتجـــاوز الفهم الإنساني المحدود كلف الأنبيـــاء بإخبار الخلق ما من شأنه أن يسمح لهم بمعـــرفة الخالـــق و توحيده دون خوض في متاهات و ضروب من الغموض هذا ما أكده لنا " الغزالي " في " فضائح الأنام " من خلال حديث الرسول ﷺ « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم » [3].

ليبين لنا من وراء ذلك أن هناك أسرار إلهية لا مجال لإفشائها أو الخوض فيها وتأويلها والعبث بها مع العوام إذ لابد دائما من الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله الكريم ،كما أوصانا بذلك النبي ﷺ في قوله « تركت فيكم واعظين ناطق و صامت، فالناطق هو القرآن والصامت هو الموت وفيهما كفاية لكل متعظ ، و من لا يتعظ بهما فكيف يعظ غيره » [4].

و عـــدم الفهم أو الاقتنـــاع بظاهر النص َيجرّ إلى تأويله والسؤال عن معناهـــا ، فانتهوا إلى تأويله بحثا عن حقيقته و معناه ، فإذا شـــاع ذلك الأمـــر بين الخلق ساءت حالهـــم وخيف على إيمانهم . و يذكر الفيلسوف "الغـــزالي" أن سبب ذلك الخـــوض في التأويل هو علاقة المنقول بالمعقول إذ بين« المعقول والمنقول تصـــادم في أول النظر وظاهـــر الفكر والخائضـــون فيه تحزبوا إلى

---

1 – أبو حامد الغزالي ، فضائح الأنام من رسائل حجة الإسلام ، ترجمة (عن الفارسية) : نور الدين آل علي ، الدار التونسية للنشر [د ط] ، 1972 ص 57

2 – سورة الإسراء آية 85

3 – المصدر نفسه ، ص 57

4 – أبو حامد الغزالي ، الرسالة الوعظية ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، [د ط] ، [د ت] ، ص 37

مفرط بتجريد النظــر إلى المعقول وإلى متوسط طمــع في الجمــع و التلفيــق » [1].

لكن الفئة المسمــاة عوام : تشمل علمــاء الفقه و النحو والعــاديين هؤلاء ليسوا أهــل نظر بينما المتصوفة وأصحــاب الذوق والكشف هم فقط العــارفون وذوي العلم الصحيح ، إذ أنهم سموا أهــل النظر لبلوغهم المعرفة برياضة النفس والزهد وطلب العلــم اليقيني وليس بمجرد التقليد للإمام أو حتى إتباع عقائد موروثة عن الآباء .

و الملاحــظ أن الإمام " الغزالي" سمح بالتأويل لمن كان راسخا في العلم وقصد هنا المتصوفة لذلك الأمــر لامه كثير من الفقهــاء و المفكرين و أهمهــم « بن تيمية و بن رشد » لأنه أثبت جــواز التأويل في مؤلفاته فذاعت بين الــناس كما أن "الغــزالي" في رأي "بن رشد" « أخطأ على الشريعــة والحكمة بإثباته التأويــل في غير كتب البرهان فذاعت بين الجمهور » .

كذلك المتكلمــون وبخاصة المعتزلــة، لأن الغزالي و أمثاله قد صرحوا بتأويلاتهم للعامة وللجمهــور في غير كتب البرهــان و النتيجة كانت وخيمة إذ « أوقعوا الناس في شنآن وتباغض وحروب ومزقوا الشــرع » [2] و هكذا صار بالإمكــان الناس خواصهم و عوامهم الإطلاع على ما شاع من تأويــلات و التجادل بشأنها .

إذن مادام النــبي قد كلف بتبليغ رسائل ربه إلى الخلق أجمعين فقد كلف مع ذلك الأمر الإلهي بتفسيره لهــم حتى لا يكــون هناك غموض في الدين أي في الرســائل الإلهية . أما ما احتواه من أمور متشابهــات وأخر: هي أســرار و ألغــاز من وضع الحكيــم الجبار فذلك لحكمــة في نفسه تعالى ﴿ وَمَا أُوتِيتـُم مِّن الْعِلْم ـــ إِلاَّ قَلِيــلاً ﴾ [3] « فلولا أن صاحب الشرع عرف سرا عظيما ومصلحة كلــية في إخفاء هذه الأســرار لما أخفاها » [4] و ما دام التأويــل الباطني للشريعــة سرا من أسرار الخالــق « فكيف انتهــى إلى هؤلاء الجهّال من العوام حتى تناطقوا به و سحنت التصانيف بحكايته وداولته الألســنة » [5].

و عليــه يتهم الفقيه السني " أبــو حامد الغزالي " فرق "الباطنية الإسماعيلية" بخرق أحكام الشرع و مخالفتهــم للمقصود الإلهــي. فيوجه لهم " الغزالي" اتهاما وتنديدا جاء فيه « فلما

1 – أبو حامد الغزالي ، قانون التأويل ، ص **123**

2 – الوليد بن رشد ، فصل المقال ، ص **23** ، **24**

3 – سورة الإسراء الآية **85**

4 – أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص **62**

5 – المصدر نفسه ص **63**

أفشيتم هذا السر وخرقتم هذا الحجـــاب و هـــل هذا إلا خروج عن الدين ومخالفة لصاحب الشرع و هدم لجميع ما أسسه » [1].

ذلك لأن جل ما جاؤوا به من دعاوي تبطل العبادات و الأركـــان الشرعية كالصلاة والصوم و غيرهـــا ، لا أساس لها تدور في حلقة فارغة، مفادها التلاعب بالإسلام وتشتيت وحدة الأمة سعيا وراء باطن لا يدركه إلا إمام غائب يسمح بإسقاط الحدود والأحكام .

لذلك أنكر الإمام "الغزالي" كل تلك الأوهام الباطلة التي تأولها دعاة و أئمة الفرق الباطنية معتبرا أن « هذه الأسرار و التأويلات إن كان لها حقيقة فقد أقفل أسماعهم عنها وألجم أفواه الناطقين عن اللهج بها ولنا في رسول الله أسوة حسنة في قوله وفعله فلا نقول إلا ما قاله ولا نظهر إلا ما يظهر ونسكت عما سكت عنه » [2].

إن حجة الإسلام " الغزالي" يذكرنا بالسنة المطلوب إتباعها و البدعة المحدثة المطلوب تجنبها من خلال قوله « ونعلم أن ما لم يستغن عنه صاحب الشرع فنحن لا نستغني عنه ولا ننخدع بقول الحمقى : إن نفوسنا إذا صفت بعلم الباطن استغنينا عن الأعمال الظاهرة »[3].

وهنا يتجلى إبداع حجة الإســلام " الغزالي" سيف المذهب السني ، الذي عمد إلى نفس طريقة الباطنيـــة ليثبت أنه بإمكانه تأويل الظاهـــر والتلاعب بالألفاظ بل ويمكن له من هذا المنطق الدفاع عن هذا المعنى المـــؤول.. ولو كان عكس ما ذهبت إليه الباطنـــية. وما ذلك إلا ليؤكد أن كل شخص من موقعه إذا عمـــد إلى التأويل الباطني ، و غـــاص في باطن النص لأمكنه مثل الباطنية تأويل الشريعـــة ، و هذا هو الفســـاد عينه الذي يفتح المجال للناس عوامهم وعلمائهم للاشتغال بالآيات القرآنية و الأحـــاديث النبوية .

لذلك استخـــدم في هذا المسلك نفس منهج الباطنيـــة للرد عليهم لسببين: الأول الدفاع عن الإسلام و وحدته، و الثاني ليبطل هذا المنهج الذي اعتمدته الباطنية للدفاع عن عقيدتها في الإمامة وبالتالي هـــدم فكرة الإمام المعصوم الذي تقوم عليه جل عقائدهم.فلما انتقدهـــم ظهر له فساد قولهم على جميع الأصعدة وبان للعيان بطلانه ..

فكـــانت خلاصة رأي " الغزالي" في التأويل أن أجـــاز العمل به بشروط و قوانين، لأن القرآن ورد فيه متشابهات . فلا بد من الاجتهاد في تفسيره و إعمـــال للفكر و الرأي لقول النبي الكريم

---

1 – أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ص62

2 – المصدر نفسه ، ص 64 ، 65

3 – المصدر نفسه ص 65

ﷺ « من اجتهد وأخطأ فله أجر ومن اجتهد وأصـــاب فله أجران » [1] فالبحث في معاني الشرع ضروري لفهم مقاصده و إعمال العقل لفهم مقاصد الشارع من الضروريات لأنه ومن خلال اجتهاد الفقهاء و الراسخين في العلم أمكن الحكم على كثير من غوامض الدين ومستجدات .. بدلا من تعطيل المصالح و ضياع المنافع و تعطيلها.

لكن هذا التأويل مرتبط بشروط وقواعد حددهـــا حجة الإسلام حتى لا يكون الدين ألعوبة للخائضين في التأويل بغلبان الظن و ابتغاء إتباع ما تشابه منها لإفساد الإيمـــان لقول الله تعالى ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ ﴾ [2].

وهكذا إذن أنكر الفيلسوف "الغزالي" التأويل الباطني المأخوذ عن الإمام وحذر من إتباعه والعمـــل به حرصا منه على العقيدة و إيمان العوام . و في الوقت عينه أجاز التأويـــل وسمح به لإدراك أقرب لمضامين النصوص الشرعية ، لكـــن بشروط ينبغي مراعـــاتها فالتأويل لذوي الاختصاص و الراسخين في الدين، ليظهر مما سبق موقفه المؤكد لضرورة الاجتهاد و إعمال العقل لفهم الشريعة بدلا من إتباع تعاليم إمام معصوم و تقليده..على غير هدى.

المطلب الرابع: أهمية النظر و الاجتهاد العقلي و بطلان التعلم عن الإمام

أولا : معنى الاجتهاد

يطلق مصطلح الاجتهاد على ما يقوم به الفقهاء من استنباط للأحكام الشرعية باعتماد العقل إذ وصف إعمال العقل على أنه اجتهاد و نظر لحل ما استعصى عن الإجماع و قياس ما استجد من الأمور بما ورد فيه حكم شرعي « و الاجتهاد بذل الجهد في استخراج الأحكام من شواهدها الدالة عليها بالنظر المؤدي إليها استنادا إلى قوله تعالى ، قياسا و استصلاحا واستحسانا » [3] يعتبر بهذا الوصف « الاجتهاد مرادفا للقياس و مرادفا للرأي» [4] .

أما الاجتهاد في معناه اللغوي فهو « عبارة عن استفراغ الوسع في تحقيق أمر من الأمور مستلزم للكلفة والمشقة » [5] إذ هو إعمال للعقل في طلب الحق و إبراز لما استعصى من المسائل التي لم يرد فيها نص واضح صريح أو كانت مما استجدّ من أمور الدين و الدنيا .

---

1 – صحيح و متفق عليه لدى البخاري و مسلم و غيرهما

2 – سورة آل عمران آية 07

3 – رفيق العجم ، الأصول الإسلامية ،ص 135

4 – المرجع نفسه 136

5 – المرجع نفسه ، ص 137 ، نقلا عن الأمدي ، الإحكام ، ج4 ، ص 218

ثانيا : حكم إعمال الرأي و الاجتهاد

إن إعمـــال الرأي و الاجتهـــاد جائز شرعا لحـــل وفك ما يكتنف الشرع من غموض لم يرد فيه نص أو ترك مبهما غامض مستعصيا عن الفهـــم . فقاس الفقهـــاء ما استجد في الدين من مســـائل فقهية بما ورد مشابها له في الحكم أو الضرر .. « لقد ذهب الجمهـــور إلى أن القياس حجة وجائز العمـــل به مستندين في ذلك إلى حجج من الكتاب و السنة و الإجماع منها قوله الله تعالى ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصـــار﴾ [1] » [2] .

و كذا احتوت الشريعة دعوات عدة لإعمال العقل و الرأي للنظر في أمور الدين و الدنيا مثل قوله تعالى ﴿ إن في خلق السماوات و الأرض و اختلاف الليل و النهار لآيات لأولي الألباب ﴾ [3]. أيضا حديث الرسول ﷺ لمعاذ لما بعث إلى اليمن وكلفه الرسول ﷺ بتولي منصب القضاء فحين سأله النبي الكريم عما يفعله إذا ما طرأ له أمر لم يرد فيه نص فأكد الصحابي على الاجتهاد بالرأي .

مما جعل " الغـــزالي" يتخذ من ذلك قاعـــدة لتجويز الاجتهـــاد فيما لم يرد فيه نص و لم يكن محل إجمـــاع و اتفاق عند الجماعـــة . ظهر ذلك الموقف على لسان " الغزالي" في " المنقذ من الضلال" « فنقـــول نعمل ما فعله معـــاذ إذ بعثه رســـول الله ﷺ إلى اليمن أن يحكـــم بالنص عند وجـــود النص وبالاجتهـــاد عند عدمه » [4] و في الحديث دلالة واضحـــة على إعمال الرأي والعقـــل والاجتهـــاد والقياس .

وقد ورد في صحيح " البخاري" تأكيد للاجتهاد من خلال حديث الرسول ﷺ عن عمر بن العاص- رضي الله عنه- أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » [5] .

و ذكـــر أن عمر ابن الخطاب — رضي الله عنه- كـــان يدعو إلى الـــرأي و يحث عليه فعن عبد الله بن مسعود قال : " من عرض له منكم قضاء فليقض بما في كتاب الله فإن لم يكن في كتاب الله فليقض بما قضى فيه نبيه ﷺ فإن جاء أمر ليس في كتـــاب الله و لم يقض به الصالحـــون فليجتهد

---

1 – سورة الحشر آية 02

2 – محمد محدة ، مختصر أصول الفقه ، ص 190

3 – سورة آل عمران 190

4 – أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص 50

5 – البخاري ، صحيح البخاري ، حديث رقم 7352 ، ص 427

رأيه فإن لم يحسن فليقـــم ولا يستحي » [1] لكن ينبغي أن لا يخرج الرأي عن مقصود الشرع ولا يتجاوز الأحكام المؤكدة الواردة فيه بل إنما قيل بتجويز الاجتهاد ونظر العقل لما فيه من المصلحة ، لذا كان على المجتهد الكد في طلب الحكم وكشف الحق في مختلف الأمور.

ثالثا : أهمية النظر العقلي و دوره في بناء المعرفة عند الغزالي

لقـــد دعـــا الإمـــام " أبو حامد الغزالي " الناس إلى اعتمـــاد سبيل الـــرأي والاجتهـــاد وأكد ذلك صراحـــة في كثير من مؤلفـــاته العـــديدة و أبرزهـــا " المنقذ من الضلال " و الذي جـــاء فيه رد على الباطنيـــة المنكـــرة لكل رأي و اجتهـــاد عقلي زاعمين قيـــام الحق من طرف الإمام المعصوم فيستهزئ بهـــم قـــائلا لهـــم « كيف تحكمون فيما لم تسمعوه بالنص و لم تسمعون، أم بالاجتهـــاد و الرأي وهو مظنة الخلاف ؟ ».

و يشير بذلك حجة الإســـلام إلى أهمية الاجتهاد حين يستشهد بحديث الرســـول الكريم مع معاذ الصحـــابي الذين كلفه النبي ﷺ بتولي منصب القضـــاء، و الذي فهـــم منه جواز اعتماد الرأي و نظر العقـــل في غياب النص. و في هذه الحـــالة يضرب لنا مثلا كثير الذيـــوع بين الناس ليؤكد من خـــلاله أهمية الحاجـــة إلى الاجتهـــاد في قولـــه « فمن أشكلت عليه القبلـــة ليس له طريق إلا أن يصلـــي بالاجتهاد » .

معنى ذلك أن يطلب المجتهـــد الحق بإعمـــال العقل حتى لا يفوّت عليه أمر القبلة فريضة الصلاة فالمجتهـــد « له مع نفسه اجتهـــاد في معرفة الأفضل بدلائل القبلـــة فيتبع ذلك الاجتهاد فكذلك في المـــذاهب» [2] و يسري حكم النظر في القبلة على غيرهـــا من الأمور التي وقع فيها لبس و تطلبت إعمـــالا للعقل .

فـــلم يكتفي "الغزالي" برفض التقليد بل دعا إلى حرية الفكر و إعمال الرأي . و لم يقف عند حد التمذهب المقيد للرأي والاجتهـــاد ، و بهذا أكد "الغزالي" على أهمية العقل و دوره كوسيلة مساعدة على فهم الشرع و تفسيره . لقوله أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع ويسخر من المكتفي بأحدهما دون الأخر « هيهات قد خاب على القطع و البتات و تعثر بأذيال الضلالات من لم يجمع بتأليف الشرع و العقل هذا الشتات » [3] .

1 – رفيق العجم ، المرجع السابق ، ص 28 ، 29 ، نقلا عن ابن قيم الجوزية ، أعلام الموقعين عن رب العالمين ، ج1، ص 72

2 – أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ص 50 ، 51

3 – أبو حامد الغزالي ، الاقتصاد في الاعتقاد ، ص0 7

رابعا : إعمال الرأي مع الحذر و الذم لدى بعض الصحابة و الفقهاء

رغم الأهمية الكبيرة التي يوليهـــا " الغـــزالي" للاجتهـــاد بالنظر إلى دوره في الكشف عن كثير من الغـــوامض و فك الالتباس عن قضـــايا عدة .. إلا أن التحذيـــر منه و التخويف من اللجوء إليه هو أمـــر يقرّه غيره من علمـــاء الأمة .

فهـــا هو أيضا الإمـــام العلامة " الشاطبي" في كتابه " الموافقات" يؤكـــد على أهمية الاجتهاد وفي الوقت نفسه يبرز خطـــره محذرا من الإفـــراط في إعمال الرأي فيقـــول « إعمال الرأي في القـــرآن جاء ذمه وجاء أيضا ما يقتضي إعمـــاله وحسبك من ذلك ما نقل عن الصدّيق – رضي الله عنه– فإنه نقـــل عنه أنه قال و قد سئل في شيء من القرآن (و هو معنى كلمة: فاكهة وأبا) فقـــال : أي سمـــاء تظلني و أي أرض تقلني إن أنا قلت في كتـــاب الله ما لا أعلـــم. وربما روي فيه : إذا قلت في كتاب الله برأيي » [1] .

فإذا كان الاجتهـــاد أمرا مستحسنا لدرء الاختلاف و استخراج الأحكام الشرعية فإن التحذير منه و التخويف من الخوض فيه أمـــر قائم لدى بعض علماء الأمـــة كما أبرز لنا ذلك الشاطبي . فقد نقل إلينا عن بعض الصحابة و السلف الصالح تحذيرهـــم من الاجتهـــاد بالرأي « و عن عمر بن الخطاب–رضي الله عنه– قوله : إنما أخاف عليكـــم رجلين ، رجـــل يتأول القرآن على غير تأويله و رجل ينافس الملك على أخـــيه» .

فالـــرأي يجر إلى تأويـــلات منها ما قد يكون باطـــلا أو على غير الصواب ، و هذا يفتح المجال أمـــام كل شخص بأن يخوض في الأمـــور برأيه كيفمـــا شاء ، و يسمح بحدوث القلاقل فيكثر الكذب و يخرج الديـــن عن غاياته المنشودة .

وهذا حديث أخر للخليفة " عمر بن الخطاب" في ذم الرأي و التأويل يدعم الموقف المحذر من الاجتهاد يقول فيه « ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه إيمانه ، و لا فاسق يبيّن فسقه ولكني أخاف عليها رجل قد قرأ القرآن حتى أذلقه بلسانه ثم تأوله على غير تأويله »[2].

فاعتمـــاد الرأي و الاجتهـــاد في استنباط الأحكام قد يتسبب في اختلاف الأحكام نظرا لتشعب الآراء في و تباينهـــا في المسألة الواحدة و قد يجر إلى الخـــوض في التأويل أيضا . لكون الـــرأي و الاجتهاد يعتمدان على نظر العقـــل و هو شبيه بالقياس إذ هو اجتهاد عقلي « لأن المقصود من الاجتهاد إنما هو العلم بالموضوع على ما هو عليه ، و إنـــما يفتقر فيه إلى العلـــم بما لا

1 – الشاطبي ، الموافقات في أصول الأحكام ، مجلد 2، ج3 ، ص 254

2 – المرجع نفسه ، ص 255 ، 256

يعرف ذلك الموضوع إلا أنه من حيث قصدت المعرفة به فلا بد أن يكون المجتهد عارفا ومجتهدا من تلك الجهة التي ينظر فيها ليتنزل الحكم الشرعي على وفق ذلك المقتضى »[1]. وحرص على سلامة الإيمان كلف بالاجتهاد صاحب العلم والراسخ في الدين العارف بالشرع وأحكامه.

اتفاق الغزالي مع المالكية في حكم الاجتهاد و نظر العقل

و الإمام " الغزالي" يذهب مذهب المالكية في مسألة الاجتهاد حيث يؤكد المالكية على الاجتهاد و دوره في كشف خفايا الشرع بينما المذهب الظاهري بزعامة "بن حزم" يفرق ويميز من الاجتهاد الـــذي ورد الحث عليه في الحديث الشريف السابق « من اجتهد و أصـــاب فله أجران ومن اجتهد و أخطأ فله أجر » و بين غيره من الطرق و السبل الأخرى . مؤكدا على « أنه ليس في هذا الحديث أثر القياس لا بدليل و لا بنص و لا للرأي أيضا» [2] .

و يفسر الفقيه " بن حزم " ذلك الموقف الذي انحاز أليه بقوله « و إنما الاجتهاد اجتهاد النفس و استفراغ الوسع في طلب حكم النازلة في القرآن و السنة فمن طلب القرآن و تقرأ آياته و من طلب في السنة و تقرأ الأحاديث في طلب ما نزل به فقد اجتهد فإن وجدها منصوصة فقد أصاب فله أجران أجر الطالب و اجر الإصابة و أن طلبها في القرآن و السنة فلم يفهم موضعها و لا وقف عليه و فاته إدراكه فقد اجتهد فأخطأ فله أجر» [3].

كما سبق وقلنا ، خالف "الـــغزالي" الباطنية التعليميـــة التي تبطل الرأي و عمـــل العقل، لتحل محله القول بالتعلم من الإمـــام الشيعي المنصوص عليه و أخذ تأويـــل الشرع عنه وحده دون سواه إذ حث حجة الإســـلام على اعتماد الاجتهـــاد والرأي وإعمال العقل لفهم معاني الشرع رغم أنه في الوقت ذاته لا يعطي لهذا العقـــل قدرة فائقة في كشف المستور « و أن العقـــل ليس مستقلا بالإحـــاطة بجميع المطالب و لا كاشفا للغطـــاء عن جميع المعضلات » [4] . و مع ذلك نعتمد عليه في البحث عن الحقيقة والاجتهـــاد في طلب اليقين . عكس ما تنادي به التعليمية من أن الحق يعرف من الإمـــام المعصـــوم دون سواه.

فإذا لم يرد نص منه فمـــاذا يفعل الخلـــق هل ينتظرون ورود نص منه ، أم يعطلون أمورهم في طلب الحـــق من الإمـــام ؟ إن الحل الأفضل هنا هو ما يذكره " الغـــزالي" في "المنـــقذ من الضلال"

1– الشاطبي ، الموافقات في أصول الأحكام ، المجلد 2 ، ج4 ، ص 92

2– عبد المجيد تركي ، مناظرات في أصول الشريعة الإسلامية بين بن حزم و الباجي ، ص 374

3–المرجع نفسه ص 374 ، نقلا عن ابن حزم ، الإحكام ج7 ، ص 113 ، 114

4– أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ص 48

مبرزا من خلاله كيفية الخروج من المشكل « فنقول : نفعل ما فعله معاذ إذ بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن : أن نحكم بالنص عند وجود النص وبالاجتهاد عند عدمه »[1]. لأن أهمية الاجتهاد تكمن في غياب النص الأكيد و الصريح وافتقار الناس إلى الحكم الجازم .و حينها فقط يكون علينا إتباع قوله النبي ﷺ « من اجتهد وأصاب فله أجران ومن اجتهد وأخطأ فله اجر».

و بهذا نكون أحسن حالا من التعليمية التي يحتار دعاها عن درك الحقيقة إذا طرأ لهم طارئ ما أثناء نشر دعوتهم ، وكانوا بعيدين عن الإمام و لم يبلغهم نص يفيدهم فيما أشكل عليهم. و السبب في ذلك حسب "الغزالي" « أن النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية ولا يمكن الرجوع في كل واقعة إلى بلدة الإمام » .

و يقدم لنا " الغزالي" مثلا عن ذلك الوضع و صعوبة العودة فيه على المعلم لتعطل أو ضياع المصلحة منه « فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق إلا أن يصلي بالاجتهاد » وفي ذلك حكمة « إذ لو سافر إلى بلدة الإمام لمعرفة القبلة فيفوت وقت الصلاة ».كذلك سبب آخر يذكره الغزالي خاصة إذا كانت بلدة الإمام بعيدة أنه « و إلى أن يقطع المسافة ويرجع فيكون قد مات و فات الانتفاع بالرجوع »[2].

لذا جاز الاجتهاد بالرأي والعمل بأقرب الظن في غياب النص لحفظ المصلحة لما ورد من الآيات الحاثة على ذلك مثل قول المولى –عز و جل- ﴿ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[3] و أيضا قوله تعالى ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾[4] .

فهذا المعلم غائب عن الأبصار و ما يصل عنه إلا مجرد أخبار.. لم نر فعله و لم يظهر للعيان.. فهو لا يضر و لا ينفع رغم ادعاء أتباعه أن له علما غزيرا و معرفة مطلقة تستوجب التعلم منه ، و السفر إليه « و العجب أنهم ضيعوا عمرهم في طلب المعلم وفي التبجح بالظفر به و لم يتعلموا منه شيئا أصلا»[5].

فكانت هذه الحال من الخيبة هي عاقبة كل من سعى للمعرفة بتقليد إمام معصوم ظنا منه أنه صاحب علم لدني و معرف ربانية ، فإذا ما لقيه لم يجد عنده شيئا يشف غليله فأضاع

1– أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص 50

2– المصدر نفسه ص 50

3– سورة البقرة آية 185

4– سورة الشرح أية 06

5 – أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 37

على نفسه حصـــول المعرفة الحقة كمـــا أضاع عمره .. و يصف "الغـــزالي" حـــال ذلك الطالب من الخيبة بأنه « كالمتضمخ بالنجاسة يتعب في طلب الماء حتى إذا وجده لم يستعمله وبقي متضمخا بالخبائث » لأن علم هذا المعلم الذي شاع في البلدان عظمته ودقته وتنوعه يصفه حين تصفحه بقوله « ذلك العلم الركيك المستغيث »[1].

وخلاصة كلامنا عن موقف " أبي حامـــد الغزالي"من فرقة "الباطنية" أنه قد انتقدها و ردّ على أرائهـــا و تصوراتها . مركزا على مسالة الإمـــام المعصوم وما انجر عنهـــا من مسائل عقدية ناقشها و أبطلهـــا ، مؤكد على تهافت حججهم و عجزهم عن توضيحها بأنفسهم . فإذا ما جادلهم العلماء احتجوا بالتنصيص خوفا من انكشاف أمرهـــم « إذ علم أنه لو زاد على ذلك لافتضح ولعجز عن حل أدنى الإشكـــالات ».

فلما جمع ما انتشر حولهم من معارف ومعلومات سواء مما احتوته كتبهم أو مما شاع لدى أتباعهم فلما اطلع على ما فيها ومحّصه لم يجد عندهم من العلم ما ينتفع به قال « فهذه حقيقة حالهم فاخبرهم تقلهم فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم أيضا »[2] .

وانتهـــى " الغزالي" بعد تحصيله لمذهب الباطنيـــة « أنه مذهب ظاهـــره الرفض ، وباطنه الكفر المحض و مفتتحه حصر مـــدارك العلـــوم في قول الإمـــام المعصوم ، وعزل العقـــول عن أن تكون مدركـــة للحق لما يعتريهـــا من الشبهات، و يتطـــرق إلى النظار من الاختلافات وإيجاب لطلب الحـــق بطريـــق التعليـــم و التعلـــم » .

فظلوا بسعيهم وأظلوا غيرهم بما ابتدعوه وحرفوه أو زيفوه من القـــول فيظن كل من خاطبوه بأنهم على حق لأنهم يعرضون له مذهبهم على حسب ما يميل و يهوى « بل يخاطبون كل فريق بما يوافق رأيه بعد أن يظفروا منهـــم بالانقياد لهم والموالاة لإمامهـــم . فيوافقون اليهود والنصارى والمجوس على جملة معتقداتهم ويقرونهـــم عليها »[3].

المطلب الخامس : إبطال التعلم والعودة إلى الإمام المعصوم

و " الغـــزالي" حين يرفض أراء الباطنيـــة و ينتقد حججهـــا يركز على مسألة التعلم عن الإمام المعصـــوم هذه المسألـــة التي جعلت الباطنية توصف بالتعليمية لاعتمادها مبدأ التعليم كما سن

---

1 – أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 37

2 – المصدر نفسه ، ص 37

3 – المصدر نفسه ، ص 37

ذلك " الحسن بن الصباح " فهم حسب حجة الإسلام يصفون مذهبهم بمذهب الحق لأن الحقيقة تؤخذ من مصدر واحد لا متكثر متعدد يسمح بالاختلاف ..

ويقيمون هذه الآراء على موازين الشيطان أي موازين للتزييف حيث يقولون « إن الحق مع الوحدة و الباطل مع الكثرة ومذهب الرأي يفضي إلى الكثرة ومذهب التعلم يفضي إلى الوحدة . فليزم منه أن يكون الحق في مذهب التعليم »[1] . و هذا ميزان شيطاني يعتمد على تكثير الكلام وتشويش الأفكار حتى تضطرب الحقيقة فلا تعلم أين موضعها و يبررون قولهم السابق بما يلي « فيلزم منه أن مذهب التعليم يوصف بالحق لأن الوحدة في شيء واحد واتصف به شيئان فيجب اتصاف أحد الشيئين بالآخر »[2].

لذلك رفض هذا المذهب لأنه اعتمد على التلاعب بالألفاظ وتأويلها لخدمة عقيدتهم وينكر الغزالي ضرورة العودة إلى الإمام في حل المشاكل ويؤكد على التمسك بالقرآن وعدم إتباع مسالك وموازين الشيطان عملا بقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[3] و لم يقل الله « سافروا فإذا هم مبصرون ».

فالله تعالى أكد على ضرورة الاحتكام إلى الشرع (كتاب الله وسنة نبيه) لفهم الشريعة وتطبيقها في الحياة وليس ترك هذين السبيلين والاحتكام إلى ما يقول إمام واحد لا يعرف حتى مدى صدقه «فلو ابتدأت في كل مشكلة سفرا إلى الإمام المعصوم بزعمك (يخاطب الباطني) طال عناؤك وقل علمك لكن طريقك أن تتعلم مني كيفية الوزن وتستوفي شروطه فإن أشكل عيك شيء عرضته على الميزان وتذكرت شروطه بفكر صاف وجد واف فإذن أنت مبصر »[4] وأحاديث النبي ﷺ تظهر فضل المجتهد لذا لا ينبغي العودة إلى ذلك الإمام المنتظر .

و في مقابل جمود هؤلاء الباطنية عند آراء معلمهم و الإمام المعصوم ، وخوفا من أن يختلط الأمر على الناس و تتذبذب عقيدتهم ، أكد الغزالي على ضرورة العودة إلى الرأي والاجتهاد إذ أن « الفقهيات لا بد فيها من إتباع الظن فهو ضروري كما في التجارات والسياسات وفصل الخصومات للمصالح ، فإن كل الأمور المصلحية تبنى على الظن. والمعصوم كيف يغني هذا عن هذا الظن و صاحب الشريعة لم يغن عنه و لم يقدر عليه بل أذن في الاجتهاد وفي الاعتماد على

---

1 – أبو حامد الغزالي ، القسطاس المستقيم ، ص 73

2 – المصدر نفسه ص 74

3 – سورة الأعراف آية 201

4 – المصدر نفسه ص 79

قول أحاد الرواة عنه وفي التمسك بعموميات الألفاظ و لكـــل ذلك ظن عمل به في عصره مع وجوده فكيف يستقبح ذلك بعد وفاتــه »[1] .

وأمر آخر جعل " الغزالي" يثور على مسألة الإمام المعصوم الذي يجب أخذ العلم عنه هو تفاوت درجات الفهم لدى الناس فبالنسبة له صنف الناس إلى مراتب قائلا « الناس ثلاثة أصناف : عوام هم أهل السلامة ، و هم البله أهل الجنة ، وخواص هم أهل البصيرة وخواص الذكاء ، و يتولد بينهم طائفة هم أهل الجدل و الشغب »[2] فلا بد من مخاطبة هؤلاء الناس بحسب قدراتهم العقلية مع مراعاة خصوصية كل فئة منهم .

إذ يرى حجة الإسلام أن كل فئة يجب التعامل معها بطريقة خاصة ، اتبعها هو ذاته في تدريس الخلــق نظرا لتفاوتهم . و هذا ما يحكي عن نفسه في قوله « فدعوت العامي بالموعظة الحسنة بالإحالة على الكتــاب والاقتصـــار على ما فيه من صفات الله تعالى، ودعـــوت أهل الجدل بالمجادلــة التي هي أحسن ، فإن أبى أعرضت عن مخاطبتــه وكففت شره ببأس السلطان والحديد المنزل مع الميزان .. » أما الخواص الذين ينبغي معاملتهم بشكل مختلف عن غيرهم فهو يقول في شأنهم « دعوت الخواص بالحكمة وذلك بتعليم الميزان ".

لذلك يتساءل " الغزالي" عن الكيفية التي يستطيع من خلالها هذا الإمام المعصوم – كما يزعم أتباعه – التعامل مع هذه الأصناف حتى أنه يسأل أحد الإسماعليين مستهزئا « بماذا يعالج إمامك هؤلاء الأصناف الثلاثة : أيعلم العوام فيكلفهم ما لا يفهمون ، ويخالف رسول الله ﷺ ؟ أو يخرج الجدال من دماغ المجالين بالمحاجة و لم يقدر على ذلك رسول الله ﷺ مع كثرة محاجَة الله تعالى في القرآن مع الكفار ؟ فما أعظم قدرة إمامك ، إذا صار اقدر من الله تعالى ورسوله أو يدعو أهل عوامل البصيرة تقليده وهم لا يقبلون قول الرسول بالتقليد»[3].

و قد عجز الرسول ﷺ والخلفاء من بعده عن إقناع الكل دفعة واحدة رغم ما أتاه الله من المعجزات و لم يتحقق له ذلك إلا بعد زمن من النشر والتعليم وهو الرسول المؤيد من ربه أفهذا الإمام أقوى وأقدر من الرسل والأنبياء .. و إذا كان كذلك فما الذي يتعلمه هؤلاء الأتباع منه و هل تمكن من حل جميع مشكلاتهم وهل كشف لهم عن الغوا م ض و الأسرار الإلهية ؟ هل للإمام المزعوم معجزات أو بركات تسانده فتدل عليه و تعصمه؟..

---

1 – مصطفى النشار ، فلاسفة أيقظوا العالم ، دار الثقافة للنشر و التوزيع ، القاهرة مصر ، [د ط] ، 1988، ص 164

2 – أبو حامد الغزالي ، القسطاس المستقيم ، ص 5 8

3 – المصدر نفسه ص 91

ومـــا يزال الإمـــام " الغزالي" يستهزأ بالباطنية و يسخر من تصورهـــا المؤسس على فكرة أخذ العلـــم عن المعـــلم المعصوم و الـــكف عن الاجتهـــاد مـــا دام هذا المعلم موجودا ويظهر ذلك في قوله لهم « إني أراكم تدعـــون الناس إلى الإمام ثم أرى المستجيب بعد الاستجابة على جهله الذي كان عليـــه قبله لم يحل الإمام له عقدا ، بل ربما عقد له حلا و لم تفده استجابته له علما بل ربما ازداد به طغيانا وجهلا » [1].

فكان الطالب للعلم من الإمام الشيعي – بحسب ما تزعمه الباطنية- مجرد ساع وراء طبل فارغ لا يضر ولا ينفع فيتكلف عناء السفر إليه فإن تمكن بعد الجهد والعناء من مقابلته لم يجد عنده ضالته و لم يحل له معضلته.. فيكون « كالمتضمخ بالنجاسة يتعب في طلب الماء حتى إذا وجده لم يستعمله وبقى متضمخا بالخبائث » [2] لذا أكد حجة الإسلام " الغزالي" على أهمية الاجتهاد و النظر العقلي مبطلا بذلك نظرية التعلم عن الإمام.

– و في ختام هذا الفصل يمكن أن نقف على حقائق هامة فيما يتعلق بموقف " أبي حامد الغزالي" من مسألة الإمامة و تداعياتها العقدية . والخلفيات التي قادته إلى البحث و الخوض في مجال السياسة ، و التي دفعته بشكل أو بآخر إلى التصدي لفرق الباطنية الشيعية ، و الوقوف في وجه دعاتها ومروجي دعوتها مبطلا عقيدتها و كاشفا عن حقيقتهم المعادية للإسلام .

فكـــان "الغزالي" بحق حجة الإســـلام ومحيي الإيمان والدين فهو من ناحية جدد في طـــرق المعـــارف و صحح الإيمـــان و رفض طرق التقليد الأعمـــى والتلقين على غير اقتناع أو برهنة . مؤكدا على ضرورة التعلم الحق والبحث عن الحقيقة، باعتماد الشك والنقد كمنهـــج لتحقيق ذلك الهدف وتلك الغـــاية. و يؤكد كـــل من"حنا الفاخوري و خليل الجر" على الـــدور الذي لعبه الغزالي في الفكر الإســـلامي بقولهمـــا « لا نعرف مفكرا من مفكـــري الإسلام احدث الـــدور الذي أحدثه هو ، وترك الأثر العميق الذي تركه» [3] .

و قد انقسم المفكرون و الخلـــق حوله إلى أقسام ، بين مؤيد لما احتوتـــه كتبه من أراء و أفكار معتبرا إياه محيي الإيمـــان ومجدد علـــوم الدين في القرن الخـــامس الهجري . و بين ثـــائر عليه منتقد

---

1 – أبو حامد الغزالي ، القسطاس المستقيم ، ص**91** ، **92**

2 – أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص **4 5**

3 – حنا الفاخوري وخليل الجر ، مرجع سابق ، ص**718**

له ، بل إن « فئة أخرى كفرته ونهت عن مطالعة كتبه و نسبت إليه الضلال و الإضلال حتى رأى نفسه مجبرا على الدفاع عن نفسه » [1].

و تذكـــر بعض الكتب التي تتناول تاريخ الفلسفــة في مراحلها المختلفــة أن أعظم حملة شنت على الإمـــام " الغزالي" واضطهدت خلالها مؤلفـــاته، بل وضربت فيها آراؤه بعرض الحائط كـــانت تلك التي حدثت في المغرب جراء دســـائس و مؤامرات أحيكت ضده وشوهت آراءه عند الخليفـــة "يوسف بن تاشقين " .

و رغم ذلك كـــان معجبوه أكثر من أعدائه ومؤيـــدوه و مناصروه أزيد من منكريه ومن المتربصين به " و قد اخذ المعجبون به حديثا أسنـــدوه إلى أبي هريـــرة قال « إن الله تعالى يبعث لهذه الأمـــة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها »[2] وجاء في شرح هذا الحديث معان منها أن الله « يفيض لها على رأس كل مائة من الهجرة أو غيرها رجلا كان أو أكثر يبين السنة من البدعة ويكثر العلم وينصر أهله ويذل أهل البدعة »[3].

وبذلك كـــان الإمام " الغزالي" احد هؤلاء الأئمـــة ، الذيـــن أحيوا أصول الدين وحاربو ا البدعة ، فهو بحق إمـــام زمانه و حجة عصره ، لما جـــادت به قريحته من أفضل العلوم و المعارف ذلك « أنه كان يلوذ بالشرع باعتباره صمام الأمان و منطقة النجاة حينما يعرض لإشكالات دقيقة أو مستعصية وقد اجمع المسلمون على قبول آرائه واعتبروه مجددا وحافظا للشريعة » [4].

و من أهم ما ساعده على انتشار آراء " الغزالي" عموما ، و السياسية خصوصا ، لاسيما ردّه على فرقة الباطنية و إبطاله لآرائها السياسية في مسألة الإمامة ، هو ما وجده لدى صديقه "نظام الملك" من تشجيع في عهد الخلافة السلجوقية للدولة العباسية إذ « كان لاستئثار السلاجقة بالحكم في بغداد أثر كبير في تحرير الخلافة العباسية من الحركات الباطنية » [5] .

إذ عمـــل السلاجقة على نصرة مذهب السنة ضد الشيعيين والفاطميين حتى أن تأسيس المـــدارس النظاميـــة لنصـــرة مذهب السنة كان بمثابة رد على تأسيس الجامع الأزهر لنصرة مذهب

1 – المرجع نفسه ص 718

2 – رواه أبو داود

3 – حنا الفاخوري وخليل الجر ، مرجع سابق ، ص720

4 – محمد علي أبو ريان ، مرجع سابق ، ص 374

5 – جميل صليبا ، تاريخ الفلسفة العربية ، الشركة العالمية للكتاب ،ط 3 ، 1995، ص 409

الفاطميين » [1]. كمـــا لا ننس ما بذله الفقيه الأشعـــري السني "الــغزالي" من جهود للرد على ما قامت به فـــرق الشيعة المغالية و نقصد بالتحديـــد فرقة الإسماعيلية الباطنـــية المعروفـــة بالتعليمية أو كما عـــرفت أيضا الحشاشين مع مؤسسها "حسن الصباح" من قتل و اغتيـــال وتشويه لأركـــان الدين .. وكيف تصدى حجة الإسلام لها بفضل تشجيع وتأييد من الخلافة العباسية القائمة فكان نقده لها لاذعا استهدف من ورائه حماية الإسلام و الحرص على سلامة إيمان العوام وكشف تلبيساتها التي روجت لها باعتمادها للتأويل الباطني ، فكان الشك في مصداقية دعوى الباطنية محركا أساسيا لنقدها ومن ثمة الرد عليها لإبطال عقائدها .

فخرج من ثورة الشك عامـــلا على ترسيخ الإيمان بالله و نبيه و اليوم الآخر مؤكد على طريق الحدس الديني و الكشف الباطني و قيمته في حصول المعرفة و العلـــم اليقيني فكان حجة للإسلام بحق و سيفا على أعدائه الذين انتقدهـــم و بين بدعهم وثار عليهم خاصة تلك الفرق الباطنية المغالية في اعتماد منهج التأويل الباطني .

و بهذا المنهج النقدي رسم " الغزالي" لنفسه طريقا في مفكري عصره حتى تفوق به عليهم و كان له السبق به ، و تأثر به كثيرون جاؤوا بعده وحذوا حذوه ، أضافوا إلى هذا المنهج وعدّلوا فيه أمثال "ديكارت " و" كانط " وغيرهما..

و الملاحظ أن خوص " الغزالي" في غمار المسائل السياســـية و بحثه في مشكلة الإمـــامة كان كرد فعـــل لما تنشره الباطنية من معتقدات حولها بين الناس يحرض بشكل خفي أو جلي على الثورة و التمرد على الخلافـــة العباسية القائمة و يجيز خلع الإمام القائم ليحل محله آخر من ذويهم يثبتون له العصمة و يشترطون التعلم منه دون غيره .

لكن حجة الإســـلام لم يسمح للتعاليم الإسماعيليـــة الباطنية الهدّامة الشاذة عن ما عهده المسلمون بأن تنتشر دون قيد أو سلطة رادعة بل حاول جاهدا من خلال مؤلفاته إبطالها فبالنسبة للعصمة مثلا « يرى الغزالي أنهم إذا أصابوا في نسبة العصمة إلى الإمام في التعليم أخطئوا في تعيين الإمام المعصوم » [2] وحسبه أن النبي وحده يمكن أن يكون ذلك الإمام المعصوم و المعلم الأجدر بالتعليم فهو أقرب منزلة من غيره إلى الله تعالى .

---

1 – المرجع نفسه ص 409

2 – كمال اليازجي ، معالم الفكر العربي ، ص 247

وحـــاول الإمام " أبو حامـــد الغزالي" في نقده للباطنيـــة من حيث مسألة الإمامة اعتماد الشرع و العقـــل في مناقشة تلك القضايا الكلامية حول الإمـــامة باعتمـــاد أساس « العقل المتأدب الشـــرع» [1]. فضرب كثير من أراء أولئك الشيعـــة الباطنـــية بعـــرض الحائط ، فمنها ما أبطـــله ومنها ما صححـــه ليخرج من رده عليهم بنظرية سياسيـــة لا يختلف فيها عن رأي الجماعة السنيّة، بل حملت تعديلات تساند الخلافات السنيّة القائمة على نهج التشاور والاختيار، لا بطريق النص والتوارث أو الوصية .

فيظهـــر أن موقف " الغزالي" من الإمامة يرتبط في شتى جوانبه بمذهبـــه الأشعري السني لكنه قـــد حمل في الوقت ذاته بعض الإضافات فيما يتعلـــق بشروط المتقدم لمنصب الخلافـــة ، وكذا رفض فكـــرة الثورة على الخليفة القـــائم أو خلعه . و هـــذا ما لاحظه بعض المفكرين المهتمين بفلسفته إذ « يرى البعض أن الغـــزالي ادخل تعديلا ملحوظا على صفـــات الإمـــامة مسايرة لمبدئ في تأييد نظام الحكـــم القائم فهو لا يشترط توافر صفات النجدة أو الكفـــاية أو العلم في الحاكم نفسه و إنما يكتفي بتوافر النجدة فيمـــن يناصره و الكفـــاية في رأي الوزير والعلـــم في الاستعانة بما يتفق عليه العلماء في كل واقعة » [2].

و ما كـــان موقف "الغزالي" الرافض لخلع الإمـــام أو الخروج عليه إلا حرصا منه على حفظ الأمـــة من الفتن . فهو يساند دائما ضرورة نصب الإمـــامة مهما عرضت لها من عوارض باعتبار أن « الإمامة ضرورية للمجتمع و الدين و لأن الضروريات تبيح المحضورات ، فهي خير من الحرب الأهلية أو إثارة الفتن » [3] إذا لا يؤيد مسألة الخروج على الإمام الحاكم مهما كان جوره و ظلمه باعتبار أن جوره أشد رحمة من خلعه الذي يجلب الفتن.

فكانت آراؤه السياسية مرتبطة في مجملها بالجانب الأخلاقي و التربية ، يؤكد من خلالها على ضرورة تحقيق المآرب الدنيوية و الأخروية ، حتى أنه دعا إلى تدخل الدولة لحماية إيمان العوام و قد عارض بعض المتكلمين في مشكلة الكفـــر و الإيمان و أشار إلى أن الغاية من وجوب تأسيس الدول هو تحقيق سعادة الإنسان و تنظيم شـــؤون حياته . و لأجل تحقيق هذه الغاية أكد على وجوب الإمـــامة واعتبرها أمر مهما وضروريا ، الأمر الذي دفعه للرد على الفرق التي عملت على تشويهها و أبرزها الشيعة الباطنية التعليمية.

---

1 – المرجع نفسه ص 248

2 – زكي محمد عدل الدين سالم ، الإنسان في فلسفة الغزالي ، ص 154

3 – نور الدين حاروش ، الفكر السياسي ص 203

مما يؤكــد لنا بشكل لا مجال فيه للشك بأن « فلسفة الغــزالي يمكن أن تعد بمثابة رد على ما انتشر في الدولة الإسلامية من دعوات إسماعيلية و فاطمية و قرمطي ة و مذاهب فلسفية مصحوبة بضعف في الدين و فوضى في الأخلاق و اضطرابات في السياسة » [1].

و لأنه بذل قصارى جهــده في تفنيد دعــوى الباطنية و إبطال حججهم حتى شرحهــا أفضل منهم إلى حد ظن فيه بعض المفكرين أنه تبنى مذهبهم وساند حججهم « حتى لامه بعضهم على تقرير حججهم وإسهامه في نشرها » [2].

و اضطــر للدفــاع عن نفسه ليؤكد لهم أن بإمكانية تقرير حججهم أفضل منهم وإبطالها بالحجج القاطعة الدامغــة لكنه مع ذلك ساهم كشخصية شهيرة معروفة بغض النظر عن نواياه وغايــاته في تعــريف الناس بحججهم وعقيدتهــم التي كانت غير معروفــة ولا منتشرة بذاك القدر. الأمر الذي عرضه للنقد الشديــد من أهل السنة أنفسهم ، رغم أنه لم يستهدف أن تتعلق بها الأذهــان بل أراد إبرازهــا لإبطالها قــائلا عن ذلك « أني قررت شبههم إلى أقصى الإمكان ثم أظهرت فسادهــا بغاية البرهان » [3].

فثارت ثائرة كثير من علمــاء الأمــة و فقهائها الحذرين من انتشار أباطيل الباطنية بسبب عرض الغزالي لهــا، فتشيع بين الناس العامة و الخاصة و تلقى القبول و التصديق.. فتفسد الحياة وأخلاق العبــاد جرّاءها .

من ناحية أخرى رأى بعض خصوم " الغزالي" لا سيما من الباطنية ، أنه حين انتقد هــا في مسألة الإمامة حــاول بالقدر المستطاع بيان بطلانها في كتبه المختلفة كالمستظهــري المنقذ من الضلال و فيصل التفرقة.. كان حريصا على جعل إمــامة المستظهر بالله الخليفة العباسي، هي الإمامة الوحيدة المقبولة الصحيحة ، نظرا لتوفر شروطها .

لأجــل ذلك اتهم بأن له خلفيات أخرى من وراء نقده هذا للباطنية و خاصة موقفه من الإمامة الشيعية التعليميــة « فلم تكن الغاية من دراسة مذهب الباطنية البحث عن الحقيقة كما يذكر ذلك في المنقذ من الضلال بل الامتثال لأمر أمير المؤمنين " المستظهر بالله " الذي كان يريد كتابا من إمام معروف يثبت إمامته و زعــامته الروحية الزمنية ، و يهدم إدعاء خصومه الذين ينادون بإمام معصوم هو وحده الإمــام الشرعي» [4].

---

1 – جميل صليبا ، تاريخ الفلسفة العربية ، ص 409

2 – جميل صليبا ، تاريخ الفلسفة العربية ص 400

3 – أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال، ص 49

4 – حنا الفاخوري وخليل الجر ، مرجع سابق ، ص 656

رغم أن القلة هم أصحاب هذا الموقف السلبي ، الذي ركز في نقده للغزالي ،على كون موقفه ما هو إلاّ استجابة لذلك التكليف الوارد عليه من الخليفـــة المستظهري للرد على الباطنية نتيجة تزايد خطرهم على الخلافة العباسية القائمة . فكان واحدا من أولئك المسخرين من قبل الخليفة لنصرة إمامته فآراؤه السياسية تتماشى مع ما طُلب منه.

فمخالفة " الغزالي" لجمهور أهل السنة والجماعة الذين أجاز مقاومة الحاكم الجائر في حالة ظلمه وقوله بوجوب الطاعة مهما كان الحال « وربما يعود السبب في ذلك لتوالي الغزالي منصب التدريس في المدرسة النظامية ببغداد وصلته بالسلطة "السلجوقية " فأراد بذلك تحاشى غضب الحاكم »[1] وعدم تهيج خصومه عليه بإثارة الفتنة أو تحريكها.

من زاوية أخرى يسوقنا الحديث إذا ما قمنا بتحديد أهم الانتقادات الموجهة " للغزالي" بسبب موقفه المعادي لفرقة الشيعة الباطنية التعليمية في مسألة الإمامة ، إلى تأكيد الكثير من الدارسين لفكره على بحثه عن الشهرة و طلبه الجاه في الفترة التي ثار فيها على التعليمية .

هذا ما يوضحه الدكتور"سليمان دنيا" أحد المهتمين بالمؤلفات والآراء الغزالية، إذ يذكر لنا سمة في " الغزالي" يشبه فيها مفكري عصره بقوله « لم يخرج الغزالي على سنة العصر من التزلق إلى الرؤساء وطلب الجاه والشهرة عندهم » .

كمـــا يزيد في ذلك توضيحـــا قـــال فيه « فقد رأينا كيف سعـــى إلى نظام الملك و تردد على مجالســـه و خـــاض في غمار الجدل الذي كـــانت تدار رحـــاه أمامه ليظهر على أقرانه وليطير اسمـــه في الآفـــاق ».

" فالغـــزالي" في بداية حياته قد مارس التعليـــم في المدرسة النظامية بتشجيع من صديقه الوزير "نظام الملك السلجوقي" بغرض نشر المذهب السني و الانتصار له على المذهب الشيعي فكان عمل الغزالي في هذه الفترة و ما ألفه خلالها من كتب يحتوي شيئا من النصرة والموالاة للخلافة القائمة .

و يذهب "سليمـــان دنيا" إلى التأكيد على أن عمـــل الغزالي في بداية حياته ، و أيضا علمه لم يكن نقيا خاليا من الخلفيات و التعصبات و طلب الملذات كمـــا كان في ما بعد هذه الفترة التي صار فيها متصوفا ، فقـــد « ألف وعلـــم و رفع صوته عاليا مدويا بالـــدفاع عن الدين و الزناد عنه

1 – نور الدين حاروش ، الفكر السياسي ص 213

وباعثه على كـــل ذلك ليس وجه الله تعـــالى بل وجه الرؤســـاء و الحكام » [1] الذين كان هدفهم إعـــلاء كلمتهم و ذيوع خلافتهم و صيتهم في الأقطار من خلال اعتماد كبار العلماء و الفقهاء للدعـــوة لهم بطـــرق مختلفة . حتى أن كثيرا من المفكرين في دراستهم لفكر " الغزالي" لا يعتبرون بتلك الحقبة الأولى من حياته التي غال فيها من تأييد أهل السنة ونصرة عقيدة الجماعة، حتى ذاع صيته في الأمصار ونقد الفلاسفة و المبتدعة ورد على الباطنيـــة التعليمية، حتى أعتبر فاضح أمرهم وكـــاشف بدعهم و تلبيساتهم .

وربمـــا تكون من أشد الأسباب التي جعلت "الغزالي" في بداية حيـــاته يتحامل على "الباطنية" ليتفـــق رأيه مع رأي غيره من مـــؤيدي الخلافة العباسية هو حبه للجاه و الشهـــرة فحسب ما يقوله أهـــم ناقديه الدكتور "سليمان دنيـــا " « و احتمال أن الـــغزالي لما كـــان في تلك الفترة في نشوة غرور و حب ظـــهور ، فليس يبعد أن يكـــون قد صور المعنى ذلك الـــتصوير حتى يتيسر له الهجوم عليه و التشنيع على أصحـــابه و احتمـــال آخر أن الغزالي لم يكن في تلك الفتـــرة قد بلغ ما بلغه بعد أن تصوف وكُشـــوف» [2].

لذلك أُنتقد الإمام " الغزالي" حتى من أقرب المقربين إليه ، و وجهت إليه الاتهامات ووصف تفكيره بالتناقض والاضطراب و« يعتقد الفلاسفة وخاصة " بن رشد " بأن "الغزالي" لم يكن دائما ذا إيمان سليم ، حتى " بن طفيل" رغم الاحترام الذي يكنه له أقر بأن هناك تضاربا في أنظمته » [3] حيث اتهم حجة الإسلام بالاضطراب بعدما أصابه مرض "الكنظ" واعتزل الناس لفترة قبل تصوفه و تراجعه عن عدد من الآراء التي سبق و أن قالها هو و تبناها .

أما إذا ما نظرنا لموقف هذا الفقيه السني من الباطنـــية ، من زاوية أخرى ، سنجد مثلا أن البـــاحثين في الفـــكر الشيعي لا سيما الباطني ، يؤكـــدون وجود تحامل ومبالغة من قبل "الغزالي" على الـــفرق الباطنية فنجد مثلا "مصطفى غالب" (**1923-1981م**) يركز في مؤلفه" الحـــركات الباطنيـــة في الإسلام " على ذلك التحـــامل الموجه لهذه الحركات الباطنية خاصة من أبي حـــامد الغـــزالي الذي حسب هذا الباحث « خلط بين الدعوات الباطنية الدينية الفلسفية وبين أصحـــاب الحركات الثورية السياسية الاجتماعية الذين انتفضوا على ظلم العباسيين لتقويض دعائم ملكهم على أساس من التنظيم العسكري والاجتماعي والسياسي » [4].

---

1 – سليمان دنيا ، الحقيقة في نظر الغزالي، قيطار المعارف بمصر، ط 3، 1971 ، ص 59

2 – سليمان دنيا ، الحقيقة في نظر الغزالي ، ص 399

3 – هنري سيرويا ، فلسفة الفكر الإسلامي ، ص 98

4 – مصطفى غالب ، الحركات الباطنية في الإسلام ، ص 59

فأحصـــى " الغزالي" في كتابه " فضائح الباطنية " عشرة ألقاب للباطنية من تعليمية، سبعية إسماعيليـــة ... دون تمييز بين ما هو للباطنية و ما هو لغيرها ، مؤكـــدا أن هذه ألقـــاب لنفس الفرقة تقريبا « فأصحاب الدراســـات الإسلامية الحديثة أظهروا بوضوح وجلاء بأن الإسماعيلية لقبت في أول ظهـــورها بالسبعية والتعليمية والقرامطة أو القرمطية.. أما الألقـــاب الأخرى التي ذكرها الغـــزالي كالخرمندية ، البابكية و المحمرة فهي ألقاب نسبت لفرقـــة واحدة أو بالأحرى لحركة ثورية واحدة هي المزدكية » [1].

مما سبق يتبين أن ما اتخذه " الـــغزالي" من آراء و مـــواقف سياسية تمحورت حول مشكلة الإمامة و تداعياتها سواء كان مصيبا فيها أو مخطئا جعله يقف وجها لوجه مع فرقة الباطنية التعليمية التي أدلت بدلوها هي الأخرى في مسألة الإمامة و جعلتها عقيدة هامة من عقـــائدها فجسد صراعهما الفكري و المذهبي ما شهده ذلك العصر من اضطرابات سياسية انعكست على صعيد الفكر و تمثلت أزمـــة العصر في آراء المفكرين و مذاهبهم و فرقـــهم. و ما الجدال الفكري القائم بين الغزالي و الباطنية إلا مثال بسيط لما أحدثته الإمامة من اضطرابات وتداعيات فكرية و عقدية.

---

1 – مصطفى غالب ، الحركات الباطنية في الإسلام ص 59

الخاتمة

إن البحث في مســـألة الإمامة شائك و متشعب ، تاه فيها الخائضـــون ، و انقسموا حولها إلى فـــرق و مذاهب . بل الملاحظ أنها كانت سبب في تطور الخلافات و الصراعات السياسية بين المسلمـــين التي امتدت إلى عصورنا القريبة . و هددت أمننا وحتى استقرارنـــا. مع ذلك لا ننكر ما للإمـــامة من أهمية بالغة في حياة الشعوب لاسيما الإســـلامية . فلا بد من وجود قيادة للأمة وسياسة لمصالحهـــم ، تعمل على تنظيـــم حياة الرعية و تلبي متطلباتهم . و ارتبطت الإمامة بشروط و مهام لا يمكن لغير متوليها فعلها وقضاءها .

وإذا كنا نميز بين رأيين مختلفـــين حول قضية الإمـــامة، متباينان كل التباين هما التصور الشيعي و التصور السني ، فمـــا ذلك إلا لاختلاف تصورات المفكـــرين لها، فكـــل حسب مذهبه و نزعته أو ميله الشخصي وموالاته لطرف محـــدد دون آخر.

وكما سبق أن تعرضنا لرأي كل منهما في الإمـــامة بالتطرق إلى نموذجين بارزين من كل تيار، نقصد الشيعة الباطنية كممثل قوي للفكر الشيعي التي أدلت بدلوها في غمار الإمـــامة و جعلتها عقيدة شيعية تدور حولها كل أرائها في السياسة و المعرفة و النبوة .. بل صار للإمـــامة في الفكر الشيعي أهمية بالغة قرنتها بتعاقب الأدوار و حركات الأفـــلاك و أضفت عليها هالـــة من التقديس بل إن مســـألة تأليه الحاكم من أبرز الأفكار الشيعية المصاحبة لعقيدتهم في الإمـــامة ، و هذا ما نجلى بوضوح مع الفـــرق الباطنيـــة و ما أفرزته من تصورات و أراء سياسيـــة انفردت بهـــا عن غيرهـــا و أدخلتها ضمن الفرق المغالية في نظر أهل السنة و تعرضت لردودهم و انتقاداتهم و السبب في ذلك كله نصرتها لآل البيت العلوي و اشتراطها لبقاء الإمـــامة في عقبهم ، بغض النظر عن الطرق والأساليب المعتمدة في سبيل تحقيق ذلك .

و في مقـــابل تلك الفرقة يظهر حجة الإسلام " الغـــزالي" ذلك الفقيـــه السني و المفكر الأشعـــري المتصدي لمغـــالاة الباطنية و بدعها، خوفا على وحدة الإســـلام و إيمان العـــوام .فقد ألف التآليف و صنف التصانيف لدحض آرائها ، متسلحا بصفاء العقيدة ، مؤيدا من الخلافة السلجوقية و العباسيـــة ، داعيا إلى طاعة الحكـــام القائمين بالحق و عدم رفع راية العصيان في وجههم ، و ليس كما فعلت الباطنيـــة المتمردة على الخلافات القائمة ، محذرا من خطر ذلك على العبـــاد والبلاد ، و إن كـــان قد اتهم بالتحيز و المـــوالاة للعباسيين في نقده و تزييف الحقائق طلبا للجـــاه ، من قبل مؤيـــدي الإسمـــاعيلية الباطنية و مفكـــريها، إلا أن نقـــده لها كان الأشد والأكثر شهـــرة بين مفكري عصره، نظرا لما أقدم عليه من فضح لتلبيساتهم و كشف لبدعهم.

و ما نصل إليه من خلال المقارنة بين التصورين السابقين ، يقودنا إلى تأكيد فكرة هـــامة مفادها اعتبار الإمـــامة كانت من أبرز القضايا التي شغلت مفكري الإسلام في عهودهم الأولى وانقسما إزاءها إلى فرق و مذاهب متباينة لكل فيها رأيه . الأمـــر الذي فرق المسلمين إلى تيّارين مختلفين سنة و شيعة ، وأدى إلى احتـــدام الصراع بينهما لفترة طويلة ميزتها الاعتداءات بالقلـــم تارة و بالسيف طورا آخر، فاتخذ الصراع بين الفريقين شكلا فكريا وآخر سياسيا ما.

و الحقيقة أن الإمامـــة عند المسلمين على اختلاف اتجاهاتهـــم و مذاهبهم ما هي خلافة إلهية للـــدولة الإسلامية، لها مزايا خاصة إحداهـــا « أن الأساس الذي يقوم عليها بناؤها هو تصور(مفهوم)حاكميه الله الواحد الأحـــد وأن نظريتها الأساسية أن الأرض كلها لله وهو ربها والمتصرف في شؤونها فالأمر والحكم والتشريع كلها مختصة بالله وحده وليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو شعب بل ولا للنوع البشري كافة شيء من سلطة الأمـــر والتشريع فلا مجال في حظيرة الإسلام ودائرة نفوذه إلا لدولة يقوم فيها المرء بوظيفته لله تباركت خليفة أسمـــاؤه و لا تأتي هذه الخلافة بوجه صحيح إلا من جهتين : إما أن يكون ذلك الخليفة رسولا من الله أو رجلا يتبع الرسول فيما جاء به من الشرع والقانون من عند ربه »[1]

فالإمام واجب النصب وهو خليفة الله في أرضه ولا نتصور قيام تنظيم بشري خال من حاكم يرعى شؤونه « وهذا الكون الذي نعيش فيه ونتنفس لا يجري أمره من غير سلطان آمر، بل له ملك هو الحاكم المتصرف في شؤونه » [2] .

فالله حاكـــم الكون كله و الخليفة له حاكم بأمره فيما استخلف فيه لذا كان الخليفة أو الإمام هو المنفذ لأمر الله نيابة عن رسوله ﷺ في الحكـــم وهذا تشبيها بإمامـــة الصلاة لما روي عن عائشة – رضي الله عنها – أن النبي ﷺ قال « إنما جعل الإمـــام ليؤتمَ به فإذا ركع فاركعوا وإذا رفع فارفعوا وإذا صلى جالسا فصلوا جلوسا »[3].

فظهـــر ما للإمامة من عظيم المكانة في سيـــاسة الشعوب ، فالاتفاق قائم بين "الباطنية" و"الغـــزالي" ،حول وجوب نصب الإمـــام وأهمية ذلك بالنسبة للأمـــة. لكن الاختلاف ما يزال قائما حول أصل ذلك الـــوجوب وعلته ، و أدلته . و ما يترتب عن ذلك من ضروب الغلو والمغـــالاة . الأمـــر الذي أخرج مســـألة الإمامة عن حقيقتها، و أدى إلى ظهور البدع فيها ، فزيد

1 – أبو الأعلى المودودي ، منهاج الانقلاب الإسلامي ، دار الشهاب ، باتنة ، الجزائر[د ط] ، [د ت] ، ص **15** ، **16**

2 – أبو الأعلى المودودي، منهاج الانقلاب الإسلامي ، ص**40**

3 – البخاري ، صحيح البخاري ، ج**1**، ص **181**

في الأركـــان أو حذف من شروطهـــا كل ذلك تماشيا مـــع الأهـــواء و الميول و متطلبات الحكـــام ، فصارت فتنتها أعظم من نفعها و خطرها أشد وطأة من الدور المنوط بها.كما ظهر ذلك في عهد الباطنية و الغزالي من فتن الاقتتال بسببها.

و من خلال استعـــراض تصور كل من التيـــار الشيعي الماثل في الباطنيـــة كنموذج بارز في هذا التيـــار العريق ، و التيـــار السني المتمثل في آراء الإمـــام " الغزالي" حول مسألة الإمامة وتداعياتها ، كشفنا عن المفهـــوم الذي يعطيه كل منهما لها مبرزين أهم المســـائل الخلافية بينهما تلك القضايا التي بـــاعدت بين المذهبـــين الشيعي و السني ، محـــاولين إدراك الأسباب التي تتستر وراء ذلك و التي تركت العـــالم الإسلامي غارقـــا في خلافاته السياسية ، التي ما تكاد تخمد حتى تندلع من جديـــد بشكل أكثر عنفا و دموية . و من ناحية أخـــرى أردنا الوقوف على أبرز الأفكـــار التي من شأنها التقريب بينهما لإخراج العالم الإسلامي من صراعه الطويل و القاتل حول الحكـــم و اعتلاء عرش الإمـــامة .

مما جعل الإمـــامة تخرج عن أهدافهـــا السامية و مهامها النبيلة، لتولد الأحقاد و الضغينة وتجلب الفتن و القـــلاقل. فنفر منهـــا الخلق و لم يبالوا بمن يتولاها و لا بشروطه ، ما دام الاعتقـــاد الســـائد اليوم أنها لم تعد قادرة على تلبية متطلبات الأفـــراد ، و لا حريصة على التوفيق بين مصالح الديـــن و الدنيا. بل صارت وسيلة لتحقيق مآرب شخصية ، ظاهـــرها الصلاح و المصلحة العامة وباطنها مشوب بالمكر و الخداع. و قلما تتحقق تلك الإمامة الراشدة التي شرعت لنظام الحكم الإسلامي العـــادل كما أوصى الرسول ﷺ .

و ما تزال للإمـــامة امتداداتها في كـــل عصر ،كما في الماضي ، رغم أنها لم تعد الشغل الشاغل للفقهـــاء والمفكرين ، بل تم التنظير لها و وضعت قوانين تقيد سلطة الإمـــام الذي صار لقبه " الخليفة و الحاكـــم والملك ، الرئيس .." أكثر شيوعـــا من وصفه بالإمـــام . كما ظهرت الدساتير و نظمت عملية اختيـــار الحاكـــم و نصبه ، و فصلت و قسمت السلطات ، حتى أن الرعية يتولـــون شؤونهم ،و يعبرون عن انشغالاتهم ، أو يتدخلون في تسيير النظام تطبيقا لمبدأ الشورى ، عن طريـــق المجالس النيابية و غيرهـــا.

في الوقت ذاته ما تزال بعض الشعوب العربية تعتمد مبدأ التوارث و النص ، و العهد بالإمامة للأبناء،فلم يتخلص العالم الإسلامي من تقاليده السياسية التي يتم توارثهـــا في الأعقاب،كما حال بعض دول الخليج، التي تنتشر فيها العقائد الشيعية .. و حتى تلك التي لا محل فيها للشيعة تعتمـــد التوارث، و تخل بشروط الإمامة و تجعلها حقا متوارثا..

و في الختام نستنتج أن مسألة الإمامـــة اكتست من الأهمية ما جعل أغلب الآراء السياسية للمسلميـــن تدور حولها، فجادت القرائح فيها بما استوجب ذلك، و انقسم المسلمون إزاءها طوائف و فـــرق، منها المغالية و منهـــا المعتلة، و منها المجددة المبدعة أو المقلدة المتبعة...فثارت الفتن لأجلهـــا و تسابق الخلق لبلوغهـــا طمعا في الرياسة، و إرضاءا لشهـــوة الملك . و انعكس الخلاف و الصراع السياسي على الفكر من جميع جوانبه، فكان لمسألة الإمامة إسهام كبير فيما حققه المسلمون من تراث فكري و فلسفي، فلا يمكن إنكار أثرها ، أو استبعاد تأثيراتها.

فهرس الأيات القرآنية

فهرس الآيات

الصفحة	رقم الآية	السورة	الآيـــــــــة
84-09	124	البقرة	قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً
09	72-73	الأنبياء	وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا
09	12	التوبة	فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ
10 -16	74	الفرقان	وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً
13	55	النور	وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ
13-16-18	165	الأنعام	وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ
13-18	26	ص	يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ
13-16-18	30	البقرة	وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً
18-70-178	59	النساء	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ
21-182-204	38	الشورى	وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ
22-182-193	159	آل عمران	وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ
32	159	الأنعام	إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ
42-129	13	الحديد	يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ
49	33	الأحزاب	إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً
50	23	الشورى	قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى
72-211	59	النساء	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ

إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ	الرعد	07	72
ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ	البقرة	02	72
يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ	المائدة	67	76
قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ	يوسف	32	81
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ	الحجرات	01	86
وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ	المائدة	47	86
وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ	الأنفال	46	86
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ	المائدة	101	248-87
لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً	الطلاق	07	87
اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ	الشورى	19	87
قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ	غافر	11	94
إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ	القصص	85	94
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ	البقرة	243	94
أَوْ كَالَّـذِي مَرَّ عَلَى قَــرْيَةٍ وَهِيَ خَــاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَــالَ أَنَّىَ يُحْيِــي هَــَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَــامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ	البقرة	259	94

وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ	الزخرف	28	-108-104 110
تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ	البقرة	253	105
إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ	آل عمران	34-33	109-107
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً	الفرقان	35	114
وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ	الأنعام	98	117
هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ	آل عمران	07	-126-125 253
مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً	الجمعة	05	128
وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ	الحجر	99	128
هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ	الأعراف	53	131
وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ	الأنعام	120	133
قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ	الأعراف	33	133
ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً	الفجر	28	140
كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ	النساء	56	141
إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ	النصر	01	149

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ	آل عمران	**110**	**149**
وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ	المائدة	**27**	**178**
قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ	هود	**46**	**178**
وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً	النساء	**69**	**197**
إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ	النحل	**90**	**199**
وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ	النساء	**58**	**199**
يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ	المجادلة	**11**	**203-199**
قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَاب	الزمر	**09**	**199**
إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء	فاطر	**28**	**199**
أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ	البقرة	**44**	**208**
إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ	يوسف	**31**	**209**
وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خاصة	الأنفال	**25**	**211**
وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ	الممتحنة	**12**	**215**
قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء	آل عمران	**26**	**221**
مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً النبيين	الأحزاب	**40**	**224-223**

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ	البقرة	170	227
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ	المائدة	104	228
وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ	آل عمران	187	150–228
يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ	المائدة	67	228
كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ	الروم	32	236
فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ	الأعراف	19	243
رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ	النور	37	245
وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً	الإسراء	85	252–251
فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ	الحشر	02	255
إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ	آل عمران	190	255
يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ	البقرة	185	259
إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً	الشرح	06	259
إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ	الأعراف	201	261

فهرس الآحاديث

فهرس الأحاديث النبوية

الحديث	الرواة	الصفحة
إن الأئمة من قريش و الناس برهم تبع لبرهم و فاجرهم تبع لفاجرهم	ابن حزم ، الإحكام	13
كان النبي إذا سافر يقول : اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل	أبو داوود	15
من جهز غازيا فقد غزا و من خلفه في أهله بخير فقد غزا	أبو داوود	13
من مات و ليس في عنقه بيعة إمام مات ميتة جاهلية من خلع يدا (من طاعة إمام) لقي الله تعالى يوم القيامة ولا حجة له، و من مات و ليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية	مسلم و أحمد	18 218
اللهم أنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن ليس دونك شيء	أبو داوود	40
علي مني بمنزلة هارون من موسى أنت مني و أنا منك	صحيح عند البخاري وغيره	43 50- 105
لولا أن يقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم لقلت فيك اليم مقالات لا تمر على ملأ من المسلمين إلا أخذوا من تراب رجليك و..لكن حسبك أن تكون مني و أنا منك ترثني و أرثك و أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي"	لا أثر له ،موضوع	78
إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله و عترتي و إنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض ألم أترك فيكم القرآن و عترتي..	صحيح ، النسائي والحاكم	43-50
و الذي نفسي بيده لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم لله و لرسوله	صحيح ، أكده الترمذي	50
و الذي...حتى يحبكم لله و لقرابتي	ضعيف ، من جامع السيوطي	50
لأعطين الراية غدا رجلا يفتح الله على يده ...حمر النعم	صحيح أورده البخاري	50

من كنت مولاه فعلي مولاه	**البخاري**	**71**
من يبايعني على روحه وهو وصي وولي هذا الأمر من بعدى؟ فلم يبايعه إلا علي	**البخاري**	**72**
إنه ليغان على قلبي و إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة	**متفق عليه**	**81**
لن يبرح الناس يســـألون حتى يقولوا هذا الله خالق كل شيء فـــمن خلق الله	**البخاري**	**87**
أيها الناس خذوها من خاتم النبيين إنه يموت من مات منا وليس بميت و يبلى من بلى منا و ليس ببال	**لا أثر له موضوع**	**95**
أنا و علي من نور واحد	**لا أثر له ،موضوع**	**111**
لولا أن يقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم لقلت فيك اليوم مقالات لا تمر على ملأ من المسلمين إلا أخذوا من تراب رجليك وفضل طهورك يستشفون به ولكن حسبك أن تكون مني وأنا منك ..	**ضعيف لا إسناد له**	**111**
أرسل علي مع كافة الأنبياء سرا و أرسل معي جهرا	**لا أثر له ،موضوع**	**111**
أنت أخي و وصيي ووارثي ووزيري و قاضي ديني	**السلسلة الضعيفة**	**113**
طوبى لمن رآني أو رأى من رآني أو رأى من رأى من رآني	**حسن**	**133**
أسكن أحد ، فليس عليك إلا شهيدان و صدّيق	**صحيح أورده البخاري**	**152**
إن من أمنِّ الناس عليّا في صحبته و ماله أبا بكر . و لو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر ، و لكن أخوة الإسلام و مودته لا يبقين في المسجد باب إلا سُدّ، إلاّ باب أبي بكر. لو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر لكن أخي و صاحبي	**متفق على صحته وأورده البخاري**	**152**
خلقت أنا وعلي من نور وكنّا عن يمن العرش قبل أن يخلق آدم بألفي عام ، ثم خلق الله آدم فانقلبنا في أصلاب الرجال ثم...فالله محمود و أنا محمد والله الأعلى وعلي عليّ	**لا أثر له ، موضوع**	**153**
صلّى عليّا الملائكة و على علي بن أبي طالب سبع سنين و لم يصعد و لم ترفع شهادة أن لا إله إلا الله من الأرض إلى	**لا أثر له ، موضوع**	**153**

السماء إلا مني ومن علي بن أبي طالب		
رفع القلم عن ثلاث عن النائم حتى يستيقظ. و عن المجنون حتى يعقل و عن الصبي حتى يحتلم	أبو داوود	150
لعن الله قوما تقودهم امرأة	ضعيف و منكر	184
الأئمة من قريش	صحيح ، رواية متواترة عن أنس بن مالك	192–184
قدّموا قريشا و لا تقدّموها	متفق على صحته	185
إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبّه الله في النار	صحيح البخاري	187
لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان	صحيح البخاري	187
لا تجتمع أمتي على ضلالة"	ضعيف بهذا اللفظ	190
إني لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة إنه ليغان على قلبي حتى إني لأستغفر الله تعالى في كل يوم مائة مرة	صحيحة أوردها بن ماجة وأبو داوود	196
عدل السلطان يوما واحدا أحب إلى الله من عبادة سبعين سنة	السلسلة الضعيفة	198
أحب الناس إلى الله تعالى و أقربهم إليه لا السلطان العادل و أبغضهم إليه و أبعدهم منه السلطان الجائر	السلسلة الضعيفة	198
من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين	متفق على صحته	200
فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم فصل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وأن العلماء ورثة الأنبياء و أن الأنبياء لم يرثوا دينارا واحدا و لا درهما و إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر	الترمذي رواه أبو داود و الترمذي وبن ماجه	200
أشدّ الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه	ابن قدامه المقدسي	201
من تعلّم علما يبتغي به وجه الله – عزّ وجل- لا يتعلمه إلا ليصيب به عرض من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة	الدرامي	201
من تعلم العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه فهو في النار	الدرامي	201

إياكم و مواقف الفتن؟ قيل و ما هي؟قال :أبواب الأمراء يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب و يقول ما ليس فيه	استند إليه الغزالي	201
الدين النصيحة الدين النصيحة " قلنا : لمن؟ قال :لله و لكتبه و لرسله و لأئمة المسلمين و عامتهم	مسلم	215-202
لا تزال هذه الأمة تحت يدي الله و كنفه ما لم يمالئ قرّاؤها أمراؤها	الغزالي	202
خيار الأمراء الذين يأتون العلماء	الغزالي	205
"التقوى ها هنا	أورده مسلم و أحمد والترمذي	208
"من كره من أميره شيئا فليصبر فإنه من خرج عن السلطان شبرا مات ميتة جاهلية"	متفق عليه ، أورده البخاري و مسلم	211
إنكم سترون بعدي أثرة و أمورا تكرهونها .قالوا :فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال : أدّوا إليهم حقهم و سلوا الله حقكم	متفق عليه أورده البخاري و مسلم الترمذي و أحمد	212-211
حديث الرسول(ص) مع حذيفة بن اليمان عن الواجب فعله إذا ما تزايدت الفتن قال له" تلزم جماعة المسلمين و إمامهم"قال حذيفة"فإن لم تكن جماعة و لا إمام؟" قال (ص) "فاعتزل تلك الفرق كلها، و لو أن تعضّ بأصل شجرة حتّى يدركك الموت و أنت على ذلك	البخاري	212
من أطاعني فقد أطاع الله و من عصاني فقد عصى الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ، و من عصى أميري فقد عصاني	البخاري	217-212
اسمعوا و أطيعوا و إن استعمل عليكم عبد حبشي كان رأسه زبيبة	متفق عليه و أورده البخاري	217-212
السمع و الطاعة على المرء المسلم فيما أحب و كره ما لم يأمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع و لا طاعة	متفق عليه و ذكره البخاري	215-213
نما الطاعة في المعروف لا طاعة في معصية الله إنما الطاعة في المعروف	البخاري متفق عليه	213 215

ما من عبد استرعاه الله رعية فلم يحطها بنصيحة ، لم يجد رائحة الجنة	مسلم و الدرامي	213
ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت و هو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة	حسن عند البخاري ومسلم و الدرامي	213
من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر فإنه ليس أحد يفارق الجماعة فيموت إلا ميتة جاهلية	البخاري	214
من أهان السلطان أهانه الله	الترمذي	215
اسمعوا و أطيعوا فإنما عليهم ما حملوا و عليكم ما حملتم	مسلم	215
أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر	النسائي و أحمد	216
من أتاكم و أمركم على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه	أحمد بن تيمية	218
سيليكم بعدي ولاة فيليكم البر ببره و يليكم الفاجر بفجوره فاسمعوا لهم و أطيعوا في كل ما وافق الحق، فإن أحسنوا فلكم و لهم ، و إن أساؤوا فلكم و عليهم	رواه أحمد	218
ستفترق أمتي نيفا (ثلاثا)و سبعينا فرقة ، الناجية منها واحدة. قيل: من هم؟ فقال : أهل السنة والجماعة. فقيل: و ما السنة و الجماعة ؟ قال :ما أنا الآن عليه وأصحابي	الترمذي، و أبو داود	235
ككل مولود يولد على الفطرة	متفق عليه و ذكره البخاري	239
من اجتهد و أخطأ فله أجر ومن اجتهد وأصاب فله أجران عن عمر بن العاص قال: سمعت رسول الله (ص) يقول : إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد و أخطأ فله أجر من اجتهد و أصاب فله أجران ومن اجتهد وأخطأ فله أجران	متفق عليه ذكره البخاري و مسلم والنسائي وأحمد .. وغيرهم من الرواة	254 255 259-258
سأل الرسول (ص) مع معاذ بن جبل لما بعثه لتولي منصب القضاء باليمن	الترمذي و أحمد	259-255
إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها	أبو داود	264

فهرس المصادر والمراجع

المصادر و المراجع

أولا: المصادر

أ – القرآن الكريم

ب – الحديث النبوي

مؤلفات أبو حامد الغزالي

-إحياء علوم الدين ، دار السلام للطباعة و النشر و التوزيع و الترجمة،القاهرة مصر ، ط 2 ، 2005

-الاقتصاد في الاعتقاد ،دار الأمانة ، بيروت لبنان ،ط 1 ،1969

-إلجام العوام عن علم الكلام ،دار الكتب العلمية، بيروت لبنان،[د ط]،[د ت]

-الرسالة الوعظية ،دار الكتب العلمية، بيروت لبنان،[د ط]، [د ت]

-روضة الطالبين و عمدة السالكين ،دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، [د ط]، [د ت]

-سر العالمين و كشف ما بين الدارين، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، [د ط] ، [د ت]

-فضائح الباطنية، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة، [د ط]، 1964

-فضائل الأنام من رسائل حجة الإسلام الغزالي، ترجمه ا عن الفارسية نور الدين آل علي، الدا ر التونسية للنشر، د ط، 1972

-فيصل التفرقة بين الإسلام و الزندقة ،دار الكتب العلمية، بيروت لبنان [د ط] [د ت]

-قانون التأويل ،دار الكتب العلمية، بيروت لبنان،[د ط]، [د ت]

-القسطاس المستقيم، دار المشرق ، بيروت لبنان،ط 3، 1991.

-قواعد العقائد في التوحيد، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ،[د ط] ، [د ت]

-معراج السالكين ، دار الكتب العلمية،بيروت لبنان ،، ط 1، 1994

-مكاشفة القلوب ،المكتبة العصرية ، صيدا بيروت ، [د ط]،2005

-المنقذ من الضلال، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، [د ط] ، 1997

-ميزان العمل ،دار المعارف بمصر ،ط1، 1964

مؤلفات شيعيـــة

-أبو نصر الفارابي : السياسة المدنية ، دار المشرق ، بيروت لبنان، ط1،1993

-أبو يعقوب السجستاني : إثبات النبؤات ، دار المشرق ، بيروت لبنان ، ط1، 1982

-إخوان الصفاء : رسائل إخوان الصفاء ، موفم للنشر ، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، وحدة الرغاية ، الجزائر [د ط] 1992

-حسن كاشف آل غطاء :أصل الشيعة وأصولهم، منشورات المكتبة الحيدرية بالنجف ط **14**،1965

-عبد الحسن دستغيب: النبوة ، ترجمة أحمد القبانجي ، دار التعارف للمطبوعات ،[د ط] 1988

-عبدان قرمط : شجرة اليقين، تحقيق عارف تامر، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت،ط1، 1982
-علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، مراجعة وتحقيق محمد عبده ، دار الجيل بيروت لبنان [د ط] [د ت]

ثانيا: المراجع

أ-المراجع بالعربية

-إبراهيم مذكور: في الفلسفة الإسلامية، منهج وتطبيقه ، دار المعارف القاهرة مصر،[د ط] [د ت]
-ابن قدامه المقدسي : مختصر منهج القاصدين ،الشركة الجزائرية اللبنانية، ط 1، 2006
-أبو الأعلى المودودي : منهاج الانقلاب الإسلامي ، دار الشهاب ، باتنة الجزائر ،[د ط]،[د ت]
-أبو الحسن الأشعري : مقالات الإسلاميين و اختلاف المصلين ، مكتبة النهضة المصرية ،ط 2 ،1969
-أبو الفتح الشهرستاني : الملل و النحل ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة مصر، [د ط]،[د ت]
-أبو بكر جابر الجزائري : منهاج المسلم ، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع ، بيروت لبنان ط1، 2003
-أجناس جولد تسيهر : العقيدة و الشريعة في الإسلام ، ترجمة : محمد يوسف موسى،علي حسن عبد القادر ، عبد العزيز عبد الحق ، مطابع دار الكتاب العربي ، مصر ، ط 2، [د ت]
-أحمد أمين : ضحى الإسلام ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، ط1 ، 2005
-أحمد بن تيمية : الخلافة والملك ، شركة الشهاب للنشر و التوزيع ، الجزائر ،[د ط] ، [د ت]
-أحمد بن تيمية : السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ، دار الجيل ،بيروت لبنان ،ط 1 ،1993
-أحمد بن تيمية : النبوات ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، [د ط] ، 2005
-أحمد بن تيمية: منهاج السنة النبوية، في نقض كلام الشيعة القدرية،مكتبة المعارف،المغرب ط 1، 1998
-أحمد توفيق عياد :التصوف الإسلامي ، تاريخه و مدارسه و طبيعته و أثره، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة مصر ،[د ط] ، [د ت]
-أحمد عبد المهيمن : إشكالية التأويل بين كل من الغزالي و بن رشد ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية ، مصر ، ط1 ، 2001
-أحمد فروخ : المنهاج الجديد ، الفلسفة العربية ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ، ط1، 1970
-أحمد محمود صبحي : في علم الكلام "الأشاعرة"، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت لبنان ط 5 ، 1985

-أحمد محمود صبحي : في علم الكلام "الزيدية" ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت لبنان ط،3، 1991
-إسماعيل بن كثير : تفسير القرآن العظيم ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان، ط1، 1985.
-إسماعيل زروخي : الدولة في الفكر العربي الحديث ، دار الفجر ، للنشر والتوزيع ، القاهرة مصر، ط1 ، 1999
-البخاري : صحيح البخاري ،دار الفجر للتراث ، القاهرة مصر ،[د ط] ، 2005
-ت.ج. دي بور : تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ،بيروت لبنان ،ط 5 ، 1981
-جلال محمد عبد الحميد موسى : نشأة الأشعرية و تطورها ، دار الكتاب اللبناني ، [د ط] 1982
-جميل صليبا : تاريخ الفلسفة العربية ، الشركة العالمية للكتاب ، ط 3 ، 1995
-حسين مروة : النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ، دار الفارابي ، بيروت لبنان ط 7 ، 1985
-حنا الفاخوري، وخليل الجر: تاريخ الفكر الفلسفي عند العرب ، مكتبة لبنان، الشرك ة المصرية العالمية للنشر، لو نجمان، القاهرة ، ط1، 2002
-ديلاسي أوليري : معالم الفكر العربي و مكانته في التاريخ ، ترجمة: تمام حسان، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة و الطباعة و النشر ، مصر، [د ط] ، [د ت]
-راشد لبراوي : قادة الفكر الإسلامي في ضوء الفكر الحديث ، مكتبة النهضة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة مصر ، ط1 ، 1969
-رفيق العجم : الأصول الإسلامية ، منهجها و أبعادها ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ، ط1 ، 1983
-زكي محمد عدل الدين سالم : الإنسان في فلسفة الغزالي و تصوفه، دار الفكر العربي ، القاهرة مصر [د ط]،[د ت]
-سليمان دنيا : الحقيقة في نظر الغزالي ، قيطار المعارف بمصر، ط 3، 1971
-سليمان مظهر : قصة الديانات ، مكتبة مدبولي ، مصر ط 2 ، 2002
-الشاطبي : الموافقات في أصول الأحكام ، دار الفكر للطباعة و النشر والتوزيع [د ط] ، [د ت]
-صبري خدمتلي : العقيدة و الفرق الإسلامية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون ، الجزائر [د ط] 1994
-عارف ثامر : إخوان الصفاء وخلان الوفاء ، منشورات المطبعة الكاثوليكية ، بيروت لبنان، ط2
-عارف ثامر : القرامطة ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت لبنان ، [د ط] ، [د ت]

-عاطف سلام: الوحدة العقائدية عند السنة و الشيعة ، دار البلاغة للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت لبنان ، ط1 ، 1987

-عبد الجبار المعتزلي : شرح الأصول الخمسة ، موفم للنشر، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، وحدة الرغاية الجزائر،[د ط] 1990

-عبد الجليل بن عبد الكريم سالم : التأويل عند الغزالي ، المطبعة العصرية ، تونس ، ط1، 2000

-عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة المسماة ديوان المبتدأ والخبر، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، ط1، 2004

-عبد العزيز الثعالبي : محاضرات في التفكير الإسلامي و الفلسفة ، دار الغرب الإسلامي ،ط 1، 1991

-عبد الفتاح أحمد فؤاد : الفرق الإسلامية و أصولها الإيمانية ، دار الوفاء ، لدنيا الطباعة و النشر ، الإسكندرية ، مصر ، [د ط] ، [د ت]

-عبد القاهر البغدادي : أصول الدين، مطبعة الدولة ، استانبول ، ط1، 1982

-عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ، دار المعرفة ، للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت لبنان،ط3 ، 2001

-عبد الله محمد الفلاحي: نقد العقل بين الغزالي وكان ط ، المؤسسة الجامعية للدراسات والطباعة والنشر ط1 ، 2003

-عبد الله نعمه: فلاسفة الشيعة ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت لبنان، [د ط] ، 1930

-عبد المتعال الصعيدي : القضايا الكبرى في الإسلام ، دار أشريفة ، للطباعة و النشر و التوزيع بوزريعة الجزائر ،[د ط] [د ت]

-عبد المجيد تركي : مناظرات في أصول الشريعة الإسلامية ، بين بن حزم و الباجي ، ترجمة وتحقيق : عبد الصبور شاهين ، دار الغرب الإسلامي ،بيروت لبنان ، ط1 ،1986

-عبد المحسن عاطف سلام : حيوات العرب ، الشركة القومية للتوزيع ، ط1، 1968

-عصام محمد شيبارو : السلاطين في المشرق العربي، المماليك، دار النهضة العربية بيروت لبنان [د ط] 1994

-علي بن أبي طالب ، نهج البلاغة ، مراجعة و تحقيق محمد عبده ، ج1، دار الجيل ، بيروت لبنان ، ص 30

-علي حسن الخربوطلي : الإسلام و الخلافة ،دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت لبنان [د ط]،1969

-علي سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ،نشأة التشيع وتطوره، دار المعارف،ط 4 ، 1969

-علي عبد الفتاح المغربي : الفكر الديني الشرقي القديم ، و موقف المتكلمين ، مكتبة وهبة ، القاهرة مصر ، ط1 ، 1996

-كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة : نبيه فارس ،منير البعلبكي ، دار العلم للملايين بيروت لبنان ، ط10، 1984

-كامل حمود : دراسات في الفلسفة العربية ، دار الفكر اللبناني ، بيروت لبنان ،[د ط] ، 1991

-كامل مصطفى الشيبي : الصلة بين التصوف والتشيع ، دار المعارف ، القاهرة مصر، ط2 ،[د ت]

-كمال اليازجي : معالم الفكر العربي ، دار العلم للملايين بيروت لبنان ،[د ط] ، [د ت]

-لطفي جمعة : تاريخ فلاسفة الإسلام ، [د ط] ، [د ت]

-الماوردي : الأحكام السلطانية ، دار الكتاب العربية ، بيروت لبنان ، ط3، 1999

-محب الدين الخطيب : الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الإثني عشرية ، مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة،[د ط]،1401 هـ 1980م

-محسن عبد الحميد : حقيقة البابية و البهائية ، منشورات المكتب الإسلامي ، ط1 ، 1999

-محسن عبد الناظر : مسألة الإمامة و الوضع في الحديث عند الفرق الإسلامية ، الدار العربية للكتاب [د ط] ، 1983

-محمد إبراهيم الفيومي : الإمام الغزالي وعلاقة اليقين بالعقل، دار الفكر العربي، القاهرة مصر[د ط] [د ت]

-محمد أبو زهرة : الإمام بن حزم ، دار الفكر العربي ، القاهرة مصر ، [د ط] ، [د ت]

-محمد أبو زهرة : الوحدة الإسلامية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، مصر ، [د ط] ، [د ت]

-محمد أبو زهره : تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة و العقائد و تاريخ المذاهب الفقهية ، دار الفكر العربي ، بيروت لبنان ، [د ط] [د ت]

-محمد أحمد الخطيب : الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ، دار عالم الكتب للنشر و التوزيع ، الرياض ، السعودية ، ط2، 1986

-محمد السيد رضا : الخلافة ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة مصر ، ط2، 1988

-محمد الطاهر النيفري : أهم الفرق الإسلامية ، نشر الشركة التونسية ، [د ط]،1974

-محمد أمين بدوي : الشيعة و نشاطهم السياسي في العصر الأموي، مطبعة الجبلاوي القاهرة مصر،ط1، 1985

-محمد بن الحسن الديلمي : بيان مذهب الباطنية وبطلانه ، مطبعة الدولة استانبول [د ط] 1938

-محمد جلال سرور : الحياة السياسية في الدول العربية الإسلامية خلال القرنين الأول و الثاني بعد الهجرة ، دار الثقافة العربية ، للطباعة ، مصر ،[د ط] ، 1960

-محمد جلال شرف : دراسات في التصوف الإسلامي،دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ،[د ط]، 1984

-محمد جلال شرف : نشأة الفكر السياسي و تطوره في الإسلام ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ط2 ، 1990

-محمد رضا : الإمام علي بن أبي طالب

-محمد سعيد العشماوي : جوهر الإسلام ، الوطن العربي ، بيروت لبنان ، ط1 ، 1984

-محمد صبحي الصالح :النظم الإسلامية نشأتها و تطورها، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان، ط 1، 1965

-محمد عزيز نظمي سالم : جدلية التاريخ و الحضارة ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، مصر ، [د ط] 1996

-محمد علي أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت لبنان ،ط2،

-محمد كامل حسين : طائفة الإسماعيلية ، تاريخها نظمها أصلها وعقائدها ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة مصر ، ط1، 1959

-محمد كامل ليلة : النظم السياسية ، الدولة والحكومة ، دار النهضة العربية، بيروت لبنان [د ط] 1969

-محمد محدة : مختصر علم أصول الفكه الإسلامي ، شركة الشهاب الجزائر ،ط4 ، 1990

-محمد يوسف موسى: بين الدين و الفلسفة في رأي ابن رشد وفلاسفة العصر الوسيط، العص ر الحديث للنشر و التوزيع، بيروت لبنان، ط 2 ، 1988

-مصطفى النشار : فلاسفة أيقظوا العالم ، دار الثقافة للنشر و التوزيع ، القاهرة مصر [د ط] ، 1988

-مصطفى حلمي :نظام الخلافة بين أهل السنة و الشيعة ، دار الدعوة للطبع و النشر و التوزيع الإسكندرية مصر ، ط1، 1988

-مصطفى غالب : الحركات الباطنية في الإسلام ، دار الكاتب العربي ، بيروت لبنان ، [د ط][د ت]

-نور الدين حاروش : تاريخ الفكر السياسي ، دار الأمة للطباعة و النشر ، و التوزيع ، برج الكيفان الجزائر، ط1 ، 2004

-هنري سيرويا : فلسفة الفكر الإسلامي ، ترجمة : محمد إبراهيم ، دار الثقافة العربية للطباعة و النشر القاهرة مصر ، [د ط] ، 1961

-هنري كوريان : تاريخ الفلسفة الإسلامية ، ترجمة : نصير مروة ، وحسن قبسي ، عويدات للنشر والطباعة، بيروت لبنان، ط 1 ،2004
-الوليد بن رشد: فصل المقال و تقرير ما بين الشريعة و الحكمة من اتصال، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت لبنان، [د ط]، [د ت].
-يحي هويدي : تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية ، مكتبة النهضة المصرية [د ط]،[د ت]

ب-المراجع بالفرنسية:

111-Mohamed -Ali Amir -Moezzi Christian Jambet:Qu' est-ce que Le shiisme ? librairie Arthème Fayard, 2004.

112-Philippe Lannois. L'orient désoriente. Etudes vivantes Paris – Montréal . 1980

ثالثا: الموسوعات و المعاجم

-ابن منظور: لسان العرب، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان ، ط3، 1999
-إسماعيل بن حماد الجوهري : الصحاح تاريخ اللغة و صحاح العربية ، دار العلم للملايين بيروت لبنان ط 4 ،1990
-أندري لالاند : الموسوعة الفلسفية ، ترجمة : خليل أحمد خليل، منشورات عويدات بيروت ، باريس ط2 ، 2001
-حسين علي حمد : قاموس المذاهب و الأديان ، دار الجيل ، بيروت لبنان ، ط1، 1998
-سميح دغيم: موسوعة مصطلحات علم الكلام، مكتبةلبنان، ط 1، 1998
-عبد المنعم الحفني : المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة ، مكتبة مدبولي ، القاهرة مصر ، ط 3 ، 2000
-فرج الله عبد الباري : موسوعة العقيدة و الأديان ،الاختراق اليهودي للمجتمعات الإسلامية، دار الأفاق العربية ،ط1 ، 2006
-الفيروز أبادي : قاموس المحيط ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط1 ، 1999
-كميل الحاج : الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي و الاجتماعي، مكتب ة لبنان، ناشرون، ط 1، 2000
-مجموعة من الباحثين : موسوعة الأديان في العالم ،الفرق الإسلامية ، دار كريبس أنترناسيونال ، بيروت لبنان ، [د ط] ، 2000
-محمد الشريف الجرجاني ، التعريفات ، مكتبة لبنان ، بيروت لبنان ، ط1 ، 1990

-ممدوح الزوبي : معجم الصوفية ، دار الجيل للنشر و الطباعة و التوزيع ، بيروت لبنان ، ط2004،1

رابعا: أعمال الملتقيات و الندوات:

– أعمال الملتقى الدولي "التفاهم بين المذاهب "، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى ، الجزائر، 2002

رابعا: المجلات

– مجلة دراسات فلسفية ، سلطة التأويل في الخطاب الرشدي، العدد الخامس ، نشرت بالجزائر، 1998،

خامسا : الرسائل

– عبد الحميد الخطيب:الغزالي بين الدين و الفلسفة ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر،[د ط]، 1986

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

ملخص الــبحث

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد ﷺ خاتم الأنبياء و المرسلين و على آله و صحبه أجمعين.. والحمد لله رب العالمين حمدا طيبا مباركا.

لا يفوتني في هذا الموضع أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من قدم لي يد العون و الدعم من قريب أو من بعيد و أخص بالذكر الأستاذ الفاضل " ساعد خميسي " الذي تولى مهمة تأطيري منهجيا و معرفيا ، و لم يبخل علي بالنصح و التوجيه طيلة دراستي لهذا الموضوع فله مني فائق التقدير و الامتنان.

دون أن أنسى أن أتوجه بالشكر العظيم إلى الأساتذة الذين وقفوا معي منذ بدايات البحث و قدموا لي التوجيـــه و النصح لا سيما الأساتذة : إسماعيل زروخي ، غيوة فريدة ، رشيد دحدوح بوقرن عبد الله و موسى معيرش... و غيرهم من زملائي لأعزاء .

كما يشرفني أن أتقدم بتحية خالصة إلى لجنة المناقشة بأعضائها الكرام على تفضلهم بقراءة مذكرة بحثي و قبول مناقشتها فلكم مني فائق التقدير.

لكل هؤلاء أقدم ملخص بحثي حول " مسألة الإمامة و تدعياتها العقدية بين الباطنية و الغزالي " راجية من المولى عز و جل كل التوفيق.

****

تعد الفلسفة السياسية من أهم المباحث التي خاض فيها فلاسفة الإسلام وأدلوا فيها بدلائهم وكانت لهم فيها رؤى و تصورات بارزة حاولت مسايرة تعاليم الدين الإسلامي الحنيف .وامتزج فيها الفقه بالفلسفة ، بل قد نبغ في مجال الفكر السياسي ثلة من علماء الإسلام و مفكريه .

و لقد دارت جُلّ النظريات السياسية للمسلمين حول مسألة " الإمامة " باعتبارها محور الصراع الفكري و المذهبي بينهم بعد وفاة النبي الكريم ﷺ . لكون أمر ولاية شؤون المسلمين وحكمهم من الضروريات التي ينبغي أن تراعى لحراسة الدين و الدنيا . فقد لقب خليفة المسلمين بالإمام و كانت له شروط و مزايا و مهام يؤديها و بناءا على ذلك يتم حصوله على منصب الإمامة.

حتى أن كثيرا من المؤرخين و الدارسين للفكر الإسلامي يرجعون ظهور الفتن إلى مشكلة الإمامة التي قسمت المسلمين إلى سُنّة و شيعة و زادت في الهـــوة السحيقة بينهما.

فكان لكـــل تيار مناصروه و علماؤه الذين دافعوا عن تصوره في مشكلة الإمامة. بل كانت السلطة القائمة تدعم التيار الذي تمثله و تغذيه ... و تتخذ من المفكرين دعاة لنصرة خلافتها القائمة و مذهبها في الإمامة .

لأجل ذلك ارتأيت أن يكون موضوع بحثي متمحورا حول مسألة الإمامة لإبراز مكانتها وأهميتها في الفكـــر السياسي بالنظر إلى ما أحدثته من تداعيات واضطرابات غيرت مجرى الأحداث السياسية في البيئة الإسلامية و زادت من حدة الصراع بين السنة و الشيعة .

فوقع اختياري على " فرقة الإسماعيلية الباطنية" كأشهر ممثل للتيار الشيعي هذه الطائفة التي كانت تنظر إلى الإمامة نظرة تقديس وتضفي على الأئمة صفات خاصة انفردت بها عن غيرها من سائر الفرق الأخرى و حتى الشيعة منها .

فالباطنية الإسماعيلية جعلت من النص أساسا لنصب الإمامة و قالت بخلود الأئمة و رأت أن الإمام معين بالنص الشرعي و أوجبت طاعته طاعة عمياء من قبل الأتباع.. إذ أن وجوب الإمامة هو وجوب عقلي.ودافعت عن رأيها بنصوص شرعية وباعتماد التأويل الباطني كل ذلك لتبرير تصورها للإمامة كعقيدة شيعية في الأصل.

و في مقابل فرقة الباطنية الشيعية تعرضت في بحثي إلى ألد أعدائها من التيار السنّـــي والمتمثل في شخص حجة الإسلام " أبا حامد الغزالي " الذي تصدّى لآرائها بشدة ووقف للرد عليها ، ولدحض آرائها المغالية – حسبه – فانتصر للتيار السنـــي وحدد مفهوما للإمامة يتفق مع ما تعارف عليه أهل السنة و الجماعة ، معتمدا في ذلك على الشرع والعقل ، بهدف الحفاظ على الشريعة وإيمان العوام من منظور مذهبه العقدي .

فكان الجدل بين الطرفين على أوّجه الأمر الذي أفرز آراء و معتقدات هامة كشفت عن ما بينهما من نقاط خلافية في جوانب شتى ، كان أشدها تعقيدا مسألة الإمامة . فكل فريق قد أصبغ عليها من مذهبه و توجه ما انفرد به عن غيره سواء من حيث مفهومها و حكمها و شروطها وحتى طريقة إنعقاد ونصبها ...

وما كان تركيزنا في هذا البحث على " فرقة الباطنية " و كذا " الغزالي " إلا لإبراز أثر الإمامة و دورها و إختلاف تصوراتها و ممارساتها بين السنة والشيعة خاصة و أن هذا الصراع حولها بين التيارين لم يخمد أبدا و يظهر في كل مرة بشكل أشد و أعمق.

وفي الأخير أسأل الله التوفيق و السداد في هذا المسعـــى حتى يكلل بالنجاح.

و لكل هؤلاء يشرفني أن أقدم ملخص بحثي حول " مسألة الإمامة و تداعياتها العقدية بين الباطنية و الغزالي " راجية من المولى –عز و جل– كل توفيق.

RAPPORT FINAL

Au nom de Dieu le clément et miséricordieux.

Grâce à Dieu , j ai pu terminer cet humble travail relevant de la recherche académique.

Mes remerciements à tous ceux qui ont contribue de prés ou de loin à la réalisation de ce projet .

En particulier au professeur encadreur Mr Saad KHEMISSI qui m'a apporte toute l'aide nécessaire dont j'avais besoin .

Mes remerciements aussi à tous les autres professeurs qui m'ont été d'une grande utilité : Ismail ZEROUKHI ,farida GHIOUA , Rachid DAHDOUH, Abdallah BOUGARNE et moussa MIRECHE ,

Mes remerciements à l'honorable commission chargée de la soutenance qui a supervise le travail et m'a autorisée à soutenir .

Enfin , je remercie tous mes collèges pour leur aide et leur sympathie

****

Les musulmans se sont beaucoup intéressés à la philosophie politique et l'ont marquée de leurs empreintes en émettant plusieurs réflexions compatibles avec les préceptes de l'islam .

Plusieurs savants musulmans (ulémas) ont brillé dans le domaine de la pensée politique . Les différentes théories politiques traitent du problème de (Al imama) qui est un sujet de divergence entre les divers es parties .

Le poste d'imam est tributaire d'un bon nombre de critères,de privilèges et autres rôles que le khalife doit exercer pour devenir imam Ces critères de choix autres modalités régissant le poste ou la fonction d'imam et surtout la durée , le mode de gestion des affaires des musulmans ,ne bénéficient pas de l'unanimité de tous .

Tout cela a provoqué la division des musulmans en groupes ,parties, communautés et autres fractions si bien que les choses se sont aggravées passant de l'affrontement verbal à l'affrontement par l'épée .

Beaucoup d'historiens et chercheurs qui se sont spécialisés dans la pensée islamique ,expliquent que la division des musulmans en chiites et sunnites est due au problème de la imama ,et chacun des deux camps essaye de défendre ses idées et positions en bénéficiant de l'aide du puvoir qui étais en place et en fonction des intérêts de ce dernier ,

Tout cela m'a motivé pour que mon projet de recherche porte sur le dogme de la imama et tout ce qu'elle a engendré comme polémiques ,divergences et affrontements .

J'ai choisi de travailler sur l'un des groupes qui forment le mouvement chiite et qui est le groupe d'El batinia Al ismailia qui voyait en la imama la sacralisation et permet à l'imam d'avoir des qualités spéciales qui distinguent ce groupe des autres .

Le mouvement d'Elbatinia alismailia a fait du texte sacré la base de la nomination de l'imam et parle de l'éternité des imams et que ces derniers qui sont nommés par le texte sacré doivent être obéis de manière aveugle par leurs partisans et défendent leur vision de la imama par des textes sacrés ;se basant sur le taàwil (l'interprétation) dans leur vision profonde du chiisme à propos du sujet de la imama

J'ai aussi présenté dans mon travail de recherche les positions des détracteurs de cette vision :Abou Hamed ALGHAZALI (sunnite) qui s'est opposé avec force à ces idées et a établi une nouvelle définition et une nouvelle conception de la imama acceptées par les sunnites et la djamaa afin de préserver la charia et la foi de tous .

Ces vives polémiques ont donné naissance à différents avis et croyances d'une très grande importance concernant le jugement , les conditions et autres critères qui règlent le déroulement de la imama.

Le but de mon travail ne consiste pas à exposer les divergences des uns et des autres mais à apporter toute la lumière sur la place et l'importance de la imama et son rôle dans les conflits et l'émiettement des musulmans,

Je prie Dieu de me venir en aide pour réussir dans mon travail .

AU NOM DE DIEU LE CLEMENT ET MESICORDIEUX

The report of the final expository

I thank God for helping me to finish this modest study. I m so grateful to all those who helped me and guide me during the the work .

My great thanks to my teachers "Saad khmissi" who advised me a lot and who enlightened me during my researches ,among them .

I name professors Zeroukhi Ismail ,Ghiwa Farida Dahdouh Rachid , Bouguern Abdellah and Moussa Maireche and others.

****

I dedicate this work to my friends who stood by my side in every difficult moment . Finally , my full gratitude is for the members of the commission who has accepted to control and discuss my study.

For all ,I present a short summary of my work entiled "The problem of Governance and the Call of Beliefs between the Battinia and Al Gahazali ".

Political philosophy is one of the major interest of Muslim writers . they had very important views .that went together with the teaching of Islam .our great religion .

There were important philosophers who had theories concerning governance and ruling in Islam .the rulers were also called the ; Imams .These were selected based on specific conditions and on the roles that they had .

The position of the "Imam" was also a major cause to conflict and differences which were so intense and ended sometimes in bloody acts .

Many historians and Islamic writers supposed the appearance of problems divided the Islamic empire into two parts "The Sunits" and " the Chiits" which separated the muslims into two completely different wings.

There were followers and scholars for each side who strongly defended their views concerning governance. I chose this topic of study to be a modest research on the beliefs in choosing the Imam and the causes of differences and conflicts.

The most famous defenders of the chiite wing "The Battinia Al Ismailia Group" which considered the Imam sacred and had alone special characteristics different from all the other chiite group .They believed the Imam must be obeyed blindly by its disciples basing their doctrine from some Islamic texts.

As opposed to this gourp , and one who fought the Chiite views strongly was "Abou Hamed Al ghazali " .He stated that governance should be a democratic process based on Islamic principles and being widely open to criticisim so that to protect the "Imam" from bad ruling and weakness.